تفسير القشيري

المسمى

لطائف الإشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلق عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الثالث

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة الناس

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsīr al-Qušayri
"Laṭā'f al-'išārāt"
(The exegesis of the Holy coran)
classification: Exegesis of the coran
Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Qušayri
Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: *Dar Al-Kotob Al-ilmiyah*
Pages: 1408 (3volumes)
Year: *2007*
Printed in: *Lebanon*
Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري
المسمى: لطائف الإشارات
التصنيف: تفسير قرآن
المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري
المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن
الناشر: دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الثانية

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)
ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)
90000
9 782745 128379

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**

Aramoun, al-Quebbah,	عرمون ، القبة
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.	مبنى دار الكتب العلمية
Tel : +961 5 804 810/11/12	هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
Fax:+961 5 804813	فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon	ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290	رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز شفيعُ المذنبين جودُه، بلاء المتهمين قصودُه، ضياء الموحِّدين عهوده. وسلوةُ المحزونين ذِكرُه، وحِرفةُ المُمتحنين شكرُه.

اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه، وجبّارٌ سناؤه بهاؤه، وبهاؤه علاؤه.

العابدون حَسْبُهم عطاؤه، والواجدون حسبُهم بقاؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾.

الإشارة في «الألف» إلى أنه أَلِفَ صُحْبتنَا مَنْ عَرف عظمتنا. وأنّه أَلف بلاءنا مَنْ عَرَفَ كبرياءنا.

والإشارة في «اللام» إلى أنه لزمَ بابنا مَنْ ذاق محابّنا، ولزمَ بساطنَا مَنْ شهد جمالنَا.

والإشارة في «الميم» إلى أَنه مُكِّنَ منْ قُرْبنَا مَنْ قام على خدمتنا، ومات على وفائنا مَنْ تحقق بولائنا.

قوله ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾: سُرّ المسلمون بظفر الروم على العجم ـ وإن كان الكفر يجمعهم ـ إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء، فشكر الله لهم، وأنزل فيهم الآية.. فكيف بمن يكون سروره لدين الله، وحُزنُه واهتمامه لدين الله؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قَبْلُ﴾ إذا أُطْلق انتظم الأزل، «وبَعْدُ» إذا أطلق دلّ على الأبد؛ فالمعنى الأمر الأزليُّ لله، والأمر الأبديُّ لله، لأنَّ الرَّبَّ الأزليّ والسَّيِّدَ الأبديّ اللَّهُ.

لله الأمرُ يومَ العرفان، ولله الأمرُ يومَ الغفران.

لله الأمرُ حين القسمة ولا حين، ولله الأمرُ عند النعمة وليس أي معين.

ويقال: لي الأمرُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وقد علمتُ ما تفعلون، فلا يمنعني أحدٌ من تحقيق

عرفانكم، ولي الأمر ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ وقد رأيتُ ما فعلتم، فلا يمنعني أحدٌ من غفرانكم.

وقيل: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ﴾ بتحقيق ودُكم، والله الأمر من بعد بحفظ عهدكم:

إني ـ على جفواتها ـ وبربِّها وبكلِّ مُتصل بها مُتوسلِ

﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾:

اليومَ إرجافُ السرور وإنما يومَ اللِّقاء حقيقةُ الإرجاف

اليومَ ترحٌ وغداً فرح، اليوم عَبرة وغداً حَبرة، اليوم أسف وغداً لطف، اليوم بكاء وغداً لقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لا سيما والصدقُ نعته.

يقول المؤمنون: مِنا يومَ الميثاق وعدٌ بالطاعة، ومنه ذلك اليومَ وعدٌ بالجنة، فإن وَقع في وعدنا تقصيرٌ لا يقع في وعده قُصورٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

استغراقُهم في الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم في تعليق القلب بها.. مَنَعَهم عن العلم بالآخرة. وقيمةُ كلِّ امرىءٍ عِلمه بالله؛ ففي الأثر عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال؛ أهل الدنيا عَلَى غفلةٍ من الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها في غفلة عن الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾.

إنَّ مَنْ نَظَرَ حقَّ النظر، ووَضَعَ النظر موضعَه أثمر له العلم واجباً، فإذا استبصر بنور اليقين أحكامَ الغائبات، وعَلِمَ موعوده الصادق في المستأنف ـ نجا عن كَدِّ التردد والتجويز فسبيلُ مَنْ صحا عقلُه ألا يجنحَ إلى التقصير فيما به كمال سكونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

سَيْرُ النفوسِ في أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيْرُ القلوبِ بِجَولَانِ الفِكْرِ في جميع المخلوقات، وغايته الظَّفَرُ بحقائق العلوم التي توجِبُ ثلج الصدر ـ ثم تلك العلوم على درجات. وسير الأرواحِ في ميادين الغيب بنعت حرق سرادقات الملكوت، وقصاراه الوصولُ إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة. وسير

الأشرار بالترقي عن الحِدْثان بأَسْرِها، والتحقق أولاً بالصفات، ثم بالخمود بالكلية عمَّا سِوى الحقّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

مَنْ زَرَعَ الشوكَ لم يحصُدْ الوَرْدَ، ومَنْ استنبت الحشيشَ لم يقطف الثمار، ومَنْ سَلَكَ طريق الغيّ لم يَحْلُلْ بساحة الرشد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يبدأ الخلق على ما يشاء، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

شهودِهم ما جحدوه في الدنيا عياناً، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعاً هو الذي يفتت أكبادهم، وبه تتمُّ محنتُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

تغلب العداوةُ مِنْ بعضٍ على بعضٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾.

فريقٌ منهم أهل الوصلة، وفريق هم أهل الفرقة. فريق للجنة والمِنَّة، وفريقٌ للعذاب والمحنة. فريقٌ في السعير، وفريقٌ في السرور. فريقٌ في الثواب، وفريقٌ في العذاب. فريقٌ في الفراقِ، وفريقٌ في التلاقي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾.

فهم في رياضٍ وغياضٍ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

فهم في بوارٍ وهلاك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

مَنْ كان صباحُه لله بُورِكَ له في يومه، ومن كان مساؤه بالله بورك له في ليله:

وإنَّ صَبَاحاً نلتقي في مسائه ... صَبَاحٌ على قلبِ الغريبِ حبيبُ

شتَّان بين عبدٍ صباحُه مُفْتَتَحٌ بعبادته ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته، وبين عبدٍ صباحه مفتتح بمشاهدته ورواحة مفتتح بعزيز قربته!

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات، والآية تتضمن الصلوات الخمس، وإرادةَ الحقِّ من أوليائه بأَنْ يجددوا العهدَ في اليوم والليلة خمْسَ مراتٍ؛ فتقف على بساط المناجاة، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: الطيرَ من البيض، والحيوان من النُّطفةِ.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: البيض من الطير، والنطفة من الحيوان.

والمؤمنَ من الكافِرِ والكافِرَ من المؤمن.

ويُظْهِرُ أوقاتاً من بين أوقات؛ كالقبض من بين أوقات البسط، والبسط من بين أوقات القبض.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾: يحييها بالمطر، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء؛ كذلك يوم النشور يحيي الخلْقَ بعد الموت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

خَلَقَ آدمَ من التراب، ثم من آدم الذُّرِّيَة. فذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم.

ويقال الأصل تُرْبة ولكن العِبْرَة بالتربية لا بالتربة، القيمةُ لما مِنْه لا لأعيان المخلوقات. اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة؛ الجنة جواهر ويواقيت، والبيت حجر! ولكن البيت مختارُه وهذا المختار حجر! واختار الإنسانَ، وهذا المختار مَدَرٌ! والغنيُّ غنيٌّ لِذَاتِه، غنيٌّ عن كلِّ غيرٍ من رَسْم وأثر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْل، ورَبَطَ الشكلَ بالشكلِ، وجعل سكونَ البعضِ إلى البعضِ، ولكنَّ ذلك للأشباح والصُّوَر، أمّا الأرواح فصُحْبَتُها للأشباح كرهٌ لا طوعٌ. وأمّا الأسرار فمُعْتَقَةٌ لا تساكن الأطلال ولا تتدنس بالأعلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

خَلَقَ السماواتِ في علوِّها والأرضَ في دنوِّها؛ هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومناكبها. وهذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومَدَرِها.

ومن آياته اختلافُ لغات أهل الأرض، واختلافُ تسبيحات الملائكة الذين هم

سكان السماء. وإنَّ اختصاصَ كلِّ شيءٍ منها بحُكم ـ شاهدُ عَدْلٍ، ودليلُ صِدْقٍ على أنها تناجي أفكار المتيقظين، وتنادي على أنفسها.. أنها جميعها من تقدير العزيز العليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

غَلَبُه النومِ بغيرِ اختيارِ صاحبه ثم انتباهُه مِنْ غير اكتسابٍ له بِوُسْعِه يدلُّ على موته وبَعْثِهِ بعد ذلك وقتَ نشوره. ثم في حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه، وعلى أوصافٍ كثيرة أمره.. كذلك الميت في قبره. اللَّهُ أعلمُ كيف حاله في أمره، وما يلقاه من خيره وشرّه، ونفعه وضرّه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يُلْقِي في القلوب من الرجاءِ والتوقع في الأمور، ثم يختلف بهم الحال؛ فمِنْ عبدٍ يحصلُ مقصودُه، ومِنْ آخر لا يتفق مرادُه.

والأحوال اللطيفة كالبروق، وقالوا: إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار[1]، فاللوائح في أوائل العلوم، واللوامع من حيث الفهوم، والطوالع من حيث المعارف، والشوارق من حيث التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

يُفْنِي هذه الأدوار، ويُغَيِّر هذه الأطوار، ويبدِّل أحوالاً غير هذه الأحوال؛ إماتةٌ ثم إحياءٌ، وإعادةٌ وقبلها إبداءٌ وقبرٌ ثم نَشْر، ومعاتبةٌ في القبر ثم محاسبةٌ بعد النَّشْرِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

له ذلك مِلْكاً، ومنه تلك الأشياء بَدْءاً، وبه إيجاداً، وإليه رجوعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي في ظنِّكم وتقديركم.

وفي الحقيقة السهولةُ والوعورةُ على الحقِّ لا تجوز.

---

(١) مَتَع نهاره: كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل، حتى ينعدم الليل.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: له الصفةُ العليا في الوجود بحقِّ القِدَم، وفي الجود بنعت الكَرَم، وفي القدرة بوصف الشمول، وفي النصرة بوصف الكمال، وفي العلم بعموم التعلُّق، وفي الحكم بوجوب التحقق، وفي المشيئة بوصف البلوغ، وفي القضية بحكم النفوذ، وفي الجبروت بعين العزِّ والجلال، وفي الملكوت بنعت المجد والجمال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي إذا كان لكم مماليك لا تَرْضَوْن بالمساواة بينكم وبينهم، وأنتم متشاكلون بكلِّ وجه ـ إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم ـ فَمَا تقولون في الذي لم يَزَلْ، ولا يزال كما لم يزل؟

هل يجوز أن يُقَدَّر في وصفه أن يُسَاوِيَه عبيدُه؟ وهل يجوز أن يكون مملوكُه شريكَه؟ تعالى اللَّهُ عن ذلك علواً كبيراً!

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

أشدُّ الظلم متابعةُ الهوى، لأنه قريبٌ من الشِّرْكِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فَمَنْ اتَّبعَ هواه خالف رضا مولاه؛ فهو بوضعه الشيءَ غيرَ موضعه صار ظالماً، كما أنَّ العاصيَ بوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالمٌ.. كذلك هذا بمتابعة هواه بَدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متمادياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أَخْلِصْ قَصْدَكَ إلى الله، واحفَظْ عهدك مع الله، وأَفرِدْ عملَكَ في سكناتِك وحركاتِك وجميعِ تصرفاتِك لله.

﴿حَنِيفًا﴾: أي مستقيماً في دينه، مائلاً إليه، مُعْرِضاً عن غيره، والزَمْ ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي أثْبَتَهُم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعْلٌ ولا كَسْب، ولا شِرْكٌ ولا كُفر، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان. فاعرف بهذه الجملة، ثم افعل ما أُمِرتَ به، واحذر ما نُهِيتَ عنه.

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي اعْرِفْ واعْلَمْ أن فطرة الله التي فطر الناس عليها: تَجَرُّدُهم عن أفعالهم، ثم اتصافهم بما يكسبون ـ وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله.

وعلى هذا تكون ﴿فِطْرَتَ﴾ الله منصوبة بإضمار اعْلَمْ ـ كما قلنا.

سبحانه فَطَرَ كلَّ أحدٍ على ما عَلِمَ أنه يكون في السعادة أو الشقاوة، ولا تبديلَ لحُكْمه، ولا تحويلَ لما عليه فَطَرَه. فمَنْ عَلِمَ أنه يكون سعيداً أراد سعادته وأخبر عن سعادته، وخَلَقَه في حُكْمه سعيداً. ومَنْ عَلِمَ شقاوته أراد أن يكون شقياً وأخبر عن شقاوته وخَلَقَه في حكمه شقياً.. ولا تبديل لحُكمه، هذا هو الدين المستقيم والحقُّ الصحيح.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفاته، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه، مُتَّقين صغيرَ الإثم وكبيره، قليلَه وكثيره، مُؤثرين يسيرَ وفاقه وعسيره، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهراً، متحققين بمراعاة فضائلها سِراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

أقاموا في دنياهم في خمار الغفلة، وعناد الجهل والفترة؛ فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتموَّلوا منْ كيس غيرهم، وظنوا أنهم على شيء. فإذا انكشف ضبابُ وقتهم، وانقشع سحابُ جحدِهم.. انقلب فرحُهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة، ولم يعرِّجوا إلّا في أوطان الجهالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

إذا أظلتهم المحنةُ ونَالتهم الفتنةُ؛ وَمَسَّتْهُم البليَّةُ رجعوا إلى الله بأجمعهم مستعينين، وبلطفه مستجيرين، وعن محنتهم مستكشفين.

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لا كلُّهم ـ بل فريقٌ منهم بربهم يشركون؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران، ويقابلون إحسانه بالنسيان، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء، ولا في مودتهم صفاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي عن قريبٍ سيحدث بهم مثلما أصابهم، ثم إنهم يعودون إلى التضرع، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التخشع، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾.

بَين أنهم بَنوا على غير أصلٍ طريقهم، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم، وعلى غير شَرعٍ من الله أو حجةٍ أو بيانٍ أَسَّسُوا مذاهبَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

تستميلهم طوارقُ أحوالهم؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح، وإن كانت شدة فإلى قنوطٍ وَتَرح.. وليس وصفُ الأكابر كذلك؛ قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإشارة فيها إلى أن العبدَ لا يُعلِّقُ قلبه إلا بالله؛ لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله، وما يسرُّهم ليس وجودُه إلا من الله، فالبسطُ الذي يسرّهم ويؤنسهم منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصولُه، فالواجبُ لزوم عَقْوَةِ[1] الأسرار، وقطعُ الأفكار عن الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

القرابةُ على قسمين: قرابةُ النسب وقرابة الدِّين، وقرابةُ الدين أَمسُّ، وبالمواساة أحقُّ وإذا كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة، غيرَ متفرِّغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقَدر ما يمكنهم، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقَّه آكدَ، وتفَقُّدَه أَوْجَبَ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: المريدُ هو الذي يُؤْثِرُ حقَّ الله على حظِّ نَفْسِه؛ فإيثارُ المريد وَجه اللَّهِ أتمُّ من مراعاته حال نفسه، فهِمَّتُه في الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نَظَرِه لِنَفْسِه وعياله وما يهمه من خاصته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجهَ الله، وألا تستخدم الفقير لما تَبَرُّه به من رافقه، بل

---

(١) العقوة: الساحة، وما حول الدار والمحلة. (اللسان ١٥/ ٧٩ مادة: عقا).

أفضل الصدقة على ذي رَحم كاشح[١] حتى يكون إعطاؤه للَّهِ مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ فيه، فهؤلاء هم الذين يضاعِفُ أَجْرَهم: قهرُهم لأنفسهم حيث يخالفونها، وفوزهُم بالعِوَض مِنْ قِبَلَ الله.

ثم الزكاة هي التطهير، وتطهيرُ المالِ معلومٌ ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة، وأصناف المال وأوصافه.

وزكاة البَدَنِ وزكاةُ القلبِ وزكاةُ السِّرِّ.. كلُّ ذلك يجب القيام به.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرفٌ يقتضي التراخي؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خَلْقِه إياك أن يرزقك؛ كنتَ في ضعف أحوالك ابتداءَ ما خَلَقَكَ، فأثبتك وأحياك من غير حاجةٍ لك إلى رزقٍ؛ فإلى أن خرجتَ من بَطْنِ أُمّك: إمَّا أن كان يُغْنِيكَ عن الرزق وأنت جنينٌ في بطن الأم ولم يكن لك أكلٌ ولا شُرْبٌ، وإمَّا أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق ـ إنْ حَقَّ ما قالوا: إن الجنينَ يتَغَذّى بدم الطمث[٢]. وإذا أخرجك من بطن أمك رَزَقَكَ على الوجه المعهود في الوقت المعلوم، فَيَسَّرَ لك أسبابَ الأكل والشرب من لَبنِ الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات، وأرزاق للسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بسقوط شهواتكم، ويميتكم عن شواهدكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بحياة قلوبكم ثم يحييكم بربكم.

ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق.

ويقال: لا مُكْنَةَ لك في تبديل خَلْقِكَ، وكذلك لا قدرةَ لَكَ على تَعَسُّر رزقِك، فالمُوَسَّعُ عليه رزقُه ـ بِفَضْلِه سبحانه.. لا بمناقِب نَفْسِه، والمُقَتَّرُ عليه رزقُه بحُكْمِه سبحانه.. لا بمعايب نَفْسِه.

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ هل من شركائكم الذين أثبتموهم أي من الأصنام أو توهمتموهمٌ من جملة الأنام.. مَنْ يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزيهاً له وتقديساً.

---

(١) الكاشح: العدو المبغض. (اللسان ٢/ ٥٧٢ مادة: كشح).

(٢) الطمث: دم الحيض.

قوله جلّ ذكره: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الإشارة من البرّ إلى النَّفْسِ، ومن البحر إلى القلب.

وفسادُ البرّ بأَكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشَّرّ والفِسْقِ.. وغير ذلك. وعَقْدُ الإصرارِ على المخالفاتِ من أعظمِ فسادِ القلب، كما أَنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فِعْلها من أعظم الخيرات.

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حقٍّ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ في غير قيامِ بِجَدٍ، والإغراق في الدعاوَى من غير استحياءٍ من الله تعالى.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب، وعدم التأسُّف على ما فاته من الحقّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

﴿سِيرُوا۟﴾ بالاعتبار، واطلبوا الحقَّ بنعت الأفكار.

﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ كيف كانت حال مَنْ تقدَّمكم من الأشكال والأمثال، وقيسوا عليها حُكْمَكُم في جميع الأحوال. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ كانوا أكثرَهم عدداً، ولكن كانوا في التحقيق أَقلَّهم وزناً وقَدْراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

أَخْلِص قَصْدَكَ وصِدْقَ عَزْمِكَ للدين القيِّم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. فَمنْ لم يتأدب بِمَنْ هو إمامُ وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خُسْرَانُه أَتَمَّ من رِبْحِه، ونقصانُه أَعَمُّ من نَفْعه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العِباد فتكنس عن قلوبهم غبارَ الخوف وغُثَاء اليأس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بِساط الجُهْدِ، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياحَ البسطِ على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض، وينشر

(١) الآيتان (٤٤، ٤٥) لم تردا.

فيها إرادة الوصال. ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء، ويبشرها بدوام الوصال.. فذلك ارتياحٌ به ولكن بعد اجتياحٍ عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا، فَمَنْ قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق، ومَنْ عارضَهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود، فانتقمنا من الذين أجرموا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوَّشْنا عليهم ما أمَّلوا، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتَنَعَّموا، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوطئتهم بأعقاب أعدائهم، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم، وهدَّمنا بنيانهم، وأخمدنا نيرانَهم، وعَطَّلْنا عنهم ديارَهم، ومَحَوْنا بقَهْرِ التدمير آثارَهم، فظَلَّتْ شموسهُم كاسفة، ومكيدةُ قَهْرِنا لهم بأجمعهم خاسفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

يرسل رياح عَطْفِه وجُودِه مبشراتٍ بوَصْلِه وجوده، ثم يُمْطِر جودَ غيبِه على أسرارهم بلُطْفِه، ويطوي بساطَ الحشمة عن ساحات قُرْبِه، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كَشْفِه، وينشر عليهم أزهارَ أُنْسِه، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قُدْسِه، ويسقيهم بيده شرابَ حُبِّه، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم ـ لا بِهِم ـ ولكنْ بِنَفْسه، فالعبارات عن ذلك خُرْسٌ، والإشارات دونها طُمْسٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يحيي الأرضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار لِيُخْرِجَ زَرْعَها وثمارَها، ويحيي النفوس بعد نَفْرَتِها، ويوفقها للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطانُ الرِّفاق بصادق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، ويحيي القلوبَ بعد غفلتها بأنوار المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة، ويهتدي بأنوار أهلها أهلُ العسر من أصحاب الإرادات، ويحيي الأرواح بعد حَجْبَتِها ـ بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسُها عن بُرْجِ السعادة، ويتصل بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحبَ نَفَسٍ إلا حَظِيَ منه بنصيب، ويُحْيي الأسرارَ ـ وقد تكون لها وَقْفَةٌ في بعض الحالات ـ فتنتفي بالكلية آثارُ الغيرية، ولا يَبْقَى في الدار ديَّار

ولا من سكانها آثار؛ فسَطَواتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ من صفات الخلائق، هنالك الولاية لله.. سقط الماء والقطرة، وطاحت الرسوم والجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

إذا انسدَّت البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات.. كذلك مَنْ حَقَّتْ عليهم الشقاوةُ جَرَّته إلى نفسها ـ وإنْ تَبَوَّأ الجنةَ منزلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

مَنْ فَقَدَ الحياةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم، وإذا كان في السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمْعُ الظاهر لا يفيده آكَدُ الحُجَّة. وكما لا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدعاءَ فكذلك لا يمكنه أن يهدي العُمْيَ عن ضلالتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم:

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

كذلك في ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية في نعت التردد والحيرة في الطلب، ثم بعد قوة الوصل في ضعف التوحيد.

ويقال أولاً ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله، ثم قوة البيان في حال العرفان، لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود، لأنه الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر.

ويقال ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: أي حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف المسكنة، قال ﷺ: «أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

إنما كان ذلك لأحد أمرين: إمَّا لأنهم كانوا أمواتاً.. والميت لا إحساسَ له، أو لأنهم عَدُّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْن ذلك اليوم يسيراً. وإن أهل التحقيق يخبرونهم عن طول لُبْثِهم تحت الأرض. وإن ذلك الذي يقولونه من جملة ما

---

(١) أخرجه الترمذي (زهد ٣٧)، وابن ماجه (زهد ٧).

كانوا يظهرون من جَحْدهم على موجب جهلهم، ثم لا يُسْمَعُ عُذْرُهم، ولا يُدْفَعُ ضُرُّهم.

وأخبر بعد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانهماكهم في غيِّهم، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم.

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَن سمعها أَقَرَّ أنَّه لا يسمع مِثْلَها، ومَنْ عَرَفَها أَنِفَ أَنْ يسمعَ غيرها. كلمةٌ مَنْ سمعها طابت قِصَّتُه، وزالت بكل وجهٍ غُصَّتُه، وتَمَّتْ من النِّعَمِ في الدنيا والعقبى حِصَّتُه، وزَهِدَ في دنياه من غيرِ رغبةٍ في عقباه؛ لأنَّها ـ وإنْ جَلَّتْ ـ غيرُ مولاه.

كلمةٌ مَنْ سمعها لم يرغب في عمارة فنائه، ولم يتحشم سرعةَ وفائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

الألف تشير إلى آلائه، واللام تشير إلى لطفه وعطائه، والميم تشير إلى مجده وسنائه؛ فبآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوبِ أوليائه، وبلطفه وعطائه يثبت المحَبة في أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خَلْقِه بوصف كبريائه.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: المحروس عن التغيير والتبديل.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

هو هدًى وبيان، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله، والمقيمين عبادةَ اللَّهِ كأنهم ينظرون إلى الله. وشَرْطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله: دانيهم وقاصيهم، ومطيعِهم وعاصيهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة، وتقديم الطهارة، واستقبال القِبْلة، والعلم بدخول الوقت، والوقوف في مكانٍ طاهر. وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السِّرِّ عن العلائق، وسَتْرِ عورةِ الباطنِ بتنقيته عن العيوب، لأنها مهما تكن فاللَّهُ يراها؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى اللَّهُ عيوبَك فاحْذَرْها حتى لا تكون. والوقوف في مكان طاهر، وهو وقوف القلبِ على الحدِّ الذي أُذِنْتَ في الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق، وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ وقف عند حدِّه. والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلُّل والاستكانة. وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط، وتستقبل القبلةَ بنَفْسِك، وتعلِّق قلبَكَ بالله من غير تخصيص بقَطْرٍ أو مكان.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحقِّ آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا في الدنيا والعُقبى فسلِموا ونَجَوْا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: ما يشغل عن ذكر الله، ويَحْجُبُ عن اللّهِ سماعُه. ويقال: هو لَغْوُ الظاهر الموجِبُ سَهْوَ الضمائر، وهو ما يكون خَوضاً في الباطل، وأخذاً بما لا يعنيك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

المُفتَرِقُ بِهَمِّه، والمُتَشتِّتُ بقلبه لا تزيده كثرةُ الوعظِ إلا نفوراً ونُبُوّاً؛ فسماعُه كَلَا سماع، ووعظه هباءٌ وضياع، كما قيل:

إذا أنا عاتَبْتُ الملولَ فإنما ... أُخُطُّ بأقلامي على الماءِ أحرُفا

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿ءَامَنُوا۟﴾: صَدَّقوا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: تحقَّقُوا؛ فاتصافُ تحقيقِهم راجعٌ إلى تصديقهم، فَنَجَوْا وسَلِمُوا؛ فهم في راحاتهم مقيمون، دائمون لا يَبْرَحُون.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أمسك السمواتِ بقدرته بغير عِماد، وحَفِظَهَا لا إلى سِناد أو مشدودةً إلى أوتاد، بل بحُكم الله وبتقديره، ومشيئته وتدبيره.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ...﴾ في الظاهر الجبال، وفي الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق، بهم يقيهم، وبهم يَصرِف البلاءَ عن قريبهم وقاصيهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ المطر من سماء الظاهر في رياض الخُضْرَة؛ ومن سماء الباطن في رياض أهل الدنوّ والحَضْرَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا خَلْقُ الله العزيز في كبريائه، فأروني ماذا خَلَقَ الذين عَبدْتم من دونه في أرضه وسمائه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الإصابة في العقل والعقد والنطق. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث هِمةَ النفس. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ ألا تكون تحت سلطان الهوىٰ. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الكوْن بحكم من له الحكم. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ معرفة قدْر نَفسك حتى لا تمدّ رِجليك خارجاً عن كسائك. ويقال ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ ألا تستعصي عَلَى مَنْ تعلم أنك لا تقاومه.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الرَّبِّ. فهو مقلوب قولهم: كَشَرَتْ عن أنيابها الدابةُ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذَب وَجبذَ.

ويقال الشكرُ تحققكَ بعجزك عن شكره. ويقال الشكر ما به يحصل كمالُ استلذاذ النعمة. ويقال الشكر فضلةٌ تظهر عَلَى اللسان من امتلاء القلب بالسرور؛ فينطلق بمدح المشكور. ويقال الشكر نعتُ كلّ غنيٍّ كما أن الكفرانَ وَصفُ كلِّ لَئيم. ويقال الشكر قرْع باب الزيادة. ويقال الشكر قيد الإنعام. ويقال الشكر قصة يمليها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]: لأنه في صلاحها ونصيبها يسعى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الشِّرْكُ عَلَى ضربين: جَليّ وخفيّ؛ فالجليُّ عبادة الأصنام، والخفيّ حسبان شيء من الحدثان من الأنام. ويقال الشِّرْكُ إثباتُ غَيْرٍ مع شهود الغيب. ويقال الشرك ظلم عَلَى القلب، والمعاصي ظلم عَلَى النفس، وظلم النفوس مُعَرَّضٌ للغفران، ولكنّ ظلمَ القلوب لا سبيل إليه للغفران.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أوجب الله شُكرَ نفسه وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يُكْتَفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِم أنّ شُكْرَ الحقِّ لا يكْفي فيه مجرّدُ القول ما لم تكن فيه موافقةُ العقل؛ وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة دون صَرفِها في الزَّلَّة؛ فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير، وشكرُ الوالدين بالإنفاق والتوفير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنْ جاهداك على أن تشرك بالله، أو تسعى بما هو زلة في أمر الله ـ فلا تطعهما، ولكن عاشرهما بالجميل؛ تخشين في تليين، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرَجٌ، وانفرد بسرِّك لله، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: وهو المنيبُ إليه حقاً من غير أن تبقى بقية في النفس.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمةُ فلا محالةَ تصل إلى المقسوم له بغير مرية.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: عالم بدقائق الأمور وخفاياها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك، ومنْ لا حُكْمَ له عَلَى نَفسه لا ينفذ حكمه على غيره.

والمعروف الذي يجب الأمرُ به هو ما يُوَصِّلُ العبدَ إلى الله، والمنكرُ الذي يجب النهي عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ تنبيهٌ عَلَى أنَّ منْ قام لله بحقِّ امْتُحِنَ في الله؛ فسبيله أنْ يصبرَ لله ـ فإنْ منْ صبرَ لله لا يَخسر عَلَى الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

يعني لا تتكبرْ عَلَى الناسِ، وطالِعْهم من حيث النسبة والتحقق بأنكَ بمشهدٍ منْ مولاك. ومَنْ عَلِمَ أنَّ مولاه ينظر إليه لا يتكبرُ ولا يتطاول بل يتخاضع ويتضاءل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

كُنْ فانياً عن شواهدكَ، مُصْطَلَماً[1] عن صَوْلَتِك، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتِك، مُنْتَشِقاً[2] مما استولى عليك من كشوفات سِرِّك.

---

(١) اصطلم: استأصل.

(٢) انتشق الماء في أنفه واستنشقه: صبه فيه. (اللسان ١٠/٣٥٣).

وانظر مَنْ الذي يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك؛ ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: في الإشارة هو الذي يتكلم في لسان المعرفة من غير إذنٍ من الحقِّ. وقالوا: إنه الصوفيُّ يتكلم قبل أوانه.

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

أثبت في كل شيءٍ منها نَفعاً لكم، فالسماء لتكونَ لكم سقفاً، والأرض لتكون لكم فِراشاً، والشمس لتكون لكم سراجاً، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب، والنجوم لتهتدوا بها.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: الإسباغُ ما يَفْضُلُ عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة.

قوله: ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: تكلموا فيه فأكثروا. فالظاهرةُ وجودُ النعمة، والبطانةُ شهودُ المنعِم. والظاهرةُ الدنيوية، والباطنةُ الدينيةُ. والظاهرة حُسْنُ الخَلْق، والباطنة حُسْنُ الخُلُق. الظاهرةُ نَفْس بلا زَلّة، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلة. الظاهرةُ العطاء، والباطنة الرضاء. الظاهرة في الأموال ونمائها، والباطنة في الأحوال وصفائها. الظاهرةُ النعمةُ، والباطنةُ العصمةُ. الظاهرةُ توفيقُ الطاعات، والباطنةُ قبولُها. الظاهرة تسوية الخَلْقِ، والباطنة تصفية الخُلُق. الظاهرة صحبة الصالحين، والباطنة حِفْظُ حُرْمَتِهم. الظاهرةُ الزهدُ في الدنيا، والباطنةُ الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى. الظاهرة الزهد، والباطنةُ الوَجْدُ. الظاهرة توفيقُ المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة. الظاهرة وظائف النَّفْس، والباطنة لطائف القلب. الظاهرةُ اشتغالُكَ بنَفْسِك عن الخَلْق، والباطنةُ اشتغالُك بربِّك عن نَفْسِك. الظاهرة طَلَبُه، الباطنةُ وجوده[1]. الظاهرةُ أَنْ تَصِلَ إليه، الباطنة أن تبقى معه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم، ولم يهتدوا إلى مُحَوِّل أحوالهم. فأمّا مَنْ سَمَتْ نَفْسُه، وخلص في الله قَصْدُه فقد استمسك بالعروة الوثقى، وسَلَكَ المحجّةَ المُثْلَى: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الوجود بالرسالة ص٦١ ـ ٦٤.

وعلى العكس: ـ

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

إلينا إيابُهم، ومِنَّا عذابُهم، وعلينا حسابُهم. ولئن سألتَهم عن خالقهم لأقرُّوا، ولكن إذا عادوا إلى غيِّهم نقضوا وأصروا[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

لله ما في السموات والأرض مِلْكاً، ويُجْري فيهم حُكْمَه حقًّا، وإليه مَرْجِعُهم حتماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أنَّ ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً، وبمقدار ما يقابله تُنفَقُ القراطيسُ[٢]، ويتكلَّفُ الكُتَّابُ حتى تتكسر الأقلامُ، وتفنى البحارُ، وتستوفي القراطيسُ، وتفنى أعمارُ الكُتَّاب.. ما نَفِدَت معاني ما لنا مَعَكَ من الكلام، والذي نُسْمِعُك فيما نخاطبك به لأنك معنا أبَدَ الأبد، والأبديُّ من الوصف لا يتناهى.

ويقال إن كان لك معكم كلامٌ كثير فما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ:

صحائفُ عندي للعتابِ طَوَيْتُها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطول

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سيَّان؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر، ولا من القليل راحةٌ ويُسْر، إنما أَمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يقوله بكلمته ولكنه يكوِّنه بقدرته، لا بمزاولة جهد، ولا باستفراغ وُسْعٍ، ولا بدعاءِ خاطرٍ، ولا بطُرُوءِ غَرَضٍ[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: الكائنُ الموجودُ، مُحِقُّ الحقّ، و﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: من العَدَم ظَهَرَ ومعه جوازُ العَدَم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

---

(١) الآيتان (٢٤، ٢٥) لم تردا.

(٢) القراطيس: (ج) القرطاس: الصحيفة التي يُكتب فيها.

(٣) الآية (٢٩) لم ترد.

في الظاهر سلامتُهم في السفينة، وفي الباطن سلامتُهم من حدثان الكون، ونجاتهم في سفائن العصمة في بحار القدرة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ وَقُوفٍ لا ينهزم من البلايا، شَكُورٍ على ما يصيبه من تصاريف التقدير من جنسي البلايا والعطايا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تلفظَهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة، فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم:

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمنا أحباءَنا: كم تجهلون ونَحْلُمُ!

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

يخوّفهم مرةً بأفعاله فيقول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨]، ومرةً بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] ومرةً بذاته فيقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

يتفرّد بعلم القيامة، ويعلم ما في الأرحام ذكورَها وإناثها، شقيها وسعيدها، حسنها وقبيحها ويعلم متى يُنزِّل الغيث، وكم قطرة يُنزله، وبأي بقعة يُمطرها.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً من خير وشر، ووفاق وشقاق، وما تدري نفس بأي أرض تموت؛ أتدرك مرادَها أم يفوت؟

سورة السجدة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

كلمةٌ سماعُها ربيعُ الجميع، من العاصي والمطيع، والشريف والوضيع. مَنْ أصغى إليها بسَمْعِ الخضوعِ ترك طَيِّبَ الهجوع، ومَنْ أصغى إليها بسمع المحابِّ تَرَكَ لذيذَ الطعامِ والشراب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتي فلا يصبرون عني، وأَلِفَ العارفون تمجيدي فلا يستأنسون بغيري.

والإشارة في اللام إلى لقائي المُدَّخرِ لأحبّائي، فلا أبالي أقاموا على ولائي أم قصَّروا في وفائي.

والإشارة في الميم: أي تَرَكَ أوليائي مرادَهم لمرادي.. فلذلك آثرتُهم على جميع عبادي.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]: إذا تعذَّر لقاءُ الأحبابِ فأعَزُّ شيءٍ على الأحباب كتابُ؛ أَنْزَلْتُ على أحبابي كتابي، وحَمَلَتْ إليهم الرسالةُ خطابي، ولا عليهم إنْ قَرَعَ أسماعَهم عتابي، فَهُمْ في أمانٍ من عذابي.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الذي لكم منا حقيقة، وإنْ التبس على الأعداء فليس يضيركم، ولا عليكم، فإنَّ صحبةَ الحبيب مع الحبيب أَلَذُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وتلك الأيام خَلَقَها مِنْ خَلْقٍ غير الأيام، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه في وقتٍ؛ إذ الوقتُ مخلوقٌ في غير الوقت وكما يستغنى في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقتُ عن الوقت.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر، ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ولكن القديم ليس له حدٌّ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البُعْد، استوى على العرش ولكنه أشدُّ الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة؟، ولكنَّ العرشَ جمادٌ.. وأنَّى يكون للجماد مراد؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا نِدٍّ، أَحَدٌ بلا حَدٍّ.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: إذا لم يُرِدْ بكم خيراً فلا سماءَ عنه تُظِلُّكم، ولا أرضَ بغير رضاه تُقِلُّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم، ولا أحدَ ـ إذا لم يُغْنَ بشأنكم في الدنيا والآخرة ـ ينظر إليكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

خَاطَبَ الخَلْقَ ـ على مقدار أفهامهم ويجوز لهم ـ عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم.

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿الْعَزِيزُ﴾ مع المطيعين ﴿الرَّحِيمُ﴾ على العاصين.

﴿الْعَزِيزُ﴾ للمطيعين ليكسِرَ صولتَهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ للعاصين ليرفعَ زَلَّتَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾:

أَحْسَنَ صورةَ كلِّ أحدٍ؛ فالعرشُ ياقوتةٌ حمراءُ، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثُلاث ورُبَاع، وجبريلُ طاووس الملائكة، والحور العين ـ كما في الخبر ـ «في جمالها وأشكالها، والجِنانُ» ـ كما في الأخبار ونص القرآن. فإذا انتهى إلى الإنسان قال: و﴿خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]... كل هذا ولكن:

وكم أبصرتُ من حُسْنٍ ولكن   عليك من الورى وقع اختياري

خَلَقَ الإنسانَ من طين ولكن ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وخلق الإنسان من طين ولكن: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البينة: ٨]، وخلق الإنسان من طين ولكن ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1] [المائدة: ١١٩]!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

---

(١) الآية (٩) لم ترد.

لو كانت لهم ذَرَّةٌ من العرفان، وشَمَّة من الاشتياق، ونَسْمَةٌ من المحبة لَما تَعَصَّبُوا كُلَّ هذا التعصب في إنكار جوازِ الرجوعِ إلى الله ولكن قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قـــولـــه جـــلّ ذكـــره: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

لولا غفلةُ قلوبهم وإلا لَما أحال قَبْضَ أرواحهم على مَلَكِ الموت؛ فإنَّ مَلَكَ الموتِ لا أَثَرَ منه في أحدٍ، ولا له تصرفات في نَفْسِه، وما يحصل من التوفِّي فمن خصائص قدرة الحق. ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ فخاطبَهم على مقدار فهمهم، وعَلَّقَ بالأغيار قلوبَهم، وكلٌ يُخَاطَبُ بما يَحتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّتِه وضعفه.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

مَلَكَتْهُم الدهشةُ وغَلَبتهم الخَجْلَةُ، فاعتذروا حينَ لا عُذْرَ، واعترفوا ولا حينَ اعتراف.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

لو شئنا لَسَهَّلنا سبيلَ الاستدلال، وأدَمْنا التوفيقَ لكلِّ أحدٍ، ولكن تَعَلَّقَتْ المشيئةُ بإغواءِ قوم، كما تعلَّقت بإدناءِ قوم، وأردنا أن يكونَ للنار قُطَّان، كما أردنا أن يكون للجَنَّةِ سُكَّان، ولأنَّا عَلِمنا يومَ خَلَقْنا الجنَّةَ أنه يسكنها قوم، ويوم خلقنا النارَ أنه ينزلها قومٌ، فَمِنَ المُحَالِ أن نُريدَ ألا يقعَ معلومُنا، ولو لم يحصل لم يكن عِلْماً، ولو لم يكن ذلك عِلْماً لم نكن إلهاً.. ومن المحال أن نريد ألا نكونَ إلهاً.

ويقال: مَنْ لم يتسلَّطْ عليه من يحبه لم يجْرِ في مُلْكِه ما يكرهه.

ويقال: يا مسكين أفنيتَ عُمْرَكَ في الكدِّ والعناء، وأمضيتَ أيامَك في الجهد والرجاء، غيَّرت صفتك، وأكثرتَ مجاهدتك.. فما تفعل في قضائي كيف تُبَدِّله؟ وما تصنع في مشيئتي بأيِّ وسعٍ ترُدُّها؟ وفي معناه أنشدوا:

شـــكـــا إلـــيـــك مـــا وَجَـــدَ ... مـــن خَـــانَـــهُ فـــيـــك الـــجَـــلَـــدْ
حـــيـــرانُ لـــو شـــئـــتَ اهـــتـــدى ... ظـــمـــآنُ لـــو شـــئـــتَ وَرَدْ

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قاسٍ من الهوانِ ما استوجبتَه بعصيانك، واخلُدْ في دار الخِزْي لما أسلفتَه من كفرانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

التصديْقُ والتكذيبُ ضدان ـ والضدان لا يجتمعان؛ التكذيب هو جحودٌ واستكبار، والتصديقُ هو سجودٌ وتحقيق، فَمَنْ اتَّصَفَ بأحد، القسمين امَّحى عنه الثاني.

﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾: سجدوا بظواهرهم في المحراب، وفي سرائرهم على ترابِ الخضوع وبِساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُكْمِ الخمود.

ويقال: كيف يستكبر مَنْ لا يَجِدُ كمالَ راحتِه ولا حقيقةَ أُنْسِه إلا في تَذَلُّلِه بين يدي معبوده، ولا يؤثِرُ آجلَ جحيمه على نعيمه، ولا شقاءَه على شفائه؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

في الظاهر: عن الفِراش قياماً بحقِّ العبادة والجهد والتهجد. وفي الباطن: تتباعد قلوبُهم عن مضاجعات الأحوال، ورُؤية قَدْرِ النفس، وتوهُّم المقَام ـ فإن ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سُمٌ قاتل ـ فلا يساكنون أعمالَهم ولا يلاحظون أحوالَهم. ويفارقون مآلِفَهم، ويهجرون في الله معَارفَهم.

والليل زمان الأحباب، قال تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]: يعني عن كلّ شُغلٍ وحديثٍ سوء حديث محبوبكم. والنهارُ زمانُ أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، أولئك قال لهم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

إذا ناجيتمونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم، واشتغلوا بحرفتكم.

وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إمَّا في طرَب التلاقي وإما في حَرَب الفراقِ، فإن كانوا في أُنْسِ القربة فَلَيْلُهُم أقصرُ من لحظة، كما قالوا:

زارني مَنْ هَوَيْتُ بعد بعادِ ... بوصالٍ مُجَدَّدٍ ووِدادِ
ليلةً كاد يلتقي طرفاها ... قِصَراً وهي ليلة الميعادِ

وكما قالوا:

وليلةٍ زَيْنُ ليالي الدهر ... قابلتُ فيها بدرها ببدر

لم تَسْتَبِن عنْ شقَقٍ وفجرِ ... حتى تولَّت وهي بِكْرُ الدهرِ

وأمَّا إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فُرقة وانفرادٍ بكُرْبة فَلَيْلُهم طويل، كما قالوا:

كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها ... أفنيتُها قابضاً على كبدي
قد غُصَّت العينُ بالدموع وقد ... وضعتُ خدي على بنان يدي

قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]: قومٌ خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب، وآخرون خوفاً من الفراقِ وطمعاً في التلاقي، وآخرون خوفاً من المكر وطمعاً في الوَصْلِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: يأتون بالشاهد الذي خصصناهم به؛ فإنْ طَهَّرْنا أحوالَهم عن الكدورات حضروا بأحوالٍ مُقدَّسة، وإنْ دَنَّسْا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَنَّسَة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ فالعبدُ إنما يتجر في البضاعة التي يودعها لديه سَيِّدُه:

يفديكَ بالروح صَبٌّ لو يكون له ... أعزّ من روحه شيء فداك به

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إنما تَقَرُّ عينُكَ برؤية مَنْ تحبه، أو ما تحبه؛ فطالبْ قلبكَ وراعِ حالك، فيحصل اليومَ سرورُك، وكذلك غداً.. وعلى ذلك تحشر؛ ففي الخبر:

«مَنْ كان بحالة لقي الله بها».

ثم إنّ وصفَ ما قال الله سبحانه إنه لا يعلمه أحدٌ ـ مُحَالٌ، اللهم أن يُقال: إنها حال عزيزة، وصفةٌ جَليلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾.

أفمنْ كان في حال الوصال يَجرّ أذيالَه كنتْ هو في مَذلةِ الفراق يقاسي وبالَهَ؟

أفمن كان في رَوْحِ القربة ونسيم الزلفة كمن هو في هوْل العقوبة يعاني مشقة الكلفة؟

أفمن هو في رَوْح إقبالنا عليه كمن هو محنة إعراضنا عنه؟

أفمن بقي معنا كمنْ بقي عَنَّا؟

أَفمنْ هو في نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو في ليالي الكفران ووحشة العصيان؟

أَفمن أُيِّدَ بنور البرهان وطلعت عليه شموسُ العرفان كمن ربطَ بالخذلان ووُسم بالحرمان؟ لا يستويان ولا يلتقيان!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: صدَّقوا، و﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بما حققوا ـ فلهم حُسْنُ الحال، وحميدُ المآلِ وجزيلُ المنال، وأما الذين كذّوا وجحدوا، وفي معاملاتهم أساءوا وأفسدوا، فقصاراهم الخزيُ والهوان، وفنونٌ من المحن وألوان.. كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً، ولكما أمّلوا نجاةً جُرّعوا وزيدوا ياساً[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قومٌ عذابهم الأدنى مِحَنُ الدنيا، والعذابُ الأكبر لهم عقوبة العنبي[٢].

وقومٌ العذاب الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم في عبادتهم، والعذاب الأكبر لهم قسوةٌ في قلوبهم تصيبهم.

وقومٌ العذاب الأدنى لهم وقفة في سلوكهم تُنِيبهم، والعذابُ الأكبرُ لهم حجةٌ عن مشاهدهم تنالهم، قال قائلهم:

أَدّبتني بانصرافِ قلبك عنّي ... فانظرْ إليّ فقد أحسنت تأديبي

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلة، والأكبر الهجران في الوصلة.

ويقال العذاب الأدنى تكدّرُ مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لقد كان ما بيني زماناً وبينه ... كما بين ريح المسك والعنبر الورد

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبين آخِرٍ لها، كما قيل:

تطاول نأينا يا نور حتى ... كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

إذا نُبّهَ العبدُ بأنواع الزَّجر، وحُرّكَ ـ لتَزكِهِ حدودَ الرقاق ـ بصنوفٍ من التأديب ثم لم يرتدع عن فعله، واغترّ بطول سلامته، وأمِنَ من هواجم مَكْرِه، وخفايا سِرِّه.. أَخَذَه بغتةً بحيث لا يجد خرجةً مِنْ أخذته، قال تعالى: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

(٢) العنبة: بثرة تخرج بالإنسان تعدي، تسمند، فترم، وتمتلئ ماء، وتوجع، تأخذ الإنسان في عينه وحلقه. (اللسان ١/ ٦٣٠ مادة: عنب).

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

وهذا محمد ﷺ جُعِلَ رحمةً للعالمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

لمّا صبروا على طلبنا سَعِدوا بوجودنا، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتبعيهم، وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهلِهم؛ فهم للخلْق هُداةٌ، وفي الدين عيون، وللمسترشدين نجوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يحكم بينهم، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول، والمهجور من الموصول، والرضيّ من الغويّ، والعدو من الوليّ.. فكم من بهجةٍ دامت هنالك! وكم من مهجةٍ ذابت عند ذلك!.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوامٍ كانوا في حَبرَةٍ فصاروا عِبْرَةً، كانوا في سرورٍ فآلوا إلى ثبور؛ فجميع ديارهم ومزارِهم صارت لأغيارهم، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وكما قيل:

نعمةٌ كانت على قو … م زماناً ثم بانت
هكذا النعمةُ والإحـ … ـسانُ مذ كان وكانت

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[1].

الإشارة فيه: تُسقى حدائقُ وَصْلِهم بعد جفاف عُودِها، وزوال المأنوسِ من معهودِها، فيعود عودُها مورِقاً بعد ذبوله، حاكياً بحاله حال حصوله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

استبعدوا يومَ التلاقي وجحدوه، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه.

---

(١) الأرض الجزر: قيل: إنها أرض اليمن وقيل: أرض جزر لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر. (اللسان ٥/ ٣١٧ مادة: جرز).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

أعرِض عنهم باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا.

﴿وَٱنتَظِرْ﴾ زوائدَ وَصْلِنا، وعوائدَ لطفنا.

﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ هواجِمَ مقتنا وخفايا مكرنا.. وعن قريب يجد كلٌّ منتظرَه محتضراً.

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله شهود وجودِه يوجِبُ لَكَ تلفاً في تَلَفٍ، ووجودُ جودِه يوجِبُ لَكَ شرفاً في شرف، ففي تَلَفِكَ يكون (هو) عَنكَ الخلف، وفي شرفك تصل إلى كلِّ لُطَف.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

يا أيها المُشَرَّفُ حالاً، المُفَخَّمُ قَدْراً مِنّا، المُعَلَّى رُتْبَةً من قِبَلِنا.. يا أيها المُرَقَّى إلى أعلى الرُتَبِ بأسنى القُرَبِ.. يا أيها المُخَبِّرُ عنا، المأمونُ على أسرارنا، المُبَلِّغُ خطابَنا إلى أحبابنا.. اتقِ الله أن تلاحِظَ غيراً معنا، أو تساكِنَ شيئاً من دوننا، أو تُثْبِتَ أحداً سوانا، أو تَتَوَهَّمَ شظيةً مِنَ الحدثان من سوانا. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] إشفاقاً منك عليهم، وطمعاً في إيمانهم بنا لو وافَقْتَهم في شيء أرادوه منك.

والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنعهم في أنفاسهم، وسَكَناتِهم، وحَرَكاتهم أن ينظروا إلى غيره ـ أو يُثْبِتوا معه غيره ـ إلا منصوباً لقدرته، مصرَّفاً بمشيئته، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته.

التقوى لجامٌ يكبحك عمَّا لا يجوز، زمامٌ يقودك إلى ما تحب، سوطٌ يسوقك إلى ما أُمِرْتَ به، شاخصٌ يحملك على القيام بحقِّ الله، حِرْزٌ يعصمك مِنْ توَصل أعدائك إليك، عُوذَةٌ تشفيك من داء الخطأ.

التقوى وسيلةٌ إلى ساحات كَرمه، ذريعةٌ تتوسل بها إلى عقوبة جوده.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

اتبعْ ولا تبتدع، واقتدِ بما نأمرك به، ولا تهتدِ باختيارك غير ما نختار لك، ولا تُعرِّج أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لكَ، وقم بنا لا بِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

انسلخْ عن إيابك، واصدق في إيابك إلينا، وتشاغل عن حسبانك معنا، واحذر ذهابك عنا، ولا تُقَصِّرْ في خطابك معنا.

ويقال التوكل تحقُّقٌ ثم تَخَلُّقٌ ثم توثق ثم تملق؛ تحققٌ في العقيدة، وتخلقٌ

بإقامة الشريعة، وتوثق بالمقسوم من القضية، وتملّقٌ بين يديه بحُسْنِ العبودية.

ويقال التوكلُ تحققٌ وتعلقٌ وتخلقٌ؛ تحققٌ بالله وتعلّقٌ بالله ثم تخلقٌ بأوامر الله.

ويقال التوكل استواءُ القلب في العدم والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

القلبُ إذا اشتغل بشيء شُغِلَ عما سواه، فالمشتغلُ بما مِنَ العَدَم منفصلٌ عمن له القِدَمُ، والمتصل بقلبه بمن نعته القِدَم مشتغلٌ عمَّا من العدَم.. واللّيل والنهار لا يجتمعان، والغيبُ والغيرُ لا يلتقيان.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

اللائي تظاهرتم منهن لَسْنَ أمهاتكم، والذين تبنيتم ليسوا بأبنائكم، وإن الذي صرتم إليه من افترائكم، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردودٌ عليكم، غيرُ مقبولٍ منكم، وإن أمسكتم عنه بعد البيان نجوتم، وإن تمادَيتم بعد ما أعْلِمْتم أطلت المحنةُ عليكم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

راعُوا أنسابهم، فإن أردتم غير النسبة فالأخوّةُ في الدِّين تجمعكم، وقرابةُ الدِّين والشكلية أولى من قرابة النَّسَبِ، كما قالوا:

وقالوا قريبٌ من أبٍ وعمومةٍ ... فقلتُ: وإخوانُ الصفاء الأقاربُ
نُناسبهم شكلاً وعِلماً وأُلفةً ... وإن باعدتهم في الأصول المناسبُ

قوله جل ذكره: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

الإشارة من هذا: تقديم سُنته على هواك، والوقوفُ عند إشارته دون ما يتعلقُ به مُناك، وإيثار من تتوسل به سبباً ونسباً على أعِزّتِكَ ومَن والاكَ.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾:

ليكن الأجانبُ منك على جانب، ولتكن صلتك بالأقارب. وصلةُ الرحِم ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار، ولكن بموافقة القلوب، والمساعدة في حالتي المكروه والمحبوب:

أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وغدت   أشباحُنا بشآمٍ أو خراسان

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

أخذَ ميثاق النبيين وقتَ استخراج الذرية من صُلب آدم ـ فهو الميثاق الأول، وكذلك ميثاق الكلّ. ثم عند بَعْثِ كلّ رسول ونُبُوَّةِ كلّ نبيٍّ أخذ ميثاقه، وذلك على لسانِ جبريل عليه السلام، وقد استخلص الله سبحانه نبيَّنا عليه السلام، فأسمعه كلامَه ـ بلا واسطة ـ ليلةَ المعراج. وكذلك موسى عليه السلام ـ أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا ـ ﷺ ـ زيادة حال؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشفُ الرؤية.

ثم أخذ المواثيق من العُبَّاد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه، فلكلٍّ من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يُؤهلهم له، قال ﷺ «لقد كان في الأمم مُحَدَّثون فإن يكن في أمتي فَعُمَر»[1] وغيرُ عمر مشارِكٌ لعمر في خواص كثيرة، وذلك شيء يتمُّ بينهم وبين ربِّهم.

قوله جل ذكره: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يسألهم سؤال تشريفٍ لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجابٍ لا سؤال عتاب. والصدقُ ألا يكون في أحوالِكَ شَوْبٌ ولا في اعتقادك رَيْبٌ، ولا في أعمالك عَيْبٌ. ويقال من أمارات الصدق في المعاملة وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق. والصدقُ في الأحوال تصفيتُها من غير مداخلة إعجاب.

والصدق في الأقوال سلامتها من المعاريض فيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس التباعدُ عن التلبيس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرّي من الحَوْلِ والقوة، ومواصلة الاستعانة، وحفظ العهود معه على الدوام.

والصدق في التوكل عَدَمُ الانزعاج عند الفَقْدِ، وزوال الاستبشار بالوجود[2].

---

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣) والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل ٦، ٥٥.

(٢) ربما كان (الموجود) وبذلك يكون القشيري قد استفاد من قول أبو عبد الله بن خفيف بهذا المعنى: القناعة ترك التشوّف إلى المفقود والاستغناء عن الموجود. (الرسالة القشيرية ص١٦٠) والشاكر الذي يشكر على المفقود. (الرسالة القشيرية ص١٧٥). وقد وردت في قول أحمد النوري (الوجود) حيث قال: نعت الصوفي السكون عند العدم والإيثار عند الوجود. (الرسالة القشيرية ص٢٨١).
فهنا الوجود ضد العدم، أي وجود الأشياء وفقدانها. لكن يُستحسن أن يقتصر اصطلاح الوجود على أنه هو بعد الارتقاء عن الوجد، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص٦٢).

والصدق في الأمر بالمعروف التحرُّز من قليل المداهنة[١] وكثيرها، وألا تتركَ ذلك لِفَزَعٍ أو لِطَمَعٍ، وأن تَشْرَبَ مما تَسْقِي، وتتصف بما تأمر، وتنهي (نَفْسَك)[٢] عما تَزْجُر.

ويقال الصدق أن يهتدي إليكَ كلُّ أحد، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد. ويقال الصدق ألا تجنحَ إلى التأويلات.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ذكرُ نعمة الله مُقابَلَتُها بالشكر، ولو تذكرتَ ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساةُ البلاءِ في الحال، ولو تذكرتَ ما أولاكَ في الماضي لَقَرُبَتْ من قلبك الثقةُ في إيصال ما تؤمِّلُه في المستقبل.

ومن جملة ما ذكَّرهم به: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ كم بلاءٍ صَرَفَه عن العبدِ وهو لم يشعر! وكم شُغْلٍ كان يقصده فصَدَّه ولم يعلم! وكم أمرٍ عَوَّقَه والعبدُ يَضِجُّ وهو ـ (سبحانه) ـ يعلم أن في تيسيره له هلاكَ العبد فمَنَعَه منه رحمةً به، والعبدُ يتَّهِمُ ويضيق صَدْرُه بذلك!

قوله جل ذكره: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

أحاط بهم سُرادقُ البلاء، وأحدقَ بهم عَسْكرُ العدوِّ، واستسلموا للاجتياح، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وتَقَسَّمَتْ الظنونُ، وداخَلَتْهُم كوامِنُ الارتياب، وبدا في سويدائهم جَوَلانُ الشكِّ.

﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾.

ثم أزال عنهم جملتها، وقَشَعَ عنهم شِدَّتها، فانجاب عنهم سحابُها، وتفرَّقَتْ عن قلوبهم همومُها، وتَفَجَّرَتْ ينابيعُ سكينتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾.

صَرَّحوا بالتكذيب ـ لما انطوت عليه قلوبُهم ـ حين وجدوا للمقال مجالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾.

---

(١) المداهنة: المصانعة.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

تواصَوْا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينُهم من وشك ظَفَرِ الأعداء.

قوله: ﴿وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ﴾ يتعلّلون بانكشافِ بيوتهم وضياع مُخَلَّفَاتِهم، ويكذبون فيما أظهروه عُذراً، وهم لم يَحْمِلْهم على فعلهم غيرُ جُبْنِهم وقلّةُ يقينهم[1].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

ولكن لما عزم الأمر، وظهر الجدّ لم يساعدهم الصدقُ، ولم يذكروا أنهم سَيُسألون عن عهدهم، ويُعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لأن الآجالَ لا تأخيرَ لها ولا تقديم عليها، وكما قالوا: «إنّ الهاربَ عمّا هو كائن في كفّ الطالب يتقلبُ».

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: فإنّ ما يدّخره العبدُ عن الله من مالٍ أو جاهٍ أو نَفيسٍ أو قريب لا يُبارَك له فيه، ولا يجدُ به مَنَعَةً، ولا يُرزقُ منه غبطة.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

من الذي يحققُ لكم من دونه مَرْجُوًّا؟ ومن الذي يصرف عنكم دونه عَدُوًّا؟

قوله جل ذكره: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصرة النبي عليه السلام، ويمنعون غيرهم ليكون جمعُهم أكثرَ وكيدُهم أخفى، وهم لا يعلمون أنّ الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام عليهم ثم ذَكَرَ وَصْفَهم فقال:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

إذا جاء الخوفُ طاشت من الرعبِ عقولهم، وطاحت بصائرهم، وتعطلت عن النصرة جميعُ أعضائهم. وإذا ذهبَ الخوْفُ زَيَّنوا كلامَهم، وقدّموا خداعهم، واحتالوا في أحقاد خِستهم.. أولئك هذه صفاتهم؛ لم يباشر الإيمانُ قلوبهم، ولا صدقوا فيما أظهروا من ادعائهم واستسلامهم.

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا، ويخافون من عَوْدهم، ويفزعون من ظلِّ أنفسهم إذا وقعوا على آثارهم، ولو اتفق هجومُ الأعداءُ عليكم ما كانوا إلا في حرز سيوفهم ودرية[1] رماحهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

«كان» صلة ومعناها: لكم في رسول الله أسوة حسنة، به قدوتكم، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لكم. وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله على الوجوب إلى أن يقوم دليل التخصيص، فأما أحواله فلا سبيلَ لأحدٍ إلى الإشراف عليها، فإن ظَهَرَ شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مُكْتَسَباً مِن قِبَلِه فيُلحق في الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله، وإن كان غير مكتسبٍ له فهي خصوصيةٌ له لا ينبغي لأحد أن يتعرّض لمقابلته لاختصاصه ـ ﷺ ـ بعلوِّ رتبته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

كما أنّ المنافقين اضطربت عقائدُهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهلُ اليقين ازدادوا ثِقَةً، وعلى الأعداء جرأةً، ولحكم الله استسلاماً، ومن الله قوةً.

قوله جل ذكره: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

شَكَرَ صنيعَهم في المراس[2]، ومدح يقينهم عند شهود الباس، وسماهم رجالاً إثباتاً لخصوصية رتبتهم وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوِّ الحالة والمنزلة، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صدْقه ومنهم مَنْ ينتظر حكم الله في الحياة والممات، ولم يزيغوا عن عهدهم، ولم يراوغوا في مراعاة حدِّهم؛ فحقيقةُ الصدق حِفْظُ العهد وتَرْكُ مجاوزة الحدِّ.

ويقال: الصدقُ استواءُ الجهر والسِّرِّ.

---

(١) الدّرية: دابة يستتر بها الصائد الذي يرمي الصيد ليصيده، فإذا أمكنه رمى. (لسان العرب ١٤/ ٢٥٥ مادة: دري).

(٢) المراس: القوة على ممارسة الأمور.

ويقال: هو الثباتُ عندما يكون الأمرُ جِدًّا.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

في الدنيا يجزي الصادِقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية، وفي الآخرة بجميلِ الثواب وجزيلِ المآب والخلودِ في النعيم المقيم والتقديمِ على الأمثال بالتكريم والتعظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ على الوجه الذي سَبق به العلم، وتَعَلَّقت به المشيئة.

ويقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق وعَلَّقَ القولَ فيه بالرجاء فبالحريّ ألا يُخَيِّبَ المؤمنَ في رجائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

لم يُشمت بالمسلمين عَدُوًّا، ولم يُوصِّلْ إليهم مَنْ كيدهم سوءاً، ووضع كيدهم في نحورهم، واجتثَّهم من أصولهم، وبيَّن بذلك جواهر صِدْقهم وغير صدقهم، وشكَر مَنْ استوجب شكره مِنْ جملتهم، وفضحَ مَنْ استحقّ الذمّ من المدلسِّين منهم.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

إنّ الحقَّ ـ سبحانه ـ إذا أجمل أكمل، وإذا شفى كفى، وإذا وفى أوفى. فأظفر المسلمين عليهم، وأورثهم معاقلَهم، وأذلّ مُتعزِّزَهم، وكفاهم بكلِّ وجهِ أمرهم، ومكَّنهم من قَتْلِهم وأسرِهم ونهبِ أموالهم، وسَبى ذراريهم(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يُرِدْ أنْ يكونَ قلبُ أحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شُغل، أو يعود إلى أحد منه أذى أو تعب، فخَيَّرَ ـ ﷺ ـ نساءَه، ووفقَ اللّهُ سبحانه عائشةَ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حتى أخبرت عن صِدْقِ قلبها، وكمالِ دينها ويقينها، وبما هو المنتظر

---

(١) الذراري: (ج) الذرية: النسل.
الآية (٢٧) لم ترد.

من أصلها وتربيتها، والباقي جرين على منهاجها، ونَسَجْنَ على مِنوالهَا.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

زيادةُ العقوبة على الجُرْم من أمارات الفضيلة، ولذا فضل حدُّ الأحرار على العبيد وتقليل ذلك من أمارات النَقص؛ فلما كانت منزلتُهن في الشرف تزيد على منزلة جميع النساء ضاعَفَ عقوبتهن على أجرامهن، وضاعف ثوابهن على طاعتهن. وقال:

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

ثم قال:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

نهاهن عن التبذُّل، وأمَرَهُنَّ بمراعاةِ حُرْمَةِ الرسول ﷺ، والتصاون عن تَطَمُّعِ المنافقين في مُلاينتهن.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

«الرجس»: الأفعالُ الخبيثةُ والأخلاقُ الدنيئة؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهرَ منها وما بطن، وما قلّ وما جلّ. والأخلاقُ الدنيئةُ الأهواءُ والبِدَعُ كالبخل والشحُ وقَطْعِ الرَّحِم، ويريد بهم الأخلاقَ الكريمةَ كالجُودِ والإيثار والسخاء وصِلَةِ الرَّحِم، ويديم لهم التوفيق والعصمة والتسديد، ويُطهرهم من الذنوب والعيوب.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

أذكُرْنَ عظيمَ النعمة وجليل الحالةِ التي تجري في بيوتكن؛ من نزول الوحي ومجيء الملائكة، وحُرْمَةِ الرسول ـ ﷺ ـ والنور الذي يقتبس في الآفاق، ونور الشمس الذي يَنبسط على العالم، فاعرفن هذه النعمة، وارعين هذه الحُرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾.

الإسلام هو الاستسلام، والإخلاص، والمبالغة في المجاهدة والمكابدة.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات، ويقال هو التصديق والتحقيق، ويقال هو انتسامُ الحقيقةِ في القلب. ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل، ولقوم بالعلم، ولآخرين، بالفهم عن الله، ولآخرين بالتوحيد، ولآخرين بالمعرفة، ولآخرين إيمانُهم حَياةُ قلوبهم بالله.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

القنوتُ طولُ العبادة.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾.

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾.

على الخصال الحميدة، وعن الصفات الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾.

الخشوعُ إطراقُ السريرة عند بوادِهِ الحقيقة.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾.

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم، أو قالوا فيهم[1].

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

الممسكين عمَّا لا يجوز في الشريعة والطريقة.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾.

في الظاهر عن الحرام، وفي الإشارة عن جميع الآثام.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

بألسنتهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يَفْتُرُون، ولا يَتَدَاخَلُهم نسيان.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهؤلاء لهم جميلُ الحُسْنَى، وجزيلُ العُقْبى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

الافتياتُ عليه في أمره والاعتراضُ عليه في حُكْمِه وتَرْكُ الانقيادِ لإشارته. قَرْعٌ لبابِ الشِّرْكِ، فَمَنْ لم يُمْسِكْ عنه سريعاً وَقَعَ في وهدته.

---

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٢٦ ـ ٢٣١.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أنعم الله عليه بأن ذَكَرَه وأفرده من بين الصحابة باسمه.

ويقال: أنعم اللَّهُ عليه بإقبالِكَ عليه وتَبَنِّيك له. ويقال: بأن أَعْتَقْتَه، ويقال: بالإيمان والمعرفة. وأنعَمْتَ عليه بالعتق وبأن تَبَنَّيْتَه. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إقامةً للشريعة مع عِلْمِك بأن الأمر في العاقبة إلى ماذا يؤول؛ فإنَّ اللَّهَ أَطْلَعَكَ عليه، وقلت له: «اتق». قوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: أي لم تُظهِرْ لهم أنَّ الله عَرَّفَكَ ما يكون من الأمر في المستأنف.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ مِنْ مَيْلِكَ ومحبتك لها لا على وجهٍ لا يَحِلُّ. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي وتخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة من قصة زيد، وكانت تلك الخشية إشفاقاً منكَ عليهم، ورحمةً بهم.

ويقال: وتستحي من الناسِ ـ واللَّهُ أحقُّ أن تَسْتَحِيَ منه.

ويقال: تخشى الناسَ ألا يطيقوا سماعَ هذه الحالة ولا يَقْوَوا على تَحَمُّلِها، فربما يخطر ببالهم ما يَنْفى عنهم وُسْعَهم.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ لكي لا يكونَ عليك حَرَجٌ، ولكي لا يكونَ على المؤمنين حرج في الزواج بزوجات أدعيائهم، فإنما ذلك يُحَرَّمُ في الابن إذا كان من الصُّلْبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

لا يُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد. وما كان على النبيِّ من حَرَجٍ بوجهٍ لكونه معصوماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

«ويخشونه»: علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضررٌ ولا محذورٌ ولا مكروهٌ إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ عَلِموا أنه لا شيءَ لأحدٍ مِنْ دونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

لم يكن مضافاً إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء.. ولكن ليس بأبيكم.

ويقال نَسَبُه ظاهرٌ.. ولكن إنما يُعْرَفُ بي لا بنَسَبِه؛ فقلَّما يقال: محمدُ بن عبد الله، ولكن إلى أبد الأبد يقال: محمد رسول الله. وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ ـ بعد لا إله إلا الله ـ محمدٌ رسولُ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

الإشارة فيه أَحِبُّوا الله؛ لأنَّ النبي ـ ﷺ قال: «مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره» فيجب أن تقول: الله، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله.

ويقال: اذكروا الله بقلوبكم؛ فإنَّ الذكرَ الذي تمكن استدامته ذكرُ القلب؛ فأمَّا ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسْرَمَداً كالمتعذر.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: التسبيحُ من قبيل الذكر، ولكنه ذَكَرَه بلفظين لئلا تعتريك سآمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

الصلاةُ في الأصلِ الدعاءُ؛ فصلاتُه ـ سبحانه ـ دعاؤه لنا بالتقريب، وصلاةُ الملائكة دعاؤهم إليه لنا: بالغفرانِ للعاصي، وبالإحسانِ للمطيع.

ويقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة.

﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أي يعصمكم من الضلال بَرْوح الوصال.

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير.

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم.

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق، والتحقق بأوصاف الجمع.

ويقال يصونكم من الشِّرْكِ، ويُثَبِّتكم بشواهد الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية، واللقاءُ إذا قُرِنَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البَصَر.

والسلام خطاب يفاتح به الملوك إخباراً عن عُلُوِّ شأنهم ورتبتهم، فإلقاؤه حاصِلٌ وخطابُه مسموعٌ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر.

﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾: الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة، وكريماً أي حسناً.

وفي الإشارة أجرهم موفور على عملٍ يسير؛ فإنَّ الكريم لا يستقصي عند البيع والشراء في الأعداد، وذلك تعريف بالإحسانِ السابق في وقت غيبتك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

يأيها المُشَرَّفُ مِنْ قِبَلِنا إنّا أرسلناكَ شاهداً بوحدانيتنا، وشاهداً تُبَشِّر بمتابعتنا، وتحذِّرُ من مخالفة أَمْرِنَا، وتُعْلِمُ الناسَ مواضعَ الخوف مِنَّا، وداعياً إلينا بنا، وسراجاً يستضيئون به، وشمساً ينبسط شعاعُها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ، وآمَنَ بك، فلا يصل إلينا إلَّا مَنْ اتبَّعَكَ وخَدَمَك، وصَدَّقك وقَدَّمَك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بفضلِنا معهم، ونَيْلِهم طَوْلَنا عليهم، وإحسانِنا إليهم. ومَنْ لم تُؤَثِرْ فيه بَرَكَةُ إيمانه بك فلا قَدْرَ له عندنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لا توافِقْ مَنْ أعرضنا عنه، وأضللنا به من أهلَ الكفر والنفاق، وأهل البِدَع والشِّقاق. وتوكلْ على الله بدوام الانقطاع إليه، وكفى بالله وكيلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

إذا آثرتُم فراقَهُنَّ فَمَتِّعوهن ليكونَ لهن عنكم تذكرة في أيام الفرقة في أوائلها إلى أَنْ تتوطَّنَ نفوسُهن على الفرقة.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً تخلَّفتُم به معهن، فلا تجمعوا عليهن الفراقَ بالحال والأضرارَ من جهة المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وسَّعْنَا الأمرَ عليكَ في باب النكاح بكم شِئْتَ؛ فإنك مأمونٌ من عيب عدم التسوية بينهن وعدم مراعاة حقوقهن، ومن الحَيْفِ عليهن. والتَّوْسِعةُ في بابِ النكاحَ تَدُلُّ على الفضيلة كالحُرِّ والعبد.

قوله جلّ ذكره: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

﴿مَن تَشَاءُ﴾: على ما تتعلَّق به إرادتُك، ويقع عليه اختيارُك، فلا حَرَج عليك ولا جُنَاح.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

لمَّا اختَرْنَكَ أثبت اللَّهُ لهن حُرْمة، فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ فكما اخترْنَكَ فلا تَخْتَرْ عليهن امرأةً أخرى تطييباً لقلوبهن، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن، وهذا يدل على كَرَمِه ـ والحِفَاظُ كَرَمٌ ودَيْن.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ الآية.

أَمَرَهم بحفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، ووجوب الاحترام؛ فإذا أُذِنَ لكم فادخلوا على وجه الأدب، وحِفْظِ أحكام تلك الحضرة، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا، ولا تتغافلوا عنكم، ولا يَمْنَعَنَّكُم حُسْنُ خُلُقِه من حِفْظِ الأدب، ولا يحملنَّكم فرطُ احتشامِه على إبرامه.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾: حُسْنُ خُلُقِه ـ ﷺ ـ جَرَّهم إلى المباسطة معه، حتى أنزل اللَّهُ هذه الآية.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾: نَقَلَهم عن مألوفِ العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة، وبَيَّنَ أن البَشَرَ بَشَرٌ ـ وإن كانوا من الصحابة، فقال:

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

فلا ينبغي لأحدٍ أن يأمن نفسه ـ ولهذا يُشَدَّدُ الأمرُ في الشريعة بألا يخلوَ رجلٌ بامرأة ليس بينهما مَحْرَمَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وهذا من خصائصه ـ ﷺ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا، فيهتم بالاتصال مَنْ له مَيْلٌ إليهنَّ بغيرهن بعد وفاته ـ وإنْ كان التحرُّزُ عنه ـ وعن أمثال هذا مِنْ تَرْكِ الحظوظ ـ أتمَّ وأعلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

حِفظُ القلبِ مع الله، ومراعاةُ الأمر ـ بينه وبين الله ـ على الصِّحَةِ في دوام الأوقات لا يَقوى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ الآية.

لما نزلت آيةَ الحجابِ شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار، فأنزل اللّهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

أراد الله ـ سبحانه ـ أن تكون للأمة عنده ـ ﷺ ـ يَدُ خدمةٍ كما له بالشفاعة عليهم يَدُ نعمةٍ، فأَمَرَهم بالصلاة عليه، ثم كافأ ـ سبحانه عنه؛ فقال ﷺ: «مَنْ صَلّى عليَّ مرةً صلى اللّهُ عليه عشر مرات»(١) وفي هذا إشارة إلى أن العبدَ لا يستغني عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات؛ إذ لا رتبةَ فوق رتبةِ الرسولِ، وقد احتاج إلى زيادةِ صلواتِ الأمَّةِ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

يُؤذون اللّهَ ورسولَه بعمل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة، ويؤذون أولياءَه. ولـمّا قال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكذلك مَنْ آذى رسولَه وأنبياءَه عليهم السلام والمؤمنين فقد آذاه، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتبتهم.

ثم ذكر قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ..﴾ وذكر عقوبتهم، فجعل إيذاءَ الرسولِ مقروناً بما ذكر من إيذاء الله، ثم ذكر إيذاء المؤمنين، ويدلُّ ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول ﷺ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هذا تنبيهٌ لهن على حِفظِ الحُرْمة وإثبات الرُّتْبَة، وصيانةٌ لهن، وأمرٌ لهن

(١) أخرجه النسائي (أذان ٣٧)، (سهو ٥٥)، وأحمد بن حنبل ٢، ١٦٨، ٣٧٢، ٣٧٥، ٤٨٥.

بالتصاونِ والتعفُّفِ. وقَرَنَ بذلك تهديده للمنافقين في تعاطيهم ما كان يشغل قلبَ الرسول ﷺ من الإرجاف[١] في المدينة: -

قوله جلّ ذكره: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إنهم إِلَمْ يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُنَّتَنا في التدمير على مَنْ سَلَفَ من الكفار.

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك، ثم استعجالهم قيامَها من غير استعدادٍ لها، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التي علم أنه يُعَذِّبهم بها، وما يقع عليهم من الندامة على ما فَرَّطوا[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

نسبوه إلى الأُذرَة[٣]، وأنَّ به عيباً في الخِلْقَة، ولكنه كان رجلاً حَيِيًّا، وكان إذا اغتسل لا يتجرَّد (من ثوبه)[٤]، فتوهموا به ذلك. وذات يوم خلا ليغسلَه، ووضع ثيابَه على حَجَرٍ فأمشى اللَّهُ الحَجَرَ بثيابه، وموسى يعدو خَلْفَه حتى تَوَسَّطَ بني إسرائيل، وشاهدوا خِلْقَتَه سليمةً، فوقف الحجرُ، وأخذ موسى ثيابه ولبسها، وهذا معنى قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ في القَدْرِ والمنزلةِ. والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس، فقبولُ الناسِ لا عِبْرَةَ به ولا خَطَرَ له، لا سيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُون بلا شيء، ويَرُدُّون بلا شيء قال قائلهم:

إنْ كنتُ عندك يا مولاي مطرحاً ... فعند غيرك محمولٌ على الحدق

وقالوا: فإنْ أَكُ في شِرَارِكُم قليلاً ... فإني في خِيارِكُم كثيرٌ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

القول السديد كلمةُ الإخلاص، وهي الشهادتان عن ضميرٍ صادق.

---

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب (ج) أراجيف.

(٢) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.

(٣) الأُذرَةُ: نفخة في الخصية. (اللسان ٤/ ١٥ مادة: أدر).

(٤) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ويقال سدادُ أقوالِكم سدادُ أعمالِكم، ولقد هَوَّن عليكم الأمرَ فَمَنْ رضي بالقالة ـ وهي الشهادة بأن تَرَك الشِّرْك ـ وقالها بِصِدْقٍ أصلح اللَّهُ له أعمالَه الدنيوية من الخَلَل، وغَفَرَ له في الآخرة الزَّلَل؛ أي حصلت له سعادةُ الدارين.

ويقال ذَكَرَ ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ بالجمع، وقدَّمها على الغُفران؛ لأنه ما لم يُصْلِح لك في حالِكَ أعمالَكَ وإنْ لم يَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ من أشغالك.. لم تتفرغْ إلى حديث آخِرَتِكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

هنا إضمار أي: أهل السموات والأرض والجبال.

وقيل أحياها وأعقلها، وهو كقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾: أي أبين أنْ تَخُنَّ فيها، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي خان فيها. وهم مراتب: فالكفار خانوا في الأصل الأمانة ـ وهي المعرفة ـ فكفروا. ومَنْ دُونَهم خانوا بالمعاصي، وبعضهم أَشَدُّ وبعضهم أهون، وكلٌّ احتقب من الوِزْرِ مقدارَه.

ويقال «أبين» إباءَ إشفاقٍ لا إباء استكبارٍ، واستعفين... فعفا عنهن، وأعفاهن مِنْ حَمْلها.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: قَبِلَها ثم ما رعوها حقَّ رعايتها.. كلٌّ بقدره.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ بصعوبة حَمْلِ الأمانة في الحال، والعقوبة التي عليها في المآل. وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ وعَرَضَها على الإنسان، فهن استعفين وهؤلاء لم يستعفوا ولم يراعوا.

ويقال: الأمانة القيام بالواجباتِ أصولها وفروعها.

ويقال: الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً.

ويقال: لمَّا حَمَلَ آدمُ الأمانة وأولاده قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

ويقال حمل الإنسانُ بالله لا بنَفْسِه. ويقال ظَلَمَ نَفْسَه حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السمواتُ والأرضون. والظُّلْمُ وَضْعُ الشيءِ في غير موضعه.

ويقال كاشَفَ السمواتِ والأرضَ بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا، وكاشَفَ آدمَ وذُرِّيَّتَه بوصف اللطفِ فقَبِلوا وحملوا، وفي حال بقاء العبد بالله يحمل السمواتِ والأرضَ بشعرة من جَفْنِه. ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمباني فأشفقوا من حَمْل الأمانة. والحِمْلُ إنما تحمله القلوب. وآدم كان صاحبَ معنًى فَحَمل، وأنشدوا:

حملت جبال الحكم فوقي وإنني لأَعْجَزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخَلْقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّته، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها، فلمَّا أبوا وأشفقوا حَمَلَها الإنسانَ طوعاً لا كرهاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

اللام في «ليعذب» للصيرورة والعاقبة؛ أي صارت عاقبةُ هذا الأمرِ عذابَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز. (تمَّت السورة) قد يقال: المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَرَدَ ذكرهم.. فأين العابدون وذكرهم؟

ولكنهم في جملة مَنْ مضى ذِكْرُهم، وليسوا في المشركين ولا في المنافقين، فلا محالة في جملة العاصين الذين تاب عليهم.

فيأيها العاصي، كنت تحذر أَنْ يُخْرِجَك العابدون من جملتهم، فاشهد الجبَّارَ ـ في هذا الخطاب ـ كيف أدرجك في جملتهم؟!

سورة سبأ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله كلمةٌ سَلَّابةٌ غلّابة، نهّابةٌ، وهابةٌ؛ تسلب القلوب.. ولكن لا كل قلب، وتغلب الألبابَ ولكن ليس كل لب، وتنهب الأرواح ولكن مِنَ الأحباب، وتَهَبُ الارتياح.. ولكن لقوم مخصوصين مَنْ الطلّاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه، ومَدْحُه لنفسه إخبارٌ عن جلالِه، واستحقاقه لنعوت عزّه وجمالِه، فهو في الأزل حامدٌ لنفسِه محمودٌ، وواحدٌ موجود، في الآزال معبود، وبالطلبات مقصود.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: المُلْكُ لا يكون بالشركة؛ فلا مَلِكَ إلا الله. وإنْ أجرى هذا الاسمَ على مخلوق بالزنجيُّ لا يتغير لونُه وإنْ سُمِّيَ كافوراً!

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِنَ الذين أَعتقهم، وفي النعمة أغرقهم.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتخليد قوم في الجنة، وتأبيد قومٍ في النار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحَبِّ تحت الأرض، والماءِ يرسب فيها، والأشياءِ التي تُلْقَى عليها، والناس يُقْبَرُون في الأرض..

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والأزهار، والموتى يُبعثون.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من القَطْرِ والمَلَكِ، والبركة والرزق، والحُكْم.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الصحف، وحوائج الناس: وهِمَمِ الأولياء.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لجميع المذنبين من المسلمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا

يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

كرّر في القرآن تكذيبهم بالساعة، واستبعادهم لذلك، والردَّ عليهم. وأخبر عن سابق عِلمه بهم، وأنه لا يخرج شيء من معلوماته عن علمه، فأثبت علمه بكل شيءٍ وشموله لكل شيء.. لأنه لو لم يكن له علم لكان نقصاً، ولأنه لو خرَجَ معلومٌ واحدٌ عن علمهِ لكان بقدرته نقصٌ، والنقصُ ـ بأي وصفٍ كان ـ لا يجوز في صفته بحالٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الآياتَ..

المحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم بالعقوبات غيرَ منفصلة.

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذي أَتَيْتَ به حَقاً وصِدْقاً. والذين كفروا قال بعضهم لبعض: إنَّهم يرون أن هذا الذي تقول به من النشر والحساب والبعث كذبٌ، أو أنَّ بِك جِنَّةً، ثم أقام عليهم حُجة التجويز بما أجرى به سُنَّته في الخلق والإبداع.. فما زادهم ذلك إلا جحوداً، وما قابلوه إلا عنوداً[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

«داود» اسم أعجمي، وقيل سمي داود لأنه داوى جُرْحه، وَرَدَ في القصة أنه قال في إحدى مناجاته: يا رب، إني أرى في التوراة ما أعطيتَ لأوليائك وأنبيائك من الرتب فأعطنيها فقال: إني ابتليتهم فصبروا، فقال: إني أصبر على بلائك، فأعْطني ما أعطيتهم، فأبلاه، فوقف، فأعطاه ما أعطاهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: تكلموا في هذا الفضل؛ فمنهم مَنْ أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: وكذلك الجبال، وكان في ذلك تنفيس في وقت حُزْنِه وبكائه. وقيل ذلك الفضلُ رجوعُه إلى الله ـ في حال ما وقع له ـ بالتنصل والاعتذار. ويقال هو شهودُه موضِعَ ضرورته وأنه لا يُصْلِحُ أمرَه غيرُه. ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حَتى كان ليرْغبُ في متَابعته مَنْ يسمع إليه. ويقال حلاوةُ صوته في المناجاة. ويقال حُسْنُ خُلقه مع أمته الذين اتبعوه، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل...

---

(١) الآيات من (٥ حتى ٩) لم ترد.

قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أمرَ الجبالَ والطيرَ بمجاوبته حتى خرَجَ إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسِهِ.

ويقال أوحى الله له: يا داود، كانت تلك الزَّلَّةُ مباركةً عليك! فقال. يا رب، وكيف؟ فقال: كنتَ تجيء قبلها كما يجيء المطيعون والآن تجيء كما يجيء أهل الذنوب!

يا داود، إن أنينَ المذنبين أحبُ إليّ من صُراخ العابدين!

ويقال، كان داود يقول. اللهمّ لا تَغفرْ للخاطئين، غيرةً منه وصلابةً في الدين... فلما وقع له ما وقع كان يقول. اللهم اغفر للمذنبين، فعسى أن تغفرَ لداود فيما بينهم.

ويقال لمَّا تاب الله عليه، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطير بمجلسه، وَرفع صوتَه، وأداره في حَنَكِه على حسب ما كان من عادته تفرّقت الطيور وقَالوا. الصوتُ صوتُ داود والحال ليست تلك! فأوحَى اللَّهُ إليه هذه وَحْشةُ الزّلة، وتلك كانت أُنسَ الطاعة.. فكان داودُ يبكي وينوح ويصيح والطير والجبالُ معه.

وَيقال ليس كلُّ مَنْ صاح وراءه معنى، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبال والطير...

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾. ألان له الحديدَ، وجعل ذلك معجزةً له، وجعل فيه توسعةَ رزقه، ليجدَ في ذلك مكسباً، لِيَقْطَعَ طَمَعَه عن أمته في ارتفاقه بهم ليباركَ لهم في اتِّباعِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

أي آتينا سليمانَ الريح أي سَخّرناها له، فكانت تحمل بساطة بالغدو مسيرة شهر؛ وبالرواح مسيرةَ شهر.

وفي القصة أنه لاحظ يوماً مُلْكَه، فمال الريحُ ببساطه، فقال سليمان للريح: استوِ، فقالت الريح: استوِ أنت، فما دمتَ مستوياً بقلبك كنتُ مستوياً بك، فلما مِلْتَ مِلتُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

أي وآتيناه ذلك، فكانت الشياطينُ مُسَخَّرةً له، يعملون ما يشاء من الأشياء التي ذكرها سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

أي اعملوا يا آل داود للشكر، فقوله: «شكراً» منصوب لأنه مفعول له.

ويقال شكراً؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنين: ٤].

وقد مضى طَرَفٌ من القول في الشكر. والشكور كثير الشكر، والأصل في الشكر الزيادة، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعطَى من العَلَفِ؛ فالشكور الذي يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثالُه وأضرابُه. وإذا كان الناسُ يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره في البلاء.

والشاكر يشكر على البَذْلِ، والشكور على المنع[1]... فكيف بالبذل؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ومالِه، والشاكر ببعض هذه.

ويقال في ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة مني ولا يحملها على الأسباب؛ فلا يشكر الوسائطَ ويشكرني. والأكثرون يأخذون النعمة من الله، ويَجِدُون الخيرَ مِنْ قِبَلِه ثم يتقلدون المِنَّةَ من غير الله، ويشكرون غيرَ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

كان سليمانُ ـ عليه السلام ـ يتكىء على عصاه وقتما قُبِضَ، وبقي على ذلك الوصف مدةً، والشياطين كانوا مُسَخَّرين يعملون ما أمرهم به، ويتصرفون على الوجه الذي رَسَمَ لهم، وينتهون عمَّا زَجَرَهم، فقد كانوا يتوهمُّون أنه حيٌّ. ثم إنَّ الأَرَضَة[2] أكلت عصاه فَخَرَّ سليمانُ فَعلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة، وانفكَّ عنهم ما كانوا عليه من التسخير؛ وهكذا المَلِكُ الذي يقوم مُلكه بغيره، ويكون استمساكه بعصا. فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه، ومَنْ قام بغيره زال بزواله.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

كانوا في رَغَدٍ من العَيْش وسلامة الحال ورفاهته، فأُمِروا بالصبر على العافية

---

(١) جاءت العبارة بالرسالة القشيرية ص١٧٥: الشاكر الذي يشكر عند البذل، والشكور الذي يشكر عند المطل.

(٢) الأرضة: ضربان: ضرب صغار مثل كبار الذر وهي آفة الخشب خاصة، وضرب مثل كبار النمل ذوات أجنحة وهي آفة كل شيء من خشب ونبات، غير أنها لا تعرض للرطب وهي ذات قوائم، والجمع أرضٌ. (اللسان ٧/ ١١٣ مادة: أرض).

والشكر على النعمة، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق، وكفروا بالنعمة، وضَيَّعوا الشكر، فَبَدَّلوا وبُدِّلَ بهم الحال، كما قالوا:

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لِمَن ابتغى عِوَضاً لِسَلْمَى فلم يَجِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[(١)] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ[(٢)] وَأَثْلٍ[(٣)] وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[(٤)] قَلِيلٍ﴾.

كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال، واتصالٍ من التوفيق، وطَرَبٍ من القلب، ومساعدةٍ من الوقت، فيرتكبُ زَلَّةً أو يسيء أدباً أو يتبع شهوةً، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به، فيتغير عليه الحالُ؛ فلا وقتَ ولا حالَ، ولا طربَ ولا وصالَ؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً، كما قلنا.

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أَمِنْتُ الزمانَ مَكْرَه
حال عليَّ الصدودُ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدْتَ ذرَّة

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾.

ما عوملوا إلا بما استوجبوا، ولا سُقُوا إلَّا مِمَّا ثَبِطوا[(٥)]، وما وقعوا إلَّا في الوَهْدَةِ التي حَفَرُوا، وما قُتِلُوا إلا بالسيف الذي صَنَعُوا!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى...﴾: ما كان من شأنهم إلا التمادي في عصيانهم، والإصرار على غيهم وطغيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فرَّقناهم تفريقاً حتى اتخذهم الناسُ مثلاً مضروباً؛ يقولون: ذهبوا أيدي سبأٍ،

---

(١) العرم: السيل الشديد الذي لا يُطاق دفعه.

(٢) الخمط: ضرب من الأراك له حَمْل يؤكل، وقيل: هو شجر قاتل أو سم قاتل، وقيل: شجر مثل السدر وحمله كالتوت، وقيل: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط، وقيل غير ذلك. (اللسان ٧/ ٢٩٦ مادة: خمط).

(٣) الأثل: شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود عوداً تسوى به الأقداح الصفر الجياد. (اللسان ١١/ ١٠ مادة: أثل).

(٤) السدر: شجر شائك من فصيلة النبقيات مهده فلسطين، ينمو برياً وزراعياً، وخشبه شديد الصلابة شائع الاستعمال، وله ثمر فيه حلاوة. واحدته سدرة (ج) سدر.

(٥) ثبطه: عوّقه وشغله وبطأ به عنه.

وتفرَّقوا أيادي سبأ. وفي قصتهم آياتٌ لكل صبَّار على العاقبة، شكور على النعمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

صدَّق عليهم إبليس ظنّه ـ وإنْ كان لا يملك لنفسه أمراً، فإبليس مُسَلَّطٌ على أتباعه من الجنِّ والإنس، وليس به من الإضلال شيء، ولو أمكنه أن يَضُرَّ غيرَه لأمكنه أن يمسكَ على الهداية نَفْسَه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ثم أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه بمُلْكِه متفرِّدٌ، وفي الألوهية متوحِّدٌ، وعن الأضداد والأنداد متعزِّزٌ، وأنهم لا يملكون مثقالَ ذَرَّةٍ، ولا مقياسَ حَبَّةٍ، وليس منهم نصير، ولا شريك ولا ظهير، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن الملائكة في السماءِ بوصف الهيبة فَزِعُون، وفي الموقف الذي أثبتهم الحقُّ واقفون، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون[1].

ثم قال جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

لم يَقُلْ أحدٌ ـ مع شِرْكِه ـ إنه يُحِيلُ في الرزق على أحدٍ غيره، فكما لا شريكَ له في الرزق ولا شريكَ له في الخَلْق فلا شريكَ له في استحقاق العبادة والتعظيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم... ويوم الجمع يحاسِب اللَّهُ كُلًا على أعماله، ويُطَالِبُ كُلاً بشأنه، لا يؤاخِذُ أحداً بعمل غيره، وكلٌّ يُعْطَى كتابَه، ويَطْلُبُ اللَّهُ مِنْ كلِّ واحدٍ حسابَه.

وقد أجرى الله سُنَّتَه بأن يجمع بين عباده، ثم يعاملهم في حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم في حال افتراقهم. فللاجتماع أثرٌ كبيرٌ في الشريعة، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص. وقد عاتب اللَّهُ ـ سبحانه ـ الذين يتفرقون عن النبي ﷺ، ومَدَحَ مَنْ لا يتفرَّق إلا عن استئذان.

---

(١) الآيتان (٢٢، ٢٣) لم تردا.

والشيوخُ ينتظرون في الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية: ﴿قُلْ يَجْمَعُ . . .﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيكَ لا شريك لكَ، هو لك، تملكه وما ملك، لانهماكهم في ضلالتهم. وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر، ولا تسمع ولا تُبصر، وقعت لهم شبهةُ استحقاقها العبادة، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يُقلدون أسلافهم. . . وهذا هو الضلال البعيد والخُسران المبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أَرسلناكَ مُؤيَّداً بالمعجزات، مُشرَّفاً بجميع الصفات، سيداً في الأرضين والسموات، ظاهراً لأهل الإيمان، مستوراً عن بصائر أهل الكفران ـ وإن كنتَ ظاهراً لهم من حيث العيان، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لكثرة ما يقولون هذا كرّره اللَّهُ في كتابه خبراً عنهم، والجواب إن لكم ميعاد يومٍ، وفي هذا الميعاد لا تستأخرون ساعةً ولا تستقدمون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لو رأيتهم يومذاك لرأيتَ منظراً فظيعاً؛ يرجعُ بعضهم إلى بعضِ القولَ، ويُحيل بعضهم على بعضِ الجُرمَ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا، ويُنكرُ الذين استكبروا ويقولون: بل أنتم اتبعتمونا. . . وهكذا أصحابُ الزلاتِ الأخلاءُ في الفساد، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكذلك الجوارحُ والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض؛ فاليدُ تقول للجملة أخذت، والعين تقول أبصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة، ومَنْ عمل بالمعاصي أخرج الله عليه كل من هو أطوع له، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لاعتبروا، ولو اعتبروا لتابوا ووفّقوا. . . ولكن ليقضي اللَّهُ أمراً كان مفعولاً[1].

(١) الآيتان (٣٢، ٣٣) لم تردا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أي قابلوا رُسُلَنا بالتكذيب، وصَبَر رُسُلُنا... وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم؟ فهم لنجاتهم أُرسلوا، ولصلاحِهم دَعَوا وبلغّوا، ولو وافقوهُم لسعدوا... ولكنّ أقساماً سبقت، وأحكاماً حقت، والله غالبٌ على أمره.

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

ليس هذا بكثرة الأموال وَالأولاد، وإنما هي بصائرُ مفتوحةٌ لقوم، وأخرى مسدودةٌ لقوم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

لا تستحقّ الزّلفى عند الله؛ بالمال والأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية، بلْ بالعناية السابقة، وَالهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾: يضاعف على ما كان لِمَنْ تقدمهم من الأمم ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ مِنْ تكّدر الصفوة والإخراج من الجنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حقّ اللّهِ في السرّ، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقوط من عين الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

منَ الخَلَف في الدنيا الرضا بالعَدَم والفقد، وهو أتمّ من السرور بالموجود؛ ومن ذلك الأنسُ بالله في الخلوة؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

قومٌ كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم؛ فيتبرأون منهم وينزّهون الله ويسبحونه، فيفتضح هؤلاء ـ والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة، وفي بعض الأخبار:

أَنّ غداً منْ يسألهم الحقّ فيقعَ عليهم من الخجل ما يجعلهم يقولون: عذّبنا ربنا بما شئت من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال![2]

---

(١) الآية (٣٦) لم ترد. (٢) الآية (٤١) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

الإشارة في هذا أنّ مَن علقَ قلبه بالأغيار؛ وظنّ صلاحَ حاله بالاحتيال؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزعُ اللّهُ الرحمةَ من قلوبهم؛ ويتركهم، ويشوشُ أحوالهم، فلا لهم من الأمثال والأشكال معونة، ولا لهم منْ عقولهم في أمورهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، وإنْ رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم، ويقول لهم: ذوقوا وبالَ[1] ما به استوجبتم هذه العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الحكماء، والأولياء ـ الذين هم الأئمة في هذه الطريقة ـ إذا دَلوا الناسَ عَلَى الله. قال بعض إخوان السوء ـ مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا لمريدٍ: ما هذا؟ من الذي يطيق كل هذا؟ ربما لا تُتمّمُ الطريق!

لا بُد من الدنيا ما دُمت تعيش!... وأمثال ذلك، حَتى يميل هذا المسكينُ عند قبول النصح، وربما كان له هذا من خواطره الدنية... فيهلك ويضلّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة؛ يعارضون أصحابَ القلوب فيما يجري من الأمور، بما تشوِّش إليهم نفوسُهم، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقْتَضَى تفرقةِ قلوبهم ـ على قياس ما يقع لهم ـ مِنْ غيرِ استنادٍ إلى إلهامٍ، أو اعتمادٍ على تقديرٍ من الله وإفهام.

وأهلُ الحقائق ـ الذين هم لسانُ الوقت ـ إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم؛ لأن الذي يتكلم عن الفراسة[2] أو عن الإلهام، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم. وأصحابُ الغفلة ليس لهم إيمان بذلك، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيهلكون، فسبيلُ هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا، ثم الأيام تجيب أولئك[3].

---

(١) ذاق فلان وبال عمله؛ أي ثقل فعله وعاقبته السيئة وجزاءه الوخيم.

(٢) الفِراسة: مأخوذة من التفرس وهو التثبت والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال. وقد تكون وهبية إلهامية يخلقها الله في القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

يقول: إذا سوَّلَتْ لكم أنفسُكم تكذيبَ الرسولِ فأنعموا النظرَ... هل تَرَوْنَ فيه آثار ما رميتوه به؟ هذا محمد ﷺ. قُلْتُم إنه ساحر ـ فأين آثار السحر على أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم إنه شاعر ـ فمن أي قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قلتم إنه مجنون ـ فأيّ جنونٍ ظهر منه؟

وإذ قد عجزتم عن ذلك... فهلَّا عرفتم أنه صادق[1]؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

يقذف بالحقِّ على باطل أهل الغفلة فتزول حِيَلُهم، ويظهر عَجْزُهم. ويقذف بالحقِّ على أحوال أهل الخِلاف فيضمحل اجتراؤهم، ويحيق بهم شؤمُ معاصيهم.

ويقذف بالحقِّ ـ إذا حضر أصحاب المعاني ـ على ظُلُماتِ أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتَهم، ويفضحهم في الحال، ويفضح عوارُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

الباطلُ على مَمَرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً، والحقُّ على مَمَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

إنْ كنتُ مهتدياً فبربِّي لا بجهدي. وإنْ كنت عندكم من أهل الضلال فوبالُ ضلالتي عائدٌ عليَّ، ولن يضرَّكم ذلك. فانظروا أنتم إلى أنفسكم... أين وقعتم؟ وأي ضرر يعود عليكم لو أطعتموني؟ لا في الحال تخسرون، ولا في أنفسكم تتعبون، ولا في جاهكم تنقصون.

وما أخبركم به نَقْصِ أصنامكم فبالضرورة أنتم تعلمون! فما لكم لا تُبْصِرون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

أي لو رأيتَ ذلك لرأيتَ فظيعاً، وأمراً عظيماً؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) الآية (٤٧) لم ترد.

إذا تابوا ـ وقد أُغْلِقَتْ الأبواب، وندمُوا ـ وقد تقطَّعَت الأسباب. . . فليس إلا الحسرات والندم، ولات حين ندامة!

كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِه يُتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويُعْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة. . . يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُرْحَمُ له بكاء[1]، كما قيل:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت، والخَصْمُ يريد إرضاءه فيستحيي أن يذكر في ذلك الوقت، وينسدُّ لسانه ويعتقل؛ فلا يمكنه أن يُفْصِحَ بما في قلبه، ويودُّ أَنْ لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعْدٌ بعيد، ويتمنى أن يُطِيعَ فلا تساعده القوةُ، ويتمنى أن يكون له ـ قبل خروجه من الدنيا ـ نَفَسٌ. . . ثم لا يتفق.

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

سورة فاطر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها يوجب رَوْحاً لمنْ كان يشاهد الإتقان، ويُوجِبُ لَوْحاً لمنِ كان بوصف البيان؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان، واللوحُ من شهود السلطان، وكلٌّ مُصيب، ولكلٌّ من الحقِّ نصيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾.

استحق المدحَ والثناءَ على انفراده بالقدرة على خلق السموات والأرض.

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾:

تَعرَّف إلى العباد بأفعاله، ونَدَبَهم إلى الاعتبار بها، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينةً كالسموات والأرض وغيرها، ومنها ما سبيلُ الإيمانِ به الخبرُ والنقلُ ـ لا بدليل العقل ـ والملائكةُ مِنْ ذلك؛ فلا نتحقق كيفيّة صُوَرِهم وأجنحتهم، وكيف يطيرون بأجنحتهم الثلاثة أو الأربعة، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته، وصِدْقَ كلمته.

قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: قيل الخُلُقُ الحَسَنُ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ وقيل مَلاَحَةُ العينين، وقيل الكياسة في الخِيَرَة، وقيل الفصاحة في المنطق، وقيل الفهم عن الله، ويقال السخاء والجود، ويقال الرضا بالتقدير، ويقال علو الهمة، ويقال التواضع، ويقال العفة عند الفقر. ويقال الظرف في الشمائل، ويقال أن تكون مُحَبَّباً إلى القلوب، ويقال خفة الروح، ويقال سلامة الصدر من الشرور، ويقال المعرفة بالله بلا تأمُّل برهان(1)، ويقال الشوق إلى الله، ويقال التعطُّف على الخَلْقِ بجملتهم، ويقال تحرُّر القلوب من رِقِّ الحدثنان بجملته، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلةً في الدارين.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

---

(1) انظر حديث القشيري عن المعرفة بالله بالرسالة القشيرية ص311 ـ 317.

المُوَسَّعُ عليه رِزقهُ لا يُضَيِّقُ عليه غيرُ الله، والمحرومُ لا يُوَسِّعُ عليه غيرُ الله.

ويقال: ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحابَ يستره، ولا ضياءَ يقهره.

ويقال: ما يلزم قلوبَ أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له، وما يُغْلَق على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فاتحَ له غيره ـ سبحانه.

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمْسِكَ له، والذي يمنعه عن أعدائه ـ بما يُلْقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها ـ فلا مُيَسِّرَ له من دونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

مَنْ ذَكَرَ النِّعمةَ فصاحبُ عبادةٍ، ونائِلُ زيادة، ومَنْ ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادةٍ، ونائِلُ زيادة... ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادة؛ ذلك زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاؤه: اليوم سِرًّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة.

والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ عنه من المِحَن، وما نَفَعَ به من المِنَن؛ فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجِبُ دوامَ العصمة، وذكره لما نَفَعَه به يوجب تمام النعمة.

﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ...﴾؟ وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازقَ غيره لم يُعلِّقْ قلبَه بأحدٍ في طلب شيءٍ، ولم يتذلل في ارتفاقٍ لمخلوقٍ، وكما لا يرى رِزْقَه من مخلوقٍ لا يراه من نفسه أيضاً؛ فيتخلَّصُ من ظلمات تدبيره واحتياله، ومن تَوَهُّم شيءٍ من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يُخْلِصُ في توكله وتفويضه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

هذه تسليةٌ للرسول ﷺ، وتسهيلٌ للصبر عليه؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنَّهم صَبَرُوا وأنَّ اللَّهَ كفاهم، فهو يسلك سبيلَهم ويقتدي بهم، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه. وفي هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب في موقفهم من العوامّ والأجانبِ عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، بينما أهل الحقائق أبداً منهم في مقاساة الأذى إلا بستر حالهم عنهم.

والعوامُّ أقرب إلى هذه الطريقة من القُرّاءِ المتقشفين، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

وَعْدُ اللَّهِ حقٌّ في كل ما أخبر به أنه يكون، فَوعْدُه في القيامة حقٌّ، ووعده لِمَنْ أطاعه بكفاية الأمور والسلامة حقٌّ، ووعده للمطيعين في الآخرة بوجود الكرامة حقٌّ، وللعاصين بالندامة حقٌّ، فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك استعدَّ للموت، ولم يهتم بالرزق، فيكفيه اللَّهُ شُغْلَه، فينشط العبدُ في استكثار الطاعة ثقةً بالوعد، ولا يُلِمُّ بالمخالفاتِ خوفاً من الوعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

عدواةُ الشيطان بدوام مخالفته؛ فإنَّ مِنَ الناس مَنْ يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالربِّ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة. والشيطانُ لا يفتر في عداوتك، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ لك.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله، المشتغلون بغير الله، الغافلون عن لله. ودليلُ هذا الخطاب: إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً، وأنا وَلِيُّكم وحبيبُكم فأَحِبُّوني وارْضَوْا بي حبيباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الذين كفروا لهم عذابٌ مُعَجَّلٌ وعذابٌ مُؤَجَّلٌ، فَمُعَجَّلُه تفرقةُ قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة هِمَّتِهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنمُ معبودَهم. وأمَّا عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلم ـ على الجملة ـ صعوبتُه.

وأمَّا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلهم مغفرةٌ أي سَتْرٌ لذنوبهم اليومَ، ولولا ذلك لافتضحوا، ولولا ذلك لَهَلَكُوا.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة، وما يناله في القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال. وفي الآخرة: تحقيقُ السُّؤْلِ ونَيْلُ ما فوق المأمول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

معنى الآية: أفمن زين له سوءُ عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك؟ لا يستويان!

ومعنى ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أن الكافرَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ عملَه حَسَنٌ، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثم الراغبُ في الدنيا يجمع حلالَها وحرامَها، ويحوّش[1] حُطَامها، ولا يفكر في زوالها، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها؛ فلقد زين له سوء عمله والذي يتبع شهواته ويبيع مؤبّد راحاته في الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله. وإن الذي يُؤْثِرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لَهُوَ من جملتهم. والذي يتوهَّمُ أنه إذا وَجَدَ نجاتَه ودرجاتِه في الجنة ـ وأنَّ هذا يكفيه.. فقد زُيِّن له سوءُ عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة. والذي هو في صحبة حظوظه ولا يُؤْثِرُ حقوق اللّهِ فلقد زين له سوء عمله فرآه حسناً.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾: يعني إذا عَرَفْتَ حقَّ التقدير، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله، ودَعَوْتَهم جَهْراً، وَبذلْتَ لهم نُصْحاً، فاستجابتُهم ليست لك، فلا تَجْعَلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناءً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

أجرى سُنَّتَه بأنه يُظْهِرُ فَضْلَه في إحياء الأرض بالتدريج؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب، ثم يوجِّه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصاً كيف يشاء، ويُمْطِرُ هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياءَ قلبِ عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء، ويزعج بها كوامنَ الإرادة، ثم ينشىء فيها سُحُبَ الاهتياج، ولوعةَ الانزعاج، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ في القلب أزهارَ البَسْطِ، وأنوارَ[2] الرَّوْح، فيطيب لصاحِبه العَيْشُ إلى أن تمَّ لطائفُ الأُنْسِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أَنَّ العزةَ بجملتها لله، فليس للمخلوق شيءٌ من العِزَّة. ويقال مَنْ كان يريد العزةَ لنفسه فللّه العِزَّةُ جميعاً، أي فليطلبها من الله، وفي آية أخرى أثبت العزة للّهِ ولرسوله وللمؤمنين، وقال هاهنا ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ وَوَجْهُ الجميع بينها أن عِزَّ الربوبية لله وَصْفاً، وعزَّ الرسول، وعزّ المؤمنين لهم فضلاً من الله ولطفاً؛ فإذاً العِزَّةُ لله جميعاً. وعزُّه سبحانه ـ قُدْرَتُه. أو ويقال العزيز هو القاهر الذي لا يُقْهَرُ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين.. ومن صفات ذاته على القول الآخر. ويقال العزيز هو الذي لا يُوصَلُ إليه مِنْ قولهم: أرضٌ عَزاز إذا لم تستقر عليها الأقدام، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه.

(١) حوّش المال: جمعه.

(٢) أنوار: (ج) النور: الزهر أو الأبيض منه. الواحدة: نورة.

ويقال العزيز الذي لا مِثْلَ له؛ من قولهم؛ عَزَّ الطعام في اليد. فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو.

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: الكلم الطيب هو الصادرُ عن عقيدةٍ طيبةٍ ـ يعني الشهادتين ـ عن إخلاص. وأراد به صعودَ قَبُولٍ، لأنَّ حقيقةَ الصعود في اللغة بمعنى الخروج ـ ولا يجوز في صفة الكلام.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: أي يقبله. ويقال العملُ الصالحُ يرفع الكَلِمَ الطيب. ويقال الكَلِمُ الطيبُ ما يكون موافقاً للسُّنَّة، ويقال هو ما يشهد بِصِحَّتِه الإذنُ والتوقيف. ويقال هو نُطْقُ القلبِ بالثناء على ما يستوجبه الربُّ. ويقال هو ما يكون دُعاءً للمسلمين. ويقال ما يتجرد حقاً للحقِّ ولا يكون فيه حَظٌّ للعبد. ويقال ما هو مُسْتَخْرَجٌ من العبد وهو فيه مفقود. ويقال هو بيانُ التنصُّل وكلمة الاستغفار.

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويقال الذي ليس فيه آفة ولا يُطْلَبُ عليه عِوَضٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي يَقْلِبُ عليهم مَكْرَهم فيما يتوهمونه من خيرٍ لهم يَقْلِبُه محنةً عليهم. ويقال: تَخْلِيَتُه إياهم ومَكْرَهم ـ مع قدرته على عصمتهم، وكَوْنُه لا يعصمهم هي عذابهم الشديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبوا بحالتهم، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريعُ التغيُّر، قليلُ القوة في المُكث، لكنه يَقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجودِ أعاده بعد انكساره بالذنوب.

وإذا كان لا يَخْفى عليه ـ سبحانه ـ شيءٌ من أحوالهم في ابتداء خَلْقَتِهم، فَمَنْ يُبالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يعلم أنه يَعْصي فلا يبالي أَنْ يغفرَ لِمَنْ رآه يعصي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

لا تستوي الحالتان: هذه إقبالٌ على الله، واشتغالٌ بطاعته، واستقلال بمعرفته.. وهذه إِعْراضٌ عن الله، وانقباضٌ عن عبادته، واعتراض ـ على الله ـ في قسمته وقبضته.

هذه سبب وصاله، وهذه سببُ هَجْرِه وانفصاله، وفي كلِّ واحدةٍ من الحالتين يعيش أهلها، ويُزْجِي أصحابُها وقتَها. ولا يستوي الوقتان: هذا بَسْطٌ وصاحبُه في رَوْح، وهذا قبضٌ وصاحبه في نَوْح. هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح. هذا فَرْقٌ وصاحبُه بوصف العبودية، وهذا جَمْعٌ وصاحبُه في شهود الربوبية.

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: كذلك كُلٌّ يتقرَّبُ في حالته لربِّه، ويتزيَّنُ على بابه، وهو حِلْيَتُه التي بها يتحلّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْس. وكذلك القبضُ والبسط فقد يستويان، ومرةً يغلب القبضُ على البسط، ومرةً يغلب البسطُ على القبض، وكذلك الصحو والسُّكْرُ، وكذلك الفناء والبقاء.

وَسَخَّرَ شموسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: فأروني شظيةً من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه! وإذْ لم يُمْكِنْكُم ذلك.. فَهَلَّا أَقْرَرْتُم، وفي عبادته أخلصتم، وعن الأصنام تبرَّأْتُم؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

إنْ استعنْتُم بأصنامكم لا يُعينوكم، وإنْ دَعَوْتُموهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سَمِعُوا ـ على جهة ضَرْبَ المَثَلِ ـ لا يستجيبون لكم؛ لأنهم لا يَمْلِكُون نَفْعَ أنفسِهم. فكيف يَمْلِكون نَفْعَ غيرهم؟!

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: لا يؤمنون إلا في ذلك الوقت، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

الفقر[1] على ضربين: فقر الخِلْقَة وفقر الصفة؛ فأمّا فقر الخِلْقَة فهو عامٌّ لكلِّ أحدٍ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه، فهو قد حَصَلَ من العَدَم، فهو مفتقر إليه ليبديه

(١) انظر حديث القشيري عند الفقر في الرسالة ص٢٧١ ـ ٢٧٩.

وينشيه، ثم بعد ذلك مفتقرٌ ـ في حال بقائه إليه ـ لِيُديمَه ويقيه. فاللّهُ ـ سبحانه ـ غنيٌّ، والعبدُ فقير؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللّهُ غنيٌّ بعينه.

وأمَّا فقر الصفة فهو التجرُّد، ففقرُ العوامِ التجرُّدُ من المال، وفقر الخواص التجرد من الأعلال لِيَسْلَمَ لهم الفقر.

والفقر على أقسام: فقر إلى الله، وفقر إلى شيء هو من الله؛ معلوم أو مرسوم وغير ذلك. ومَنْ افتقر إلى شيءٍ استغنى بوجود ذلك الشيء؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله، والمستغني بالله مفتَقِرٌ إلى الله(١).

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكُّبر، وشَرَفُ العبد في فقره، وكذلك ذُلُّه في توهمه أنه غنيٌّ: ـ

وإذا تـذلَّـلَـتْ الـرِّقـابُ تَـقَـرُّبـاً مِـنَّـا إلـيـكَ فـعِـزُّهـا فـي ذُلِّـهـا

ومن الفقر المذموم، أن يَسْتُرَ الحقُّ على صاحبه مواضعَ فقره إلى ربِّه، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَه الحقُّ مواضعَ فَقْرِه إليه.

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملكَ شيئاً ويملك كلَّ شيءٍ.

ويقال: الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء.

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشَكُّرِ عند كمالِ التكَسُّر. ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى. ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى.

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السِّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله.

ويقال: الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقتِ من غير استكراه شيءٍ منه بكلِّ وجْهٍ.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: الإشارة منه أن يُعْطِي حتى يُحْمَد.

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاه لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة ـ وجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك ـ وإمَّا ليجود ويتفضَّل على أحدٍ.

ويقال: لا يقول لنا أنتم الفقراءُ للإزرار بنا ـ فإنَّ كَرَمَه يتقدَّسُ عن ذلك ـ وإنما المقصود أنه إذا قال: والله الغني، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا.

---

(١) قال القشيري برسالته: سُئل الجنيد عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى: أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل، فقد صح الاستغناء بالله تعالى، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال: أيهما أتم الافتقار أم الغنى؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى. (الرسالة القشيرية ص٢٧٣).

ويقال إذا لم تَدَّعِ ما هو صفته ـ من استحقاق الغِنَى ـ أولاك ما يُغْنِيك، وأعطاكَ فوق ما يكفيك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

عَرَّفَكَ أنه غنيٌّ عنك،، وأشهدك موضع فقرك إليه، وأنه لا بُدَّ لك منه، فما القصد من هذا لا إرادته لإكرامك وإيوائك في كَنَفِ إنعامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

كُلٌّ مُطَالَبٌ بعمله، وكلٌّ محاسَبٌ عن ديوانه، ولكلٍّ معه شأن، وله مع كلِّ أحدٍ شأن. ومن العبادات ما تجري فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجري النيابة؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ، فلو قضى عنه ألفُ وليٍّ وألفُ صَفِيٍّ تلك الصلاةَ الواحدةَ عن كل ركعةٍ ألفَ ركعةٍ لم تُقْبَلْ منه إلّا أنْ يجيءَ هو: معاذ الله أن نأخذ إلا مِمَّن وجدنا متاعنا عنده! فعتابُك لا يجري مع غيرِك والخطابُ الذي معك لا يسمعه غيرُك:

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتي مكانُكَ من قلبي عليكَ مصونُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة، والخشيةُ هي المخافة؛ فمعنى الآية، لا ينفع التخويف إلّا لمن صَاحَبَ الخوفَ ـ وطيرُ السماءِ على أشكالها تَقَعُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

كما لا يستوي الأعمى والبصير لا تستوي الظلمات والنور، ولا يستوي الظلُّ والحرور، ولا الأحياء والأموات.. وكذلك لا يستوي الموصول بنا والمشغول عنَّا، والمجذوبُ إلينا، والمحجوبُ عنَّا، ولا يستوي مَنْ اصطفيناه في الأزل ومن أشقيناه بحكم الأزل، ولا يستوي من أشهدناه حقَّنا ومن أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا:

أحبابنا شتان: وافٍ وناقِضُ ولا يستوي قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إلّا بعثنا فيهم نذيراً، وفي وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحقّ.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: تضمنت الآية بيانَ أنه لم يُخْلِ زماناً ولا قوماً مِنْ شَرْع. وفي وقته ﷺ أفرده بأنْ أرسله إلى كافة الخلائق، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

أي لو قابلوك بالتكذيب فتلك سُنّتُهم مع كلِّ نبيٍّ؛ وإن أَصَرُّوا على سُنَّتِهم في الغيِّ فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تبديلاً في الانتقام والخزي(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

بيَّنَ في هذه الآية وأمثالها أن تخصيصَ الفعلِ بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه، وفي إتقانِ الفعلِ وإحكامه شهادة على عِلْم الصانِع وإعلامِه.

وكذلك ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف، وهو دليل ثبوت مُنْشِيها بنعت الجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

«إنما» كلمة تحقيق تجري من وجهٍ مجرى التحديد أي التخصيص والقَصْر، فَمَنْ فَقَدَ العِلْمَ بالله فلا خشيةَ له من الله.

والفرق بين الخشية والرهبة أنَّ الرهبةَ خوفٌ يوجِبُ هَرَبَ صاحبه فيجري في هربه، والخشية إذا حصلت كَبَحَت(٢) جماحَ صاحبها فيبقى مع الله، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة.

والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالخشية قضية العلم، والهيبة توجب المعرفة.

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقِّه. ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق.

ويقال حَذَراً من أن يحصلَ لهم سوءُ أدبٍ وتَرْكُ احترامٍ، وانبساطٌ في غير وقته بإطلاق لَفْظٍ، أو تَرَخُّصٍ بتَرْكِ الأَوْلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

---

(١) الآية (٢٦) لم ترد.

(٢) كبح فلاناً عن حاجته: رده عنها. وجمع الرجل: ركب هواه فلا يمكن رده.

الذين يستغرق جميعَ أوقاتِهم قيامُهم بذكر الله وبحقِّه، وإتيانُهم بأنواع العبادات وصنوف القُرَبِ فَلَهم القَدْرُ الأجَلُ من التقريب، والنصيبُ الأوفر من الترحيب. وأما الذين أحوالهم بالضدِّ فَمَنَالُهم على العكس. أولئك هم الأولياءُ الأعِزَّةُ، وهؤلاء هم الأعداءُ الأذِلَّة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

ما عَرَّفْنَاكَ ـ من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك، وتقديمنا لك على الكافة ـ فعلى ما أخبرناك، وأنشدوا:

لا أبـتـغـي بَـدَلاً سـواكِ خـلـيـلـةً ... فَـثِـقِـي بـقـولـي والـكِـرَامُ ثِـقَـاتُ

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

﴿أَوۡرَثۡنَا﴾: أي أعطينا الكتابَ ـ أي القرآن ـ الذين اصطفينا من عبادنا، وذَكَرَ الإعطاءَ بلفظِ الإرثِ توسُّعاً.

﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾: أي اخترنا. ثم ذكر أقسامَهم، وفي الخبر أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «أمتي وربِّ الكعبة»[2] ثلاث مرات.

وفي الآية وجوهٌ من الإشارة: فمنها أنه لمَّا ذكر هذا بلفظ الميراثِ فالميراثُ يقتضي صحة النَّسَبِ على وجهٍ مخصوص، فَمَنْ لا سبَبَ له فلا نَسَبَ له، ولا ميراثَ له.

ومحلُّ النَّسبِ ها هنا المعرفة، ومحلُّ السبب الطاعة. وإن قيل محلُّ النَّسبِ فَضْلُه، ومحل السبب فِعْلُك: فهو وَجْهٌ. ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانُه لك تالياً.

ويقال أهلُ النسب على أقسام: ـ الأقوى، والأدنى كذلك في الاستحقاق.

ويقال جميع وجوه التملُّك لا بُدَّ فيها من فِعْلٍ للعبد كالبيع، أمَّا ما يُمْلَكُ بالهِبَةَ فلا يحصل إلا بالقبول والقسمة، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك. والوصية لا تُسْتَحَقُّ إلا بالقبول، وفي الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل السُّهْمَانِ، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفعله، والنَّسبُ ليس من جملة أفعاله.

---

(١) الآية (٣٠) لم ترد.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٩٠).

ويقال الميراث يُسْتَحقُّ بوجهين: بالفرض والتعصيب، والتعصيبُ أقوى من الفرض؛ لأنه قد يستحق به جميع المال، ثم الميراث يبدأ بذوي الفروض ثم ما يتبقى فللعَصَبَةِ[١].

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: تكلموا في الظالم، فمنهم من قال هو الأفضل، وأرادوا به من ظَلَمَ نَفْسَه لكثرة ما حَمَّلَها من الطاعة.

والأكثرون: إنَّ السابقَ هو الأفضل، وقالوا: التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة، ولهذا نظائر كثيرة.

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينةً وهي قوله: «لنفس»، وقرن باسم السابق قرينةً وهي قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ فالظالمُ كانت له زَلَّة، والسابق كانت له صولة، فالظالم رَفَعَ زلَّتَه بقوله: لنفسه، والسابق كَسَرَ صولتَه بقوله: بإذن الله.

كأنه قال: يا ظالمُ ارفعْ رأسَك، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك، ويا سابقُ اخفض رأسَك؛ سَبَقْتَ ـ ولكن بإذن الله.

ويقال إنَّ العزيزَ إذا أرى ظالماً قَصَمَه، والكريمَ إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده، كأنه قال: يا ظالم، إنْ كان كونُكَ ظالماً يوجِبُ قَهْرَك، فكوْنُكَ مظلوماً يوجِبُ الأخذَ بيدك.

ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلَّاتُه، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته، والسابقُ مَنْ زادت حسناته.

ويقال الظالمُ مَنْ زهد في دنياه، والمقتصدُ مَنْ رغب في عقباه، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاه.

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَمَ كوكبُ عقله، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ عِلْمه، والسابقُ من ذَرَّتَ شمسُ معرفته.

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَه، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَه، والسابق مَنْ بقي معه.

ويقال الظالِمُ مَنْ تَرَكَ المعصية، والمقتصد مَنْ تَرَكَ الغفلة، والسابق مَنْ تَرَكَ العلاقة.

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بمالِه، والمقتصد مَنْ لم يبخلْ بِنَفْسِه، والسابق مَنْ جاد بروحه.

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين، والمقتصد مَنْ له عين اليقين، والسابق مَنْ له حق اليقين.

---

(١) العَصَبَة: الذين يرثون الرجل عن كلالة، من غير والد ولا ولد. فأما في الفرائض فكل من لم تكن له فريضة مسماة. فهو عَصبة، إن بقي شيء بعد الفرائض أخذ. (اللسان ١/ ٦٠٥ مادة: عصب).

ويقال الظالم صاحب المودة، والمقتصد الخلّة، والسابق صاحب المحبة.

ويقال الظالم يترك الحرام، والمقتصد يترك الشُّبهة، والسابق يترك الفضل(١) في الجملة.

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء، والمقتصد صاحب جود، والسابق صاحب إيثار.

ويقال الظالم صاحب رجاء، والمقتصدُ صاحبُ بَسْط، والسابق صاحب أُنس.

ويقال الظالم صاحب خوف، والمقتصد صاحب خشية، والسابق صاحب هيبة.

ويقال الظالم له المغفرة، والمقتصد له الرحمة والرضوان، والسابق له القربة والمحبة.

ويقال الظالم صاحب الدنيا، والمقتصد طالب العُقْبى، والسابق طالب المولى.

ويقال الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسابق صاحب المناجاة.

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة، والمقتصد فاز بالمثوبة، والسابق متحقق بالقربة.

ويقال الظالم مضروبٌ بسَوْطِ الحِرْصِ، مقتول بسيف الرغبة، مضطجعٌ على باب الحسرة. والمقتصدُ مضروبٌ بسوط الندامة، مقتولٌ بسيف الأسف، مضطجع على باب الجود.

والسابقُ مضروبٌ بسوط التواجد، مقتول بسيف المحبة، مُضْطَجِعٌ على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل، والمقتصد صاحب التسليم، والسابق صاحب التفويض.

ويقال الظالم صاحبُ تواجد، والمقتصد صاحب وَجْد، والسابق صاحب وجود.

ويقالُ الظالم صاحبُ المحاضرة، والمقتصد صاحب المكاشفة، والسابق صاحب المشاهدة.

ويقال الظالم يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرةً، والمقتصد يراه في كل يوم مرةً، والسابق غير محجوبٍ عنه ألبتةَ.

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْلِه الذي هو فضله، والمقتصد مكاشَفٌ بوصفه الذي هو عِزُّه، والسابقُ المستهلَكُ في حقِّه الذي هو وُجُودُه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ لأنه ذكر الظالم مع السابق.

---

(١) الفضل: هنا الزيادة. يقول سهال بن عبد الله عن الحلال الصافي: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وهو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص١١٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

نَبَّهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله، وليس في الفضل تمييز.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

تحققوا بحقائق الرضا، والحَزَنُ سُمِّي حَزَناً لُحزُونةِ[1] الوقتِ على صاحبه وليس في الجنة حزونة وإنما هو رضاً واستبشار.

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة. ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوءُ الأدب. ويقال هو سياسة النفس.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للعصاة، ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين. قَدَّمَ ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾: أي دار الإقامة، لا يبغون عنها حولا، ولا يتمنون منها خروجاً.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: إذا أرادوا أن يَرَوْا مولاهم لا يحتاجون إلى قَطْع مسافةٍ، بل غُرَفِهم يلقون فيها تحيةً وسلاماً، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى تقليب حدقةٍ أو تحديق مقلة في جهة؛ يَرَوْنه كما هُمْ بلا كيفية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾.

لا حياة يَتَمَتَّعُون بها، ولا موتَ يستريحون به، وهم مقيمون في العذاب والحجاب، لا يفتر عنهم العذاب، وتُرْفَعُ عنهم العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فيقال لهم أو لم نعمركم. . .؟

---

(١) حزن المكان حزونة: خشن وغلظ، فهو حزن.

أَمَا جاءكم النذيرُ قبل أن تبلغوا زمان المشيب؟

ويقال: ألم تستوفوا مدةَ الإمهالِ في النظر؟

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾: الرسل، ويقال ضعف الشيخوخة، ويقال سقوط السِّنِّ، ويقال تَقَوُّسُ الظَّهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي عالِم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجَحْدِ الكافرين.

عالِمٌ بِمَنْ يريد بالناس السوءَ وبِمَنْ يُحْسِنُ باللَّهِ الظنَّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أهلُ كلِّ عصرٍ خليفُ عَمَن تقدمهم؛ فَمِنْ قوم هم لِسَلَفِهم حَمَال[١]، ومِنْ قوم هم أراذل وأنذال؛ فالأفاضلُ زمانهم لهم محنة، والأراذل هم لزمانهم محنة. وقد قالوا:

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أَجْلِه حَيًّا غدٌ والْتَفَتَ الأمسُ

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

كَرّرَ إشهادَهم عَجْزَ أصنامهم، ونَقْصَ مَنْ اتخذوهم آلهة من أوثانهم؛ ليُسَفِّهَ بذلك آراءَهم، وليُنَبِّهَهُم إلى ذميم أحوالِهم وأفعالِهم، وخِسَّةِ هِمَمِهم، ونُقْصانِ عقولهم.

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيءٍ مما به يُطَالَبُون، وليس لهم صواب عمَّا يُسْأَلُون.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

---

(١) الحمال: ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين. (لسان العرب ١١/ ١٨٠ مادة: حمل).

أمسكها بقدرته، وأتقنهما بحكمته، ورتَّبهما بمشيئته، وخلَقَ أهلَهما على موجب قضيته، فلا شبيهَ في إبقائهما وإفنائهما يُسَاهِمُه، ولا شريكَ في وجودِهما ونظامهما يُقَاسِمُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

ليس لقولهم تحقيق، ولا لِعَهدِهِم وضمانهم توثيق، وما يَعِدُون من أنفسهم فصريحُ زُورٍ، وما يُوهِمُون مِنْ وفائهم فَصِرْفُ تغريرٍ.. وكذلك المريدُ في أوان نشاطه تُمَنِّيه نَفْسُه فتظاهر أمام مَنْ تقدَّمه حالاً بأنه عاهد الله، وأنه أكَّدَ عقده مع الله.. فإذا عَضَّته شهوتُه، وأراد الشيطانُ أن يكذبه صَرَعَه بكيده، وأركسه[1] في هوة غَيِّه، ومُنْيَةِ نَفْسِه؛ فيسودُ وَجْهُه، وتذهب عند اللهِ وجاهتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

في الجملة ما خاب له وليٌّ، وما ربح له عدوٌّ، ولا ينال الحقيقةَ مَنْ انعكس قَصْدُه، بل يرتدُّ عليه كَيْدُه؛ وهو سبحانه يُدَمِّر على أعدائه تدميراً ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ به، وما اتسعت أيامُهم القصيرة له، فأَخَّرَ ذلك ليومِ الحَشْرِ.. فإنَّه طويلٌ. واللَّهُ على كل شيءٍ قديرٌ، وبأمورِ عبادِه خبيرٌ بصير.

---

(١) أركسه: ركسه أي رد أوله على آخره، وقلَبَه على رأسه.

سورة يٰس

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» آيةٌ افتتح بها خطابَه؛ فَمَنْ عَلِمَها أجزل ثوابَه، وَمَنْ عَرَفَها أكثر إيجابَه، ومَنْ أَكْبَرَ قَدْرَها أَكْرَمَ مآبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

يقال معناه: يا سيد. ويقال: الياء تشير إلى يوم الميثاق، والشين تشير إلى سِرِّه مع الأحباب؛ فيقال بحقِّ يوم الميثاق وسِرِّي مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم: ـ

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي إِنَّكَ ـ يا محمد لَمِنَ المرسلين، وإِنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

أي هذا الكتاب تنزيل (العزيز): المتكبر الغني عن طاعة المطيعين، (الرحيم): المُتَفَضِّل على عباده المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

أي خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن، وأنزلنا عليكَ هذا الفُرقان لِتُنْذِرَ به قوماً حصلوا في أيام الفترة، وانقرض أسلافُهم على هذه الصِّفَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي حقَّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرُّوا على جَحْدِهم، وانهمكوا في جهلهم، فالمعلومُ منهم والمحكومُ عليهم أنَّهم لا يُؤمنون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾.

سَنَجُرُّهُم إلى هوانهم وصغرهم، وسنذيقهم وبالَ أمرهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أغرقناهم اليومَ في بحار الضلالة وأحطنا بهم سرادقات الجهالة. وفي الآخرة سنُغْرِقُهم في النار والأنكال، ونضيِّقُ عليهم الحال، بالسلاسل والأغلال.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: أعميناهم اليومَ عن شهود الحُجَّة، ونُلَبِّسُ عليهم في الآخرة سبيلَ

المَحَجَّة، فَيتَعَثَّرُون في وَهَدَاتِ جهنم داخرين، ويبقون في حُرُقَاتها مهجورين، مطرودين ملعونين، لا نَقْطَعُ عنهم ما بْه يُعَذَّبُون، ولا نَرْحمهم مما منه يَشْكُون؛ تَمادَى بهم حِرْمانُ الكفر، وأحاطت بهم سرادقاتُ الشقاء، وَوقعت عليهم السِّمَةُ بالفراق.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

مهجورُ الحقِّ لا يَصِلُه أحدٌ، ومردودُ الحقِّ لا يَقْبَلُه أحد. والذي قَصَمَتْه المشيئةُ وأقْمَتْهُ القضيةُ لا تنجعُ فيه النصيحة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

أي إنما ينتفع بإنذارك مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ؛ فإنَّ إنذارك ـ وإن كان عاماً في الكُلِّ وللكُلِّ ـ فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون.. ألَا سَاء ما يحْكُمون، وإن كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون. أمَّا الذين اتبعوا الذكر، واستبصروا، وانتفعوا بالذي سمعوه منك، وبه عملوا ـ فقد استوجبوا أنْ تُبَشِّرَهم؛ فَبَشِّرْهُم، وأخبِرْهم على وجهٍ يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم.

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: كبيرٍ وافرٍ على أعمالهم ـ وإن كان فيها خَلَلٌ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾.

نُحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمْطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة، ونكتب ما قدَّموا.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: خُطَاهم إلى المساجد، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا، وتَرَقْرُق[1] دموعهم على عَرَصَات[2] خدودهم، وتَصَاعُدَ أنفاسهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ.. لا لتناسينا لها ـ وكيف وقد أحصينا كل شيءٍ عدداً؟ ـ ولكننا أحْبَبْنا إثبات آثار أحبائنا في المكنون من كتابنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

انقرض زمانُهم ونُسِيَ أوانُهم وشأنُهم! ولكننا نتذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم، ولا نرضى بألا يجري بين أحبائنا وعلى ألْسِنَةِ أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين، وهذا مخلوقٌ يقول في صفة مخلوق:

إذا نَسِيَ الناسُ إخوانَهم وخَانَ المودَّةَ خِلَّانُها

---

(١) ترقرق الدمع: دار في العين.

(٢) عرصات: (ج) عرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

فعندي لإخواني الغائبين صحائفُ ذِكْرُكَ عنوانُها

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[١].

قال الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وليس عِلمُنا إلّا بما أُمِرْنا به من التبليغ والإنذار[٢].

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لنرجمنّكم، ولنَصْنَعَنَّ، ولنفعَلَنَّ.. فأجابهم الرسل: إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف تَلْقَوْن ما تُوعَدُون[٣].

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

في القصة أنه جاءَ من قرية فسمَّاها مدينة، وقال من أقصى المدينة، ولم يكن أقصاها وأدناها لِيَتَفَاوَتَا بكثيرٍ، ولكنه ـ سبحانه ـ أجرى سُنَّتَه في استكثار القليل من فِعْلِ عَبْدِهِ إذا كان يرضاه، ويستنزِرُ الكثيرَ من فَضْلِه إذا بَذَلَه وأعطاه.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ فأبْلَغَ الوَعْظَ وَصَدَقَ النُّصْحَ. ولكن كما قالوا:

وكم سُقْتُ في آثارِكم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المتنصِّحُ

فلمَّا صَدَقَ في حاله، وصَبَرَ على ما لَقِيَ من قومه، ورجع إلى التوبة، لقَّاه حُسْنَ أفضالِه، وآواه إلى كَنَفِ إقبالِه، ووَجَدَ ما وَعَدَه ربُّه من لُطْفِ أفضالِه[٤].

﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

تَمَنَّى أن يعلم قومُه حاله، فَحَقَّقَ اللَّهُ مُناه، وأخبر عن حاله، وأنزل به خطابه، وعَرَفَ قومُه ذلك. وإنما تمنَّى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم، ليعملوا مثلما عَمِلَ لِيَجِدُوا مثلما وَجَدَ.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

ما كانت إلا قضية مِنَّا بعقوبتهم، وتغييراً لِمَا كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.
(٢) الآية (١٧) لم ترد.
(٣) الآية (١٩) لم ترد.
(٤) الآيات من (٢٢ حتى ٢٥) لم ترد.

إن لم يتحسَّروا هم اليوم فَلَهُم موضع التحسُّر؛ وذلك لانخراطهم في سِلكٍ واحد من التكذيب ومخالفة الرسل، ومناوءة أوليائه ـ سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية، وما عاملنا به الأمم الخالية، فلم يرجع إليهم أحد، فكلُّهم في قبضة القدرة، ولم يَفُتنا أحدٌ، ولم يكن لواحدٍ منهم علينا عونٌ ولا مَدَدٌ، ولا عن حكمنا ملتحد.

قوله جل ذكره: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.

لمَّا كان أمرُ البعث أعظمَ شُبَهِهِمْ، وكَثُرَ فيه إنكارُهم كان تكرارُ الله سبحانه لحديث البعث، وقد ضَرَبَ ـ سبحانه ـ المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات. والعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِر علومَ الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما في القرآن من الآيات يحت على سبيل الاستدلال، وتحكيم أدلة العقول؟ ولكن يَهْدِي اللَّهُ لنورِه من يشاء. ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم، واشتغلوا بأهم شيءٍ عندهم لَمَا ضَيَّعوا أصول الدِّين، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد، وادَّعَوْا في الفروع رتبةَ الإمامة والتصَدُّر.. ويقال في معناه:

يا مَنْ تَصَدَّرَ في دستَ الإمامة في ... مسائل الفقه إملاءً وتدريسا
غَفَلْتَ عن حججِ التوحيد تُحْكِمها ... شيَّدتَ فرعاً وما مَهَّدَتَ تأسيسا

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

تُنَبِّه هذه الآيةُ على التفكُرِ في بديع صُنْعِهِ؛ فقال: تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياء المتشاكلةَ في الأجزاء والأعضاء، من النبات، ومن أنفسهم، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون تفصيلها، كيف جعل أوصافَها في الطعوم والروائح، في الشكل والهيئة، في اختلاف الأشجار في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها في تفرُّقِها واجتماعها، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ: الطبائع؛ في الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واختلاف الأحداث التي يخلقها اللَّهُ عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان. ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، فالأوقات متجانسة، والأزمان، متماثلة، والجواهر متشاكلة.. وهذه الأحكام مختلفة، ولولا تخصيصُ حُكْمٍ لكل شيءٍ بما اختصَّ به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أولى منه. وإنَّ مَنْ كحَّلَ اللَّهُ عيونَ بصيرته بيُمْن التعريف، وقَرَنَ أوقاته بالتوفيق، وأتَمَ نَظَره، ولم يصده مانع. فما أقوى في المسائل حُجَّتَه! وما أوْضَحَ في السلوكِ نَهْجَه!.

إنَّها لأقْسَامٌ سَبَقَت على مَنْ شاءَه الحقُّ بما شاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾.

نُبْطِلُ ضوءَ النهارِ بهجومِ الليلِ عليه، وتزيلُ ظلامَ الليل بهجوم النهار عليه، كذلك نهارُ الوجود يدخل على ليالي التوقف، ويقود بيد كَرَمِه عصاً مَنْ عَمِيَ عن سلوكِ رُشْدِه فيهديه إلى سَوَاءِ الطريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾.

على ترتيبٍ معلوم لا يتفاوت في فصول السنة، وكل يومٍ لها مشرِقٌ جديد ولها مغرِبٌ جديد.. وكل هذا بتقدير العزيز العليم.

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيقُ الحال، ضعيفٌ، مختصرُ الفَهْم.. ثم يُفَكِّر حتى تزداد بصيرته.. إنه كالقمر يصير كاملاً، ثم يتناقَصُ، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكُلَّمَا ازداد من الشمس دُنُوًّا ازداد في نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفي ولا يُرَى.. ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بدراً ـ مَنْ الذي يُصَرِّفه في ذلك إلّا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيهُ الشمسِ عارِفٌ أبداً في ضياء معرفته، صاحبُ تمكينٍ غيرُ مُتَلَوِّنٍ[١]، يشرق من برج سعادته دائماً، لا يأخذه كسوفٌ، ولا يستره سحابٌ.

وشبيهُ القمر عبدٌ تتلون أحوالُه في تنقله؛ فهو في حال من البسط يترقَّى إلى حَدِّ الوصال، ثم يُرَدُّ إلى الفترة، ويقع في القبض مما كان به من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود الحقُّ ـ سبحانه ـ فيُوَفِّقُه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سَكْرَتِه، فلا يزال يصفو حاله إلى أنْ يَقْرُبَ من الوصال، ويرزقَ صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص

---

(١) انظر حديث القشيري عن التلوين والتمكين بالرسالة القشيرية ص٧٨ ـ ٨٠.

والزوال.. كذلك حاله إلى أن يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله، كما قالوا:

ما كنت أشكو ما على بَدَني   من كثرة التلوين من بُدَّتِه[(١)]

وأنشدوا:

كُلَّ يوم تتلون   غيرُ هذا بِكَ أجمل

قوله جل ذكره: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

الإشارة إلى حَمْلِ الخَلْقِ في سفينة السلامة في بحار التقدير عند تلاطم أمواجها بفنونٍ من التغيير والتأثير. فكَمْ من عبدٍ غرق في اشتغاله في ليلة ونهاره، لا يستريح لحظةً من كَدِّ أفعاله، ومقاساةِ التعب في أعماله، وجَمْعِ ماله.

فجَرَّه ذلك إلى نسيانِ عاقبته ومآلِه، واستيلاء شُغْلِه بوَلَدِه وعيالِه على فِكْرِه وبالِه ـ وما سَعْيُه إلَّا في وَبَالِه!

وكم من عَبْدٍ غرق في لُجَّةِ هواه، فجَرَّتْه مُناه إلى تَحَمُّلِ بلواه، وخسيسٍ من أمر مطلوبه ومُبْتَغَاه.. ثم لا يَصِلُ قط إلى منتهاه، خَسِرَ دنياه وعقباه، وبَقِيَ عن مولاه!

ومن أمثال هذا وذاك ما لا يُحْصَى، وعلى عقلِ مَنْ فكَّرَ واعتبر لا يَخْفَى.

أمَّا إذا حفظ عبداً في سفينة العناية أفرده ـ سبحانه ـ بالتحرُّرِ من رِقِّ خسائس الأمور، وشَغَلَه بظاهره بالقيام بحقِّه، وأكرمه في سرائره بفراغ القلب مع ربِّه، ورقَّاه إلى ما قال: «أنا جليسُ مَنْ ذكرني».. وقُلْ في عُلُوِّ شأنِ مَنْ هذه صفته.. ولا حَرَجَ!

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

لولا جُودُه وفَضْلُه لحَلَّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم، لكنه بِحُسْنِ الأفضال، يحفظهم في جميع الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الآيات.

هذه صفاتُ مَنْ سَيَّبَهم[(٢)] في أودية الخذلان، ووَسَمهم بِسِمَةِ الحرمان، وأصَمَّهم عن سماع الرُّشْد، وصَدَّهم بالخذلان عن سلوكِ القصد، فلا تأتيهم آيةٌ في الزَّجْرِ إلا قابلوها بإعراضهم، وتجافوا عن الاعتبار بها على دوام انقباضهم، وإذا أُمِرُوا بالإنفاقِ والإطعام عارضوا بأنَّ الله رازقُ الأنام، وإن يَشَأْ نَظَرَ إليهم بالإنعام[(٣)]:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

---

(١) البدة: النصيب من كل شيء.   (٢) سيّبه: أطلقه وتركه وخلّاه يسيب حيث شاء.

(٣) الآية (٤٦) لم ترد.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

يستعجلون هجومَ الساعة، ويستبطئون قيامَ القيامة ـ لا عن تصديقٍ يُريحهم من شَكِّهم، أو عن خوفٍ يمنعهم عن غَيِّهم، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل، وإنكاراً لِصِحة النبوة، واستبعاداً للنشر والحشر.

ويومَ القيامةِ هم في العذاب مُحْضَرُون، ولا يُكْشَفُ عنهم، ولا يُنصَرُون.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

يموتون قَهراً، ويُحْشَرُونَ جَبْراً، ويلقون أمراً، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ يموتون على جهلٍ، لا يعرفون ربَّهم، ويُبْعَثُون على مِثْلِ حالِهم، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهم، ويعدون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة الشديدة ـ بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة ـ نوماً ورقاداً، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً، لا يذوقون بَرْداً ولا شراباً إلا حميماً وغَسَّاقاً، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً[1]: فقد قال جل ذكره:ـ

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾.

إنما يضاف العبدُ إلى ما كان الغالبَ عليه ذِكْرُه بمجامع قلبِه، فصاحبُ الدنيا مَنْ في أسْرِها، وأصحابُ الجنة مَنْ هم طُلّابُها والساعون لها والعاملون لِنَيْلِها؛ قال تعالى مخبراً عن أقوالهم وأحوالهم: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]. وهذه الأحوال ـ وإن جَلَّتْ منهم ولهم ـ فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تتقاصر، قال ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُلْه»[2] ومَنْ كان في الدنيا عن الدنيا حُرّاً فلا

---

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ٧٩، ١٠/ ٢٦٤ ـ ٤٠٢)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٣٦١) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ١٥٧، ٢٤٤، ٦٢٧، ٩/ ٢٣٦)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٨٦)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ١١٦٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٧)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢/ ٤٥٢) يقال: رجل أبله بيّن البله والبلاهة: وهو الذي غلب عليه سلامة الصدر وحُسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. (لسان العرب ١٣/ ٤٧٧ مادة: بله).

يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حراً، والله يختص برحمته من يشاء.

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ وهم أهل الحضرة والدنو، لا تشغلهم الجنة عن أُنس القربة، وراحات الوصلة، والفراغ للرؤية.

ويقال: لو عَلِمُوا عمَّن شُغِلُوا لَمَا تَهنَّأوا بما شُغِلُوا.

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ كأنه يخاطبهم مخاطبة المُعاينة إجلالاً لهم كما يقال: الشيخ يفعل كذا، ويُرَادُ به: أنت تفعل كذا.

ويقال: إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار، ولم يدخلوا الجنة بَعْدُ لِعِصْيانِهِم؛ فيقول الحق: عبدي.. أهلُ النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليومَ في شُغْلٍ عنك لأنهم في لذَّاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم؛ فليس لك اليوم إلا نحن!

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم، وذلك من أتم الأشغال، وهي أشغالٌ مؤنِسَةٌ مريحةٌ لا مُتْعِبَةٌ موحِشَةٌ.

ويقال: الحقُّ لا يتعلَّق به حقٌّ ولا باطل؛ فلا تَنَافِيَ بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم، وشهودهم مولاهم، كما أنهم اليومَ مشغولون مستديمون لمعرفته بأي حالةٍ هم، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم ـ باستيفاء حُظُوظِهم ـ في معارفهم.

ويقال شَغَلَ نفوسهم بشهواتها حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبةٍ من إحساس النَّفْس الذي هو أصعب الرُّقَباء، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: قيل أشكالهم في الحال والمنزلة، كقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقيل حَظَاياهم(١) من زوجاتهم.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾: أي نصيب أنفسهم. ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾: ما يريدون، ويقال تسلم لهم دواعيهم، والدعوى ـ إذا كانت بغير حقٍّ ـ معلولة.

(١) حظيت المرأة عند زوجها: تمكنت من قلبه وأحبها.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

يسمعونَ كلامَه وسلامَه بلا واسطة، وأكَّد ذلك بقوله: «قولاً».

وبقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير.

﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ والرحمةُ في تلك الحالة أن يرزقَهم الرؤية في حال ما يُسَلِّم عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة. ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنَقِّيَهم في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبهم دهش، ولا تلحقهم حيرة.

ويقال إنما قال: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ، ولرجائهم مساغ؛ فإن الذي يحتاج إلى الرحمة العاصي.

ويقال: قال ذلك ليعلم العبدُ أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه، وإنما وصل إليه برحمة ربه.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

غيبةُ الرقيب أتمُّ نعمةٍ، وإبعادُ العدوِّ مِنْ أجَلِّ العوارف[(١)]؛ فالأولياءُ في إيجاب القربة، والأعداء في العذاب والحجبة.

قوله جل ذكره: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لو كان هذا القول من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ لَكانَ شِبْهَ اعتذار؛ أي لقد نصحتُكم ووعظتُكم، ومن هذا حَذَّرتُكم، وكم أوصلتُ لكم القولَ، وذكَّرتُكم فلم تقبلوا وَعْظِي، ولم تعملوا بأمري، فأنتم خالَفْتُم، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُم، وبذلك سبَقَت القضيةُ مِنّا لكم[(٢)].

قوله جل ذكره: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

اليومَ سَخَّرَ الله أعضاءَ بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض، وغداً ينقض هذه العادة، فتخرج بمضُ الأعضاء على بعض، وتجري بينها الخصومة والنزاع؛ فأمَّا الكفار فشهادةُ أعضائهم عليهم مُبيدةٌ، وأمَّا العُصَاةُ من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعضُ أعضائهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان، وكما قيل:

بيني وبينك يا ظلومُ الموقِفُ والحاكم العَدْلُ الجوادُ المُنصِفُ

(١) العوارف: (ج) العارفة: العطية والإحسان.
(٢) الآيات من (٦٢ حتى ٦٤) لم ترد.

وفي بعض الأخبار المروية المُسْنَدَةِ أنَّ عَبْداً تشهد عليه أعضاؤه بالزَّلَّة فيتطاير شَعره من جفن عينيه، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جَفْنِ عبدي واحتَجّي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادي منادٍ: هذا عتيقُ الله بِشَعْرَة[١].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

يَرُدُّه إذا استوى شبابُه وقُوَّتُه إلى العكس، فكما كان يزداد في القوة يأخذ في النقصان إلى أن يبلغَ أرذلَ العمر في السن فيصير إلى مثل حال الطفولية في الضعف، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شيءٌ، كما قيل:

طوى العصران ما نشراه مني ... وأبلى جدتي نَشْرٌ وطيُّ
أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ... ولا يَبْقَى مع النقصان شيُّ

هذا في الجثث والمباني دون الأحوال والمعاني؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حَدَّ الخَرَفِ[٢] فيَخْتَلُّ رأيُه وعقْلُه. وأهل الحقائق تشيب ذوائبُهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيَهم في عنفوان[٣] شبابها، وطراوة جدَّتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

كلامه ﷺ كان خارجاً عن أوزان الشِّعر، والذي أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر، ولا من طرق الخطباء.

تَحَيَّرَ القومُ في بابه؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق[٤].

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ذَكَرَ عظيمَ مِنَّتِه عليهم، وجميلَ نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه الانتفاع.

ولفظ ﴿أَيْدِينَآ﴾ تَوَسُّع؛ أي مما عملنا وخلقنا، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها، وبشربِ ألبانها، وبالحَمْلِ عليها، وقَطْعِ المسافاتِ بها، ثم بأصوافها وأوبارها وشَعْرِها ثم بِعَظْمِ بعضها.. فطالَبَهم بالشكرَ عليها، ووصَفَهم بالتقصير في شُكْرِهم.

---

(١) الآيتان (٦٦، ٦٧) لم تردا.
(٢) الخرف: فساد العقل من الكبر أو المرض.
(٣) يقال: هو في عنفوان شبابه؛ أي: في نشاطه وحدّته.
(٤) الآية (٧٠) لم ترد.

ثم أظهَرَ ـ ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية ـ أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان:ـ

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾.

اكتفوا بأمثالهم معبوداتٍ لهم، ثم سَلَّى نبيَّه ـ ﷺ بأنْ قال له:ـ

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وإذا عَلِمَ العبدُ أنه بمرأى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه، ولا سيما إذا كان في الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

أي شَدَدْنا أسْرَهم، وجمعنا نَشْرَهم، وسَوَّينا أعضاءهم، وركَّبْنَا أجزاءهم، وأودعناهم العقل والتمييزَ... ثم إنه ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: ينازعنا في خطابه، ويعترض علينا في أحكامنا بِزَعْمِه واستصوابه، وكما قيل:

أُعَلِّمُه الرمايةَ كُلَّ يومٍ ... فلمَّا اشتدَّ ساعِدُه رماني

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

مَهَّد لهم سبيل الاستدلال، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء، فأي إشكالٍ بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ وإنَّ الذي قدر على خَلْقِ النارِ في الأغصان الرَّطبة من المرْخِ[١] والعَفَار[٢] قادرٌ على خَلْقِ الحياةِ في الرِّمةِ[٣] البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مِثْلِ الشيء كالقدرة عليه لاستوائهما بكلِّ وجه، وإنه يحيي النفوسَ بعد موتها في العرصة كما يُحْيي الإنسانَ من النطفة، والطيرَ من البيضة، ويحيي القلوبَ بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوسَ أهل الكفر بالهوى والطغيان[٤].

---

(١) المرخ: من العضاه وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سِلبة قضبان دقاق، وينبت من شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به. (اللسان ٣/ ٥٤ مادة: مرح).

(٢) العفار: شجر فيه نار، يسوّى من أغصانه الزناد فيقتدح بها (اللسان ٤/ ٥٨٩ مادة: عفر).

(٣) الرِّمة: العظام البالية (ج) رمم ورمام.

(٤) الآية (٨١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يَخلِقه وقدرته. وأخبرنا أنه تتعلَّق بالمكوَّن كلمتُه على ما يجب في صفته، وسيَّان عنده خَلْقُ الكثيرِ في كثرته والقليلِ في قِلَّته.

قوله جل ذكره: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي بقدرته ظهورُ كلِّ شيء: فلا يحدث شيء - قَلَّ أو كَثُرَ - إلا بإبداعه وإنشائه، ولا يبقى منها شيءٌ إلا بإبقائه، فمنه ظهور ما يُحْدِث، وإليه مصير ما يخلق.

سورة الصافات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ إذا استولت على قلب أزالت عنه أولاً من الدارين أرَبَه، ثم ألزمت على وجه التبعية حَرَبه، ثم شرَّفَت من حيث الهمة طَلَبَه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾..

افتتح اللَّهُ هذه السورة بالقَسَم بالصافات، وهم الملائكة المصطفَّةُ في السماء وفي الهواء، وفي أماكنهم على ما أمرهم الحق ـ سبحانه ـ من المكان يلازمونه، والأمر يعانقون؛ يُسَبِّحونه ويُقَدِّسونه، وبما يأمرهم به يطيعونه.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾.

عَطَفهم على ما تَقَدَّمَ بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحابَ. ويقال يزجرون الناس عن المعاصي. ويقال هي الخواطرُ الزاجرةُ عن المناهي.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾.

يقال «الصافات» الطيورُ المصطفَّةُ في السماء، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة يتلون كتاب الله، ويتلون الوحيَ على الأنبياء عليهم السلام.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

هذا هو المقسومُ عليه.

أخبر أنه سبحانه واحدٌ في مُلْكِه، وذلك لأنهم تَعَجَّبُوا أن يقوم الواحِدُ بجميع أحوال العالم. ومعنى كونه واحداً تَفَرُّدُه في حقِّه عن القسمة، وتَقَدُّسُه في وجوده عن الشبية، وتَنَزُّهُه في مُلْكِه عن الشريك؛ واحد في جلاله، واحدٌ في استحقاق جماله، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في كبريائه بنعت علائه، ووصف سنائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

مالِكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، وخالقهما، وأكسابُ العبادِ داخِلةٌ في هذا ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ مشارق النجوم والشمس والقمر، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾.

زَيَّنَ السماءَ الدنيا بالنجوم، وقلوبَ أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، وحفظ السمواتِ بِأَنْ جعل النجومَ للشياطين رجوماً، وكذلك زَيَّن القلوبَ بأنوار التوحيد، فإذا قَرُبَ منها الشيطان رَجَمها بنجوم معارفهم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

كذلك إذا اغتنم الشيطانُ من الأولياء أن يُلْقِيَ إليهم شيئاً من وساوسه تَذَكَّرُوا، فإذا هم مُبْصِرون، ورجعوا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾.

عَرّفهم عَجْزَهم عن الإثبات، وضعفهم في كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادةُ بحدوث مثله. وَتقرأ ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح خطاباً بالرسول ﷺ - وبالضم فكأن الحقّ يقول ذلك مِنْ قبلَ نفسه بل عجبتُ، وَيقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء، إما في القدر، أو الإكثار في الذمِّ أو في المدح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾.

إذا ذُكروا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكّر فيها، ويقولون: ليس هذا الذي أتى به محمدٌ إلا سِحراً ظاهراً[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

قالوا: أئذا متنا، تفرّقت أجزاؤنا، وَصرنا رميماً.. أئنا لمبعوثون؟ أَوَ آباؤنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مصدودة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

قل لهم يا محمد؛ نعم، وعلى وصْف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

---

(١) الآيتان (٨، ٩) لم تردا.

(٢) لزب الطين: لصق وصلب أو لزق. (اللسان ١/ ٧٣٨ مادة: لزب).

(٣) الآيتان (١٤، ١٥) لم تردا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

دَوا بالويل على أنفسهم! ويقال لهم: هذا يَومُ الفصل الذي كنتم تكذبون به، وقد عاينتموه اليومَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾.

أراد بأزواجهم قرناءَهم وأشكالهم ومَنْ عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير. . وكذلك في هذه الطريقة: من أعان صاحبَ فترة في فترته، أو صاحب زَلة على زلته ـ كان مُشاركاً له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهانته.

قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾: مقامُ السؤالِ مقامٌ صعبٌ؛ قوم يسألهم المَلَكُ وقومٌ يسألهم المَلِكُ؛ فالذين تسألهم الملائكةُ أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف، وهم قسمان: الخواصّ يسترهم الحقّ عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم اللَّهُ فلا يفضحهم، ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بنعت الهيبة، وفي بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة، وفي الخبر: «أن قوماً يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك» وهؤلاء أصحاب الخصوص في التحقيق: فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فإذا قَرؤوا كتابهم يقال لهم: من عمل هذا؟ وما جزاؤه؟ فيقولون: جزاؤه النار. فيقال لهم: أدخلوها بحكمكم.

ثم يقال لهم في بعض أحوال استيلاء الفزَع عليهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

يُورِّك بعضُهم الذنبَ على بعض؛ فهذا يتبرأ من صاحبه، وصاحبهُ يتبرأ منه، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزي والهوان، ويجمعهم في اللعن والإبعاد[(١)].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

يشتركون في العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم، كما أنهم يشتركون في الزّلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

احتجابُهم بقلوبهم أوقعهم في وهدة عذابهم؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته. ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

---

(١) الآيات من (٢٨ حتى ٣٢) لم ترد.

عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٣] فإنَّ مَنْ عَرفَ اللَّهَ فلا لذة له إلا في طاعته، قال قائلهم:

ويظهرُ في الهوى عزُّ الموالي فيلزمني له ذُلُّ العبيد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

لمَّا لم يحتشموا من وَصفه ـ سبحانه ـ بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب في وصف أنبيائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

الاستثناء راجعٌ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾.

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِّ ـ سبحانه ـ بالعبودية، والذي يشوبُ عمله رياءٌ فليس بمخلص.

ويقال: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وفي الخبر: «يا معاذ، أخلص العملَ يكفيك القليل منه».

ويقال: الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص.

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص.

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾.

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعينة، وفي وقت الرسول عليه السلام: «مَنْ كان له رزقٌ معلومٌ كان من جملة المياسير، وهذه صفة أهل الجنة؛ فلهُمْ في الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم ولأسرارهم، فالأغنياء لهم رزقٌ معلوم لأنفسهم والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم.

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾: من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ الله في كل وقت، وكذلك اليومَ الخطابُ واردٌ من الله على قلوب الخواص في كل وقت بكلِّ أمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

يستأنِسُ بعضُهم برؤية بعضٍ، ويستروح بعضُهم إلى لقاء بعض.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

شراب يوجِبُ لهم الطَّرَدَ ولا وحشةَ هناك، شراباً يُحْضِرَهم ولا يُسْكِرُهم، لأنه قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

فلا تغتالُ عقولَهم، ولا تُزِيل حِشْمَتَهم، ولا تَرْفَعُ عنهم هَيْبَتَهم؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر، وآخرون يُسْقَوْن في الحضور ـ وهم على نعت القُرْب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

لا يَنْظُرْنَ إلى غير الوليّ، ثم الوليُّ قد ينظر إليهن، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن:

جُنِنَّا بِلَيْلَى وهي جُنَّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ. . .﴾.

يتذاكرون فيما بينهم، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمِن باللَّهِ، وما آمن به المؤمنون فيخلق اللَّهُ لهم إطلاعاً عليه وهم في النار يحترقون[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

نَطَقَ الوليُّ بالحقِّ ولكنه لم يُصَرِّحْ يعين التوحيد؛ إذ جَعَلَ الفَضْلَ واسطةً، والأَوْلى أن يقول: ولولا ربي لكنتُ من المحضرين[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

يقال: بل الملائكةُ يقولون لهم هذا، ويقال: الحقُّ ـ سبحانه ـ إذا أراهم مقامَهم في الجنة يقول لهم: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

ويقال إنْ كان العابدُ يقول هذا، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بَدَتْ شظيةٌ من الحقائق وتباشير الوصلة، أو ذَرَّةٌ من نسيم القربة فبالحريِّ أن يقول القائلون: لِمِثْلِ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواحُ.

على مِثْلِ سَلْمَى يَقْتُلُ المرءُ نَفْسَه وإن بات من سَلْمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات، وتتقاصر الإشارات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء، وما هم به من صفة المذلة والعذاب في النار؛ من أَكْلِ الضريع، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم. . . إلى آخر القصة[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

لمَّا أَصَابه مِنْ الأذى مِنْ قومه حِين كذَّبوهُ، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِنْ حَديثنا. . رَجعَ إلينا، فخاطبنا وخاطبناه، وكلمنا وَكلمناه، وَنادانا فناديناه، وكان لنا

---

(١) الآيات من (٥١ حتى ٥٥) لم ترد. (٢) الآيتان (٥٨، ٥٩) لم تردا.
(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٧٤) لم ترد.

فكُنّا له، وأجابنا فأجبناه.. فَلَنِعْمَ المجيبُ كان لنا ولنعمَ المجيبون كُنَّا له!

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: شتان بين كَرْبِ نوحٍ وبيْن كَرْب أهله!

وما يبكون مثلَ أخي ولكن أُعَزِّي النَّفْس عنه بالتأسي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾.

لأنَّ الناس كلهم مِن أولاد نوح، فإنَّ مَنْ كان معه في السفينة لم يتناسلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

يعني أنَّ إبراهيم مِنْ شيعة نوح عليه السلام في التوحيد ـ وإنْ اختلفنا في فروع شرعيهما.

﴿قلب سليم﴾: لا آفة فيه. ويقال لديغ مِنَ المحبة. ويقال: سليم من محبة الأغيار. ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته. ويقال: مستسلم لله في قضائه واختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ؟﴾.

سألهم على جِهة الإنكار عليهم، والتنبيه لهم على موضع غلطتهم[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ؟﴾.

إذا لقيتموه ـ وقد عَبَدتم غيرَه.. فما الذي تقُولون له؟ وكيف بكم في مقام الخجلة مما بين أيديكم وإن كنتم اليوم ـ غافلين عنه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾.

قيل أراد «إلى» النجوم فأقام «في» مقامَ «إلى».

﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾: كانت تأتيه الحمَّى في وقت معلوم، فقال: قرُبَ الوقتُ الذي أسقم فيه مَنْ أخذِ الحمَّى إياي، فكأنه تعلل بذلك ليتأخرَ عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم لتمشية ما كان في نَفْسه من كسر الأصنام.

ويقال كان ذلك من جملة المعاريض. وقيل أرى من نفسه موافقة قَوْلهم في القول بالنجوم لأنهم كانُوا يقولون بالنجوم، فتأخر بهذا السبب عنهُمْ.

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أنَّ اللَّهَ ـ عزّ وجلّ ـ قد عرّفه بطريق الوحي أنه يخلق ـ سبحانه ـ باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب.

---

(١) الآيات من (٧٩ حتى ٨٢) لم ترد. (٢) الآية (٨٦) لم ترد.

ثم لمَّا ذَهبوا إلى عيدهم كَسَّرَ أصنامهم، فلمَّا رجعوا قالوا ما قالوا، وأجابهَمْ بما أجابهم به[١] إلى قوله:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

رَدّ اللَّهُ كيدهُم إلى نُحورهم. وقد تعرَّضَ له جبريلُ ـ عليه السلام ـ وهُوَ في الهواء وَقَدْ رُمي من المنجنيق[٢] فعرَضَ عليه نفسه قائلاً: هل مِنْ حاجة؟

فأجابَ: أَمَّا إليكَ... فلا!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

يقال إنه طلبَ هداية مخصوصة؛ لأنه كان صاحب هداية، إذْ لو لم تكن له هداية لَمَا ذَهبَ إلى رَبِّه. ويحتمل أنه كان صاحبَ هدايةٍ في الحال وطلبَ الهداية في الاستقبال أي زيادةً في الهداية، ويقال طلبَ الهداية على كيفية مراعاة الأدَب في الحضور، ويقال طلبَ الهداية إلى نفسه لأنه فقدَ فيه قلبه ونفسه؛ فقال سيهديني إليَّ لأقومَ بحقِّ عبُوديته؛ فإن المستهلكَ في حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادة إلَّا بأن يُردَّ إلى حَالة التفرقة والتمييز.

ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي إلى المكان الذي يُعْبدُ فيه ربي.

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾: فأخْبر عن قوله.

وأخبر عن موسى فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبر عن صفته لا عن قوله...

وقال في صفة نبينا ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ...﴾ [الإسراء: ١]. [فأخبر عن ذاته سبحانه][٣].

وفصلٌ بَينَ هٰذِه المقامات؛ فإبراهيم كان بعين الفرق، وموسى بعينِ الجمع؛ ونبينا كان بعين جمع الجمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

لمَا قال «حليم» نبَّهَ على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم في تحمله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

---

(١) الآيات من (٩٠ حتى ٩٦) لم ترد.

(٢) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنيقات ومجانق ومجانيق.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ إشارة إلى وقت توطين القلب عَلَى الوَلد، رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل ليلةَ التروية، وسميت كذلك لأنه كان يُرَوِّي في ذلك طولَ يومه. هَلْ هُو حقٌّ أم لا؟ ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فَعرف أن رؤياه حق، فسمي يوم عرفة.

وكان إسماعيل ابنَ ثلاث عشرة سنة، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات.

أن اذبح ابنك، فقال لإسماعيل: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ؟﴾ فقال إسماعيل: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾: أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا، فإنها قد تصيب وقد يكُون لها تأويل، فإن كان هَذا أمراً فافعل بمقتضاه، وإن كان له تأويل فتثبت، فقد يمكنك ذبح ابنك كلّ وقتٍ ولكن لا يمكنك تلافيه.

ويقال بل قال: أُتركْ حَديثَ الرؤيا واحمله عَلَى الأمر، واحملْ الأمر عَلَى الوجوب، ثم احمله عَلَى الفور ولا تُقصِّرْ.

ويقال قال له: إن كان يطيب قلبكَ بأَن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبي أن يذبحني أبي لأجل الله.

ويقال قال إسماعيل لأبيه: أنتَ خليلُ الله وتنام.. أَلَمْ تعلَمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله يُؤمَرُ بِذَبْح ابنه؟ مَالَكَ يا أَبَتِ والنوم؟

ويقال في القصة: إنه رآه ذات يوم راكباً على فَرَسٍ أشهب فاستحسنه، ونَظَرَ إليه بقلبه، فأُمِرَ بِذَبْحِه، فلمَّا أخرجه عن قلبه، واستسلم لذبحه ظَهَرَ الفداء، وقيل له كان المقصودُ من هذا فراغَ قلبك عنه.

ويقال في القصة: أَمَرَ إسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجْلَيه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ ألمُ الذَّبح فَيُعاتَب، ثم لمَّا همَّ بِذَبْحِه قال: افتحْ القيدَ عني حتى لا يقال لي: أمشدودَ اليد جئتني؟ وإني لن أتحركَ:

ولو بيدِ الحبيبِ سُقِيتُ سُمّاً — لكان السُّمُ من يدِهِ يطيب

ويقال أيهما كان أشدَّ بلاءً؟ قيل: إسماعيل؛ لأنه وَجَد الذَّبحَ من يد أبيه، ولم يتعوَّد من يده إلا التربية بالجميل، وكان البلاءُ عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك.

ويقال بل كان إبراهيم أشدَّ بلاءً لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعدَه.

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فلم يأتِ إسماعيل بالدعوى بل تأدّب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال إسماعيل إمَّا لا تَقُلْ: «يا بُنَيَّ» بهذه اللطافة، وإمَّا لا تَقُلْ: ﴿أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قيل في التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حَلْقِه والسكين لا يُقطَع، فتعجَّبَ إبراهيمُ، فنودي: يا إبراهيم، كان المقصودُ من هذا استسلامكما.

ويقال إن الله سَتَرَ عليهما عِلْمَ ما أُريد منهما في حال البلاء، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِيّ وقت المحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاءَ... وهكذا يكون الأمر عند البلاء؛ تَنْسَدُّ الوجوهُ في الحال؛ وكذلك كانت حالة النبيّ ﷺ في حال حديث الإفك[١]، وكذلك حالة أيوب عليه السلام؛ وإنما يتبيَّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها، وإلَّا لم تكن حينئذٍ محنة [إلَّا أنه يكون في حال البلاء إسبالٌ يُولَى مع مخامرة المحنة] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاءٌ؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً.

والناس في «البلاء» على أقسام: فبلاءٌ مستعصب وذلك صفة العوام، وبلاء مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ﴾.

وكلُّ هذا بعد البلاء؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

مَنَّ عليهما بالنبوة، وبالنجاة من فرعون وقومه، وبنصرته عليهم[٣].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾.

يعني التوراة.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

بالتبري عن الحوْلِ والقوة، وشهود عين التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٤].

---

(١) الإفك: الكذب أو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء.

(٢) الآيات من (١٠٨ حتى ١١١) لم ترد.

(٣) الآيتان (١١٥، ١١٦) لم تردا.

(٤) الآيتان (١٢١، ١٢٢) لم تردا.

«إلياس»: قيل هو إدريس، وقيل غيره، وكان بالشام، واسمُ صَنَمِهم «بَعْل»، ومدينتهم بعلبك.. أنذر قومَه فكذَّبوه، ووَعظَهم فما صَدَّقُوه، فأهلَكَ قومَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

مضت قصتهُ وكيف نجّى أَهلَه إلا امرأته التي شارَكَتْهم في عصيانهم، فحقَّ العذاب عليها مثلما عليهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة، ولكن لم يُعْفَ، ثم استقبله ما استقبله، فلم يلبث حتى رأى نَفْسَه في بطن الحوت في الظلمة[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أي بما يُلَامُ عليه، والحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عن الحيفِ في حُكْمِه؛ إذ الخَلْقُ خَلْقُه، ثم اللَّهُ رَاعَى حقَّ تَعَبُّدِه، وحَفِظَ ذِمامَ ما سَلَفَ له في أداء حقِّه فقال: ـ

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فإن كَرَمَ العَهْدِ فينا من الإيمان، وهو مِنَّا من جملة الإحسان، «فالمؤمن قد أخذ من اللَّهِ خُلُقاً حسناً» ـ بذلك ورد الخبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

«سقيم»: في ضعفِ من الحال لِمَا أَثَّر مِنْ كَوْنِهِ قضى وقتاً في بطن الحوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

لِتُظِلَّه، فإنه كان في الصحراء وشعاعُ الشمسِ كان يَضُرُّه، وقَيَّضَ له اللَّهُ ظبيةً ذات وَلَدِ كانت تجيء فيرضع من لبنها، فكأنَّ الحقَّ أعاده إلى حال الطفولية. ثم إنه رَحِمه، ورجع إلى قومه، فأكرموه وآمنوا به، وكان اللَّهُ قد كَشَفَ عنهم العذاب، لأنهم حينما خَرَجَ يونس من بينهم ندموا وتَضَرَّعوا إلى الله لمَّا رَأَوْا أوائلَ العذاب قد أظلَّتْهم، فَكَشَفَ الله عنهم العذاب، وآمنوا بالله، وكانوا يقولون: لو رأينا يونسَ لَوَقَّرْناه، وعظَّمْناه، فرجع يونسُ إليهم بعد نجاته من بطن الحوت، فاستقبله قومُه، وأدخلوه بَلَدَهم مُكرَماً.

ويقال: الذَّنْبُ والجُرْمُ كانا من قومه، فهم قد تُوُعِدُوا بالعذاب. وأمَّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا أَلَمَّ بمحظور، وخرج من بينهم، وكَشَفَ اللَّهُ العذابَ عنهم، وسَلِمُوا.. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللتيا والتي[3] بعد نجاته؛ ويا عجباً

---

(١) الآيات من (١٣٤ حتى ١٣٨) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٤٠، ١٤١) لم تردا.

(٣) يقال: اللتيا والتي: يكنون بهما عن الشدة.

من سِرِّ تقديره! فقد جاء في القصة أن الله سبحانه ـ أوحى إلى يونس بعد نجاته أَنْ قُلْ لفلانٍ الفخَّار حتى يَكْسِرَ الجِرارَ التي عملها في هذه السنة كلَّها! فقال يونس: يا رب، إنه قَطَعَ مدةً في إنجاز ذلك، فكيف آمُرُه بأن يَكْسِرَها كُلَّها؟

فقال له: يا يونس، يَرِقُّ قلبُكَ لِخَزَّافٍ يُتْلِفُ عَمَلَ سنةٍ.. وتريدني أن أُهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي؟! يا يونس، إنك لم تخلقهم، ولو خَلَقْتَهم لَرَحِمْتَهم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾.

لمَّا قالوا في صفة الملائكة إنهم بناتُ الله بَيَّنَ اللَّهُ قُبْحَ قَوْلِهم، فقال: سَلْهُم من أين قالوا؟ وبأي حُجَّةٍ حكموا بما زعموا؟ وأي شُبْهَةٍ داخَلَتْهم. ثم إنهم كانوا يستنكفون من البنات، ويُؤْثِرون البنين عليهن.. ومع كُفرهم وقبيح قولِهم وصفوا القديمَ ـ سبحانه ـ بما استنكفوا منه لأَنْفُسهم[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

أي ما أنتم بفاتنين من الناس إلَّا من أَغْوَيْتُه بحُكْمِي، فبه ضَلُّوا لا بإضلالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.

الملائكة لهم مقام معلوم لا يَتَخطَّوْنَ مقامَهم، ولا يتعدَّوْن حدَّهم، والأولياءُ لهم مقام مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطْلِعُ عليه أحداً، والأنبياءُ لهم مقام مشهورٌ مُؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم للخَلْقِ قدوة فأَمْرُهُم على الشَهْرِ، وأَمْرُ الأولياءِ على السَّتْرِ[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي سبقت كلمتنا لهم بالسعادة، وتقدَّمَ حُكْمنَا لهم بالولاية والرعاية، فَهُم من قِبَلِنا منصورون:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

مَنْ نَصَرَه لا يُغْلَبُ، ومَنْ قَهَرَه لا يَغْلِبُ.

وجُنْدُه الذين نَصَبَهم لنَشْرِ دينه، وأقامَهم لِنَصْرِ الحقِّ وتبيينه. مَنْ أراد إذلالَهم فَعَلَى أذقانه يخرُّ، وفي حبل هلاكه ينجرُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

تَوَلَّ عنهم ـ يا محمد ـ إلى أن تنقضيَ آجالُهم، وتنتهيَ أحوالُهم. وانتظِرْ انقضاءَ أيامِهم، فإنه سينصرم حديثهم وشيكاً:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

---

(١) الآيتان (١٤٧، ١٤٨) لم تردا. (٢) الآيات من (١٥٠ حتى ١٦٠) لم ترد.

(٣) الآيات من (١٦٥ حتى ١٧٠) لم ترد.

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم، ثم لقلة تصديقهم. فإذا نزل العذابُ بساحتهم، وأناخ البلاءُ بعقوتهم فساء صباحهم. فتولَّ عنهم فَعَنْ قريبٍ سيحصل ما منه يَحْذَرون[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾: تقديساً له، وسلامٌ على أنبيائنا، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي هو المحمود على ما ساءَ أم سَرَّ، نَفَعَ أم ضَرَّ.

---

(١) الآيات (١٧٧، ١٧٨، ١٧٩) لم ترد.

سورة ص

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه، اسمٌ جليلٌ تَقَنَّعَتْ العلومُ خَجَلاً من الطمع في إحاطته، اسمٌ كريمٌ صَغُرَتْ الحوائج عند ساحات جوده، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلّات عباده في تلاطم أمواج رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

الصَّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع... أقسم بهذه الأشياء وبالقرآنِ. وجواب القسم: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾.

ويقال: أقسم بصفاءِ مودةِ أحبابه والقرآنِ ذي الذكر أي: ذي الشرف... وشَرَفُه أنه ليس بمخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

في صلابةٍ ظاهرة، وعداوة بيِّنة، وإعراضٍ عن البحث للأدلة، والسَّترِ للشواهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

بادوا حين هَجَمَ البلاءُ مستغيثين، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

عَجِبُوا أن جاءَهم مُنْذِرٌ منهم، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتاتُ آلهةً، وهذه مناقضة ظاهرة. فلمّا تحيَّروا في شأن أنبيائهم رَمَوْهم بالسحر، وقسَّموا فيهم القول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

لم تباشر خلاصةُ التوحيد قلوبَهم، وبعدوا عن ذلك تجويزاً، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحُكْماً، فلا عَرَفُوا الإلهَ ولا معنى الإلهية؛ فإنَّ الإلهيةَ هي القدرة على الاختراع. وتقديرُ قادِرَيْنِ على الاختراع غيرُ صحيح لِما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالهما، ولو لم يكونا كامِلي الوصفِ لم يكونا إِلَهَين، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطِ فهو مطروحٌ باطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

إذا تواصى الكفارُ فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أَوْلى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

ركنوا إلى السوء والعادة، وما وجدوا عليه أسلافَهم من الضلالة، واستناموا إلى التقليد والهوادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

أي لو استبصروا في دينهم لَمَا أَقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم، ولولا أَنَّا أَدَمْنا لهم العوافيَ لَمَا تَفَرَّغُوا إلى طغيانهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾.

أي: هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا، وكَذَّبوا واحتجُوا... أعندهم شيءٌ من هذه الأشياء؟ أم هل هم يقدرون على شيءٍ من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا، ويعطوا من شاؤوا، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحي على مَنْ أرادوا[(١)]؟

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

بل هم جُنْد من الأحزاب المتحزبين. كُلُّهم عَجَزَةٌ لا يقدرون على ذلك، مهزومون. شَبَّهَهُم في بقائهم عن مرادهم بالمهزومين؛ فإن هؤلاء الكفار ليس معهم حُجَّةُ، ولا لهم قوة، ولا لأصنامهم أيضاً من النفع والضر مُكْنَة، ولا في الردّ والدفع عن أنفسهم قدرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ...﴾ الآيات.

ذَكَرَ هؤلاء الأقوام في هذا الموضع على الجمع، وفي غير هذا الموضع على الإفراد، وفي كل موضع فائدة زائدة في الفصاحة والإفادة بكل وجه[(٢)]. ثم قال:

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

أي ما كان منهم أحدٌ إلَّا كَذَّبَ الرسلَ فحقَّت العقوبةُ عليه، واستوجَبَ العذابَ. ثم قال:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾.

أي ليسوا ينتظرون إلا القيامة، وما هي إلا صيحة واحدة، وإذا قامت فإنها لا تسكن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

---

(١) الآية (١٠) لم ترد. (٢) الآية (١٣) لم ترد.

اصْبِرْ ـ يا محمد ـ على ما يقولون، فإنه لن تطولَ مُدَّتُهم، ولن نَمُدَّ ـ في مقاساتِكَ أَذَاهم ـ لُبْثَكَ ومُكْثَكَ، وعن قريبٍ سينزل اللَّهُ نَصْرَه، ويصدق لك بالتحقيقِ وَعْدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة، ولم تكن قُوَّتُه قوةَ نَفْسٍ، وإنما كانت قوته قوةَ فِعْلٍ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ـ وهو أشدُّ الصوم، وكان قوياً في دين الله بِنَفْسِه وقلْبه وهمته.

﴿أَوَّابٌ﴾ رَجَّاع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

كان داود يُسَبِّح، والجبالُ تُسَبِّح، وكان داود يفهم تسبيحَ الجبالِ على وجهِ تخصيصٍ له بالكرامة والمعجزة.

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبِّح الله، وداود كان يعرف تسبيحَ الطير؛ وكلُّ مَنْ تَحقَّقَ بحاله ساعَدَه كلُّ شيءٍ كان بقُرْبِه، ويصير غيرُ جِنْسِه بحُكْمِه، وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ ورقاءَ[١] هتوفٍ بالضُّحى ... ذات شجوٍ صَرَخَتْ في فَنَنِ[٢]
ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً ... وبَكَتْ شوقاً فهاجَتْ حَزَني
فبُكائي رُبَّما أَرَّقَها ... وبكاها ربما أَرَّقني
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى[٣] أعرفها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

أي قوَّيْنا مُلْكَه بأنصاره، وفي التفسير: كان يحفظ مُلْكَه كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجلٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

أي شددنا مُلْكَه بنصرنا له ودَفْعِنا البلاءَ عنه.

ويقال شددنا مُلْكَه بالعدل في القضية، وحُسْنِ السيرة في الرعية.

---

(١) الورقاء: الحمامة أو التي لونها كالرماد فيه سواد (ج) ورق.
(٢) الفنن: الغصن الفض الورق أو المستقيم.
(٣) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن.

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدي الظَّلَمَةِ.

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين.

ويقال شددنا مُلْكَه بأن رأى النصرةَ مِنَّا، وَتَبرَّأَ من حَوْلِه وقُوَّتِه.

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلُّونه على ما فيه صلاح مُلْكه.

ويقال بِتَيَقُّظِه وحُسْنِ سياسته. ويقال بقبوله الحق من كلِّ أحد.

ويقال برجوعه إلينا في عموم الأوقات.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: أي أعطيناه الرُّشْدَ والصوابَ، والفَهْمَ والإصابة.

ويقال العلم بنفْسِه وكيفية سياسة أمته.

ويقال الثبات في الأمور والحكمة، وإحكام الرأي والتدبُّر.

ويقال صحبة الأبرار، ومجانبة الأشرار.

وأمَّا ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فهو الحكم بالحق، وقيل: البينة على مَنْ ادَّعىَ واليمين على مَنْ أنكر. ويقال: القضاء بين الخصوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الآيات.

أرسل اللَّهُ إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحاكَمَا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تَزَوُّجِه بامرأة أوريا، وكان تَرْكُ ذلك أَوْلَى ـ هذا على طريق مَنْ رأى تنزيهَ الأنبياءِ عليهم السلام من جميع الذنوب.

وأمَّا مَنْ جَوَّزَ عليهم الصغائر فقال: هذا من جملته. وكنَّى الخَصْمان باسم النعجةِ عن النساء.

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى: إنِّي لأَجِدُ في التوراة أنَّكَ أعطيتَ الأنبياءَ الرُّتَبَ فأَعْطِنِيها، فقال: إنهم صبروا فيما ابتَلَيْتُهم به، فوعد داودُ من نَفْسِه الصبرَ إذا ابتلاه طمعاً في نَيْلِ الدرجات، فأخبر اللَّهُ تعالى أنه يبتليه يومَ كذا، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة، واختلى في بيته، وأَمَرَ حُرَّاسَه ألا يؤذِنَه أحدٌ بالدخول عليه، وأغلق على نَفْسِه البابَ، وأخذ يُصَلِّي زماناً، ويقرأ التوراةَ زماناً يتعبَّد. أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غَلْق بابِ السماء. وأَمَرَ حَرَسَه أن يدفعوا عنه الناسَ وكانوا ثلاثين ألف رجل ـ ويقال أربعة آلاف ـ ولكن لم يُمْكِنْهم أَنْ يدفعوا عنه حُكْمَ القضاء، ولقد قال الحكماء: الهاربُ مما هو كائن في كَفِّ الطالبِ يتقلب.

وكانت في البيت كوَّةٌ يدخل منها الضوء، فَدَخَلَ طيرٌ صغيرٌ من الذهب، ووقع قريباً منه، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فَهَمَّ أن يأخذَه ليدفعَه إلى ابنه، فتباعَدَ عنه. وجاء في

التفاسير: أنه كان إبليس، قد تصوَّر له في صورة طير، فَتَبِعَه داود، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة، وَنَظَر داود في إثره فَوَقَعَ بَصَرُه على امرأة أوريا وهي تغتسل متجردةً، فعاد إلى قلبه منها شيء، فكان هذا السبب.

ويقال لم يَزَعِ الاهتمامَ بسبب وَلَدِه حتى فعل به ما فعل، وفي ذلك لأولي الأبصار عِبْرَةٌ.

ويقال لم يكن أوريا قد تزوَّجَ بها بَعْدُ، وقد كان خَطَبَها، وأجابَتْه في التزوج به، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِه. وقيل بل كانت امرأتَه وسأله أن ينزل عنها، فَنَزَلَ على أمره وتزوجها. وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقُتِلَ وتزوَّج بها. فلمَّا تَسَوَّرَ الخصمان عليه، وقيل دَخَلَا من سور المحراب أي أعلاه ولذلك: ـ

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُوا لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

نحن خصمان ظَلَمَ بعضُنا بعضاً، فاحكُمْ بيننا بالعدل:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾.

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي انزلْ عنها حتى أكفلَها أنا، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾. أي غلبني، فقال داود:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾.

فضحك أحدهما في وجه صاحبه، وصَعِدَ إلى السماء بين يديه، فَعَلِمَ داودُ عند ذلك أنه تنبيهٌ له وعتابٌ فيما سَلَفَ منه، وظَنَّ واستيقن أنه جاءَتْه الفتنةُ الموعودة:

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

أخذ في التضرع، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسَه من السجود إلا (للصلاة)[1] المكتوبة عليه، وأخذ يبكي حتى نَبَتَ العُشبُ من دموعه، ولم يأكل ولم يشرب في تلك المدة، حتى أوحى اللهُ إليه بالمغفرة، فقال: يا رب، فكيف بحديث الخصم؟ فقال: إني استوهبْتُك منه، وقال تعالى:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

إن له عندنا لَقُربةً وحُسْنَ رجوع، وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه. ويقال لمَّا التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرةَ والتجاوز... وهكذا مَنْ رجع في أوائل الشدائد إلى الله

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

فاللَّهُ يكفيه مما ينوبه، وكذلك مَنْ صَبَرَ إلى حين طالت عليه المحنة. ويقال إنَّ زَلَّةَ أَسَفُكَ عليها يوصلك إلى ربِّك أَجْدَى عليك من طاعةٍ إعجابُكَ بها يُقْصِيكَ عن ربِّك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ أي بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام. وقيل حاكماً من قِبَلِي لتحكمَ بين عبادي بالحقِّ، وأوصاه بألا يتبعَ في الحكم هواه تنبيهاً على أنَّ أعظمَ جنايات العبد وأقبحَ خطاياه متابعةُ الهوى.

ولما ذَكَرَ اللَّهُ هذه القصة أعقبها بقوله:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

«باطلاً» أي وأنا مُبْطِلٌ في خلقهما، بل كان لي ما فعلْتُ وأنا فيه مُحِقٌّ.

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحقِّ[(١)].

ثم أخبر أنه لا يجعل المفسدين كالمحسنين قط، ثم قال:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿مُبَٰرَكٌ﴾ وهو القرآن، ومبارك أي كبيرُ النَّفْع، ويقال مباركٌ أي دائمٌ باقٍ لا ينسخه كتابٌ؛ مِنْ قولهم بَرَكَ الطيرُ على الماء. ويقال مباركٌ لِمَنْ آمَنَ به وصَدَّقَ. ثم إنه بَيَّنَ أَنَّ البركةَ في تَدَبُّرِهِ والتفكُّرِ في معانيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ لأنه كان أَوَّاباً إلى الله، راجعاً إليه في جميع الأحوال؛ في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمع صافنة وهي القائمة، وفي التفاسير هي التي تقوم على ثلاث قوائم؛ إذ ترفع إحدى اليدين على سُنْبُكِها. وجاء في التفاسير أن سليمان كان قد غَزَا أهلَ دمشق، وأصابَها منهم، وقيل وَرِثَهَا عن أبيه داود وكان قد أصابها من العمالقة، وقيل كانت خيلاً لها أجنحة خرجت من البحر.

وفي بعض التفاسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرسٍ فَشَغَلَتْه عن بعض أذكاره لله.

﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: في آخر النهار، وقيل كان ذلك صلاة العصر.

---

(١) الآية (٢٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد لها بعد أن فَرَغَ من صلاته.

وقيل عَرْقَبها (ليذبحها فحَبَسَها بالعرقبة عن النفار)[١]، وقيل وَضَعَ عليها الكيَّ فَسَبَّلَها[٢]، وإيش ما كان فكلُّ ذلك كان جائزاً في شرعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

أي لَصقْتُ بالأرض لحُبِّ المال. ويقال لمَّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوَّضه الله ـ سبحانه ـ بأن سَخَّرَ له الريح، وهذا أبلغ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

اختلف الناسُ في هذه الفتنة؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال: «لأطوفَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدةٍ منهن غلام يقاتل في سبيل الله»[٣] ولم يَقُلْ إن شاء الله، ولم تَحْمِلْ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشق مولود، فألقته على كرسيِّه، فاستغفر ربه من تَرْك الاستثناء، وكان ذلك ترك ما هو الأَوْلَى.

وقيل كان له ابن، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه، فَهَمُّوا بقَتْلِه، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين، فمات الولد، وألقته الريح على كرسيه ميتاً. فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء، وكان الأَوْلَى به التوكل وتَرْك الاستعانة بالرِّيح.

وقيل في التفاسير: إنه تزوج بامرأة كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان، وسَبَاها، فقالت له: إن أَذِنْتُ لي أَنْ اتَّخِذَ تمثالاً على صورةٍ لأبي لأتسلَّى بنظري إليه؟ فأَذِنَ لها، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يوماً)، وكانت تعبده سِرًّا، فعوقب عليه.

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نسائه إليه، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَه إليها، وهي على باب الخلاء، فإذا خَرَجَ استردَّه. وجاء يوماً شيطانٌ يُقَال له «صخر» على صورة سليمان وقال لامرأته: ادفعي إليَّ الخاتم فدفعته، ولبسه، وقعد على كرسيه، يُمَشِّي أمورَه ـ إلا التصرفَ في نسائه ـ فقد منعه اللَّهُ عن

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سبّل المال: جعله في سبيل الخير وأنواع البر.

(٣) أخرجه البخاري (نكاح ١١٩)، (كفارات ٩)، ومسلم (أيمان ٢٢، ٢٤، ٢٥)، (نذور، ٧)، والنسائي (أيمان ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٢٩، ٢٧٥، ٥٠٦.

ذلك. فلمَّا خرج سليمانُ طَالَبَ المرأة بالخاتم، فقالت: الساعةَ دَفَعْتُه إليك. فظَنَّ أنه فُتِنَ، وكان إذا أخبر الناسَ أنه سليمان لا يُصَدِّقُونه، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر)، وأصابته شدائد، وحمل سَمَكَ الصيادين بأجرةٍ حتى يجدَ قُوتاً.

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَه) نشروا التوراة بين يديه، ففرَّ ورمى بالخاتم في البحر، وطار في الهواء. ولمَّا أَذِنَ اللَّهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إليه، ابتلعت سمكةٌ خاتمه، ووقعت في حبال الصيادين، ودفعوها إلى سليمان في أجرته، فلمَّا شقَّ بَطْنَهَا ورأى خاتَمه لبسه، وسَجَدَ له الملاحون، وعاد إلى سرير مُلْكِه.

قولــه جــلّ ذكــره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

أي مُلْكاً لا يسلبه أحدٌ مني بعد هذا كما سُلِبَ مني في هذه المرة.

وقيل أراد انفراده به ليكونَ معجزةً له على قومه.

وقيل أراد أنه لا ينبغي لأحدٍ من بعدي أن يسأل المُلْكَ، بل يجب أن يَكِلَ أمرَه إلى الله في اختياره له.

ويقال لم يقصد الأنبياء، ولكن قال لا ينبغي من بعدي لأحدٍ من الملوك.

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس، وإنصافِ بعضهم من بعض، والقيام بحقِّ الله، ولم يسأله لأَجْلِ مَيْلِه إلى الدنيا... وهو كقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهرَ، وإنما أراد به أن يَمْلِكَ نَفْسَه، فإن المَلِكَ ـ على الحقيقة ـ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَه، ومَنْ مَلَكَ نَفْسَه لم يَتَّبِعْ هواه.

ويقال أراد به كمالَ حالِهِ في شهود ربِّه حتى لا يَرَى معه غيرَه.

ويقال سأل القناعةَ التي لا يبقى معها اختيار.

ويقال علم أن سِرَّ نبيِّنا ـ ﷺ ـ ألا يلاحِظَ الدنيا ولا ملكَها فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] لا لأنه بَخِلَ به على نبيِّنا ﷺ ولكن لِعِلْمِه أنه لا ينظر إلى ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

شكَرَ اللَّهُ سَعْيَه، وسَخَّرَ له الريحَ بَدَلاً من الأفراس؛ فلا يحتاج في إمساكها إلى العَلَفِ والمُؤَنِ.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كما سخَّرنا له الشياطين.

ثم قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا...﴾ أي فأَعْطِ أو أَمْسِكْ، واحفظْ وليس عليك حساب.

والمشيُ في الهواء للأولياء، وقَطْعُ المسافاتِ البعيدة في مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً في هذه الأمة ـ وإنْ لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين. وإظهاره على خَدَمِ رسول الله ﷺ لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه ـ ﷺ ـ أشرف[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

أي بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البَلِيَّة، وقيل لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته: اسجدي لي حتى أردَّ عليكم ما سلبتكم.

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلومٌ فلم يَنْصُرْه... فابتُلِيَ.

ويقال استضافَ الناسَ يوماً فلمَّا جاءَه ابنُ فقيرٍ مَنَعَه من الدخول.

ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً، وكان لأيوب غَنَمٌ في ولايته، فداهَنَه لأَجْلِ غَنَمِه في القتال.

ويقال حَسَدَه إبليسُ، فقال: لَئِنْ سَلَّطْتني عليه لم يشكر لك.

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحدٍ، فَجَرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم.

ويقال لبث أيوب في البلاء ثماني عشرة سنة، وقيل أربعين سنة، وقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

لمَّا أراد اللَّهُ كَشْفَ البلاءِ عنه قال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، فركض، فظَهَرت عينُ ماءٍ باردٍ فاغتسل به، فعاد إليه جمالُه وكمالُه. وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة، واغتسل، وردَّ الله وشَعْرَه وبشره، وأحيا أولاده وأهله، وقيل بل يردُّهم إليه في الجنة في الآخرة[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

الضِغْث الحزمة من القضبان، وقيل كانت مائة، وأُمِرَ بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لئلا يحنث في يمينه، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائةَ خشبةٍ إنْ صحَّ (أنها أخطأت). فَشَكَرَ اللَّهُ لها لبراءةِ ساحتِها، وصبرِها على خدمته. وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ: اسجدي لي؛ أخبرت أيوبَ بذلك، فغاظه حيث سمعت من إبليس

---

(١) الآية (٤٠) لم ترد.

(٢) الآية (٤٣) لم ترد.

ذلك وظنَّتْ أنه صادقٌ. وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهَّمَ في ذلك رِيبةً، وكان أيوب يتعلَّق بذوائبها (إذا أراد القيام). وقيل رابه شيءٌ منها فَحَلَفَ (أن يضربها بعد شفائه).

﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا . . .﴾: والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير.

ويقال الصبر الوقوف تحت الحُكْم. ويقال التلذُّذ بالبلاء، واستعذابُه دون استصعابه. ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب.

ولم يَنْفِ قولُه ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] اسمَ الصبرِ عنه؛ لأنَّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى، ولأنه كان مرة واحدة، وقد وقف الكثيرَ من الوقت ولم يَقُلْ مَسَّني الضُرُّ؛ فكان الحُكْمُ للغالب.

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لم يشغلْه البلاءُ عن المُبْلِي. ونِعْمَ العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾: أي القوة. ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي البصائر.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾: أي بفضيلة خالصة وهي ذكر الجنة والنار، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب مِنَ النار. ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء. ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكري الدار، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾: قيل كان تَكَفَّلَ لله بعمل رجلٍ صالحٍ مات في وقته، وقيل كَفَلَ مائةً من بني إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالمٍ، فكانَ يُنْفِقُ عليهم.

ويقال كان اليسعُ وذو الكفل أَخَوَيْن.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

أي هذا القرآن فيه ذِكْرُ ما كان، وذِكْرُ الأنبياء والقصص.

ويقال إنّه شرفٌ لك؛ لأنه معجزةٌ تدل على صِدْقِك، وإن للذين يتَّقُون المعاصِيَ لَحُسْنَ المُنقَلَبِ.

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

أي إذا جاؤوها لا يلحقهم ذُلُّ الحجاب، ولا كُلْفَةُ الاستئذان، تستقبلهم

الملائكةُ بالترحاب والتبجيل. متكئين فيها على أرائكهم، يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرة وشرابٍ على ما يشتهون، وعندهم حورٌ عين قاصراتُ الطَّرْفِ[١] عن غير أزواجهن، (أتراب): لِدَاتٌ مُستَوِيَاتٌ في الحُسْنِ والجمال والشكل[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾.

لَشَرَّ مَرْجع ومُنْقَلَبٍ؛ وهي جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذَّبِين فيها، وبِئْس المكانُ ذلك[٣]!

﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾.

«حميم»: هو الماء الحلو، و«غسَّاق» هو عصارة أهل النار، ويقال هو زمهرير[٤] جهنم.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾.

أي فنون أخرى من مثل ذلك العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾.

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم، ويقول الأتباع للمتبوعين: لا مرحباً بكم؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم[٥]، ويقولون:

﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾.

فيقال لهم كُلُّكُم فيها، ولن يفترَ العذابُ عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾.

يقول الكفار عندما يدخلون النار: ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدهم في الدنيا من الأشرار والمستضعفين... فَلَسْنَا نراهم ها هنا؟ أهم ليسوا هنا أم زاغت عنهم أبصارُنا؟ يقوله أبو جهلٍ وأصحابُه يعنون بلالاً والمستضعفين، فيُعَرَّفون بأنهم في الفردوس، فتزداد حسراتُهم[٦].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾.

أي إن مخاصمةَ أهلِ النارِ في النار لَحَقٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

---

(١) يقال: امرأة قاصرة الطرف: خجلة حَيِيّة، لا تمد عينها إلى غير زوجها.
(٢) الآيات من (٥١ حتى ٥٤) لم ترد. (٣) الآية (٥٦) لم ترد.
(٤) الزمهرير: شدة البرد. (٥) الآية (٦٠) لم ترد.
(٦) الآية (٦٣) لم ترد.

قل يا محمد: إنما أنا مُنْذِرٌ مخوِّفٌ، مُبَلِّغٌ رسالةَ ربي، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذي لا شريك له.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي الذي أَتيْتُكم به من الأخبار عن القيامة والحَشْرِ، والجنة والنار، وما أخبرتكم به عن نُبُوَّتي وصِدْقي هو نبأ عظيمٌ، وأنتم أعرضْتُم عنه.

وما كان لي من عِلْم بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أنَّ الله عرَّفني، وإلا ما كُنتُ عَلِمْتُه. والملأ الأعلَى قومٌ من الملائكة في السماء العليا، واختصامهم كان في شأن آدم حيث قالوا: أتجعل فيها مَنْ يُفْسِد فيها؟

وقد ورد في الخبر: «أن جبريل سأل الرسولَ ﷺ عن هذا الاختصام فقال: لا أدري. فقال جبريل: في الكفارات والدرجات؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء في السَّبْرَات[1]، ونَقْل الأقدام إلى الجماعات، وأما الدرجات فإفشاءُ السلامِ، وإطعامُ الطعام، والصلاةُ بالليل والنَّاسُ نيام»[2]. وإنما اختلفوا في بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها ـ فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا، ولكنهم في الأصل لا يجحدون.

... وهذا إنما يُوحى إليَّ وأنا منذر مبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

إخباره الملائكة بذلك إنما يَدُلُّ على تفخيم شأن آدم؛ لأنه خَلَقَ ما خَلَقَ من الكونين، والجنة والنار، والعرش والكرسي، والملائكة، ولم يقل في صفة شيءٍ منها ما قال في صفة آدم وأولاده. ولم يأمر بالسجود لأَحَدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم، وسبحان الله! خَلَقَ أَعزَّ خَلْقِه من أَذَلِّ شيءٍ وأَخَسِّه وهو التراب والطين.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

روحُ آدم ـ وإنْ كانت مخلوقة ـ فلَها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر، فلمَّا سوَّى خَلْقَ آدم، ورَكَّبَ فيه الروح جلَّلَه بأنوار التخصيص، فوقعَتْ هيبته على الملائكة، فسجدوا لأمره، وظهرَتْ لإبليسَ شقاوتهُ، ووقع ـ بامتناعه ـ في اللعنة[3].

---

(١) السبرات: جمع سبرة، وهي الغداة الباردة. (اللسان ٤/ ٣٤١ مادة: سبر).

(٢) للحديث رواية أخرى «سألني ربي فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى» أخرجه القرطبي في (التفسير ١٥/ ٢٢٦).

(٣) الآيتان (٧٣، ٧٤) لم تردا.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

من هنا وقع في الغلط؛ تَوَهَّمَ أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية، ولم يعلم أن التفضيلَ من حيث القسمة دون الخِلْقَة.

ويقال ما أودع اللَّهُ ـ سبحانه ـ عند آدم لم يوجد عند غيره، ففيه ظهرت الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قال فاخرج من الجنة، ومن الصورة التي كنت فيها، ومن الحالة التي كنتَ عليها، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ مَرْمِيٌّ باللَّعنِ مني، وبالشُّهب من السماء، وبالرجوم من قلوب الأولياء إنْ تَعَرَّضْتَ لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾.

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه، وتعلَّقت إرادتُه بسؤال إنظاره، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته، فأَنْظَرَهُ اللَّهُ، وأجابه، لأنه بلسانه سأل تمامَ شقاوته.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

ولو عَرَفَ عِزَّتَه لَمَا أقسم بها على مخالفته.

ويقال تجاسُرُه في مخاطبة الحقِّ ـ حيث أَصَرَّ على الخلاف وأقسم عليه ـ أَقْبَحُ وأَوْلى في استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول ﷺ:

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾.

ما جئتكم من حيث أنا، ولا باختياري، وإنما أُرسِلْتُ إليكم.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني القرآن، عظة لكم.

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ وعُلِمَ صِدْقُه بعد ما استمرت شريعتُه، فإن مثل ذلك إذا كان باطلاً لا يدوم.

سورة الزمر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ سماعُها يوجِبُ للقلوب شفاءَها، وللأرواح ضياءَها، وللأسرار سناءَها وعلاءَها.

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها بِسَمْعِ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة. ومَنْ سمعه بِسَمْعِ الوَجْدِ ظلّتْ ألبابُه مبهورة، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أي هذا كتابٌ عزيزٌ نَزَلَ من ربٍّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان مَلَكٍ عزيز في شأنِ أمةٍ عزيزة بأمرٍ عزيز. وفي ورود الرسولِ به من الحبيب الأول نزهةٌ لقلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها، وارتياحٌ عند قراءة فصولها.

وكتابُ موسى في الألواح التي كان منها يقرأ موسى، وكتابُ نبيِّنا ﷺ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِ المصطفى صلوات الله عليه... وفَضْلٌ بين من يكون كتابُ ربِّه مكتوباً في ألواحه، وبين من يكون خطابُ ربِّه محفوظاً في قلبه، وكذلك أمته، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾.

أي أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق، وأنا مُحِقٌّ في إنزاله.

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع، وتكون بالنَّفْس والقلب والروح؛ فالتي بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص، والتي بالقلب فالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص، والتي بالروح فالإخلاص فيها التنقِّي عن طلب الاختصاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا

تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صحَّ أَنْ يكونَ في العَالَم مُخْلِصٌ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ أي الذين عبدوا الأصنام قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، ولم يقولوا هذا من قِبَلِ الله ولا بأمره ولا بإذنه، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم. وفي هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرَبِ بنشاطِ نَفْسِه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِي بها... فكل ذلك اتباعُ هوًى، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

لا تَهديهم اليومَ لدينه، ولا في الآخرة إلى ثوابه. والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرَّض لغير مقامه، ويدَّعي شيئاً ليس بصادقٍ فيه، فاللَّهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سَدادُه ورُشْدُه. وعقوبتُه أَنْ يَحْرِمَه ذلك الشيءَ الذي تصدَّى له بدعواه قبل تَحققِه بوجوده وذَوْقِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

خاطَبَهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا: المسيحُ ابن اللَّهِ، وعُزَيْرُ وَلَدُ اللَّهِ؛ فقال: لو أراد أن يتَّخِذَ وَلَداً للتبنِّي والكرامة لاخْتَارَ من الملائكة الذين هم مُنَزَّهون عن الأكل والشرب وأوصاف الخَلْقِ.

ثم أخبر عن تَقَدُّسِه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تنزيهاً له على اتخاذ الأولاد... لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نَعْتِه، ولا بالتبنِّي لِتَقَدُّسِه عن الجنسية والمحالات، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد؛ إذ لو كان ذلك فيكف كان يكون حُكْمُه؟ كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي خَلَقَهما وهو مُحِقٌّ في خلقهما.

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

يُدْخِلُ الليلَ على النهارِ، ويدخل النهارَ على الليل في الزيادة والنقصان، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ. وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد في القبض والبسط، والجَمْع والفَرْق، والأخذ والرد، والصحو والسُّكْرِ، ونجوم العقل وأقمار العلم،

وشموس المعرفة ونهار التوحيد، وليالي الشَّكِّ والجَحْدِ ونهار الوصل، وليالي الهجر والفراق وكيفية اختلافها، وزيادتها ونقصانها.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

«العزيز» المتعزّز على المحبين، «الغفار» للمذنبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] يعني آدم وحواء.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي خلق لكم، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ فمن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المواشي اثنين.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: أي يصورّكم، ويُرَكِّب أحوالكم.

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾: ظلمة البطن، وظلمة الرَّحِم، وظلمة المشيمة[1]. ذَكَّرَهم نسبتهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم.

ويقال بَيَّنَ آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خِلْقَتِك ـ من قطرتين ـ أمشاجاً[2] متشاكلةَ الأجزاء، مختلفةَ الصُّوَرِ في الأعضاء، سَخَّرَ بعضَها مَحَالَّ للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة... وغير ذلك من أحوال القلوب، وسَخَّرَ بعضها مَحَالَّ للحواس كالسمع والبصر والشَّمِّ وغيرها.

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أنعم اللَّهُ بها علينا فَذَكَّرَنا بها ـ والنفوسُ مجبولةٌ، وكذلك القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها ـ استجلاباً لمحبتنا له.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ...﴾ أي إن الذي أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم. أي: أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صَوَّرْتُكم فأحسنت صُوَرَكم، وأنا الذين أسبَغْتُ عليكم إنعامي، وخصصتكم بجميل إكرامي، وأغرقتكم في بحار أفضالي، وعرفتكم استحقاق جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيدي، وألزمتكم رعايةَ حدودي... فما لكم لا تَنْقَطِعون بالكلية إليّ؟ ولا ترجون ما وَعَدْتُكم لديّ؟ وما لكم في الوقت بقلوبكم لا تنظرون إليّ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

---

(١) المشيمة: ظاهر الغشاء الذي يكون فيه الجنين في البطن، ويخرج معه عند الولادة (ج) مشايم.

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط، ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة. (اللسان ٢/ ٣٦٧ مادة: مشج).

إنْ أعرضتم وأَبَيْتُم، وفي جحودكم تماديتم. . . فَمَا نَفْتَقِرُ إليكم؛ إذ نحن أغنياء عنكم، ولكنّي لا أرضى لكم أن تبقوا عني!

يا مسكين. . . أنت إنْ لم تكن لي فأنا عنكَ غنيٌّ، وأنا إن لم أكنْ لك فمن تكون أنت؟ ومَنْ يكون لك؟ مَنْ الذي يُحْسِنُ إليك؟ مَنْ الذي ينظر إليك؟ من الذي يرحمك؟ منْ الذي ينثر الترابَ علىٰ جراحِك؟

من الذي يهتم بشأنك؟ بمن تسلو إذا بَقِيتَ عنّي؟ مَنْ الذي يبيعك رغيفاً بمثاقيل ذهب؟!.

عَبْدي. . . أنا لا أرضى ألا تكونَ لي وأنت ترضى بألا تكون لي! يا قليلَ الوفاء، يا كثيرَ التجنّي!

إن أطَعْتَنِي شَكَرْتُك، وإن ذكَرْتَنِي ذكرتُك، وإن خَطَوْتَ لأَجْلِي خطوةً ملأتُ السمواتِ والأرضين من شكرك:

لــو عَــلِـمْــنــا أنَّ الــزيــارةَ حــقٌّ لَـفَـرَشْـنَـا الـخـدودَ أرضـاً لـتـرضـى

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

إذا مَسَّه ضُرٌّ خَشَعَ وخَضَع، وإلى قُرْبه فزع، وتملّق بين يديه وتضرع. فإذا أزال عنه ضُرَّه، وكفاه أمرَه، وأصلح شغْلَه نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويُشْرِكَ بمعبوده. هذه صِفَتُه. . . فَسُحْقاً له وبُعْداً، ولِسَوف يَلْقى عذاباً وخِزْياً.

قـولـه جـلّ ذكـره: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ. . .﴾.

«قانتاً»: القنوتُ هو القيامُ، وقيل طول القيام. والمراد هو الذي يقوم بحقوق الطاعةِ أوقاتَ الليل والنهار؛ أي في جميع الأوقات.

والهمزة للاستفهام أي أمن هو قانت كمن ليس بقانت؟ أمن هو قانت كالكافر الذي جرى ذِكْرُه؟ أي ليس كذلك.

ويقال القنوتُ القيامُ بآداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير. «يَحْذَرُ» العذابَ الموعودَ في الآخرة، «ويرجو» الثوابَ الموعودَ. وأراد بالحَذَرِ الخوف.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾.

أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل! ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾: العِلْمُ في وصف المخلوق على ضربين: مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الربِّ. ويقال مصنوع وموضوع. ويقال علمُ برهانٍ وعلمُ بيان؛ فالعلومُ الدينية كلُّها برهانية إلَّا ما يحصل بشرط الإلهام.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

أطيعوه واحذروا مخالفةَ أمره. ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بأداء الطاعات، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان).

﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾: أي لا تَتَعَلَّلوا بأذى الأعداء؛ إنْ نَبَا بِكُم منزلٌ فتعلَّلُكم بمعاداة قوم ومَنْعِهِم إياكم ـ لا يُسْمَع، فأرضُ اللهِ واسعةٌ، فاخْرُجوا منها إلى موضع آخر تتم لكم فيه عبادتُكم[(١)].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾. والصبر حَبْسُ النَّفْس على ما تكرهه. ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعبيس.

ويقال هو التهدُّفُ[(٢)] لسهام البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

مضى القولُ في معنى الإخلاص. وفي الخبر: إن الله يقول: «الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِه»[(٣)].

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُه الشيطان، ولا يطَّلِعُ عليه المَلَكَان.

﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ في وقتي وفي شرعي. والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

أخاف أصنافَ العذابِ التي تحصل في ذلك اليوم.

---

(١) قال القشيري برسالته حاثاً على السفر: إن ابتلي مريد بجاه أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة، وليس هناك شيخ يدلّه على حل لذلك، فعند ذلك يحلّ له السفر والتحول عن ذلك الموضع. (الرسالة القشيرية ص٣٦٣).

(٢) التهدف: الدنو والاستقبال. (اللسان ٩/ ٣٤٥ مادة: هدف).

(٣) ورد الحديث في الرسالة القشيرية ص٢٠٨: سُئل النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت ربّ العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سرّ من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي». أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

هذا غاية الزجر والتهديد، ثم بيَّنَ أن ذلك غاية الخسران، وهو الخزي والهوان. والخاسِرُ ـ على الحقيقة ـ مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى، وخَسِرَ عُقْباه بارتكابه ما الربُّ عنه نَهى، وخَسِرَ مولاه فلم يستحِ منه فيما رأى.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

أحاط بهم سُرَادقُها؛ فهم لا يخرجون منها، ولا يَفْتُرُونَ عنها. كما أنهم اليومَ في جهنم عقائدِهم؛ يستديم حجابُهم، ولا ينقطع عنهم عقابهم.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ...﴾ إنْ خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلَّا فبين يديك عقبة كَؤُود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

طاغوتُ كلِّ إنسانٍ نَفْسُه؛ وإنما يجتنبُ الطاغوتَ مَنْ خالف هواه، وعانَقَ رضا مولاه. وعبادةُ النَّفْس بموافقة الهوى ـ وقليلٌ مَنْ لا يعبد هواه، ويجتنب حديث النَّفْس.

﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي رجعوا إليه في كل شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ يقتضي أن يكون الاستماع لكل شيء، ولكن الاتباع يكون للأحسن. «أحسنه»: وفيه قولان؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحَسَن ولا تكون الهمزة للمبالغة، كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أي عزيز. والثاني: الأحسن على المبالغة، والحَسَنُ ما كان مأذوناً فيه في صفة الخَلْقُ ويعْلَمُ ذلك بشهادة العلم، والأحسن هو الأَوْلى والأصوب. ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له. ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله.

ويقال إن للعبد دواعيَ من باطنه هي هواجسُ النفس ووساوسُ الشيطانِ وخوَاطرُ المَلَكِ وخطابُ الحقِّ يُلْقَى في الرَّوْع؛ فوساوسُ الشيطان تدعو إلى المعاصي، وهواجسُ النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النَّفْس وأَنَّ لها في شيءٍ نصيباً، وخواطرُ المَلَكِ تدعو إلى الطاعاتِ والقُرَبِ، وخطابُ الحقِّ في حقائق التوحيد.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾: ـ

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾.

الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ فريقان: فريقٌ حقت عليهم كلمةٌ بعذابهم في النار، وفريقٌ حقت عليهم كلمةُ العذابِ بالحجاب اليومَ، فهم اليومَ لا يخرجون عن حجاب قلوبهم، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان ـ وإن كانوا من أهل الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وَعَدَ المطيعين بالجنَّةِ ـ ولا محالةَ لا يُخْلِف، وَوَعَدَ التائبين بالمغفرة ـ ولا محالةَ يغفر لهم، وَوَعَدَ المريدين بالوجود والوصول ـ وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالةَ مُصْدِقٌ وَعْدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أخبر أنه يُنْزِلُ من السماءِ المطرَ فيُخْرِجُ به الزرعَ فيخضرّ، ثم يأخذ في الجفاف، ثم يصير هشيماً... والإشارةُ من هذا إلى الإنسان، يكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم في آخره يخترم.

ويقال إن الزَّرْعَ ما لم يأخذْ في الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحَبُّ، فالحبُّ هو المقصود منه. كذلك الإنسان ما لم يحصلْ من نَفْسِه وصولٌ لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمةٌ.

ويقال إن كَوْنَ المؤمنِ بقوة عقله يوجِبُ استفادةً له بعلمه إلى أَنْ يبدوَ منه كمالٌ يُمكِّنُ من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحةٌ من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة. فإذا بَدَتْ أنوارُ التوحيد استهلكت تلك الجملة، قالوا:

فلمَّا استبان الصبحُ أدرج[1] ضوءُه ... بـأنـواره أنـوارَ تـلـك الـكـواكـبِ

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

جوابُ هذا الخطابِ محذوفٌ... أي أفمن شرح اللَّهُ صَدْرَه للإسلام كمن ليس كذلك؟

---

(١) أدرج الشيء في الشيء: لفّه وطواه.

لمَّا نزلت هذه الآيةُ سُئِلَ الرسولُ ـ ﷺ ـ عن الشرح المذكور فيها، فقال: «ذلك نورٌ يُقْذَفُ في القلب، فقيل: وهل لذلك أَمارة؟

قال: «نعم؛ التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»(١).

والنورُ الذي مِنْ قِبَلِهِ ـ سبحانه ـ نورُ اللّوائح بنجوم العلم، ثم نورُ اللوامع ببيان الفَهْم، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نورُ المكاشفة بتَجلي الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد... وعند ذلك فلا وَجْدَ ولا فقد، ولا قُرْب ولا بُعْدَ... كلّا بل هو الله الواحد القهار.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي الصلبة قلوبهم، لم تقرعها خواطرُ التعريف فبقيت عَلَى نَكْرَةِ الجَحْد... أُولئك في الضلالة الباقية، والجهالة الدائمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ لأنه غير مخلوق.

﴿كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا﴾ في الإعجاز والبلاغة.

﴿مَّثَانِىَ﴾: يثني فيها الحكم ولا يُمَلُّ بتكرار القراءة، وَيشتمل عَلَى نوعين: الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إذا سمعوا آيات الوعيد.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إذا سمعوا آيات الوعد.

ويقال: تقشعر وتلين بالخوف والرجاء، ويقال بالقبض والبسط، ويقال بالهيبة والأُنس، ويقال بالتجلّي والاستتار.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي فَمنْ يتقي بوجهه سوءَ العذاب كَمَنْ ليس كذلك؟ وقيل إنَّ الكافرَ يَلْقَى النارَ أَوَّلَ ما يلقاها بوجهه؛ لأنه يُرمَى فيها منكوساً. فأمَّا المؤمن فيُوقَى ذلك؛ وإنما يُلَقَّى النضرة والسرور والكرامة؛ فوجهُهُ ضاحكٌ مُسْتَبْشِرٌ.

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٢٧، ٣٢٨، ١٠/ ٢٥٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٤٤، ٥/ ٣٢٥)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ٣٢٨)، والقرطبي في (التفسير ٢/ ١٠٤، ٧/ ٨١).

قوله جلّ ذكره: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أَشدُّ العذابِ ما يكون بغتةً، كما أَنَّ أتمَّ السرور ما يكون فلتةً[١].

ومن الهجران والفراق ما يكون بغتةً غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد وأشدُّ وأوجعُ تأثيراً في القلب، وفي معناه قلنا:

فَبِتُّ بخيرٍ والدُّنى مطمئنةٌ ... وأَصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة، قال قائلهم:

بينما خاطر المُنى بالتلاقي ... سابح في فؤاده وفؤادي

جَمَعَ اللَّهُ بيننا فالتقينا ... هكذا صُدْفَةً بلا ميعادِ[٢]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي أوضحنا لهم الآيات، ووقفناهم على حقائق الأشياء.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مَثَّلَ الكافرَ ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه متنازعون.

﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ﴾: فالصنم يدعي فيه قومٌ وقوم آخرون؛ فهذا يقول: أنا صَنَعْتُه، وذلك يقول: أنا استعملْتُه، وثالث يقول: أنا عَبَدْتُه.

أمّا المؤمن فهو خالِصٌ لله عزَّ وجل، يشبه «عبداً سَلَماً لرجل» أي ذا سلامة من التنازع والاختلاف.

ويقال: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ﴾ تتجاذبه أشغال الدُّنيا، شُغْلُ الوَلدِ وشغل العيال، وغيرُ ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشَتَّتَةِ.

أمّا المؤمِن فهو خالصٌ لله ليس لأحدٍ فيه نصيب؛ ولا للدنيا معه سبب إذ ليس منها شيء، ولا للرضوان معه شُغل، إذْ ليس له طاعات يُدِلُّ بها، وعَلَى الجملة فهو خالص لله، قال تعالى لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] أي أبقيتُكَ لي حتى لا تصلح لغيره.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الثناءُ له، وهو مُسْتَحِقٌّ لصفات الجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾.

---

(١) الفلتة: يقال: خرج الرجل فلتة؛ أي: بغتةً، وحدث الأمر فلتة أي: فجأة بلا روية (ج) فلتات.

(٢) الآية (٢٦) لم ترد.

نَعَاه ـ عليه السلام ـ إليه. ونَعَى المسلمين إليهم فَفزِعُوا بأجمعهم من مآثمهم، ولا تعزية في العادة بعد ثلاث. ومَنْ لم يَتفرَّغْ من مآثم نفسه وأنواع همومه، فليس له من هذا الحديث شمّة، فإذا فرغ قلْبُه من حديث نَفْسِه، وعن الكون بجملته فحينئذٍ يجد الخيرَ من ربِّه، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم، وأنشد بعضهم:

كتابي إليكم بعد موتي بليلةٍ ولم أدرِ أني بعد موتي أكتب

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾.

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها، وادَّعَى وجودَ أشياء لم يَذُقْ شيئاً منها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

ويقال: لا بل هؤلاء هم الكفار، وأمَّا المُدَّعِي الذي لم يَبْلُغْ ما يَدَّعِيه فليس يكذب على ربِّه إنما يكذب على نَفْسِه؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَذُقْها ولم يَجِدْها، فأمَّا غيرُ المتحقق الذي يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذي يقول في صفة الحقّ ـ سبحانه ـ ما يتقدَّسُ ويتعالى عنه[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الذي جاء بالصدق في أفعاله من حيث الإخلاص، وفي أحواله من حيث الصدق، وفيّ أسراره من حيث الحقيقة.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: «الإحسانُ ـ كما جاء في الخبر ـ أن تعبد الله كأنك تراه»[٢]. فَمَنْ كانت ـ اليومَ ـ مشاهدتُه على الدوام كانت رؤيتهُ غداً على الدوام، ومَنْ لا فلا.

---

(١) قال القشيري برسالته: ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادّعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم لو كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا.
هذهِ هي الصور التي يصور بها القشيري بعض متصوفي زمانه، وهي أشبه بالصورة التي صوّر بها الكلاباذي بعض متصوفي زمانه، ولكنها أحلك سواداً وأكثر إيلاماً. (الرسالة القشيرية ص٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦/ ١٤٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ٢٠٣) وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤)، والهيثمي في (موارد الظمآن ١٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/ ٥١٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٣٤، ١٠/ ٩٤)، وابن كثير في (التفسير ٦/ ٣٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩ ـ ٥٢٥٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

منْ لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة. ومَنْ كان معه إيمان: فإذا كُفِّرَ عنه أسوأ ما عَمِلَه فأسوأُ أعمالِه كبائرُه؛ فإنْ غُفِرَتْ يَجْزِهِم بأحسن أعمالهم. وأحْسَنُ أعمالِ المؤمنِ الإيمانُ والمعرفة، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابُه مؤقتاً، وإن كان الإيمان على الدوام فثوابُه على الدوام. ثم أحسنُ الأعمال عليها أحسنُ الثوابِ، وأحسنُ الثوابِ الرؤيةُ فيجب أن تكون على الدوام - وهذا استدلالٌ قوي.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾.

استفهام والمراد منه التقرير؛ فاللَّهُ كافِ عَبْدَه اليومَ في عرفانه بتصحيح إيمانه ومَنْعِ الشِّرْكِ عنه، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه، وما بينهما فكفايتهُ تامة وسلامته عامة[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قَرَّرَ عليهم عُلُوَّ صفاته، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك، ثم طالَبَهم بِذِكْرِ صفاتِ الأصنام التي عبدوها من دونه، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية، والبُعَدِ عن الحياة والعِلْم والقدرةِ والتمكُّنِ من الخَلْقِ، فيقول: كيف أشركتم به هذه الأشياء؟ وهلّا استحيَيْتُم من إطلاق أمثال ذلك في صفته؟.

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ الله، عليه يتوكل المتوكلون؛ كافِيَّ اللَّهُ المتفرِّدُ بالجلالِ، القادرُ على ما يشاء، المتفضِّلُ عليَّ بما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

سوف ينكشف رِبْحُنا وخسرانكم، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم، ونُعَذِّبُكم فلا شفيعَ لكم، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريخَ لكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

(١) الآية (٣٧) لم ترد.

مَنْ أحسن فإحسانهُ إلى نَفْسِه اكتَسبَه ومَنْ أساء فبلاؤه على نفسه جَلَبَه ـ والحقُّ غنيٌّ عن التجمُّلِ بطاعةِ مَنْ أقبل والتنقُّصِ بِزَلَّةِ مَنْ أعرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

يقبض الأرواح[١] حين موتها، والتي لم تَمُتْ من النفوس في حال نومها، فإذا نامت فيقبض أرواحها. وقبضُ الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح، ويخلق بَدَلَ الاستشعارِ والعِلْم الغفلَة والغيبةَ في مَحَالِّ الإحساس والإدراك. ثم إذا قَبضَ الأرواحَ عند الموت خَلَقَ في الأجزاء الموتَ بَدَلَ الحياة، والموتُ ينافي الإحساسَ والعلمَ. وإذا ردَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خَلَقَ الإدراكَ في محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً، وقَبْضُ اللّهِ الأرواحَ في حال النوم وردت به الأخبار، وذلك على مراتب؛ فإنَّ روحاً تُقْبَضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى، وتكون لها تعريفات، ومعها مخاطبات «والله أعلم»[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي أنهم ـ وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء بِحُكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار ـ فإنَّ اللّهَ تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحدٍ إلَّا إذا أَذِنَ بها، وإنَّ الذي يقولونهْ إنما هو افتراءٌ على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

اشمأزّت[٣] قلوبُ الذين جحدوا ولم تسكن نفوسُهم إلى التوحيد، وإذا ذُكِرَ الذين مِنْ دونه استأنسوا إلى سماعه: ـ

---

(١) القشيري هنا لا يكاد يميز بين النفس والروح. لكنه بالرسالة يميز بينهما حيث يقول: ويُحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المعلولة، كما أن الروح لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون (بشكل عام) مسخراً بعضها لبعض، والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة. (الرسالة القشيرية ص٨٧).

ثم يقول: اختلف أهل التحقيق من أهل السنة في الأرواح فمنهم من يقول: إنها الحياة، ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة في هذه القوالب، لطيفة، أجرى الله العادة بخلق الحياة في القالب ما دامت الأرواح في الأبدان. (الرسالة القشيرية ص٨٨).

(٢) الآية (٤٤) لم ترد.

(٣) اشمأز: انقبض واقشعرّ ونفر.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

عَلَّمَه ـ ﷺ ـ كيف يثني عليه ـ سبحانه.

وتشتمل الآيةُ على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التنَصُّل والتذلُّل، وابتغاءِ العَفْو والتفضُّل، وتحقيقِ الالتجاء بِحُسْنِ التوكل. ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

لافتدوا به.. ولكن لا يُقْبَلُ منهم، واليومَ لو تصدَّقوا بمثقال ذرة لَقُبِلَ منهم. كما أنهم لو بَكَوْا في الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم، ولكنهم بدمعة واحدةٍ ـ اليومَ ـ يُمْحَى الكثيرُ من دواوينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

في سماع هذه الآية حَسَراتٌ لأصحاب الانتباه.

وفي بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤْمَرُ بهم إلى النار فإذا وافوها يقول لهم مالِكٌ: مَنْ أنتم؟ إن الذين جاؤوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوهُهم كانت مُسْوَدَّةً، وعيونُهم كانت مُزْرَقَّةً... وأنتم لستم بتلك الصفة، فيقولون: ونحن لم نتوقع أن نلقاك، وإنما انتظرنا شيئاً آخر! قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

حاق بهم وبالُ استهزائهم وجزاءُ مَكْرِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في حال الضُرِّ يتبرَّؤون من الاستحقاق والحوْلِ والقوة، فإذا كَشَفَ عنهم البلاءَ وقعوا في مغاليطهم، وقالوا: إنما أوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا، قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ ولكنهم لم يعلموا، ثم أخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهم مثلَ هذا قالوا وحسبوا، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم، فأصابهم شؤمُ ما قالوا، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مِثْلُ ما أصاب أولئك[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) الآيتان: (٥٠، ٥١) لم تردا.

أو لم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق: فَمِنْ مُوَسَّع عليه رِزقُه، ومِنْ مُضَيَّقٍ عليه، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

التسمية «بياعبادي» مَدْحٌ[١]، والوصفُ بأنهم «أسرفوا» ذَمٌّ. فلمَّا قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ طمع المطيعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية، فرفعوا رؤوسَهم، ونكَّسَ العُصَاةُ رؤوسَهم وقالوا: مَنْ نحن... حتى يقول لنا هذا؟!

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ فانقلب الحالُ؛ فهؤلاء الذين نكَّسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذِلَّتُهُم، والذين رفعوا رؤوسَهم أطرقوا وزالت صَوْلَتُهم.

ثم أزال الأُعجوبةَ عن القبسمة بما قَوِي رجاءَهم بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني إنْ أَسْرَفْتَ فعلى نَفْسِكَ أسرفت.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: بعد ما قطعْتَ اختلافَك إلى بابنا فلا ترفَعْ قلبك عَنَّا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الألف واللام في «الذنوب» للاستغراق والعموم، والذنوب جمع ذنب، وجاءت «جميعاً» للتأكيد؛ فكأنه قال: أَغْفِرُ ولا أترك، وأعفو ولا أُبْقِي.

ويقال إنْ كانت لكم جِناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

الإنابة الرجوع بالكلية. وقيل الرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائبَ يرجع من خوف العقوبة، وصاحبُ الإنابة يرجع استحياءً لِكَرَمِه[٢].

---

(١) قال القشيري برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾، وقال تعالى: ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ فلو كان اسم أجل من العبودية لسمّاه به. (الرسالة القشيرية ص٢٠٠).

(٢) قال القشيري بهذا الخصوص برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة أوسطهما. فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر، لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة.

ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون**﴾ والإنابة صفة=

﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ : وأخلِصوا في طاعتكم، والإسلامُ ـ الذي هو بعد الإنابة ـ أَنْ يعلمَ أَنَّ نجاتَه بفَضْلِه لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته. . . لا بإنابته يصل إلى فضله.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قبل الفراق. ويقال هو أن يفوتَه وقتُ الرجوعِ بشهود الناس ثم لا يَنْصَرِفُ عن ذلك[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يقال هذا في أقوامٍ يَرَوْن أمثالَهم تقدموا عليهم في أحوالهم، فيتذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم، ويَرَوْن ما وُفِّقَ إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة[٢] على أنامل الخيبة.

أو يقول: لو أنَّ الله هداني لكُنْتُ كذا، ويقول آخر: لو أنَّ لي كَرَّةً فأكون كذا، فيقول الحقُّ ـ سبحانه:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فَذُقْ من العذابِ ما على جُرْمِك استوجَبْتَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها، وأظهروا المحبةَ لله ولم يتحققوا بها، وكفاهم افتضاحاً بذلك! وأنشدوا:

ولـمَّا ادَّعَيْتُ الـحُبَّ قالت كَذَبْتَني ... فما لي أرى الأعضاءَ منك كواسيا؟!
فما الحُبُّ حتى تنزف العين بالبكا ... وتخرس حتى لا تجيب المناديا[٣]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

كما وَقَاهم ـ اليومَ ـ عن المخالفات، حماهم ـ غداً ـ من العقوبات، فالمتقون

= الأولياء المقربين، قال الله تعالى: ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾. (الرسالة القشيرية ص٩٤).

(١) الآية (٥٥) لم ترد.

(٢) عضوا عليه بالنواجذ؛ أي حرصوا عليه.

(٣) البيتان في الرسالة القشيرية ص٣٢٤. رواية البيت الثاني فيها:

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا ... وتذبل حتى لا تجيب المناديا

فازوا بسعادة الدارين؛ اليومَ عصمة، وغداً نعمة. اليومَ عناية وغداً حماية وكفاية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾.

تدخل أكسابُ العباد في هذه الجملة، ولا يَدْخُل كلامُه فيه؛ لأن المخاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿مَقَالِيدُ﴾ أي مفاتيح، والمرادُ منه أنه قادر على جميع المقدورات، فما يريد أَنْ يُوجِدَه أَوْجَدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾.

أي متى يكون لكم طَمَعٌ في أن أعبدَ غيره... وبتوحيده ربَّاني، وبتفريده غَذَاني، وبِشَرَابِ حُبِّه سَقَاني؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

لَئِنْ لاحظْتَ غيري، وأثْبَتَّ معي في الإبداع سِوَايَ أحْبَطْتَ عَمَلكَ، وأبطلْتَ سعيَكَ، بل اللَّهَ ـ يا محمد ـ فاعْبُدْ، وكُنْ من جملة عبادي الشاكرين[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

ما عرفوه حَقَّ معرفته، وما وصفوه حقَّ وصفه، وما عظَّموه حَقَّ تعظيمه؛ فَمَن اتصف بتمثيل، أو جَنَحَ إلى تعطيل حَادَ عن السُّنَّةِ المُثْلَى وانحرف عن الطريقة الحسنى. وصفوا الحقَّ بالأعضاء، وتَوَهَّموا في نَعْتِه الأجزاء، فما قدروه حَقَّ قَدْرِه؛ فالخَلْقُ في قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ويمينُهُ قُدْرَتُه. ولأنه أقسم أن يُفْنِيَ السمواتِ ويطويَها فهو قادر على ذلك.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾.

في النفخة الأولى تموتون، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُون، والنفختان متجانستان؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح، وفي الأخرى حياة النفوس،

---

(١) الآية (٦٦) لم ترد.

لِيُعْلَمَ أن النفخةَ لا تعمل شيئاً لعينها، وإنما الجبَّارُ بقدرته يخلق ما يشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامةُ به، وذلك عند تكوير[١] الشمس وانكدار[٢] النجوم، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم. الكُفَّارُ يَبْقَوْن في الظلمات، والمؤمنون نورُهم يسعى بين أيديهم.

ويقال اليومَ إشراق، وغداً إشراق، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره، وغداً إشراقُ الأرض بنور ربها. ويقال غداً أنوار التولِّي للمؤمنين، واليومَ أنوار التجلِّي للعارفين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

إن كان خيراً فَخَيْرٌ، وإن كان غير خَيْر فغيرُ خير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الكفار يُسَاقُون إلى النار عنفاً، والمؤمنون يُسَاقون إلى الجنة لُطفاً؛ فالسَّوَقُ يجمع الجنسين... ولكن شتان بين سَوْقٍ وسَوْق!.

فإذا جاء الكفارُ قابَلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب؛ فلا تكريمَ ولا تعظيم، ولا سؤال ولا استقبال... بل خِزْيٌ وهوانٌ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

سَوْقٌ ولكن بغير تعبٍ ولا نَصَبٍ، سَوْقٌ ولكن برَوْحٍ وطَرَبٍ.

«زمراً» جماعاتٍ، وهؤلاء هم عوامُّ أهل الجنة، وفوق هؤلاء: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] وفوقهم مَنْ قال فيهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وفَرْقٌ بين مَنْ يُسَاقُ إلى الجنة، وبين مَنْ تُقَرَّبُ منه الجنة... هؤلاء الظالمون، والآخرون المقتصدون، والآخرون السابقون.

---

(١) كوّرت الشمس: جمع ضوءها وصار كالكرة، أو اضمحلت وذهب ضوءها.

(٢) انكدرت النجوم: تناثرت أو انحدرت وتساقطت أو أظلمت وذهب نورها.

(٣) الآية (٧٢) لم ترد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا...﴾ وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار.

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاق، ولعلَّ هؤلاء لا رغبةَ لهم في الجنة بكثير؛ فَلَهُم معه في الطريق قَوْلُ ﴿طِبْتُمْ﴾؛ أي أنهم يُساقون إلى الجنة بلطف دون عنف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

صَدَقَنا وعده بإدخالنا الجنة، وإكمال المِنَّة.

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرضَ الجنة؛ نتبوأ منها حيث نشاء. وهؤلاء قوم مخصوصون، والذين هم قومُ «الغُرَف» أقوام آخرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

يُسَبِّحون بحمد ربهم في عموم الأوقات... هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش.

وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحقِّ، لهؤلاء دَرَكات ولأولئك درجات... إلى غير ذلك من فنون الحالات. وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أراده الحقُّ في عباداتهم.

سورة المؤمن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةُ مَنْ تحقَّقَ بها شَرُفَ من الحقِّ مَنَالُه، وصفت عنده أحواله، وخَلَعَ عَلَى نَفْسِه رداءَ الأفضال، وألبَسَ قلبَه جلالَ الإقبال، وأفرد رُوحَه بروْحِ لُطْفِ الجمال، واستخلص سِرَّه بِكَشفِ وصفِ الجلال.

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ﴾.

أي حُمَّ أمْرٌ كائن.

ويقال «الحاء» إشارة إلى حِلْمِه، «والميم» إشارة إلى مجده أي: بحِلْمي ومجدي لا أُخَلِّدُ في النار مَنْ آمنَ بي.

ويقال هذه الحروف مفاتح أسمائه.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

«العزيز»: المُعزّ لأوليائه، «العليم» بما كان ويكون منهم، فلا يمنعه عِلمُه بما سَلَفَ منهم عن قضائه.

قوله جل ذكره: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

كتابٌ مُعَنْوَنٌ بقبول توبته لِعِبادَه؛ عَلِمَ أنَّ العاصيَ مُنكَسِرُ القلبِ فأزال عنه الانكسارَ بأن قدَّمَ نصيبه، فقدَّم اسمَه على قبول التوبة. فَسَكَّنَ نفوسَهم وقلوبَهم باسْمَيْنِ يُوجِبَان الرجاء؛ وهما قولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾.

ثم عقبهما بقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ ثم لم يرض حتى قال بعدئذٍ ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾.

فيُقَابِلُ قوْلَه: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ قَوْلُه: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾.

ويقال: غافرُ الذنبِ لِمَنْ أصَرَّ واجْتَرَمَ، وقابلُ التوبِ لمن أقَرَّ ونَدِمَ، شديد العقاب لِمَنْ جَحَدَ وعَنَدَ، ذِي الطول لمن عَرَفَ ووَحَد.

ويقال غافر الذنب للظالمين، وقابل التوب للمقتصدين، شديد العقاب للمشركين، ذي الطول للسابقين.

ويقال: سُنَّةُ الله أنه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمٍ أو لفظٍ تدارَكَ قلوبهم بأن يُبشِّرَهم باسْمَيْن أو بوَصْفين.

﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾.

إذا ظَهر البرهانُ واتَّضَحَ البيانُ استسلمَتْ الألبابُ الصاحيةُ للاستجابة والإيمان.

فأمَّا أهلُ الكفرِ فلهم عَلَى الجمود إصرارٌ، وشُؤْمُ شِرْكِهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف.. وكذلك من لا يحترمون أولياء الله، ويُصِرُّون على إنكارهم، ويعترضون عليهم بقلوبهم، ويجادلون في جَحْدِ الكرامات، وما يخصُّ اللَّهُ به عباده من الآيات.. فهؤلاء يميزون بين رجحانهم ونقصانهم، وسيفتضحون كثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

كذلك مَنْ انقرض مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ دَأبَهم، ولكنَّ الله ـ سبحانه ـ انتقم منهم، وعلى كُفْرِهم احترمهم.

والمُنْكِرُ لهذا الطريق يدين بإنكاره، ويتقرَّبُ إلى الله به، ويعد وقيعته في أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته، ولكن الله ـ سبحانه ـ يعذبهم في العاجل بتخليتهم فيما هم فيه، وصَدِّ قلوبهم عن هذه المعاني، وحرمانهم منها.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

إذا انختم على عبدٍ حُكْمُ الله بشقاوته فلا تنفعه كَثْرَةُ ما يوردُ عليه من النُّصح. والله على أمره غالبٌ. ومَنْ أسَرَتْه يَدُ الشقاوة فلا يُخَلِّصُه مِنْ مخالبها جُهْدٌ ولا سعاية.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

حَمَلَةُ العرش من حَوْلَ العرش من خواص الملائكة، مأمورون بالتسبيح لله، ثم بالاستغفار للعاصين ـ لأنَّ الاستغفار للذنبِ والتوبةُ إنما تحصل من الذنب ـ ويجتهدون في الدعاء لهم على نحو ما في هذه الآية وما بعدها؛ فيدعون لهم بالنجاة، ثم بِرفع الدرجات، ويحيلون الأمر في كل ذلك على رحمة الله.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: فلئن سلَّطَ عليك أراذل من خَلْقه ـ وهُم الشياطين ـ فلقد قيَّض بالشفاعة أفاضلَ من خَلْقِه ومن الملائكة المقرَّبين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

أشدُّ العقوباتِ التي يُوصلها الحقُّ إليهم آثارُ سُخْطِه وغَضَبِه، وأجَلُّ النِّعَم التي يغروهم بها آثارُ رضاه عنهم. فإذا عَرَفَ الكافرُ في الآخرة أنَّ ربَّه عليه غضبانُ فلا شيءَ أصعبُ على قلبه من ذلك؛ لأنه عَلِمَ أنه لا بُكاء ينفعه، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يُسْمَعُ له تضرُّعٌ، ولا تُرْجَى له حيلة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

الإماتةُ الأولى إماتَتُهم في الدنيا ثم في القبر يحييهم، ثم يميتهم فهي الإماتةُ الثانية. والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر.

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾: أقروا بذنوبهم ـ ولكن في وقتٍ لا ينفعهم الإقرار.

﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ مما نحن فيه من العقوبة، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرارُ. فيُقال لهم:ـ

﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

أي تُصَدِّقوا المشركين لكفرهم. وهؤلاء إماتَتُهم محصورة، فأمَّا أهلُ المحبةِ فلهم في كلِّ وقتٍ حياةٌ وموتٌ، قال قائلُهم:

أمـوت إذا فَـقَـدْتُـكَ ثـم أحـيـا فـكـم أحـيـا عـلـيـك وكـم أمـوت!

فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يُرَدِّدُ أبداً الخواصَّ من عباده بين الفناء والبقاء، والحياة والموت، والمحو والإثبات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

يُريهم آياتِ فَضلِه فيما يُلاطِفُهم، ويريهم آياتِ قَهْرِه فيما يكاشفهم، ويريهم آياتِ عَفْوِه إذا تنصَّلُوا، وآياتِ جوده إذا توسَّلُوا، وآياتِ جلالِه إذا هابوا فغابوا، وآياتِ

جمالِه إذا آبوا واستجابوا. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾ لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات، ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾: يرجع من العادة إلى العبادة، ومن الشَّكِّ إلى اليقين، ومن الخَلْقِ إلى الحقِّ، ومن الجهل إلى العِلْم، ومن النَّكرة إلى العرفان.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

شَرْطُ الدعاء تقديم المعرفة لتعرفَ من الذي تدعوه، ثم تدعو بما تحتاج إليه مِمَّا لا بُدَّ لك منه، ثم تنظر هل أعطاكَ ما تطلب وأنت لا تدري؟ والواجبُ ألا تطلب شيئاً تكون فيه مخالفةٌ لأمره، وأن تتباعد عن سؤالك الأشياء الدَّنِيَّة والدنيوية، وأن ترضى بما يختاره لك مولاك. ومن الإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلّا منه، وألا ترى لنفسك استحقاقاً إلا بفضله، وأن تعلم أنه إن بقيت سؤالك عن مطلوبك ـ الذي هو حَظُّكَ ـ لا تَبْق عن عبادة ربِّك ـ التي هي حَقُّه «فإنَّ الدعاء مُخُّ العبادة»(١) ومن الإخلاص في الدعاء أن تكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداؤه جُرماً لك، وتكون ضرورتُك لسراية جنايتك.

قوله جل ذكره: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

رافعُ الدرجات للعُصاةِ بالنجاة، وللمطيعين بالمثوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوي الحاجات بالكفايات، وللعارفين بتنقيبهم عن جميع أنواع الإرادات.

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم في الجنة، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم في الدنيا؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكَونيْن دون المساكنة إليهما. وأمَّا المحبون فيرفع درجاتِهم عن أن يطلبوا في الدنيا والعُقبى شيئاً غيرَ رضاءِ محبوبهم.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: ذو المُلْكِ الرفيع. ويقال العرش الذي هو قِبْلَةُ الدعاء، خَلَقَه أرفعَ المخلوقاتِ وأعظمَها جُثة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٣٨٢٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والحاكم في (المستدرك ١/ ٤٩٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٤٩)، والبغوي في (شرح السنة ٥/ ١٨٤)، والساعاتي في (منحة المعبود ١٢٥٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/ ٢٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٠٦)، والشجري في (الأمالي ١/ ٢٢٣ ـ ٢٣٥) والطبري في (التفسير ٢/ ٩٤، ٢٤/ ٥١)، والبخاري في (الأدب المفرد ٧١٤).

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ روحٌ بها ضياءُ أبدانهم ـ وهو سلطانُ عقولهم، وروحٌ بهاء ضياء قلوبهم ـ وهو شفاءُ علومهم، وروحٌ بها ضياء أرواحهم ـ والذي هو للرُّوح رَوْحٌ ـ بقاؤهم بالله.

ويقال: روحٌ هو روح إلهام، وورح هو روح إعلام، وروح هو روح إكرام.

ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة.

ويقال: روح بها بقاءُ الخلق، وروح بها ضياء الحق.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾.

يعلم الحاصل الموجود، ويعلم المعدوم المفقود، والذي كان والذي يكون، والذي لا يكون مما عَلِمَ أنه لا يجوز أن يكون، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

لا يتقيد مُلْكه بيوم، ولا يختصُّ مُلْكه بوقتٍ، ولكنَّ دَعَاوَى الخَلْقِ ـ اليومَ ـ لا أصلَ لها؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

يجازيهم على أعمالهم بالجنان، وعلى أحوالهم بالرضوان، وعلى أنفاسهم بالقربة، وعلى محبتهم بالرؤية.

ويجازي المذنبين على توبتهم بالغفران، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء.

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾: أي أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه، وكل ما يفعل فله أن يفعله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مع عباده؛ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وسريعُ الحساب مع أوليائه في الحال؛ يطالبهم بالصغير والكبير، والنقير والقطمير.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

قيامةُ الكُلِّ مؤجَّلة، وقيامةُ المحبين مُعَجَّلة؛ فَلَهم في كلِّ نَفَسٍ قيامةٌ من العقاب والعذاب والثواب، والبُعَاد والاقتراب، وما لم يكن لهم في حساب، وتشهد عليهم الأعضاء؛ فالدمعُ يشهد، وخَفَقَانُ القلبِ ينطق، والنحولُ يُخبِر، واللونُ يُفْصِح... والعبدُ يَسْتُرُ ولكن البلاء يَظْهَرُ:

يا مَنْ تَغَيَّرُ صورتي لمَّا بَدَا ... لجميع ما ظَنُّوا بنا تصديقا

وأنشدوا:

لي في محبته شهودٌ أربعٌ وشهودُ كلِّ قضيةٍ اثنانِ
ذوبانُ جسمي وارتعادُ مفاصلي وخفوقُ قلبي واعتقالُ لساني

وقلوبُهم ـ إذا أزِفَ[١] الرحيلُ بَلَغت الحناجر، وعيونهم شَرِقَتْ بدموعها إذا نودي بالرحيل وشُدَّت الرواحل.

قوله جل ذكره: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

فخائنةُ أعين المحبين استحسانهم شيئاً، ولهذا قالوا:

يا قُرَّة العينِ: سَلْ عيني هل اكتحلت بمنظرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عن بَصَرِي

ولذلك قالوا:

فعيني إذا استحسنَتْ غيرَكم أمَرْتُ السُّهادَ[٢] بتعذيبها

ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السِّنَةُ والسُّبات في أوقات المناجاة؛ وقد جاء في قصة داود عليه السلامة: كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتي، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عَنِّي!

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَبَرٌ بقلوبهم عمَّا تقع عليه عيونُهم.

ومن خائنة أعين الموحِّدين أن تخرج منها قطرةُ دمعٍ تأسُّفاً على مخلوقٍ يفوت في الدنيا والآخرة، ولا على أنفسهم.

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجهٍ كان، ففي الخبر: «حُبُّكَ الشيء يعمي ويصم»[٣].

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾: فالحقُّ به خبير.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

---

(١) أزف: دنا واقترب أو عجل. (٢) السهاد: الأرق.

(٣) أخرجه أبو داود في (السنن ٥١٣٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٧٦، ٩/ ٦٨٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٠٨) والدولابي في (الكنى والأسماء ١/ ١٠١)، وأبو حنيفة في (المسند ١٦٨)، وفي (جامع مسانيد ١/ ٢٣، ٨٧)، وابن كثير في (التفسير ١/ ١٨١، ٣/ ٤٧٣)، والقرطبي في (التفسير ١/ ٣٠٧)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣/ ١١٧)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣١) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٣٢٥، ٤/ ٢٣٤، ٥/ ٨٩، ١٠/ ٣٩٢)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤١٠)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٩)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ١/ ٤٠٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٧).

يقضي للأجانب بالبعاد، ولأهل الوصال بالوداد، ويقضي يومَ القدوم بعَزْلِ عمال الصدود، وإذا ذُبحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كَبْشٍ أملح فلا غرابة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سكة[١] الأحبابِ في صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العِبرة لينظرَ إلى أهلُ الحَضْرَة.

قوله جل ذكره: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

أو لم يسيروا في أقطار الأرض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوت بجولان الفكر ليشهدوا أنوارَ التجلِّي فيستبصروا بها؟ أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق، وليتخلَّصُوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إن بغى من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فَلْيَعْلَمْ أنَّ مُوجِبَ حَجْبِه اعتراضٌ خَامَرَ قلبَه على بعض شيوخه في بعض أوقاته؛ فإنَّ الشيوخَ بمحلِّ السفراء للمريدين. وفي الخبر: «الشيخُ في قومه كالنبيِّ في أمته»[٢].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

أكْرَمُ خَلْقِه في وقته كان موسى عليه السلام، وأخَسُّ خَلْقِه وأذَلُّهم في حُكْمِه وأشدُّهم كفراً كان فرعون؛ فما قال أحدٌ غيره: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

فَبَعَثَ اللَّهُ ـ أخصَّ عباده إلى أخسِّ عباده، فقابله بالتكذيب، ونَسَبَه إلى السِّحر، وأنَّبَهُ بكل أنواع التأنيب. ثم لم يُعَجِّلْ اللَّهُ عقوبته، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه ـ إنه سبحانه حليمٌ بعباده.

---

(١) السكة: الطريق المستوي.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٤٢٦٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٨٢)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ١٠٨٢)، والسيوطي في (اللآليء المصنوعة ١/ ٨٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ١٢)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١/ ١٥٣)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٤٨٨)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩، ٣٣٩).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

عَزَم على إهلاكه وإهلاك قومه، واستعان على ذلك بجُنْدِه وخَيْلِه ورَجْلِه، ولكن كان كما قال الله: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، لأنه إذا حَفَرَ أحدٌ لِوَلِيٍّ من أولياء الله تعالى حُفْرةً ما وقع فيها غيرُ حَافِرِها.. بذلك أجرى الحقُّ سُنَّتَه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي لِيَسْتَعِنْ بربه، وإني أخاف أن يبدل دينكم، وأخاف أن يُفْسِدَ في الأرض، وكان المفْسِدُ هو فرعون، وهو كما قيل في المثل: «رمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتْ» ولكن كادَ له الكيد، والكائد لا يتخلص من كيده.

فاستعاذ موسى بربه، وانْتُدِبَ في الردِّ عليهم مؤمِنٌ بالله وبموسى كان يكتم إيمانه عن فرعون وقومه[١]:ـ

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.. الآيات.

نَصَحَهُم واحتَجَّ عليهم فلم ينجح فيهم نُصْحٌ ولا قَوْلٌ. وكم كَرَّرَ ذلكَ المؤمن من آل فرعون القولَ وأعاد لهم النُّصْحَ! فلم يستمعوا له، وكان كما قيل:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضة المتنصِّحُ[٢]

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

بَيَّنَ أنَّ تكذيبَهم كتكذيب آبائهم وأسلافهم من قبل، وكما أهلك أولئك قديماً كذلك يفعل بهؤلاء[٣].

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

السببُ ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشيء؛ أي لعلِّي أصل إلى السماء فأطَّلِعَ إلى إله

---

(١) الآية (٢٧) لم ترد. (٢) الآيات من (٢٩ حتى ٣٣) لم ترد.
(٣) الآية (٣٥) لم ترد.

موسى. ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ في السماء وبين الكافر إلا هذا لكفي به خِزْياً لمذهبهم. وقد غَلِطَ فرعونُ حين تَوَهَّمَ أنَّ المعبودَ في السماء، ولو كان في السماء لكان فرعونُ مُصِيباً في طَلَبِه من السماء.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

أخبر أنَّ اعتقادَه بأنَّ المعبودَ في السماء خطأٌ، وأنَّه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

أصَرَّ على دعائه لهم وأصَرُّوا على جحودهم وعُنُودِهم.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ﴾: في المقدار لا في الصفة؛ لأن الأولى سيئة، والمكافأةُ من الله عليها حسنةٌ وليست بسيئة.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني في الحال، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمناً في الحال لا يكون منه العملُ الصالح، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي رزقاً مؤبَّداً مُخَلَّداً، لا يخرجون من الجنة ولا مِمَّا هم عليه من المآل.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾

وهذا كُلُّه مِنْ قَوْلِ مؤمنِ آل فرعونَ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه، ويلزمهم الحجة به.

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لي بصحة قولكم، وأنا أدعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان، وأقيم عليه البيان.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعونني إليه باطل؛ فليس لتلك الأصنامِ حياةٌ ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ، وهي لا تنفع ولا تَضُرُّ. ولقد علمنا ـ بقول الذين ظهر صِدْقُهم بالمعجزاتِ ـ كَذِبَكم فيما تقولون.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

أفوض أمري إلى الله، وأتوكل عليه، ولا أخاف منكم، ولا من كيدكم.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

والآية تدلُّ على عذاب القبر.

ويقال إنَّ أرواح الكفار في حواصل طير سُودٍ تُعْرَضُ على النار غدواً وعشياً إلى يوم القيامة حيث تدخل النار.

﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أي يا آل فرعون أُدخُلوا أشدَّ العذاب، فَنَصَبه على النداء المضاف. ويقرأ «أدْخِلوا» على الأمر.

﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أي أصعبه، وأصعبُ عذابٍ للكفار في النار يأسُهم من الخروج عنها. أمَّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاء المؤمنين، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيام عذابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

يقول الضعفاء للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا، ويقول لهم المستكبرون: أنتم وافقتمونا باختياركم؛ فمحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد في غيظ قلوبهم، فكما يُعَذَّبون بنفوسهم يعذبون بضِيقِ صدورهم وببُغْضِ بعضهم لبعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِۖ قَالُوا۟ بَلَىٰۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾.

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربِّهم. ثم إن الله ينزع الرحمة عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾.

ننصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظَّفَرَ وضِدَّه من الله، والخيرَ والشرَّ من الله.

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ، من حيث

يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة وباليقين بأنَّ الكائنات من الله، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك، ويعرفوا ـ بالاضطرار ـ أنَّ التأثيرَ من الله، وغاية النصرة أن يَقْتُلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره، فإذا أراد حَتْفَه تحقَّق بأن لا عَدُوَّ على الحقيقة، وأنَّ الخَلْقَ أشباحٌ تجري عليهم أحكامُ القدرة؛ فالوليُّ لا عدوَّ له، ولا صديق له إلا الله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

دليلُ الخطابِ أن المؤمنين ينفعهم تَنَصُّلُهم، ولهم من الله الرحمة، ولهم حُسْنُ الدار، وما بقي من هذه الدنيا إلا اليسير.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

مضى طَرَفٌ من البيان في قصة موسى.

قوله جل ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

الصبرُ في انتظار الموعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق؛ فَمَنْ كان تصديقهُ ويقينُه أتمَّ وأقوى كان صبرُه أتمَّ وأوفى.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: وهو ـ سبحانه ـ يُعْطِي وإن توهَّمَ العبدُ أنه يُبْطِي.

ويقال الصبر على قسمين: صبرٌ على العافية، وصبرٌ على البلاء، والصبرُ على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر[(1)].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾. وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب، ولم يكن جميعُ استغفاره لأمته لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وهنا لم يذكر ذلك. ويمكن حَمْلُ الذَّنْبِ على ما كان قبل النبوة؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزَّلَّة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾: أي بغير حجة.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٨٣ ـ ١٨٩.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ليس في صدورهم إلا كِبْرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق، ويبقون به عن الله، ولا يصلون إلى مرادهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي خَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من بعثهم وخَلْقهم مرةً أخرى بعد أن صاروا رميماً؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلْقِ السموات والأرض، وينكرون أمرَ البعث.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أراد به: ما يستوي المؤمنُ والكافرُ، ولا المربوطُ بشهوته كالمبسوط بصفوته، ولا المجذوبُ بقربته كالمحجوب بعقوبته، ولا المُرَقّي إلى مشاهدته كالمُبقّي في شاهده، ولا المجدود بسعادته كالمردود لشقاوته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إنَّ ميقاتَ الحسابِ لكائنٌ وإن وقعت المدةُ في أوانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

معناه: أدعوني أستجب لكم إن شِئتُ؛ لأنه قال في آية أخرى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

ويقال ادعوني بشرطِ الدعاء، وشرطُ الدعاء الأكلُ من الحلال؛ إذ يقال الدعاء مفتاحُه الحاجة، وأسبابُه اللقمةُ الحلال.

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إمّا بما يشاء له، أو بشيء آخر هو خيرٌ له منه.

ويقال الكافر ليس يدعوه؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك، وهو لا شريكَ له.

ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمنٍ يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه في الدنيا، فأما في الآخرة فيقول له: هذا ما طلبْتَه في الدنيا، وقد ادخرتُه لك لهذا اليوم حتى ليتمنى العبدُ أنه ليته لم يُعطَ شيئاً في الدنيا قط.

ويقال ادعوني بالطاعات استجبْ لكم بالثواب والدرجات.

ويقال ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة. ويقال ادعوني بالتنصل أستجب لكم بالتفضُّل. ويقال ادعوني بحسَبِ الطاقة أستجب لكم بكشف الفاقة.

ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالنّوال والأفضال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أن يستكبرون عن دعائي، سيدخلون جهنم صاغرين.

قوله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ الآيات.

سكونُ الناسِ في الليل على أقسام: أهلُ الغفلة يسكنون إلى غفلتهم، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم، وشتّان بين سكونِ غفلةٍ وسكونِ وصلة!

قومٌ يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم، وقومٌ يسكنون إلى حلاوة أعمالهم؛ لبسطهم واستقلالهم، وقومٌ يعدِمون القرار في ليلهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشتياق.. أبداً في الاحتراق.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي جعل سكونكم معه، وانزعاجكم له، واشتياقكم إليه، ومحبتكم فيه، وانقطاعكم إليه.

قوله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: خَلقَ العرشَ والكرسيّ والسموات والأرضين وجميعَ المخلوقاتِ ولم يقُلْ هذا الخطاب، وإنما قال لنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وليس الحَسَنُ ما يستحسنه الناسُ بل الحَسنُ ما يستحسنه الحبيبُ:

ما حطك الواشون عن رتبةٍ عندي ولا ضرّك مُعتابُ
كأنهم أثنَوْا ـ ولم يعلموا ـ عليكَ عندي بالذي عابوا

لم يَقُلْ للشموس في علائها، ولا للأقمار في ضيائها: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

ولما انتهى إلينا قال ذلك، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن الواشين قبّحوا صورتكم عندنا، بل الملائكةُ كتبوا في صحائفكم قبيحَ ما ارتكبتم.. ومولاكم أحسن صوركم، بأن محا من ديوانكم الزّلات، وأثبت بدلاً منها الحسناتِ، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

ليس الطيبُ ما تستطيبه النفسُ إنما الطيب ما يستطيبُه القلبُ، فالخبزُ القفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغنيّ المتسخّط.

ورِزقُ النفوسِ الطعامُ والشرابُ، ورزقُ القلوبِ لذاذات الطاعات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾: الذي لا يموت، ولا فضلُه يفوت، فادعوه بلسان القوت، وذلك عليه لا يفوت.

قوله جل ذكره: ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قُلْ ـ يا محمد ـ إني نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله، أي أُمِرْتُ بالتبرّي عمّا عبدتم، والإعراض عمّا به اشتغلتم، والاستسلام للذي خلقني، وبالنبوة استخصّني.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾.

فمن تُرْبةٍ إلى قَطْرةٍ؛ ومن قطرةٍ إلى عَلَقةٍ.. ثم من بطون أُمهاتكم إلى ظهوركم في دنياكم.. ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً.

وهو الذي يحيي ويميت، ثم يبعث في أُخرى الدارين[١].

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

في آيات الله يتبلّدُون؛ فلا حُجة يوردُون، ولا عذاب عن أنفسهم يردُّون، سيعلمون حين لا ينفعهم عِلمُهم، ويعتذرون حين لا يُسمَع عُذْرهم، وذلك عندما[٢].

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ الآيات.

يُسحبُون في النار والأغلالُ في أعناقهم، ثم يُذاقون ألوانَ العذاب.. فإذا أقرُّوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم: أدخلوا جهنم خالدين فيها، فبئس مثواهم ومصيرهم، وساء ذهابُهم ومسيرهم[٣].

قوله جل ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

كُنْ بِقلبكَ فارغاً عنهم، وانظر من بعدُ إلى ما يُفعلُ بهم، واستيقن بأنه لا بقاء

(١) الآية (٦٨) لم ترد. (٢) الآية (٧٠) لم ترد.
(٣) الآيات من (٧٣، ٧٦) لم ترد.

لجولة باطلهم.. فإن لقيت بعض ما نتوعدُهم به وإلّا فلا تكُ في ريبٍ من مقاساتهم ذلك بَعْدُ. ثم أكَّدَ تسليتَه إياه وتجديدَ تصبيره وتعريفه بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

قصصنا عليك قصصَ بعضهم، ولم نخبرك عن قصص الآخرين.

ولم يكن في وسع أحدِ الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا. فكذلك إن طالبُوك بآيةٍ فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أزحنا به العُذْر، وأوضحنا صِحّةَ الأمر.. وما اقترحُوه.. فإن شئنا أظْهَرْنا، وإن شِئنا تَرَكنا.

قوله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

ذكّرهم عظيمَ إنعامه بتسخير الأنعام؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بها بالركوب والحمل والعمل، ولتستقوا ألبانها، ولتأكلوا لحومها وشحومَها، ولتنتفعوا بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ولتقطعوا مسافة بعيدةً عليها.. فعلى الأنعام وفي الفُلْكِ تنتقلون من صُقْعٍ[1] إلى صُقعٍ.. وأنا الذي يَسَّرْتُ لكم هذا، وأنا الذي ألهمتكم الانتفَاع به؛ فثقُوا في ذلك واعرفوه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.. الآيات

أمَرَهم بالاعتبار بِمَنْ كانُوا قبلهُمْ؛ كانوا أشدّ قوةً وأكثر أموالاً وأطولَ أعماراً، فانجرُوا في حِبَالِ آمالهم، فوقعوا في وهْدَة غرورهم، وما بقي الحقُّ عن مراده فيهم، واغتروا بسلامتهم في مُدّةِ ما أرخينا لهم عنان إمهالهم، ثم فاجأناهُم بالعقوبة، فلم يُعْجِزُوا الله في مُرادِه منهم.

فلمّا رأوا شِدَّةَ البأسِ، ووقعوا مذلّةِ الخيبة واليأس تمنّوا أن لو أُعيدُوا إلى الدنيا من الرأس.. فقابلهم الله بالخيبة؛ وخرطهم في سِلكِ مَن أبادهم من أهل الشِّرْكِ والسّخْطِ.

---

(١) الصقع: الناحية من البلاد.

سورة فصلت

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

أفلح مَنْ عرف «بسم الله»، وما ربح مَنْ بقي عن «بسم الله».

مَنْ صحب لسانُه «بسم الله» وصحب جَنانُه «بسم الله» كفى له شفيعاً «بسم الله» إلى مَنْ يُعِيذُنا بِذِكْرِ «بسم الله».

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بحقي وحياتي، ومجدي في صفاتي وذاتي.. هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم.

قوله جل ذكره: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

بُيِّنَتْ آياتُه ودلالاتُه.

﴿وقُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الدليل منصوبٌ للكافة ولكنَّ الاستبصار به للعالِمين ـ دون المُعْرِضين الجاحدين.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾: لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم.

﴿وَنَذِيرًا﴾: لِمَنْ أقميناهم، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عند دعائنا إياهم، فهم مُثْبَتُون فيما أردناهم، وعلى ذلك (الوصف) عَلِمْناهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء، ولو قالوه عن بصيرةٍ لكان ذلك منهم توحيداً، فمُنُوا بالمَقْتِ لِما فقدوا من تحقيق القلب.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنما أنا بَشَرٌ مثلكم في الصورة والبِنْية، والذات والخِلقة. والفرقَانُ بيني وبينكم أنّه يُوحَى إليَّ أنما إلهكم إله واحد؛ فالخصوصية مِنْ قِبَلِه لا مِنْ قِبَلِي، ولقد بَقِيتُ

فيكم عمراً، ولقيتموني دهراً.. فما عثرتم مني على غير صواب، ولا وجدتم في قولي شوب كذاب. وأمري إليكم أن استقيموا في طاعته، واستسلموا لأمره... وطوبى لِمَن أجاب، والويلُ لِمَنْ أصرَّ وعاب!.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿ءَامِنَا﴾: شاهدوا، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: لازموا بِساط العبودية.

﴿ءَامَنُواْ﴾: شهدوا الحضرة، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وقفوا بالباب.

﴿ءَامَنُواْ﴾: حضروا، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بعد ما حضروا لم ينصرفوا.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ، وأجرُ القلوب الرضا بالله، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله، وأجرُ الأسرار دوام المشاهدة لله.

قوله جل ذكره: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

خَلَقَ الزمانَ ولم يكن قبله زمان، وخَلَقَ المكان، ولم يكن قبله مكان؛ فالحقُّ ـ سبحانه ـ كان ولا مكان ولا زمان، فهو عزيزٌ لا يُدْرِكُه المكانُ، ولا يَمْلِكُه الزمان.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾... وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل نِدًّا للذي لم يَزَلْ.. ولا يزال كما لم يزل؟! ذلك ربُّ العالمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

الجبالُ أوتادُ الأرضِ في الصورة، والأولياءُ أوتادٌ ورواسٍ للأرض في الحقيقة.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: البركةُ الزيادة.. فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾: وجعلها مختلفةً في الطَّعْمِ والصورةِ والمقدار. وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي قَصَدَ، وقيل فعل فعلاً هو الذي يعلم تعيينه.

ويقال رتَّبَ أقطارها، وركَّبَ فيها نجومَها وأزهارَها.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: هذا على ضرب المَثَل؛ أي لا يتعسَّر عليه شيءٌ مما خلقه، فله مِنْ خَلْقِه ما أراده. وقيل بل أحياهما وأعقلهما

وأنطقهما فقالتا ذلك. وجعل نفوسَ العابدين أرضاً لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فَلَكاً لنجومِ علمه وشموسِ معرفته.

وأوتادُ النفوسِ الخوفُ والرجاءُ، والرغبةُ والرهبة. وفي القلوب ضياءُ العرفانِ، وشموس التوحيد، ونجوم العلوم والعقولِ والنفوسِ. والقلوبُ بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وزيَّنَ وجهَ الأرضِ بمصابيحَ هي قلوب الأحباب؛ فأهلُ السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

أي أخبِرْ المُكَذِّبين لَكَ أنَّ لكم سَلَفاً.. فإن سلكتم طريقهم في العناد، وأبيتم إلَّا الإصرار ألحقناكم بأمثالكم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم، واستمكنت منهم بلواهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

فلم يغادر منهم أحداً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

قيل إنهم في الابتداء آمنوا وصدَّقوا، ثم ارتدُّوا وكذَّبوا، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستئصال.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: منهم من نجّاهم من غير أن رأوا الناس؛ فعبروا القنطرة ولم يعلموا، وقومٌ كالبرق الخاطف وهم أعلاهم، وقومٌ كالراكض.. وهم أيضاً من الأكابر، وقومٌ على الصراط يسقطون ويردُّهم الملائكة على الصراط. فبعد وبعد.. قومٌ بعدما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ثم إلى ركبتيه ثم إلى حَقْوَيه[١]، فإذا

(١) الحقو: الخصر.

ما بلغت النار القلب قال الحقُّ لها: لا تحرقي قلبه؛ فإنه محترقٌ فيَّ. وقومٌ يخرجون من النار بعدما امْتُحِشوا(١) فصاروا حُمَماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

شهدت عليهم أجزاؤهم، ولم يكن في حسابهم أن الله سيُنْطِقها وهو الذي أنطق كلَّ شيء، ولم يَدُرْ بخَلدهم ما استقبلهم من المصير الأليم.

﴿ذلكم ظنكم﴾: وكذا مَنْ قعد في وصف الأقوال، ووَسَمَ موضِعَه، وحَكَمَ لنفسه أنه مُقَدَّمُ بلده. فلا يُسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله، فإن خالف الحالُ قولَه فلا يُعتمد عليه بعد ذلك.

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق، أمّا إذا كان نتيجةَ الغرورِ وغيرَ مأذونٍ به في الشرع فإنه يُرْدِي صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

فإن يصبروا على موضع الخسف فسينقلبون إلى النار، وإن يستعتبوا ـ فعلى ما قال ـ فما هم بمعتبين.

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

إذا أراد الله بعَبْدٍ خيراً قَيَّضَ له قرناءَ خيرٍ يُعِينونه على الطاعات، ويَحْمِلونه عليها، ويدعونه إليها. وإذا كانوا إخوانَ سوءٍ حملوه على المخالفات، ودَعَوْه إليها.. ومن ذلك الشيطانُ؛ فإنهُ مُقَيَّضٌ مُسَلَّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات. وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ. فإنها بئس القرين!! فهي تدعو العبدَ ـ اليومَ ـ إلى ما فيه هلاكه، وتشهد عليه غداً بفعل الزلَّةِ. فالنفسُ ـ وشرُّ قرينٍ للمرءِ نفسُه ـ والشياطينُ وشياطينُ الإنسِ.. كلها تُزيِّن لهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الزَّلَلِ، والتسويف في التوبة، والتقصير في الطاعة.

---

(١) محشت النار جلده: أحرقته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

استولى على قلوبهم الجَحْدُ والإنكارُ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ؛ فاحتالوا بكل وجهٍ، وتواصَوْا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل مَنْ استمع إليه صَبَا إليه.

وقالوا: إذا أَخَذَ محمدٌ في القرآن فأَكْثِرُوا عند قراءته اللَّغوَ واللغطَ حتى يقع في السهو والغَلَط.

ولم يعلموا أن الذي نُوِّرَ قلبُه بالإيمان، وأُيِّدَ بالفهم، وأُمِدَّ بالنصرة، وكوشف بسماع السِّرِّ من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن. والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبَه، ولا يباشر السماعُ سِرَّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

اليومَ بإدامة الحرمان الذي هو الفراق، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

من الجنِّ إبليس. ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول منْ سَنَّ المعصية (حين قتل أخاه)[١].

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمني؛ فهم يجدون أنه لا نَفْعَ لهم من ذلك إذ لن يُجَابوا في شيء، ولن يُمْنَعَ عنهم العذاب.

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبرّي فيما بينهم، فبعضهم يتبرأ من بعض، كما يفيد بأن الندمَ في غير وقته لا جدوى منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

«ثم» استقاموا: ثم حرف يقتضي التراخي، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين، ولكنه معناه استقاموا في الحال، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانَهم إلى وقت خروجهم من الدنيا، وهو آخرُ أحوالِ كونِهم مُكَلَّفين.

ويقال: قالوا بشرط الاستجابة أولاً، ثم استبصروا بموجب الحجة، ولم يثبتوا على وصف التقليد، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة.

«استقاموا»: الاستقامة هي الثباتُ على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلالٍ بشيءٍ من أقسامها. ويقال: هم على قسمين:

مستقيم (في أصول) التوحيد والمعرفة.. وهذه صفة جميع المؤمنين.

ومستقيم في الفروع من غير عصيان.. وهؤلاء مختلفون؛ فمنهم.. ومنهم، ومنهم.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾: الذي لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد، ولم يشرك. فله الأمان من الخلود. ويقال: مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِنَ من الخلود في النار، ومن كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوءٌ بحالٍ.. ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم؛ فمستقيمٌ في عهده، ومستقيم في عقده، ومستقيم في جهده ومراعاة حدِّه، ومستقيم في عقده وجهده وحدِّه وحبِّه. وودِّه.. وهذا أتمُّهم.

ويقال: استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

ويقال: استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم صحة القصد بدوام الوجد.

ويقال: استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم.

ويقال: أقاموا على طاعته، واستقاموا في معرفته، وهاموا في محبته، وقاموا بشرائط خدمته.

ويقال: استقامةُ الزاهدِ ألا يرجعَ إلى الدنيا، وألا يمنعَه الجاهُ بين الناس عن الله. واستقامةُ العارفِ ألا يشوبَ معرفتَه حظٌّ في الداريْن فيحجبه عن مولاه. واستقامةُ العابدِ ألا يعودَ إلى فترته واتباع شهوته، ولا يتداخله رياءٌ وتصنُّع واستقامة المُحِبِّ ألا يكون له أَرَبٌ من محبوبه، بل يكتفي من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عِزِّه ووجوده.

﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: إنما يكون الخوف في المستقل من الوقت، من حلولِ

مكروهٍ أو فوات محبوبٍ فالملائكةُ يبشرونهم بأن كل مطلوبٍ لهم سيكون، وكل محذورٍ لهم لا يكون.

والحزن من حُزُونه الوقت، ومن كان راضياً بما بجري فلا حزنَ له في عيشه. والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزونه في أحوالهم، وإنما هم الرَّوْح والراحة.

﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾: أي بحسن المآب، وبما وَعَدَ اللَّهُ من جميل الثواب.

والذي هو موعودٌ للأولياء بسفارة المَلَكِ موجودٌ اليومَ لخواصِّ عباده بعطاء المَلِكِ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت؛ فلا يكون له خوفٌ؛ لأن الخوف ـ كما قلنا من قبل ـ ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمَّا من زوالِ محبوبٍ أو حصولِ مكروه، وإن الذي بصفة الرضا[1] لا حزونة في حاله ووقته.

ويمكن القول: ﴿**لا تخافوا**﴾ من العذاب، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما خلفتم من الأسباب، ﴿**وأبشروا**﴾ بحسن الثواب في المآب.

ويقال: ﴿**لا تخافوا**﴾ من عزل الولاية، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما أسلفتم من الجناية، «وأبشروا» بحسن العناية في البداية.

ويقال: ﴿**لا تخافوا**﴾ مما أسلفتم، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما خلفتم، ﴿**وأبشروا**﴾ بالجنة التي لها تكلفتم.

ويقال: ﴿**لا تخافوا**﴾ المذلَّة، ﴿**ولا تحزنوا**﴾ على ما أسلفتم من الزلَّة، ﴿**وأبشروا**﴾ بدوام الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

الولاية من الله بمعنى المحبة، وتكون بمعنى النصرة.

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم، ويحتمل أن يكون ابتداءَ خطابٍ من الله.

والنصرة تصدر من المحبة؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة في الحال.

ويقال: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بتحقيق المعرفة، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بتحصيل المغفرة.

ويقال ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالعناية، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بحسن الكفاية وجميل الرعاية.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص١٩٢، ١٩٧.

﴿وفِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالمشاهدة، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ بالمعاينة.

في الدنيا الرضاء بالقضاء، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء.

في الدنيا بالإيمان، وفي الآخرة بالغفران.

في الدنيا بالمحبة، وفي الآخرة بالقربة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾: الولايةُ نقدٌ، وتحصيل الشهوات وعدٌ، فَمَنْ يشتغل بنقده قلَّما يشتغل بوعده.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾: أي ما تريدون، وتدعون الله ليُعطيَكم.

﴿نُزُلًا﴾: أي فضلاً وعطاءً، وتقدمةً لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبارّ.

﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾: وفي ذلك مساغٌ لآمال المذنبين؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي لا أحدَ أحسنُ قولاً منه، ويكون المراد منه النبي ﷺ ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام.

ويقال هم المؤمنون. ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله.

وقيل هم المؤذنون. ويقال الداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاءِ بالله وتَرْكِ طالب العِوَضِ من الله، ويَكِلُ أمره إلى الله، ويرضى من الله بقسمة الله.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أي كما يدعو الخَلْقَ إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه.

ويقال هم الذين عرفوا طريقَ الله، ثم سلكوا طريقَ الله، ثم دعوا الناسَ إلى الله.

ويقال بل سلكوا طريق الله؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله، ثم دعوا الخَلْق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه.

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

ادفعْ بالخصلة التي هي أحسن السيئةَ يعني بالعفو عن المكافأة، وبالتجاوز والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف[1].

---

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظرحديث القشيري عن الفتوة برسالته ص٢٢٦، ٢٣١).

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يُشْبِه الوليَّ الحميمَ ـ ولم يَصِرْ ولياً مخلصاً. . وهذا من جملة حُسْنِ الأدب في الخدمة في حقِّ صحبتك مع الله؛ تحلم مع عباده لأجْلِه.

ومن جملة حُسْن الخُلُق في الصحبة مع الخَلْقِ ألا تنتقم لنفسك، وأَنْ تعفوَ عن خصمك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إلّا مَنْ أُكرِم بتوفيق الصبر، ورُقِّي عن سفساف الشيم إلى معالي الأخلاق. ولا يصل أحسنَ الدرجاتِ إلا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

إذا اتصلَتْ بقلبك نزغاتُ الشيطان فبادِرْ بذكر ربِّك، وارجعْ إليه قبل أية خطوة[١]. . فإنك إن لم تخالف أولَ هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطانُ. . فإذا لم تتداركْ ذلك تجري الزلَّة، وإذا لم تتداركْ ذلك بحُسْنِ الرُّجعي صار فسقاً. . وبتمادي الوقت تصبح في خَطَرِ كل آفة.

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة وصدق الاستغاثة وبذلك ينجو من الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]؛ فكلما ازداد العبدُ في تبرِّيه من حَوْلِه وقوته، وأخلص بينَ يدي الله بتضرعه واستعانته واستعاذته زاد اللَّهُ في حِفْظه، ودَفعَ الشيطان عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أَوْضَحَ الآياتِ، وأَلاحَ البينَاتِ، وأزاحَ عِلَّةَ مَنْ رام الوصول. واختلَافُ الليل والنهار، ودورانُ الشمسِ والقمرِ من جملة أمارات قدرته، ودلالات توحيده.

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ﴾ في علائها، ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ في ضيائه، ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ فقد غار[٢] عليك أن تسجد لغيره.

---

(١) ربما كانت (خطرة) فالقشيري يقول برسالته عند حديثه عن الخواطر: الخواطر خطابات ترد على الضمائر، فقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه وقالوا: كل خاطر لا يشهد له ظاهره فهو باطل. (الرسالة القشيرية ص٨٣، ٨٤).

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الغيرة: الغيرة كراهية مشاركة الآخرين، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة، فمعناه: أنه لا يرضى بمشاركة غيره معه، فيما هو حق له من طاعة عبده. (الرسالة القشيرية ص٢٥٥).

والشمسُ ـ وإنْ عَلَتْ، والقمر ـ وإنْ حَسُنَ. . فلأجْلِكَ خلقناهما، فلا تسجدْ لهما، واسجُدْ لنَا.

ويقال: خَلقَ الملائكة ـ ومع كثرة عبادتهم، ومع تقدمهم في الطاعة ـ قال لهم: اسجدوا لآدم، وحين امتنع واحدٌ منهم لُعِنَ إلى الأبد. وقال لأولاد آدم العصاةِ المذنبين: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فشتّان ما هما!!.

والحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر. . وأنت لأَجْلِ كلِّ حظٍّ خَسِيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كلِّ أحدٍ؛ وتدخل بمحياك عَلى كلِّ أحدٍ!!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُواْ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾.

أي إنْ تَرَفَّعَ الكفارُ فلا خَلَلَ؛ لأن الحقَّ غنيٌّ عن كل أحد، ثم إن الملائكة ـ الذين هم سكان الآخر ـ يسجدون له بالليل والنهار، وهم لا يسأمون من عبادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الأرضُ تكون جَذبةً يابسةً في الشتاء، فإذا نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرّت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما ألمَّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه، فظهرت فيها بركاتُ الندم، وعفا عن أربابها ما قصرُوا في صِدْق القدَم. وكذلك إذا وقعت للعبد فترةٌ في معاملاته، أو غيبةٌ عن بساط طاعاته، ثم تغمَّده الحقُّ ـ سبحانه ـ بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوارُ الوفاق، فيعود إلى مألوف مقامه، ويرجع عود سداده غضًا طرياً، ويصير شجر وفاقه ـ بعد ما أصابته الجدوبة ـ بماء العناية مستقياً.

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة، أو حدثت لهم من جرّاء سوء أدبٍ بَدَرَ منهم حجبةٌ ثم نظر الحقُّ ـ سبحانه ـ إليهم بالرعاية. . اهتزّت رياضُ أُنْسِهم، واخضرَّت مشاهدُ قربهم، وانهزمت وفودُ وقفتهم.

﴿إِنَّ الَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: إن الذي أحيا الأرضَ بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر. وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه. . فلْيَعْمَلوا ما شاءوا. . فليسوا. . يَسْعَونَ إلّا في ذَمِّهم، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾.

الجواب محذوف ومعناه: بقوا عنًا، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾: كتابٌ عزيزٌ لا مِثلَ له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله. كتابٌ عزيز غالبٌ لِشُبَهِ المبتدعين والكفار.

عزيزٌ لا يقدر على معارضته أحدٌ.. من قولهم أرض عزاز.

كتاب عزيزٌ لأنه كلامُ ربٍّ عزيز إلى رسولٍ عزيزٍ بسفارة مَلَكٍ عزيزٍ إلى أُمَّةٍ عزيزة.

كتاب عزيزٌ على المؤمنين لأنه كتابُ حبيبِهم.. وكتابُ الحبيبِ إلى الحبيب عزيزٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾.

أي لا ينقضه كتابٌ آخر لا مما تقدَّمه من الكتب، ولا مما يأتي من بعده.. أي لا كتابَ بعده، ولا نسخَ له.

ويقال لا يدفع[1] معناه لفظَه، ولا يخالف لفظُه معناه..

ويقال لا يقدر أحدٌ أنْ يأتيَ بمثله.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾.

أصولُ التوحيدِ لا تختلف بالشرائع؛ فجوهرُها في الأحكام واحد: هو أنه تجب موافقة أوامره، واجتناب مزاجره. ثم إن الله تعالى قال في كل كتابٍ، وشَرَعَ لكل أمة أنْ يعرفوا أنه للمطيعين مُثيبٌ، وللكافرين ذو عذابٍ شديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾.

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ أنْ يعرفَ صِدْقَ الدعوة، وصحة الشريعة.

ثم وصفَ الكتابَ بأنه شفاءٌ للمؤمنين، وسببُ شقاء للكافرين.

وهو شفاءٌ حيث استراحوا به عن كَدِّ الفكر وتحيُّر الخواطر.

وهو شفاءٌ لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته، والتلذُّذ بالتفكُّر فيه.

---

(١) دفع الشيء: نحّاه ورده بقوة أو ساقه.

وهو شفاءٌ لقلوب المحبين من لواعِج الاشتياق لما بهٖ مَن لُطْفِ المواجيد.

وهو شفاءٌ لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق، وآثار خطاب الرب العزيز.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: هم لا يسمعون بقلوبهم من الحق، ولا يستجيبون.. بقوا في ظلمات الجحد والجهل.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

آتينا موسى التوراةَ، وأرسلناه إلى قومه، فاختلفوا في أمره.. فَمَنْ كَحَلْنا سرَّه بنور التوحيد صَدَّقه، ومَنْ أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي أن عقوبتَهم في النار بعد قيام القيامة لَعَجَّلنا استئصالهم، ولأذقناهم في الحال وبالَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

«فلنفسه» لأن النفعَ عائدٌ إليه. ومَنْ عمل عملاً سيئاً فإنما ظَلَمَ نَفْسَه، وأساء إليها؛ لأنه هو الذي يقاصي ضرَّه ويلاقي شرَّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

لمَّا استعجلوا وقالوا: متى تقوم هذه القيامةُ التي يَتوَعَّدنا بها؟ قال الله تعالى: إنَّ علمَ القيامة ينفرد به الحقُّ فلا يعلمه غيره، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذي يخرج من الأشجار من الثمار، وما الذي تنطوي عليه أرحامُ النساءِ من أولادها ذكوراً وإناثاً، وما هم عليه من أوصاف الخِلْقة، وما يحصل من الحيوانات من نتاجها ـ فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله ـ فكذلك لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾: يتبرؤون من شركائهم، ولكن في وقت لا تنفعهم كثرةُ نَدَمِهم وبكائهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾.

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة، وإنْ مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ لا يرجو زوالَه لِعَدَمِ علمه بربه، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه[1].

---

(١) الآية (٤٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

لئن كَشَفْنا عنه البلاءَ، وأوجبنا له الرجاء لادَّعاه استحقاقاً أو اتفاقاً، وما اعتقد أن ذلك مِنّا فضلٌ وإيجاب.

ويقول: لو كان حشرٌ ونشرٌ لكان لي من الله لطفٌ وخير، وغداً يعلم الأمر، وأنه بخلاف ما تَوَهَّمَ.. وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

هو لا يميز بين البلاء والعطاء؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاءً هو مكرٌ واستدراجٌ.. وهو يستديمه. وكثيرٌ مما فضلٌ وصَرْفٌ وعطاءٌ يظنه من البلاء فيعافُه ويكرهه.

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحَبَه بالبَطَر، وإذا أبليناه قابَلَه بالضجر.

ويقال إذا أنعمنا عليه أُعجِبَ بنفسه، وتكبَّر مختالاً في زَهْوِه، لا يشكر ربَّه، ولا يذكر فضلَه، ويتباعد عن بِساط طاعته.

والمستغني عنَّا يهيم على وجهه، وإذا مسَّه الشرُّ فذو دعاءٍ كثيرٍ، وتضرُّعٍ عريض، وابتهالٍ شديد، واستكشافٍ دائم.

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عُتُوِّه ونُبُوِّه عَوْدٌ، ولسوء طريقته في الجحود إعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾.

﴿سَنُرِيهِمْ﴾: السين للاستقبال؛ أي سيُظهر لهم من الآيات، ومن الأحداث التي تجري في أحوال العالَم، وما سيحِلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يتبيَّن لهم من خلاله أنَّ هذا الدِّين حقٌّ، وأنَّ هذا الكتابَ حقٌّ، وأن محمداً ـ ﷺ ـ حقٌّ، وأن المُجْرِيَ لهذه الآياتِ والأحداثِ والأمورِ والمنشىءَ له هو الحقُّ ـ سبحانه.

ومن تلك الآيات ما كان من قَهْرِ الكفار، وعُلُوِّ الإسلام، وتلاشي أعداء الدين.

ويقال من تلك الآيات في الأفاق اختلافُ أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها في

التجانس.. وهذه آيات حدوثِ العالَم، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه.

ويقال: ﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾ للعلماء، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلَمُّوا بذَنْبٍ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة.

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط، وجمع وفَرْقٍ، وحجبٍ وجذبٍ.. وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: هو الكافي، ولكنهم ـ أي الكفار ـ في مِرْيةٍ من لقاء ربهم في القيامة. والإشارة فيه: أن العوامَّ لَفي شكٍ من تجويز ما يُكَاشَفُ به أهلُ الحضورِ من تعريفات السرِّ.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾: عالِمٌ لا يَخفَى عليه شيءٌ.

سورة الشورى

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

سلوةُ العاصين في سماع رحمةِ الله، وحظوةُ العابدين في رجائهم نعمةَ الله، وراحةُ الفقراء في رضاهم بقسمةِ الله. لكلٍ من حاله نصيب، وكلٌ في مُتنَفَّسِه مُصيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾.

الحاء مفتاح اسمه: حليم وحافظ وحكيم، والميم مفتاح اسمه: مَلِك وماجد ومجيد ومنَّان ومؤمن ومهيمن، والعين مفتاح اسمه: عالم وعدل وعالٍ، والعين مفتاح اسمه: سيِّد وسميع وسريع الحساب، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقدوس.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحِي إليك العزيز الحكيم، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

له ما في السموات وما في الأرضِ مُلْكاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: عُلُوُّه وعظمتُه استحقاقُه لأصاف المجد؛ أي وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال.

قوله جلّ ذكره: (﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

أي تكاد السموات تتشقق مِنْ عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى، والفوقية هنا فوقية رتبة؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله.

ويقال مِنْ ثِقَلِ الملائكةِ الذين هم فوق السموات لكثرتهم. وفي الخبر: «أطت[1] السماء أطاً وحق لها أن تئط؛ ما مِنْ موضع قَدَمٍ في السموات إلا وعليه قائم أو راكع أو ساجد»[2].

---

(١) الأطيط: صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها. (اللسان ٧/ ٢٥٦ مادة: أطط).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٥/ ١٧٣).

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشقُّ له.. وهنا لُقبحِ قول المشركين ولجرأتهم على الله تعالى، ولعِظَم قولهم كادت السموات تنشقُّ.. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩ ـ ٩١] وعلى هذا التأويل: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي إلى أسفلهن، أي تتفطر جملتُها.

ومع أنَّ أولادَ آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون، ويستغفرون لمن في الأرض.. ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي يغفر لهم مع كثرة عصيانهم. وفي الوقت الذي يرتكب فيه الكفارُ هذا الجُرْمَ العظيمَ بسبب شِرْكهم فإنه ـ سبحانه ـ لا يقطع رِزْقه ونَفْعَه عنهم ـ وإنْ كان يريد أنْ يعذِّبهم في الآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

المشركون اتخذوا الشياطينَ أولياءَ مِنْ دونه، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم. وليس يخفى على الله أمرُهم، وسيعذبهم بما يستوجبونه. ولستَ ـ يا محمد ـ بمُسَلَّطٍ عليهم.

وفي الإشارة: كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك لله حدّاً أو ينقض له عهداً فهو يتخذ الشياطينَ أولياءَ، والله يعلمه، ولا يخفى عليه أمره، وعلى الله حسابه.. ثم إنْ شاء عذَّبه، وإن شاء غَفَرَ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

أنزلنا عليكَ قرآناً يُتْلَى بلغة بالعرب لتخوِّفَ به أهلَ مكة والذين حولَها. وجميعُ العالَم مُحْدِقٌ بالكعبة ومكة لأنها سُرَّةُ الأرضِ.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ تنذرهم بيوم القيامة. والإنذارُ الإعلامُ بموضع المخافة. ويوم الجمع ـ وهو اليوم الذي يُجْمَعُ فيه الخَلْقُ كلُّهم، ويُجْمَعُ بين المرءِ وعمله، وبين الجسد وروحه وبين المرء وشكله في الخير والشرّ ـ لا شكَّ في كَوْنه. وفي ذلك اليومِ فريقٌ يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل في السعير. وكما أنهم اليومَ فريقان؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة العبادات، وفريق في ظلمة الشِّرْكِ وعقوبة الجحد.. فكذلك غداً؛ فريقٌ هم أهل اللِقاء، وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

إنْ أراد أن يجمعَهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . وإذاً لازَيْنَ لهم . ولو شاء أن يجمعَهم كُلَّهم على الفساد والعناد لم يكن دافع ـ وإذاً لاشينَ منه . وحيث خَلَقَهم مختلفين ـ على ما أراد ـ فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحدٌ جبَّارٌ غيرُ مأمور، متولٍ جميع الأمور؛ من الخير والشر، والنفع والضر. هو الذي يحيي النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً، ويميت النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً . . وهو على كل شيءٍ قدير[1] .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ : أي إلى كتاب الله، وسُنَّةِ نبيه ﷺ، وإجماعِ الأئمة، وشواهِد القياس. والعبرةُ بهذه الأشياء فهي قانون الشريعة، وجملتها من كتابِ الله؛ فإنَّ الكتابَ هو الذي يدلُّ على صحة هذه الجملة.

ويقال: إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فَدَعُوا تدبيركم، والتجِئوا إلى ظلِّ شهود تقديره، وانتظِروا ما ينبغي لكم أن تفعلوه بحُكم تيسيره.

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم؛ لا تدرون أبا لسعادة جَرَى حُكْمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكم؟ فَكِلُوا الأمرَ فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكُّر فيما ليس لكم سبيل إلى عِلْمِه عن عواقبكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

خَلَقَ لكم من أنفسكم «أزواجاً»: أي أَشكالًا؛ فَخَلَقَ حواءَ مِنْ آدم. وخَلَقَ ـ بسبب بقاء التناسل ـ جميعَ الحيواناتِ أجناساً.

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ : يُكْثِر خَلْقكم. «فيه» الهاء تعود إلى البطن أي في البطن، وقيل: في الرَّحِم، وقيل: في التزويج.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ : لأنه فاطر السموات والأرض، ولأنه لا مِثْلَ يُضارِعهُ، ولا شكلَ يشاكله. والكاف في ليس «كمثله» صلة أي ليس مثله شيء. ويقال: لفظ «مثل» صلة؛ ومعناه ليس كهُوَ شيءٌ. ويقال معناه ليس له مثل؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثله شيء وهو هو، فلمَّا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فمعناه ليس له مثل، والحقُّ لا شبيهَ له في ذاته ولا في صفاته ولا في أحكامه.

وقد وقع قومٌ في تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون في

---

(١) الآية (٩) لم ترد.

المكان، وأقبحُ قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات؛ فظنوا أن بَصَرَه في حدقة، وسَمْعَه في عضوٍ، وقدرته في يدٍ.. إلى غير ذلك.

وقومٌ قاسوا حُكْمَه على حُكْم عباده؛ فقالوا: ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمنه قبيح، وما يكون من الخَلْق حسناً فمنه حَسَنٌ!! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه ـ والحقُّ مستحِقٌّ للتنزيه دون التشبيه، مستحق للتوحيد دون التحديد، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

«مقاليد» أي مفاتيح، والمفاتيح للخزائن، وخزائنه مقدوراته. وكما أن في الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال؛ فبعض القلوب معادن المعرفة، وبعضها معادن المحبة، وبعضها للشوق، وبعضها للأُنس.. وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا. وفائدة التعريف بأن المقاليد له: أَنْ يقطع العبدُ أفكارَه عن الخَلْق، ويتوجَّه في طلب ما يرد من الله الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾، والذي هو ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: يوسِّع ويضيِّق أرزاقَ النفوسِ وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحَكَمَ وعَلِمَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

﴿شَرَعَ﴾: أي بَيَّنَ وأظهر. ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أراد به أصول الدين؛ فإنها لا تختلف في جميع الشرائع، وأمَّا الفروع فمختلفة، فالآية تدلُّ على مسائلَ أحكامُها في جميعِ الشرائع واحدةٌ.

ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾.. وفي القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شُرِعَ في زمان نوح عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ﴾.

يعني أنهم أَصَرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عُذْرَ ولا شكَّ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.. وهو أنه حَكَمَ بتأخيرِ العقوبةِ إلى يومِ القيامة لعَجَّل لهم ما يتمنونه..

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي أُدْعُ إلى هذا القرآن، وإلى الدين الحنيفي، واستقِمْ في الدعاء، وفي الطاعة. أَمَرَ الكُلَّ من الخَلْقِ بالاستقامة، وأفرده بذكر التزام الاستقامة.

ويقال: الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة؛ أي سَلْ مني أن أقيمك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾: أمرت بالعدل في القضية، وبأن أُعْلِمَ أنَّ اللَّهَ إلهُ الجميع، وأنّه يحاسِب غداً كلاً بعمله، وبأن الحجةَ لله على خَلْقِه، وبأن الحاجةَ لهم إلى مولاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

يجادلون في الله من بعد ما استُجِيبَ لدعاء محمدٍ ﷺ يومَ بدرٍ على المشركين.

حُجَّةُ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل، وهم من الله مستوجِبون للعنة والعقاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أنزلَ الكتابَ، وأنزل الحُكْمَ بالميزان أي بالحق.

ويقال ألهمهم وزنَ الأشياء بالميزان، ومراعاةَ العدل في الأحوال.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: يزجرهم عن طول الأمل، وينبههم إلى انتظار هجوم الأجَل.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

المؤمنون يؤمِنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة، ويَكِلُون أمورَهم إلى الله؛ فلا يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء، ولكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه، وكانوا مستعدين له.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

﴿لَطِيفٌۢ﴾ أي عالم بدقائق الأمور وغوامضها. واللطيف هو المُلْطِف المحسن.. وكلاهما في وصفه صحيح. واللطف في الحقيقة قدرة الطاعة، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليومَ هو لُطْفٌ منه به.

وأكثرُ ما يستعمل اللطف ـ في وصفه ـ في الإحسان بالأمور الدينية.

ويقال: خَاطَبَ العابدين بقوله: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: أي يعلم غوامضَ أحوالهم من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم. وخاطَبَ العُصاةَ بقوله: «لطيف»: لئلا ييأسوا من إحسانه.

ويقال: خاطَبَ الأغنياءَ بقوله: «لطيف»: ليعلموا أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل، وخاطَبَ الفقراءَ. بقوله: «اللطيف» أي أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء.

ويقال: سماعُ قوله: «اللَّهُ» يوجِبَ الهيبةَ والفزع، وسماعُ «اللطيفٌ» يوجِبُ السكونَ والطمأنينة. فسماعُ قوله: «اللَّهُ» أوجب لهم تهويلاً، وسماع قوله: «اللطيفٌ» أوجب لهم تأميلاً.

ويقال: اللطيفُ مَنْ يعطي قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه.

ويقال: مَنْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف، ولولا لُطفُه لَمَا عَرَفَ أنه لطيف.

ويقال: مِنْ لُطْفِه أنه أعطاه فوق الكفاية، وكَلَّفَه دون الطاقة.

ويقال: مِنْ لطفه بالعبد إبهام عاقبته عليه؛ لأنه لو علم سعادتَه لاتَّكَلَ عليه، وأَقَلَّ عملَه ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَلَه.. فأراده أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة.

ويقال: من لطفه بالعبد إخفاءُ أَجَلِه عنه؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه.

ويقال: من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيَه ما عمله في الدنيا من الزلّة؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ في الجنة.

ويقال: اللطيفُ مَنْ نَوَّر الأسرارَ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار، وغفر له ما عملَ من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾: نَزِدْه ـ اليومَ ـ في الطاعات توفيقاً، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً. ونَزِدْه في الآخرة ثواباً واقتراباً وفنونَ نجاةٍ وصنوفَ درجاتٍ.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾: مكتفياً به نؤتِه منها ما يريد، وليس له في الآخرةِ نصيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾: أي ليس ذلك مما أمَرَ به، وإنما هو افتراءٌ منهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾.. أي ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة..

قوله جلّ ذكره: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبُهم الله في الغالب، ولكنه لا محالةَ يعذبهم. وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسَّفون، ويعلمون أنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمَّا الكفار.. فغداً يُشْفِقُون مما يقع بهم عند ما يقرؤونه في كتابهم، لأنَّ العذابَ ـ لا محالةَ ـ واقعٌ بهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾: في الدنيا جنان الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأُنْسِ في أوقات الخلوة. وفي الآخرة في روضات الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: إنْ أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم، وإنْ أرادوا تمامَ الكشف كان لهم.. ذلك هو الفضلُ الكبير.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

ذلك الذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عبادَه قد مضى ذِكْرُه في القرآن متفرقاً؛ من أوصاف الجنة وأطايبها، وما وَعَدَ اللَّهُ من المثوبة.. ونحو ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

قُلْ ـ يا محمد ـ لا أسألكم عليه أجراً. مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً، ولكنَّ اللَّهَ ـ وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيِّه بما لهم من الكرامات الأبدية ـ لم يطلب عليه أجراً؛ فاللَّهُ ـ سبحانه ـ لا يطلب عِوَضاً، وكذلك نبيُّه ـ ﷺ ـ لا يسأل أجراً؛ فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقَاً حَسَناً.. فمتى يطلب الرسولُ منهم أجراً؟! وهو ـ صلوات الله عليه ـ يشفع لكلِّ مَنْ آمن به، والله ـ سبحانه ـ يعطي الثوابَ لكل مَنْ آمن به.

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾: أراد أن تثبت مودتك في القربى؛ فتودّ مَنْ يتقرَّب إلى الله في طاعته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

تضعيف الثواب في الآخرة للواحدِ من عَشَرَة إلى سبعمائة.. هذه هي الزيادة.

ويقال: الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا.

ويقال: إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضَّلْنا بزيادة.. وهي تحقيق المشاهدة.

ويقال مَنْ يقترِفْ حسنةَ الوظائف نَزِدْ له فيها حُسْنَ اللطائف.

ويقال: تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ البَشَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي أنَّك إنْ افترَيْته خَتَمَ اللَّهُ على قلبِكَ، ولكنكَ لم تكذِبْ على ربِّكَ.

ومعنى الآية أنَّ اللَّهَ يتصرَّف في عباده بما يشاء: مِنْ إبعادٍ وتقريب، وإدناء وتبعيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ الألف واللام للجنس مطلقاً، وهي هنا للعهد؛ أي تلك السيئات التي تكفي التوبةُ المذكورةُ في الشريعة لقبولها؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: من الأعمال على اختلافها.

وهو «الذي».. : الذي من الأسماء الموصولة التي لا يتم معناها إلا بِصِلَةٍ، فهو قد تعرَّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد؛ فالزَّلَّةُ ـ وإن كانتْ توجِبُ للعبد ذميمَ الصِّفَةِ ـ فإنَّ قبولَها يوجِبُ للحقِّ حميدَ الاسم.

ويقال: قوله: «عباده» اسم يقتضي الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)[1] حتى تمنَّى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حسابَ الأولين والآخرين لعلّه يقول له: عبدي. ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود في ﴿التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾؛ وإذاً فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك، وعليهم أن يتوبوا لكي يَصِلوا إلى ذلك.

ويقال لمَّا كان حديثُ العفوِ عن السيئات ذكَرَها على الجمع والتصريح فقال: ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾. ثم لمَّا كان حديثُ التهديد قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فذكره على التلويح؛ فلم يقل: ويعلم زلَّتك ـ بل قال ويعلم «ما» تفعلون، وتدخل في ذلك الطاعةُ والزَّلةُ جميعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

(أي إذا دَعَوْه استجابَ لهم)[2] بعظيم الثواب في الآخرة.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يقول المفسرون من أهل السُّنَّة في هذه الزيادة إنها الرؤية.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ذَكَرَ التوبة وأهلها، وذكر العاصين بوصفهم، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. فلمَّا وصل إلى الزيادة ـ التي هي الرؤية ـ قال: «ويزيدهم» على الجمع؛ والكناية إذا تَلَتْ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً؛ فيكون المعنى أن الطاعاتِ في مقابلها الدرجات، وتكون بمقدارها في الزيادة والنقصان، وأَمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل.. والفضلُ ليس فيه تمييز.

ويقال: لِمَّا ذكر أَنَّ التائبين تُقْبَلُ توبتُهم، ومَنْ لم يَتُبْ غفر زلَّته، وأَنَّ المطيعين لهم الجنة.. فلربما خَطَرَ ببالِ أَحَدٍ: وإذاً فهذه النارُ لِمَنْ هي؟! فقال جل ذكره:

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

فالعصاةُ من المؤمنين لهم عذابٌ.. أمَّا الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ؛ لأَنَّ دليلَ الخطاب يقتضي هذا وذاك؛ يقتضي أن المؤمنين لهم عذابٌ.. ولكنْ ليس بشديد، وأمَّا عذابُ الكافرين فشديدٌ.

ويقال: إن لم يَتُبْ العبدُ خوفاً من النار، ولا طمعاً في الجنة لَكَان من حقِّه أن يتوب ليَقْبَلَ الحقُّ ـ سبحانه.

ويقال إن العاصي يكون أبداً منكسرَ القلب، فإذا عَلِمَ أن اللَّهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أَنْ ليت له طاعةً مُيَسَّرَةً ليقبلَها، فيقول الحقُّ: عبدي، إنْ لم تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إنْ أتيتَ بها تصلح لقبولها.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في تخاطب الآدميين. والمعنى: أنني لم أبسط عليكَ أيها الفقيرُ في الدنيا لِمَا كان لي من العلم أنني لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ، ولسَعَيْتَ في الأرض بالفساد.

ويقال: قوله: «ولكن..»: لكن كلمة استدراك، فالمعنى: لم أُوَسِّعْ عليكَ الرزقَ بمقدار ما تريد؛ ولم أمنع عنك (الكُلَّ)؛ لأني أُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما أشاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

الله ـ سبحانه مُحْيِي القلوب؛ فكما أنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، فبعدما أصابت الأرضَ جدوبةٌ، وأبطأ نزولُ الغيثِ، وقَنِطَ الناسُ من مجيء المطر، وأشرفَ الوقتُ على حدِّ الفَواتِ يُنَزِّلُ اللَّهُ بفضله الغيثَ، ويحيي الأرضَ بعد قنوطِ أهلها.. فكذلك العبد؛ إذا ذَبُلَ غُصْنُ وقته، وتكَدَّرَ صَفْوُ وِدِّه،

وكسفت شمسُ أُنسِه، وبَعُدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القرب عَهْدُه فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته؛ فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة، ويعود عودُه طريًّا، ويُنبِتُ في مشاهد أُنسِه ورداً جَنِيًّا.. وأنشدوا:

إنْ راعني منك الصدود ... فلعلَّ أيامي تعود
ولعلَّ عهدك باللِّوى ... يحيا فقد تحيا العهود
والغصن ييبس تارة ... وتراه مُخْضرًا يميد[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

جعل اللَّهُ في كلِّ شيءٍ من المخلوقات دلالةً على توحُّدِه في جلاله، وتفرُّدِه بنعت كبريائه وجماله.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾: والإشارة منها أَنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يغار على أوليائه أن يَسْكَنَ بعضُهم بقلبه إلى بعض؛ فأبداً يُبَدِّدُ شمْلَهم، ولا تكاد الجماعةُ من أهل القلوب تتفق في موضعٍ واحد إلا نادراً، وذلك لمدةٍ يسيرة.. كما قالوا:

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنَّهم ... بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحايين قد يتفضَّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم ـ في الظاهر ـ اجتماعٌ والتقاءٌ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ ـ سبحانه ـ بفضله إلى أنَّ في اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالَم.

وهذا ـ وإن كان نادراً ـ فإنه على جَمْعِهم ـ إذا يشاء ـ قدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءُه، وعلِمَ أن ذلك جزاءٌ له، وعقابٌ على ما بَدَرَ منه من سوءِ الأدب لاستحيى بخجلته مِنْ فِعْلِه، ولَشغَلَه ذلك عن رؤية الناس، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئَهم أو يدعوَ عليهم، وإنما يشغله تلافي ما بَدَرَ منه من سوءِ الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلَّط عليه من الخَلْق.. تاركاً الأمرَ كلَّه لربِّه.

ويقال: إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد، وتوالى عليه ذلك.. فَلْيُفَكِرْ في أفعاله المذمومة.. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله ـ مع العفو الكثير ـ هذا!

---

(١) يميد: يتمايل.

المبلغ؟! فعند ذلك يزداد حُزْنه وتأسُّفه؛ لِعِلْمِه بكثرة ذنوبه ومعاصيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾.

يريد بها السفن التي تجري في البحار؛ يرسل اللَّهُ الريحَ فتُسَيِّرها مرةً، ويُسَكِّنها أخرى، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة.. وهو بهذا يَحُثُّهم على التفكُّر والتنبُّه دائماً.

والإشارة في هذا إلى إمساك الناس في خلال فَتْرَةِ الوقت عن الأنواء المختلفة، وحفظهم في إيواء السلامة، فالواجبُ الشكرُ في كل حالة، وإذا خَلُصَ الشكرُ استوجب جزيلَ المزيد[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

يعني أنَّ الراحاتِ في الدنيا لا تصفو، ومن المشائب لا تخلو. وإنْ اتفق وجودُ البعض منها في أحايين فإنها سريعة (الزوال)، وشيكة الارتحال.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب الموعود «خيرٌ» من هذا القليل الموجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

﴿كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾: الشِرْك. و ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما دون ذلك من الزلَّات. فإذا تركوها لا يتجرَّعون كاساتِ الغضب بل تسكن لديهم سَوْرَةُ النَّفْسِ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم في عموم الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾: فيما دعاهم إليه وما أَمَرَهم به من فنون الطاعات؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثوابِ وحميدُ المآبِ.

والمستجيبُ لربِّه هو الذي لا يبقى له نَفَسٌ إلا على موافقة رضاه، ولا تَبْقَى منه لنَفْسِه بقية.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: لا يستبدُّ أحدُهم برأيه؛ لأنه يَتَّهِمُ أمرَه ورأيَه أبداً ثم إذا أراد القطعَ بشيءٍ يتوكل على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

«البغيُ»: الظلمُ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذي أصابه هو من قِبَلِ نَفْسِه، فينتصر

---

(١) الآيات من (٣٣ حتى ٣٥) لم ترد.

على الظالم وهو نفسه؛ بأنْ يكبحَ عنانها عن الركض في ميدان المخالفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(يعني لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام).

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: مَنْ عفا عن الجاني، وأصلح ما بينه وبين الله ـ أَصلَح اللّهُ ما بينه وبين الناسِ. ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: فالذي للعبد من الله وعلى الله، وعند الله خيرٌ مما يعمله باختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

عَلِمَ الله أن الكُلَّ من عباده لا يجد التحررَ من أحكام النَّفْس، ولا يتمكن من محاسن الخُلُق فرخَّص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط ـ وإنْ كان الأَوْلى بهم الصفح والعفو.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ..﴾: السبيلُ بالملامة لِمَنْ جاوز الحدَّ، وعدا الطَّوْرَ، وأتى غيرَ المأذونِ له من الفعل.. فهؤلاء لهم عذابٌ أليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

صَبَرَ على البلاءِ من غير شكوى، وغَفَرَ ـ بالتجاوز عن الخَصْم ـ ولم تبقَ لنَفْسِه عليه دعوى، بل يُبرىء خَصْمَه من كل دعوى، في الدنيا والعُقبى... فذلك من عزم الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

إنَّ الذين أضلَّهم اللّهُ، وأعمى أبصارَهم وبصائرَهم، وأوقعهم في كدِّ عقوبتهم، وحَرَمَهم بَرْدَ الرضا لحكْم ربِّهم ليس لهم وليٌّ من دون الله، ولا مانعَ لهم من عذابه. وتراهم إذا رأوا العذابَ يطلبون منه النجاة فلا ينالونها.

وتراهم يُعْرَضُون على النار وهم خاشعون من الذُّلِّ؛ لا تنفعهم ندامةٌ، ولا تُسْمَعُ منهم دعوةٌ، ويُعَيِّرُهم المؤمنون بما ذَكَّروهم به فلا يسمعون، فاليومَ لا ناصرَ ينصرهم، ولا راحمَ يرحمهم[(١)].

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾.

---

(١) الآيتان (٤٥، ٤٦) لم تردا.

الاستجابةُ لله الوفاءُ بعهده، والقيامُ بحقِّه، والرجوعُ عن مخالفته إلى مرافقته، والاستسلام.

في كل وقتٍ لحُكْمِهِ. والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ. وعن قريبٍ سيُغْلَقُ البابُ على القلب بغتةً، ويُؤْخَذُ فلتةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

فإن أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

إذا أذقنا الإنسان مِنَّا رفاهيةً ونعمةً فَرِحَ بتلك الحالة، وقابلها بالبَطَرِ، وتوصَّل بتمام عافيته إلى المخالفة، وجعل السلامةَ ذريعةً للمخالفة. وإنْ أصابته فتنةٌ وبلية، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا، جحودٌ لآياتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . . .﴾.

يهب لمن يشاء الذكور، ولمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الجنين، ويجعل من يشاء عقيماً، فلا اعتراضَ عليه في تقديره، ولا افتياتَ في اختياره، فهو أَوْلَى بعباده من عباده(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

لله بحقِّ مُلْكِهِ أن يفعل ما يشاء، ويعطي مَنْ يشاء مِنْ عباده ما يشاء، ولكن أجرى العادة وحَكَم بأنه لا يفعل إلا ما وَرَدَ في هذه الآية؛ فلم يُكَلِّم أحداً إلا بالوحي، أو من وراء حجاب؛ يعني وهو لا يرى الحقَّ، فالمحجوبُ هو العبد لا الرب، والحجابُ أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية.. تعالى اللّهُ عن أن يكونَ من وراء حجاب؛ لأن ذلك صفةُ الأجسام المحدودة التي يُسْبَلُ عليها ستر. إنه «عَلِيٌّ»: في شأنه وقَدْرِه، «حكيمٌ»: في أفعاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

---

(١) الآية (٥٠) لم ترد.

أي ذلك مثلما أوحينا إليك «روحاً» من أمرنا يعني القرآن؛ سَمَّاه روحاً لأنه مَنْ آمن به صار به قلبُه حَيًّا.

ويقال: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾: أي جبريل عليه السلام، ويسمى جبريل روح القدس.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ..﴾: ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن، «ولا الإيمان»: أي تفصيل هذه الشرائع.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾: أي القرآن «نوراً» نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: لأن منه ابتداء الأمور.

سورة الزُّخرف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم «الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بجُودِه وكَرَمِه لم يُعَلِّقْ بغيره صواعدَ هِمَمِه، ولم يَقِف على سُدَّةِ مخلوقٍ بِقَدَمِهِ في ابتغاءِ كَرَمِهِ. اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدعه خفايا لُطْفِه لم يتذَلَّ في طَلَب شيءٍ مِنْ غيرِه، ولم يَرْجِع إلى غيره في شَرِّه وخَيْرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الحاءُ تدل على حياته والميمُ على مجده.. وهذا قَسَمٌ؛ ومعناه: وحياتي ومجدي وهذا القرآنِ إنَّ الذي أخبرْتُ عن رحمتي بعبادي المؤمنين حقٌ وصِدْقٌ. وجعلناه قرآناً عربياً ليتيسَّرَ عليكم فَهْمُ معناه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾: أي أنه مكتوب في اللّوح المحفوظ.

﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ لِعَلِيُّ القَدْرِ، حكيمُ الوصفِ؛ لا تبديلَ له ولا تحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

أي أننا لا نفعل ذلك؛ (فيكون معنى الاستفهام)[1] أفنقطع عنكم خطابَنا وتعريفَنا إنْ أسرفتم في خلافكم؟ لا... إننا لا نرفع التكليفَ بِأَنْ خالَفْتُم، ولا نهجركم ـ بِقَطْع الكلام عنكم ـ إنْ أسرفتم.

وفي هذا إشارةٌ لطيفةٌ وهو أنه لا يقطع الكلامَ ـ اليومَ ـ عَمَّنْ تمادَى في عصيانه، وأسرف في أكثر شأنه. فأحرى أنَّ مَنْ لم يُقَصِّرْ في إيمانه ـ وإنْ تَلَطَّخَ بعصيانه، ولم يَدْخُلْ خَلَلٌ في عِرفانه ـ ألا يَمْنَعَ عنه لطائفَ غفرانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ما أتاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق، بل كَذَّبَ به الأكثرون وجحدوا، وعلى غيِّهم أَصَرُّوا...

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

أي لم يُعجِزْنا أحدٌ منهم، ولم نعادِرْ منهم أحداً، وانتقمنا مِنَ الذين أساؤوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

كانوا يُقِرُّون بأنَّ اللَّهَ خالقُهم، وأنّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وإنما جحدوا حديثَ الأنبياءِ، وحديثَ البعثِ وجوازه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

كما جَعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم؛ فالخَلْقُ سُكّانُ الأرضِ، فإذا انتهت المدةُ ـ مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ ـ حَكَمَ اللَّهُ بخرابها.. كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّة قضى اللَّهُ بخرابها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

يعني كما يُحْيي الأرضَ بالمطرِ يُحْيي القلوبَ بحُسن النَّظَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

أي الأصنافَ من الخَلْق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

كذلك جَنَّسَ عليكم الأحوالَ كلها؛ فمِنْ رغبةٍ في الخيرات إلى رهبةٍ مما توعدُكم به من العقوبات. ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزلّات إلى رجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات طمعاً في المثوبات.. وغير ذلك من فنون الصِّفات.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾.

يعني الفُلْكَ والأنعام..

﴿ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

مطيعين، وكما سَخَّرَ لهم الفُلْكَ في البحر، والدوابَّ للركوب، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركب التوفيق فَحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة، وسَهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فَحَمَلهم عليه إلى عَرَصَات الجود، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعِقْوةِ العِزَّةِ. وعند ذلك مَحَطُّ الكافة؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ

العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ: سواء كان مَلَكاً مُقرَّباً أو نبيًّا مُرْسَلاً أو وليًّا مُكَرَّماً، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

هم الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته.. تَعَساً لهم في قولهم ذلك وخِزْياً!! فردَّ عليهم ذلك قائلاً:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾.

قال لهم على جهة التوبيخ، وعابهم بما قالوا؛ إذ ـ على حدِّ قولهم ـ كيف يُؤْثِرُهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات؟! ففي قولهم ضلالٌ؛ إذ حكموا للقديم بالوَلَد. وفيه جهلٌ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين ـ وهم يستنكفون من البنات.. ثم.. أي عيب في البنات؟ ثم.. كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ ـ وهم لم يشاهدوا خِلْقَتَهم؟

كلُّ ذلك كان منهم خطأً محظوراً[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

إنما قالوا ذلك استهزاءً واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً فقال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولاً.

ثم قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

أي ليس كذلك، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْضي إلى العلم، فقال:

﴿بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

فنحن نقتدي بهم، ثم قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

سلكوا طريقَ هؤلاء في التقليد لأسلافهم، والاستنامةِ إلى ما اعتادوه من السِّيرة والعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾.

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٧ حتى ١٩) لم ترد.

فلم ينجعْ فيهم قولُه، ولم ينفعهم وَعْظُه، وأَصرُّوا عَلَى تكذيبِهم، فانتقمَ الحقُّ - سبحانه - منهم كما فعل بالذين من قبلهم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

أخبر أَنَّ إبراهيمَ لمَّا دعا أباه وقومَه إلى الله وتوحيده أَبَوْا إلَّا تكذيبَه؛ فتبرّأَ منهم بأجمعِهم، وجعلَ اللَّهُ كلمةَ التوحيدِ باقيةً في عَقِبِه وقومه[٢].

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾

أَرْخَيْنَا عنانَ إمهالهم مدةً، ثم كان أمرُهم أَنْ انتصرْنا منهم، ودَمّرْناهم أجْمعين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

إمّا أبي مسعود الثقفي[٣] أو أبي جهل، وهذا أيضاً من فرْط جهلهم.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أهم يَقْسمون - يا محمد - رحمةَ ربك في التخصيص بالنبوة؟ أيكون اختيارُ اللَّهِ - سبحانه - عَلَى مقتضى هواهم؟ بئس ما يحكمون!

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم....﴾ فلم نجعل القسمة في الحياة الدنيا لهم... فكيف نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء؟!...

والإشارة من هذا: أن الحقَّ - سبحانه - لم يجعل قسمةَ السعادةِ والشقاوةِ إلى أحد، وإنما المردودُ مَنْ ردّه بحكمه وقضائه وقَدَرِه، والمقبولُ - من جملة عباده - مَنْ أراده وقَبِلَه... لا لِعلّةٍ أو سبب، وليس الردُّ أو القبولُ لأمرٍ مُكتَسب...

ثمَّ إنه قَسَمَ لِبعْضِ عِباده النعمةَ والغنى، وللبعض القلّةَ والفقر، وجعل لكلِّ واحدٍ منهم سكناً يسكنون إليه يستقلون به؛ فللأغنياء وجودُ الإنعام وجزيل الأقسام.. فشكروا واستبشروا، وللفقراء شهودُ المُنعم والقَسّام.. فَحَمدوا وافتخروا. الأغنياءُ وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا، والفقراء سمعوا قوله: «نحن» فاشتغلوا.

---

(١) الآية (٢٥) لم ترد. (٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

(٣) هو عروة بن مسعود بن معتب الثقفي (....- ٩ هـ = ... - ٦٣٠م) صحابي مشهور، كان كبيراً في قومه بالطائف، ولما أسلم استأذن النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك. قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فأذن له، فرجع، فدعاهم إلى الإسلام فخالفوه، ورماه أحدهم بسهم فقتله.

الأعلام ٤/ ٢٢٧، والإصابة ت٥٥٢٨، ورغبة الآمل ٥/ ٣٠.

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للأنصار: «أما ترضون أن يرجع الناس بالغنى؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم؟».

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا..﴾: لو كانت المقاديرُ متساويةً لتعطَّلت المعايشُ، ولَبَقِيَ كلٌّ عندَ حاله؛ فجعل بعضَهُم مخصوصين بالرَّفَه والمال، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال.. حتى احتاج الفقيرُ في جَبْرِ حاجته إلى أَنْ يعملَ للغنيِّ كي يرتفق من جهته بأجرته فيَصْلُحُ بذلك أمرُ الغنيِّ والفقير جميعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر؛ فالذي يبقى عنَّا لو صَبَبْنَا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته. ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارجَ من فضة، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا.

ولو فعلنا.. لم يكن لِمَا أعطيناه خَطَرٌ؛ لأنَّ الدنيا بأَسْرِها ليس لها عندنا خطر(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

مَنْ لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع اللّهِ فحادَ عن ذكره، وأَخلدَ إلى الخواطر الرديَّة فيَّضَ اللّهُ له مَنْ يَشْغَلُه عن الله ـ وهذا جَزاءُ مَنْ تَرَك الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربِّه.. فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن الله ـ وهذا جَزاءُ مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربِّه. فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن ربه صَرَفه الحق عنه بأي وجهٍ كان، وصَرَفَ دواعيه عن مفاتحته بمَا يشغله عن الله.

ويقال: أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغ قلبه، واتَّبَعَ شهوته، وفتح ذلك البابَ عَلَى نَفْسه بقي في يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلَّصُ عنه إلا بعد مُدَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾.

الذي سوّلت له نَفْسُه أمراً يَتَوَهَّمُ أنه على صواب، ثم يحمل صاحبَه على موافقته في باطله، ويدّعي أنه على حقٍّ. وهو بهذا يَضُر بِنَفْسِه ويضر بغيره. ثم إذا ما انكشف ـ غداً ـ الغطاء تبيَّن صاحبُه خيانَته، ونَدِمَ على صُحْبَتِه، ويقول: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ

---

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨] و ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾. ولكنَّ هذه الندامة لا تنفعُ حينئذٍ؛ لأنّ الوقتَ يكونُ قد فات، لهذا قال تعالى:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا الاستفهام فيه معنى النفي؛ أي أنه ليس يمكنُكَ هدايةَ مَنْ سَدَدْنا بصيرته، ولبَّسْنا عليه رُشْدَه، ومَنْ صَببْنا في مسامع فَهمه رصاصَ الشقاء والحرمان. . . فكيف يمكنك إسْمَاعه؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾.

يعني: إنْ انقضى أَجَلُكَ ولم يتفق لكَ شهودُ ما نتوّعَدُهم به فلا تتوَهَّمْ أَنَّ صِدْقَ كلامنا يشوبه مَيْنٌ، فإنّ ما أخبرناك عنه ـ لا محالة ـ سيكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

أثبتَهُ عَلَى حدِّ الخوفِ والرجاء، ووقَفَهُ عَلَى وصفِ التجويز لاستبداده ـ سبحانه بعلم الغيب. والمقصود كذلك أن يكونَ كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير ـ فاللَّهُ يفعل ما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

اجتهِدْ من غير تقصير وتوكّلْ على اللّهِ من غير فُتور، وقِفْ حيثما أُمِرتَ، وثِقْ بأنك علىٰ صِراطٍ مستقيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

أي إنَّ هذا القرآن لَذِكرٌ لك؛ أي شرفٌ لك، وحُسْنُ صيتٍ، واستحقاقُ منزلةٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

حَشَرَ أرواحَ الأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ ليلةَ الإسراء، وقيل له ـ ﷺ: «سَلْهم: هل أَمَرْنا أحداً بعبادة غيرنا؟ فلم يَشُكَّ النبي ـ ﷺ ـ ولم يسأل»(١).

ويقال: الخطابُ له، والمرادُ به غيره. . فَمَنْ يرتاب في ذلك؟ ويقال: المراد منه سَلْ أقوامهم، لكي إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ. . . . . . إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾.

---

(١) للحديث رواية أخرى: «لا أسأل قد اكتفيت» أخرجه ابن الجوزي في (زاد المسير ٧/ ٣١٩).

كرَّر قصةَ موسَى غيرَ مرةٍ في القرآن، وأعادَها هنا مجملةً؛ أرسلناه بدلائلنا، أرسلناه بحجةٍ ظاهرةٍ قاهرةٍ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط، فقوبل بالهزء والضحك والتكذيب. ومع أنَّ اللَّهَ سبحانه لم يُجْرِ عليه من البيِّنات شيئاً إلا كان أوضحَ مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاءٍ أَوْحَشَ مما قبله. فلمَّا عضَّهم الأمرُ قالوا: يا أيها الساحرُ، ادْعُ لنا ربَّك ليكشف عنَّا البليَّةَ لنؤمِنَ بك، فدعا موسى.. فكشف اللَّهُ عنهم، فعادوا إلى كفرهم، ونقضوا عَهْدَهُم[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

تعزَّزَ بمُلْكِ مصر، وجَرى النيل بأمره! وكان في ذلك هلاكه؛ ليُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تعزَّزَ بشيء من دون الله فحتفُه وهلاكُه في ذلك الشيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

استصغر موسى وحديثَه، وعابَه بالفقر.. فَسلَّطه اللَّهُ عليه، وكان هلاكه بيديه، فما استصغر أحدٌ أحداً إلا سَلَّطه اللَّهُ عليه[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أطاعوه طاعةَ الرهبة، وطاعةُ الرهبةِ لا تكون مخلصةً، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صَدَرَتْ عن الرغبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا، وإنما أراد أغضبوا أولياءَنا، فانتقمنا منهم. وهذا له أصل في باب الجَمْع؛ حيث أضاف إيسافَهم لأوليائه إلى نَفْسِه... وفي الخبر: أنه يقول: «مَرِضْتُ فلم تَعُدْني»[٣].

وقال في قصة إبراهيم عليه: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾ [الحج: ٢٧].

وقال في قصة نبيِّنا ـ ﷺ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.

وضَرْبُ المَثَلِ بعيسى هو قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ خَلَقَ عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين. فجحدوا بهذه الآية.

---

(١) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد. (٢) الآية (٥٣) لم ترد.
(٣) للحديث رواية أخرى: «مرضت فلم يعدني ابن آدم» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٤٠٤).
الآية (٥٦) لم ترد.

وقيل هو قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقالوا: رضينا بأن نكون في النار مع عيسى وعُزَيْر والملائكة، وليس لهم في الآية موضع ذِكر؛ لأنه سبحانه قال: «وما» تعبدون، ولم يقل «ومن» تعبدون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾: وذلك أنهم قالوا: إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعْبد، وإن قال: ليس واحدٌ منهم خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه. وهم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه، ولم يكن سؤالهم للاستفادة. فكان جواب النبي ﷺ عليهم: «أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعْبَد؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام بمستحق أن يكون معبوداً من دون الله وهكذا بيَّن الله ـ سبحانه ـ لنبيِّه أنهم قوم جَدِلون، وأنَّ حُجَتَهم داحضةٌ عند ربهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

فليس عيسى إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾.

ولو شِئْنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الأرض بَدَلَكم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: يعني به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ بنزوله بين يديّ القيامة(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ولا يصدنكم الشيطانُ عن الإيمان بالساعة، وعن اتّباع الإيمانِ بهُداي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ذكرَ مجيءَ عيسى عَلَيْه السلام أول مرة؛ حيث أتى قومَه بالشرائع الواضحة،

---

(١) في الموسوعة قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب» أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب٧١ رقم ٢٤٣)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٨) والآجري في (الشريعة ٣٨٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٧٢٢)، والقرطبي في (التفسير ١٠/ ٣١٥، ١٨/ ٨٦).

ودعاهم إلى دين الله، ولكنهم تحزَّبوا عليه، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

ما كان لغيرِ اللَّهِ فمآلُه إلى الضياع. والأخلاءُ الذين اصطحبوا عَلَى مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو؛ يتبرَّأ بعضُهم من بعضَ، فلا ينفع أحدٌ أحداً.

وأمَّا الأخلاءُ في الله فيشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وشرط الخلَّة[1] في الله؛ ألا يستعمل بعضُهم بعضاً في الأمور الدنيوية، ولا يرتفق بعضهم ببعضٍ؛ حتى تكونَ الصحبةُ خالصةً لله لا لنصيبٍ في الدنيا، ويكون قبولُ بعضهم بعضٍ لأَجْلِ الله، ولا تجري بينهم مُداهَنَةٌ، وبقَدْرِ ما يرى أحدُهم في صاحبه من قبولٍ لطريقِ اللَّهِ يقبله، فإنْ عَلِمَ منه شيئاً لا يرضاه اللَّهُ لا يَرْضَى ذلك من صاحبه، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته، وإلّا فلا ينبغي أن يُساعدَه عَلَى معصيته، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه، وألا يسكنَ إليه لغرضٍ دنيوي أو لطمعٍ أو لِعِوَض.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

يقال لهم غداً: **﴿يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليوم﴾** مما يلقاه أهل الجمع من الأهوال، ولا أنتم تحزنون فيما قَصَّرْتُم من الأعمال...

أمَّا الذنوب.. فقد غفرناها، وأمَّا الأهوال.. فكفيناها، وأمَّا المظالم.. فقضيناها. فإذا قال المنادي: هذا الخطاب يُطْمِعُ الكلَّ قالوا: نحن عباده، فإذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

أيِسَ الكفارُ، وقَوِيَ رجاءُ المسلمين.

قوله جل ذكره: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾.

في رياض الجنة، وترْتَعون.

ويقال: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ من لذة السماع.

قوله جل ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

العُبَّاد لهم فيها ما تشتهي أنفُسهم لأنهم قاسوا في الدنيا ـ بحُكم المجاهدات ـ الجوعَ والعطشَ، وتحمَّلوا وجُوهَ المشاقِّ، فيُجازون في الجنةَ بوجوهٍ من الثواب.

وأمَّا أهل المعرفة والمحبّون فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله لطول ما

---

(١) يصلح هذا يُضاف إلى حديثه ـ أي القشيري ـ عن الصحبة بالرسالة ص٢٩٤.

قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي يقال لهم ـ والخطاب للمطيعين غداً ـ: أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم؛ والصدق في أحوالكم:

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

من الفاكهة الكثيرة تأكلون، وفي الأُنس تتقبلون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

هؤلاء هم الكفار المشركون، فهم أهل الخلود، لا يُفتَّرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّف.

وأمّا أهل التوحيد: فقد يكون منهم قومٌ في النار. ولكن لا يخلدون فيها. ودليلُ الخطابِ يقتضي أنه يُفتَّرُ عنهم العذاب. ورد في الخبر الصحيح: أنه لا يُميتهم الحقُّ ـ سبحانه ـ إماتةً إلى أن يُخرِجَهم من النار ـ والميت لا يحسُّ ولا يتألم[١].

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

الإبلاس[٢] من الخيبة، ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها، وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهي حسابهم.

ولقد قال الشيوخ: إنَّ حالَ المؤمن في النار ـ من وجهٍ ـ أرْوَحُ لقلبه من حاله في الدنيا؛ فاليومَ ـ خوفُ الهلاكِ، وغداً ـ يقينُ النجاة، وأنشدوا:

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها ... متوقِّعٌ لقواصمِ الظَّهْرِ

وفضيلةُ البلوى تَرَقُّبُ أهلِها ... ـ عقبَ الرجاء ـ مودةَ الدهر

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا الخطاب يُشْبِهُ كلمة العُذْر ـ وإن جلّ قَدْرُه ـ سبحانه ـ عن ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

لو قالوا: «يا مَلِك» لعلَّ أقوالهم كانت أقربَ إلى الإجابة، ولكنَّ الأجنبيةَ حالت بينهم وبين ذلك، فكان الجوابُ عليهم:

---

(١) الحديث: «فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً [. . .]». أخرجه مسلم (إيمان ٣٠٦)، وابن ماجه (زهد ٣٧).

(٢) أبلس فلان: سكت غمًّا (اللسان ٦/ ٣٠ مادة: بلس).

﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فيها. . نُصِحْتم فلم تنتصحوا، ولم تقبلوا القولَ في حينه، وكان أكثرهم للحق كارهين.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾.

بل أمورُهم مُنْتَقَضةٌ عليهم؛ فلا يتمشّى لهم شيء مما دبَّروه، ولا يرتفع لهم أمرٌ على نحو ما قدَّروه ـ وهذه الحالُ أوضحُ دليل على إثبات الصانع.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

إنما خوَّفهم بسماع المَلَك، وبكتابتهم أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله ـ سبحانه، ولو كان لهم خبرٌ عن الله لما خَوَّفهم بغير الله، ومَنْ عَلِمَ أنَّ أعمالَه تُكْتَبُ عليه، وأنه يُطالَبُ بمقتضى ذلك ـ قَلَّ إلمامُه بما يخاف أن يُسألَ عنه. .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾.

أي إن كان في ضميركم وفي حُكْمِكم وفي اعتقادكم أنَّ للرحمن ولداً فأنا أوَّلُ مَنْ يستنكِفُ من هذه القالة.

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

تنزَّه الله تنزيهاً، وتقدَّس تقديساً عمَّا قالوه. وفي هذه الآيات وأمثالِها دليلٌ على جوازِ حكاية قول المبتدعة ـ فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود ـ قصداً للردِّ عليهم، وإخباراً بتقبيح أقوالهم، وبطلانِ مزاعمهم.

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

إذ ليس يفوت أمرُهم، وهم لا محالة سيلقون صغرهم.

وفي هذا دليلٌ على أنه لا ينبغي للعبد أن يَغْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ العواقبَ غيرُ مأمونة.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

المعبودُ ـ في السماء ـ الله، والمقصودُ ـ في طلب الحوائج في الأرض ـ الله.

أهلُ السماءِ لا يعبدون غير الله، وأهل الأرض لا يَقْضِي حوائجهم غير الله.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في إمهاله للعُصاة، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالِ العِباد.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكبَّرَ الذي له مُلْكُ السموات والأرض.

السمواتُ والأرضُ بقدرته تظهر. . لا هو بظهورها يتعزَّز.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي شهد ـ اليوم ـ بالتوحيد، فيثبت له الحقُّ حقّ الشفاعة. وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

فكيف لا يعتبرون؟ وكيف يتكبَّرون عن طاعة الله.

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي يعلم علم الساعة ويعلم **﴿قيله يا رب﴾**.

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أمهِلْهم، وقل لكم مني سلامٌ.. ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون.

سورة الدّخان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ ذَكَرَها نال في الدنيا والعُقْبى بهجتَه، ومَنْ عَرَفَها بَذَلَ في طلبها مُهْجَتَه.

كلمةٌ إذا استولت على قلبٍ عَطَّلَته عن كلِّ شُغْل، كلمةٌ إذا واظَبَ على ذِكْرِها عَبْد أمَّنَتْه من كلِّ هَوْل.

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

الحاء تشير إلى حقِّه؛ والميم تشير إلى محبته. ومعناه: بحقي وبمحبتي لِعبادي، وبكتابي العزيز إليهم: إنِّي لا أُعذِّبُ أهل معرفتي بفرقتي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾: قيل هي ليلة القَدْر، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصَّك. أنْزَلَ القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلَّ سَنَةٍ بمقدار ما كان جبريلُ ينزل به على الرسول ﷺ.

وسمَّاها: ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ لأنها ليلة افتتاح الوصلة. وأشدُّ الليالي بركةً ليلةٌ يكون العبدُ فيها حاضراً، بقلبه، مشاهداً لربِّه، يتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة، ويجد فيها نسيم القربة.

وأحوال هذه الطائفة في لياليهم مختلفة، كما قالوا:

لا أظْلِمُ الليلَ ولا أدَّعي … أنَّ نجومَ الليل ليست تزولُ
لَيْلِي كما شاءت: قصيرٌ إذا … جادَتْ، وإن ضنَّتْ فَلَيْلِي طويلُ

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يكتب من أمِّ الكتاب في هذه الليلة ما يحل في السنة كلِّها من أقسام الحوادث في الخير والشرِّ، في المحن والمِنَنِ، في النصر والهزيمة، في الخصب والقحط.

ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجدب، والوصل والفصل، والوفاق والخلاف، والتوفيق والخذلان، والقبض والبسط. فكم مِنْ عبدٍ ينزل له الحكم والقضاء بالبُعْدِ والشقاء، وآخر ينزل حكمه بالرِّفد والوفاء.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ : وهي الرسولُ ـ ﷺ، قال صلوات الله عليه : «أنا رحمة مهداة»[(١)] .

ويقال : ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ رحمةً لنفوسُ أوليائنا بالتوفيق، ولقلوبهم بالتحقيق .

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ : «السميع» لأنين المشتاقين، «العليم» بحنين المحبين .

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ .

مالك السموات والأرضين، ومالك ما بينهما ـ وتدخل في ذلك أكسابُ العباد .

وتَمَلُّكُها بمعنى القدرة عليها، وإذا حَصَلَ مقدورٌ في الوجود دَلَّ على أنه مفعولُه؛ لأن معنى الفعل مقدورٌ وجِدَ .

قوله جل ذكره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ .

هذه الكلمة فيها نَفْيُ ما أثبتوه بجهلهم، وإثباتُ ما نَفَوْه بجحدهم .

﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ : مُرَبّي أصْلَكُم ونَسْلَكُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ .

اللَّعِبُ فِعْلٌ يجري على غير ترتيبٍ تشبيهاً باللُّعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص؛ فَوَصَفَ المنافقَ باللَّعِبِ؛ وذلك لتردُّدِه وتحيُّرِه نتيجةَ شكِّه في عقيدته .

قوله جل ذكره: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ .

هذا من أشراط الساعة؛ إذ يتقدم عليها .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أي تتم هنا في هذه الدنيا) فيومُهم الذي تأتي السماء فيه بدخان مبين هو يومُ غيبةِ الأحباب، وانسداد ما كان مفتوحاً من الأبوابِ، أبوابِ الأُنسِ بالأحباب وفي معناه قالوا :

فما جانبُ الدنيا بسَهْلٍ ولا الضُّحى ... بطَلْقٍ ولا ماءُ الحياةِ ببارِدِ

قوله جل ذكره: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ .

وعذابُ هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيمٌ في الغالب، وهو عذابٌ مُسْتَعذَبٌ، أولئك يقولون :

﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ .

وهؤلاء يستزيدون ـ على العكس من الخَلْق ـ العذاب، وفي ذلك يقول قائلهم :

فكلُّ مآربي قد نِلْتُ منها ... سوى ملذوذِ وجدي بالعذاب

فهم يسألون البلاءَ والخَلْقُ يستكشفونه، ويقولون :

أنت البلاءُ فكيف أرجو كَشْفَه ... إنَّ البلاءَ إذا فَقَدْتُ بلائي

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣١٩٩٥)، والقرطبي في (التفسير ٤/ ٦٣).

قوله جل ذكره: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

إن خالفوا دواعي قلوبهم من الخواطر[١] التي تَرِدُ من الحقِّ عليهم عوقبوا ـ في الوقت بما لا يتَّسعُ لهم ويُسْعِفهم، فإذا أخذوا في الاستغاثة يقال لهم: أنَّى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول على قلوبكم فخالفتم[٢]؟!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

حيث نورثكم حزناً طويلاً، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلاً.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

فتَنَهم بعد ما أصَرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة[٣] عنودهم.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل، وأن يستبصروا، واستنفرهم لله، وأظهر الحُجَّةَ من قِبَلِ الله[٤].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

أمَرَه بأن يَسْرِيَ بعباده المؤمنين، وعرَّفهم أنهم سيُنْقَذون، وأنَّ عدوَّهم ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾.

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم.

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

وأسْكنَّا قوماً آخرين في منازلهم ودورهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

لم يكن لهم من القَدْرِ والخَطَرِ ما يتحرك في العالَم بِسببَهم ساكنٌ، أو يسكن متحركٌ فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ، ولا الغبراءُ لغيبتهم اخضَّرتْ. لم يبقَ منهم عينٌ

---

(١) انظر حديث القشيري عن الخواطر في الرسالة ص٨٣، ٨٥.

(٢) الآية (١٤) لم ترد.

(٣) نفر من الشيء: فزع وانقبض غير راضٍ به، ونفرت المرأة من زوجها: أعرضت وصدّت ونفر من المكان: تركه إلى غيره.

(٤) الآيات من (١٩ حتى ٢٢) لم ترد.

ولا أثر، ولم يظهر مِنْ قِبَلِهم على قلبِ أحدٍ من عبادِنا أثرٌ. وكيف تبكي السماءُ لفَقْدِ من لم تستبشر به من قَبْلُ؟ بعكس المؤمن الذي تُسَرُّ السماءُ بصعودِ عمله إليها، فإنها تبكي عند غيابه وفَقْدِه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

نجّاهم، وأقمى عدوَّهم، وأهلكه.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي عَلِمنا ما يحتقبون من أوزارهم، فرفعنا ـ باختيارنا ـ من أقدارِهم ما وَضَعَه فِعْلُهم وتدنسُّهم بأوضارهم.

ويقال: «على علم منا» بأحوالهم أنهم يُؤثِرون أمرنا على كل شيء.

ويقال: «على علمٍ منا» بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا.

ويقال: «على علْم منا» بما نودع عندهم من أسرارنا، وما نكاشفهم به من حقائق حقًّا.

قوله جل ذكره: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾.

من مطالبته بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الكَدَرِ والعناء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

اقترح أبو جهلٍ على النبي ـ ﷺ ـ أن يحييَ لهم نَفْساً:

«لتخبرنا: هل أنت صادق أم لا؟» فأخبر الله ـ سبحانه ـ أنهم اقترحوا هذا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وإظهار ما أزاح لهم من العُذْر:

ثم قال جل ذكره: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«تُبّع» هو ملك لليمن، وكان مسلماً، وكان في قومه كثرة، وأهلك الله سبحانه قومَه على كثرة عددهم، وكمال قُوَّتِهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ما خلقناهما إلا بالحقّ، بالحُكْمِ الحقّ؛ وبالأمرِ الحقّ.. «فأنا مُحِقٌّ في خَلْقِهما»: أي كان لي خَلْقُهما.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

يومئذٍ لا يُغْني ناصرٌ عن ناصر ولا حميمٌ عن حميم، ولا نسيبٌ عن نسيبٍ.. شيئاً. ولا ينالهم نصرٌ إلا من رَحِمَه الله؛ وبفَضْلِه ونِعْمته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾.

«الأثيم» مرتكبُ الذنوب. «المهل» المذاب. «الحميم»: الماء الحار.

قوله جل ذكره: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾.

ادفعوا به إلى وسط الحميم. ويقال له:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

أنت كذلك عند قومك، ولكنك عندنا ذليلٌ مَهينٌ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

آمنين من المحن من جميع الوجوه، لِباسُهم من حرير، وفراشُهم من سندسٍ واستبرق(١)، «متقابلين»: لا يبرحون ولا يبغون عنها حِوَلا(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

تُباح لهم صُحْبَتُهن، ولا يكون في الجنة عقد تزويج ولا طلاقٌ، ويمكِّن الوليُّ بهذه الأوصاف من هذه الألطاف. ثم قد يُخْتطفُ قومٌ من بين هذه الأسباب، فيتحررون عن هذه الجملة؛ فكما أنهم في الدنيا مُختَطَفُون عن كلِّ العلائق فإنهم في الآخرة تطمع الحورُ العينُ في صحبتهم فيستلبهم الحقُّ عن كلِّ شيء.

الزاهدُ في الدنيا يحميه منها، والعارفُ في الجنة يحميه من الجنة(٣).

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

الموتة الأولى هي بقبض أرواحهم في الدنيا، ويقيهم الله في الآخرة العذاب بفضله، وذلك هو الظَّفَرُ بالبغية، ونجاح السُّؤل(٤).

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ﴾.

يا محمد، ليتذكر به أهلُك، فارتقِبْ العواقب تَرَ العجائب. إنهم يرتقبون، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون(٥).

---

(١) السندس: ضرب من رقيق الديباج أو الحرير المنسوج الذي يتلون ألواناً والاستبرق: الديباج الغليظ أو ثياب من حرير وذهب (مع).

(٢) الآية (٥٣) لم ترد.

(٣) الآية (٥٥) لم ترد.

(٤) الآية (٥٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥٩) لم ترد.

سورة الجاثية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» باسم مَلِكٍ لا يستظهر بجيشه، أحدٍ لا يستمسك بعيشه، جبارٍ ارتدى بكبريائه، قهَّارٍ اتصف بعزِّ سنائه.

«بسم الله» باسم كريم صَمَدَ، لا يستغرقُ وجودَه أمَد، أبديٌّ عظيمِ أحَد، لا يوجَدُ من دونه مَفَرٌّ ولا ملتحَد.

قوله جل ذكره: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: في جلاله، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: في أفعاله.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: في آزاله، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: في لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

شواهد الربوبية لائحةٌ، وأدلةُ الإلهية واضحةٌ؛ فَمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة، ووضعَ سِرَّه في محالِّ العِبرة حَظِيَ ـ لا محالةَ ـ بحقائق الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إذا أنعم العبدُ نَظَرَه في استواء قدِّه وقامته، واستكمال عقله وتمام تمييزه، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب؛ في أجزائها وأعضائها.. ثم وقف على اختصاص وامتياز بني آدم من بين البريَّة من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم، ثم في الإيمان والعرفان ووجوهِ خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة في فنون الإحسان ـ عَرَفَ تخصُّصَهم بمناقبهم، وانفرادَهم بفضائلهم، فاستيقن أن الله كَرَّمهم، وعلى كثيرٍ من المخلوقات قدَّمَهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

جَعَلَ اللَّهُ العلومَ الدينية كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل، مُحَقَّقةً بالشواهد. فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم؛ فاليومَ في ظلمة الحيرة والتقليد، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

فَمَنْ لا يؤمن بها فبأي حديثٍ يؤمن؟ ومن أي أصل يستمد بعده؟ ومن أي بَحْرٍ في التحقيق يغترف؟ هيهات! ما بقي للإشكال في هذا مجال.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

كلُّ صامتٍ ناطقٌ، يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم.

فَمَنْ استمع بسمع الفهم، واستبصر بنور التوحيد فاز بذُخْرِ الدارين، وتصدَّى لِعِزِّ المنزلين. ومَنْ تصامم بحكم الغفلة وقع في وهدة الجهل، ووُسِم بكيِّ الهَجْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قابله بالعناد، وتأوَّله عَلَى ما يقع له من وجوه المراد مِنْ دون تصحيحِ بإسناد... فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: مُذِلٌ.

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ، ولا يتخالجه منها شكٌّ فيما هو به من حاله... فإذا استهان بها وقع في ذُلِّ الحجبة وهوانِ الفرقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فعند هذه الفترة، وفي وقت هذه المحنة فلا عُذْرَ يُقْبَلُ منهم، ولا خطابَ يُسْمَعُ عنهم، ولهم عذابٌ متصل، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدكَ للبكا ... فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ[1]

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

عندما يركبون البحرَ فلربما تَسْلَمُ السفينةُ ولربما تغرق.

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي به رياح العناية، وأَشْرِعَةُ التوكل مرفوعةٌ، والسُّبُلُ في بحر اليقين واضحة. وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينةُ ناجيةٌ. أمَّا إنْ هبَّت نكباتُ الفتنةِ فعندئذٍ لا يبْقى بيد الملَّاحِ شيءٌ، والمقاديرُ غالبةٌ، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ.

---

(١) الآية (١١) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها ـ كلُّه منه سبحانه؛ فما من شيءٍ من الأعيان الظاهرة إلّا ـ ومن وجهٍ ـ للإنسان به انتفاع.. وكلها منه سبحانه؛ فالسماءُ لهم بناء، والأرضُ لهم مهاد.. إلى غير ذلك. ومِنَ الغَبْنِ أن يستسخرَك ما هو مُسَخَّرٌ لك! وَلْيتأملِ العبدُ كلَّ شيءٍ.. كيف إنْ كان خَلَلٌ في شيءٍ منها ماذا يمكن أن يكون؟! فلولا الشمسُ.. كيف كان يمكن أن يتصرَّف في النهار؟ ولم لم يكن الليلُ كيف كان يسكن بالليل؟ ولو لم يكن القمر.. كيف كان يهتدي إلى الحساب والآجال؟... إلى غير ذلك من جميع المخلوقات.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

نَدَبَهم إلى حُسْنِ الخُلق، وجميلِ العِشْرَة، والتجاوزِ عن الجهل، والتنقي من كدورات البشرية. ومقتضياتِ الشُّحِّ.

وَبيَّنَ أَنَّ اللَّهَ ـ سبحانه ـ لا يفوته أحدٌ. فَمَنْ أراد أَنْ يعرفَ كيف يحفظ أولياءَه، وكيف يُدَمِّر أعداءَه. فلْيَصبِرْ أياماً قلائلَ ليَعْلَمَ كيف صارت عواقبُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ عَمِلَ صالحاً فله مَهْناه، ومن ارتكب سيئةً قاسى بلواه.. ثم مرجعه إلى مولاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

كَرَّر في غير موضع ذِكْرِ موسى وذِكْرَ بني إسرائيل.. بعضه على الحملة وبعضه على التفصيل. وهنا أجْمَلَ في هذا الموضِع، ثم عقبه حديث نبيِّنا ﷺ[1]، فقال:

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أفردناك بلطائفَ فاعرفْها، وسَنَنَّا لكَ طرائقَ فاسلُكْها، وأثبتنا لك حقائقَ فلا تتجاوزْها، ولا تجنحْ إلى متابعة غيرك:

---

(١) الآية (١٧) لم ترد.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ .

إن أرادَ بكَ نعمةً فلا يمنعها أحدٌ، وإن أراد بك فتنةً فلا يَصْرِفها عنك أحدٌ. فلا تُعَلِّقْ بمخلوقٍ فكْرَك، ولا تتوجهْ بضميرك إلى شيء، وثِقْ بربِّك، وتوكَّلْ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

أنوارُ البصيرةِ إذا تلألأتْ انكشفت دونها تهمةُ التجويز.

ونَظَرُ الناسِ على مراتب: فَمِنْ ناظرٍ بنور نجومه ـ وهو صاحب عقل، ومن ناظرٍ بنو فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقَوِّيه لَوْحٌ ـ ولكنه من وراء السِّرّ[١]، ومن ناظرٍ بيقين عِلْمٍ بحكم برهانٍ وشَرْطِ فكْرٍ، ومِنْ ناظرٍ بعين إيمان بوصف اتِّباع، ومن ناظرٍ بنور بصيرةٍ هو على نهار، وشمسُه طالعة وسماؤه من السحاب مصحية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

أَمَنْ خفضناه في حضيض الضَّعةِ كَمَنْ رفعناه إلى أعالي المَنَعَة؟

أَمَنْ أخذنا بيده ورحمناه كَمَنْ داسَه الخذلانُ فرجمناه؟

أَمَنْ وهبناه بَسْطَ وقتٍ وأُنْسَ حالٍ ورَوْحَ لُطْفٍ حتى خَصَصْناه ورَقَّيْناه، ثم قَرَّبْناه وأَدْنَيْناه كَمَنْ ترك جُدَه واستفراغَ وسعه وإسبالَ دَمْعِه واحتراق قلبه.. فما أنعشناه[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ .

مَنْ لم يَسْلُكْ سبيلَ الاتباع، ولم يستوفِ أحكامَ الرياضة، ولم يَنْسلِخْ عن هواه بالكليَّة، ولم يؤدِّبْه إمامٌ مُقْتَدَىً فهو ينجرفُ في كل وَهْدَةٍ، ويهيمُ في كلِّ ضلالة، ويضلُّ في كل فجٍّ، خسرانُه أكثر من ربْحِه!! أولئك في ضلالٍ بعيد؛ يعملون القُرَبَ على ما يقع لهم من نشاطِ نفوسهم، زمامُهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر.. اُسْتدْرِجُوا وما يَشْعُرون!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .

لم يَعْتَبِروا بما وجدوا عليه خَلَفَهم وسَلَفَهم، وأَزْجَوْا في البهيمية عَيْشَهم

(١) انظر حديث القشيري عن الفراسة برسالته ص٢٣١ ـ ٢٤١.
(٢) الآية (٢٢) لم ترد.

وعُمْرَهم، وأعفوا عن كَدِّ الفكرة قلوبهم... فلا بالعلم استبصروا، ولا من التحقيق استمدوا. رأسُ مالِهم الظنُّ ـ وهم غافلون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

طلبوا إحياءَ موتاهم، وسوف يَرَوْن ما استبعدوا.

ثم أخبر أنَّ مُلْكَ السمواتِ والأرضِ لله، وإذا أقام القيامةَ يُحْشَرُ أصحابُ البطلان، فإذا جاءهم يومُ الخصام:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كلٌّ بحسابه مطالَبٌ... فأمَّا الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا، وأمَّا الذين كفروا فهلكوا وبادوا.. ويقال لهم: أأنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقباكم كَذَّبتم مولاكم؟ فاليومَ ـ كما نسيتمونا ـ ننساكم، والنارُ مأواكم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

لله الحمدُ على ما يُبْدي ويُنْشي، ويحيي ويُفْني، ويُجْرِي ويُمْضِي.. إذ الحكْمُ لله، والكبرياءُ لله، والعظمةُ والسَّناءُ لله، والرفعة والبهاءُ لله.

---

(١) الآيات من (٢٩ حتى ٣٥) لم ترد.

سورة الأحقاف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ للقلوب سالبة، للعقول غالبة، للمطيعين واهبة، للعارفين ناهبة.. فالذين يهبهم فلهم لُطْفُه، والذين ينهبهم فَمَنْ مَحَقه فهو عنه خَلَفُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

حَمَيْتُ قلوبَ أهلِ عنايتي فَصَرَفْتُ عنها خواطرَ التجويز، وَثَبَّتُها في مشاهدِ اليقينِ بنور التحقيق؛ فلاحت فيها شواهدُ البرهان، فأضَفْنا إليها لطائفَ الإحسان؛ فكَمُلَ منالُها من عين الوصلة، وغذيناهم بنسيم الأُنْس في ساحات القربة.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: المُعزّ للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾، المُحْكِم لكتابِه عن التبديل والتحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

الكافرون مُعْرِضُون عن موضع الإنذار، مقيمون على حَدِّ الإصرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أروني.. أي أثرٍ فيهم في الملك، أو القدرة على النفع والضر؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فأَظْهِرُوها، أو دلالة فَبَيِّنوها.. وإذا قد عَجَزْتُم عن ذلك فهلّا رجعتم عن غيّكم وأقلعتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾.

مَنْ أشدُّ ضلالاً مِمَّنْ عَبَدَ الجمادَ الذي ليس له حياة ولا له في النفع أو الضر إثبات؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوةُ بين الأصنام وعابديها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

رموا رُسُلَنا بالسِّحر ثم بالافتراء والمكر.. قُلْ ـ يا محمد ـ كفى بالله بيني وبينكم شهيداً؛ أنتم أشركتم به، وأنا أخلصت له توحيداً. وما كنت بدعاً من الرسل؛ فلستُ بأول رسولٍ أُرْسِل، ولا بغير ما جاءوا به من أصول التوحيد جئتُ، إنما أمرتكم بالإخلاص في التوحيد، والصدقِ في العبودية، والدعاءِ إلى محاسن الأخلاق[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وفي الآية دليلٌ على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا: «إيلامُ البريء قبيحٌ في العقل». لأنه لو لم يَجُز ذلك لكان يقول: أَعْلَمُ ـ قطعاً ـ أني رسول الله، وأني معصومٌ... فلا محالةَ يغفر لي، ولكنه قال: وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكم؛ لِيُعْلَمَ أن الأمرَ أمرُه، والحكمَ حكمُه، وله أن يفعلَ بعباده ما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

تبيَّنَ له أنه لا عُذْرَ لهم بحال، ولا أمانَ لهم من عقوبةِ الله. وما يستروحون إليه من حُجَجِهم عند أنفسهم كلُّها ـ في التحقيق ـ باطلٌ. وأخبر أن الكفار قالوا: لو كان هذا الذي يقوله من الحشر والنشر حقٌّ لم تتقاصر رتبتُنا عند الله عن رتبة أحدٍ، ولتَقَدَّمنا ـ في الاستحقاق ـ على الكُلِّ. ولمَّا لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرَّحوا: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

ولقد بَعَثَ اللَّهُ أنبياءَه ـ عليهم السلام ـ وأنزل عليهم الكتب، وبيَّنَ في كلِّ كتابٍ، وعلى لسانِ كلِّ رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً، ولكن القومَ الذين في عصر نبيِّنا ـ ﷺ ـ كتموه، وحسدوه[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

مضى تفسيرُ الاستقامة، وإنَّ مَنْ خرج على الإيمان والاستقامة حَظِيَ بكلِّ كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة.

---

(١) الآية (٨) لم ترد. (٢) الآية (١٢) لم ترد.

وقيل: السين في «الاستقامة» سين الطَّلَب؛ وإن المستقيم هو الذي يبتهل إلى الله تعالى في أن يُقيمَه على الحق، ويُثبِّته على الصدق[(١)].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾.

أَمَرَ الإنسانَ برعاية حقِّ والديه على جهة الاحترام، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام، وإذا لم يُحْسِنْ الإنسانُ حُرْمةَ مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد. ولو لم يكن في هذا الباب إلا قوله ـ ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»[(٢)] لكان ذلك كافياً. ورعايةُ حق الوالد من حيث الاحترام، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام. ووَعَدَ اللَّهُ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جلَّ ذكره:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

فقبولُ الطاعةِ وغفران الزَّلَّة مشروطان ببرِّ الوالدين. وقد ذمَّ اللَّهُ ـ سبحانه ـ الذي يتصف في حقهما بالتأفُّفِ، وفي ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أي تعنُّف، وعلى أنَّ الذي يَسْلكُ ذلك يكونُ من أهل الخسران، وبالتالي يكون ناقصَ الإيمان.

وسبيلُ العبدِ في رعاية حق الوالدين أن يُصْلِحِ ما بينه وبين الله، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره ـ على العموم، وأهله ـ على الخصوص.

وشَرُّ خصَال الولد في رعاية حق والديه أَنْ يتبرَّم بطول حياتهما، ويتأذَّى بما يحفظ من حقهما. وعن قريب يموت الأصلُ ويبقى النسلُ، ولا بدَّ من أن يتبع النسلُ الأصلَ، وقد قالوا في هذا المعنى:

رويدك إن الدهرَ فيه كفايةٌ لتفريق ذات البيْنِ.. فانتظر الدهرا[(٣)]

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

سبيلُ العبد ألا ينسى في كل حالٍ معبودَه، وأَنْ يتذكرَ أنه معه في همِّه وسروره،

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ١٨٩٩)، والحاكم في (المستدرك ٤/ ١٥٢)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٣٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٣٠)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥٢٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٨٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٣٢٢).

(٣) الآيات /١٧، ١٨، ١٩) لم ترد.

وفي مناجاته عند رخائه وبلائه. فإن اتفق أنْ حَصَلَ له أُنْسٌ، وغَلَبَ عليه رجاءٌ وبسطٌ ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أو مَسّهُ خوف. . فليخاطبْ ربَّه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ قيل له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ[١] وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أخبر[٢] بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب، وتوجّه عليهم من العتاب، وأَخْذِهم بأليم العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

فلم يُغْنِ عنهم ما آتيناهم. . وانظروا كيف أهلكناهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

كان رسولُ الله ﷺ مبعوثاً إلى الجنّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس. وإن قوماً أتوه ليلة الجن وآمنوا به، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم، وآمن قومٌ منهم؛ فاليومَ في الجن مؤمنون، وفيهم كافرون.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ الصيحةُ على الباب وفوق البساط غيبةٌ؛ ولهذا لما حضر الجنُّ بساطَ خدمته - ﷺ - تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب، وقالوا لما حضروا بساطَه: ﴿أَنصِتُوا﴾، فأهلُ الحضور صفتُهم الذبولُ والسكونُ، والهيبة والوقار. والثورانُ أو الإنزعاجُ يدل على غيبة أو قِلّةِ تيقُّظٍ أو نقصان اطلاع. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يعني الوحي ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وأخبروهم بما رأوه وسمعوه[٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

يقال الإجابة على ضربين: إجابةٌ لله، وإجابة للداعي؛ فإجابة الداعي بشهود الوساطة - وهو الرسول ﷺ -. وإجابةُ الله بالجهرِ إذا بَلَغَتْهُ الرسالةُ على لسان السفير، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفاتُ من الواردات على القلب؛ فمستجيبٌ بنفسه ومستجيبٌ

---

(١) الأحقاف (ج) الحقف: من الرمل المعوج. وقيل: الأحقاف: ديار عاد وقيل: واحدها حقف وهو المستطيل المشرف. وقيل: الأحقاف في القرآن: جبل محيط بالدنيا من زبرجدة خضراء تلتهب يوم القيامة فتحشر الناس من كل أفق. (اللسان ٩/ ٥٢ مادة: حقف).

(٢) الآيات من (٢٢ حتى ٢٨) لم ترد.

(٣) الآية (٣٠) لم ترد.

بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرِّه. ومن توقف عن دعاء الداعي إيَّاه، ولـم يبادز بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخاطب به[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الرؤيةُ هنا بمعنى العلم.

﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾ أي ولم يعجز ولم يَضْعفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾.

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة:

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

جزاءً لكم على كُفْركم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

أولو الجد والصبر والحزم. وجاء في التفسير أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ. وقيل: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام. وقيل: منهم يعقوب وأيوب ويونس.

والصبرُ هو الوقوفُ لحُكْم الله، والثباتُ من غير بثٍ ولا استكراهٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾.

ويقال مُدّةُ الخلْقِ: من مبتدأ وقتهم إلى مُنتَهى آجالهم بالإضافة إلى الأزليّة كلحظةٍ بل هي أقلُّ؛ إذ الأزلُ لا ابتداء له ولا انتهاء.. وأي خَطَرٍ لما حصل في لحظةٍ.. خيراً كان أو شرّاً؟!

---

(١) الآية (٣٢) لم ترد.

سورة محمد ﷺ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

مَنْ ذَكَرَ «بسم اللَّهِ» جَلَّتْ رُتْبَتُه، ومَنْ عَرَفَ «بسم الله» صَفَتْ حالتُه، ومَن أحبَّ «بسم الله» أشلكت قصتُه، ومَن صَحِبَ «بسم الله» امتحقت أَنِّيَتُه، وتلاشت ـ بالكلية ـ جُمْلَتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: امتنعوا، وصَدُّوا فَمُنِعُوا؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحَجْبَةَ والغيبة.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي أحبطها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما نُزِّلَ على محمد، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

أصلح حالَهم، فالكفرُ للأعمالِ مُحْبِطٌ، والإيمانُ للتخليد مُسْقِط.

ويقال: الذين اشتغلوا بطاعةِ اللَّهِ، ولم يعملوا شيئاً ما خَالَفَ اللَّهَ ـ فلا محالةَ ـ نقوم بكفاية اشتغالهم بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

أي يضرب أمثالَ هؤلاء لحسناتهم، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم.

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقة السُّنَّةِ، ورعاية حقوق الله، وإيثار رضاه، والقيام بطاعته ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداع، والعملِ بالهوى، وإيثارِ الحظوظ، وارتكابِ المعصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالعدوِّ فالعفو عنهم وتَرْكُ المبالغةِ في التشديد عليهم ـ للندم مُوجِبٌ، وللفرصةِ تضييعٌ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسِهم، واستئصالُ أصولِهم، واقتلاعُ شَجَرِهم من أصله.

وكذلك العبدُ إذا ظفر بنفسه فلا ينبغي أن يُبْقِيَ بعد انتفاش شوكها بقيةً من الحياة، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّتْ سُمَّها فيه.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطةً أو فائدةً؛ مثل إفراجِ الكفَّارِ عن قومٍ من المسلمين، أو بسبب ما يؤخذ من الفِداء.. وأمثال هذا، فحينئذٍ ذلك مُسَلّمٌ على ما يراه الإمام.

كذلك حال المجاهدة مع النَّفس: حيث يكون في إغفاءِ ساعةٍ أو في إفطارِ يوم ترويحٌ للنفس من الكَدِّ، وتقويةٌ على الجهد فيما يستقبل من الأمر ـ فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصوابُ من شيخ المريد، أو فتوى لسانِ الوقت، أو فراسة صاحب المجاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

إذا قُتِل أحدٌ في سبيل الحقِّ تولّى وَرَثَةَ المقتولِ بأحسنَ مِنْ تولية المقتول.

وكذلك يَرْفَعُ درجاتِه؛ فيُعْظِمُ ثوابَه، ويُكْرِمُ مآبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

نصرةُ الله من العبد نصرةُ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه.

ونصرةُ اللّهِ للعبد بإعلاء كلمته، وقَمْعِ أعداء الدين ببركاتِ سَعْيه وهمَّتِه.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ بإدامةِ التوفيقِ لئلا ينهزم من ضولةِ أعداءِ الدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

تعساً لهم: لعناً وطرداً، وقَمْعاً وبُعداً!

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: هَتَكَ أستارَهم، وأَظْهَرَ للمؤمنين أسرارَهم، وأَخْمَدَ نارَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقماهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

المولى هنا بمعنى الناصر؛ فاللّهُ ناصرٌ للذين آمنوا، وأمَّا الكافرون فلا ناصرَ لهم.

أو المولى من الموالاة وهي ضد المعاداة، فيكون بمعنى المحب؛ فهو مولى الذين آمنوا أي مُحِبُّهم، وأما الكافرون فلا يحبهم الله.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويصح أن يقالَ إنَّ هذه أرجى آية في القرآن؛ ذلك بأنه سبحانه يقول: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: مولى الزهَّادِ والعُبَّادِ وأصحاب الأورادِ والاجتهادِ؛ فالمؤمنُ - وإنْ كان عاصياً - من جملة الذين آمنوا، (لا سيما و «آمنوا» فعل، والفعل لا عمومَ له).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

مضى الكلامُ في هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

الأنعامُ تأكل من أي موضع بلا تمييز، وكذلك الكافرُ لا تمييزَ له بين الحلال والحرام. [كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل، وكذلك الكافر، وفي الخبر: «إنه يأكل في سبعة أمعاء»[١]. أمّا المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر: «إن كان ولا بُد فثُلُثٌ للطعام وثُلُثٌ للشراب وثلث للنفس»[٢] و «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه»][٣].

ويقال: الأنعامُ تأكل على الغفلة؛ فَمَنْ كان في حال أكله ناسياً ربَّه فأكْلُه كأكلِ الأنعام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: يعني بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية في الأعصر الخالية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾.

«البيِّنة»: الضياء والحُجَّة، والاستبصار بواضح المحجة: فالعلماءُ في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياءِ بيانهم؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبْصِرون، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون.

---

(١) أخرجه الموطأ (صفة النبي ٩، ١٠)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢١، ٤٣، ٧٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه (أطعمة ٥٠)، والترمذي (زهد ٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٨٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ١٣٢)، والدارمي في (السنن ٢١٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٨٧)، والقاضي عياض في (الشفا ١/ ١٨٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٨٨، ١٣/ ٢٤٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/ ٢٧٨)، وابن الجوزي في (تلبيس إبليس ٢١٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء، فلهم شرابُ الوفاء، ثم شرابُ الصفاء، ثم شرابُ الولاء، ثم شرابٌ حالَ اللقاء.

ولكلٍّ من هذه الأشربة عَمَلٌ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو؛ فَمَنْ تحسَّى شرابَ الوفاء لم ينظر إلى أحدٍ في أيام غيبته من أحبابه:

وما سَرَّ صدري مُنْذ شطَّ بك النوى أنيسٌ ولا كأس ولا متصرف

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الصفاء خَلُصَ له عن كل شَوْبٍ، فلا كدورةَ في عهده، وهو في كلِّ وقتٍ صافٍ عن نَفْسِه، خالٍ من مُطَالَباته، قائمٌ بلا شُغلٍ - في الدنيا والآخرة - ولا أرَبٍ.

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الولاء عَدِمَ فيه القرار، ولم يَغِبْ بِسرِّه لحظةً في ليلٍ أو نهار.

ومَنْ شَرِبَ في حال اللقاء أَنِسَ على الدوام ببقائه؛ فلم يطلب - مع بقائه - شيئاً آخرَ من عطائه؛ لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبريائه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل اللَّهُ؛ لِمَا فيه من افتضاحِهم.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

﴿اهْتَدَوْا﴾: بأنواع المجاهدات، «فزادهم هدًى»: بأنوار المشاهدات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بتأمل البرهان، «فزادهم هدى» بِرَوح البيان.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بعلم اليقين، «فزادهم هدًى»: بحقِّ اليقين.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بآداب المناجاة، «فزادهم هدًى»: بالنجاة ورَفْع الدرجات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: إلى ما فيه من الحقِّ ولم يختلفوا في أنه الحق، «فزادهم هدًى» بالاستقامة على طرق الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

كان عالماً بأنه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فأمره بالثبات عليها؛ قال (ص): «أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ٣١، ٩/ ١٢٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ١٢٢، ١٨١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ١٥٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٥١٣).

ويقال: كيف قيل له: ﴿... فَٱعۡلَمۡ﴾ ولم يقل: عَلِمْتُ، وإبراهيم قيل له: ﴿أَسۡلِمۡۖ﴾ [البقرة: ١٣١] فقال: «سلمت...»؟ فيُجاب بأنَّ إبراهيمَ لمَّا قال: «اسلمت» ابْتُلِيَ، ونبيُّنا ﷺ لم يقل: علمت فعُوفِيَ.

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَه شَرْع كَشَفَ سِرَّه، ونبيُّنا ﷺ لم يأتِ بعدَه شرعٌ.

ويقال: نبيُّنا ﷺ أخبر الحقُّ عنه بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] والإيمان هو العلم ـ وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أَتَمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه: «عَلِمْتُ».

ويقال: فرقٌ بين موسى عليه السلام لمَّا احتاج إلى زيادةِ العلم فأُحيلَ على الخضر، ونبيُّنا ﷺ قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]... فكم بين مَنْ أُحيلَ في استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق!!.

ويقال لمَّا قال له: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق، ثم بالانقطاع منه ـ أي من الرسول ـ إليه... أي إلى الحق سبحانه. والعبدُ إذا قال هذه الكلمةَ على سبيلِ العادةِ والغفلةِ عن الحقيقة ـ أي كان بصفة النسيان ـ فليس لقوله كثيرُ قيمةٍ؛ كأن تُقال عند التعجب من شيء... فليس لهذا قَدْرٌ. أمَّا إذا قالها مخلصاً فيها، ذاكراً لمعناها، متحققاً بحقيقتها... فإنْ كان بنفسه فهو في وطن التفرقة... وعندهم هذا من الشِّرْكِ الخفِّي، وإن قالها بحقٍّ فهو الإخلاص. فالعبد يعلم أولاً ربَّه بدليلٍ وحُجَّةٍ؛ فعِلْمُه بنفسه كَسْبيٌّ... وهو أصل الأصول، وعليه ينبني كل علم استدلالي! ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج، ويتناقص علمُه بنفسه لغَلَبَاتِ ذِكْرِ اللَّهِ على القلب. فإذا انتهى إلى حال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُه في تلك الحالة ضرورياً. ويقلُّ إحساسُه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلاليّ وكأنه غافلٌ عن نفسه أو ناسٍ لنفسه.

ويقال: الذي على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة، حتى إذا غرق في البحر فلا إحساسَ له بشيء سوى ما هو مستغرقٌ فيه ومستهلك(١).

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾: أي إذا عَلِمْتَ أنك علمت فاستغفِرْ لذنبك من هذا؛ فإن الحقَّ ـ على جلال قدْرِه ـ لا يعلمه غيره.

---

(١) استفاد القشيري هنا من الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قال في رسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجود يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر، وترتيب هذا الأمر قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم جمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود. (الرسالة القشيرية ص٦٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ...﴾.

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحي، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحيُ بسرعةٍ فقال تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ رأيتَ المنافقين يكرهون ذلك لِمَا كان يشق عليهم من القتال، فكانوا يفتضحون عندئذٍ، وكانوا ينظرون إلى النبي ﷺ ـ بغاية الكراهة.

﴿... فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

تهديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ﴾.

وهو قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ...﴾.

ويقال: فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله. ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ﴾ بالإجابة لما أُمِرُوا به عن الجهاد.

ويقال: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أَمثَلُ بهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

إذا عزم الأمرُ ـ أي جَدَّ وفُرِضَ القتالُ ـ فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم ونفاقِهم وتقاعدِهم من الجهاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾.

أي فلعلكم إنْ أَعرضتم عن الإيمان ـ بمحمدٍ ﷺ ـ ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض، وتسفكوا الدماءَ الحرامَ، وتقطعوا أرحامكم، وتعودوا إلى جاهليتكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

أصمَّهم عن سماعِ الحقِّ وقبولِه بقلوبهم، وأعمى بصائرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

أي إن تدَّبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان، وأراحهم من ظلمة التحيُّر.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾: أقفلَ الحقُّ على قلوب الكفار فلا يُدَاخِلُها زاجرُ التنبيه، ولا ينبسط عليها شعاعُ العلم، فلا يحصل لهم فَهْمُ الخطاب؛ فالبابُ إذا كان مُقفَلاً... فكما لا يدخل فيه شيءٌ لا يخرج منه شيء؛ كذلك قلوبُ الكفار مقفلةٌ، فلا الكفرُ الذي فيها يَخرُجُ، ولا الإيمانُ الذي هم يُدْعَوْن إليه يدخل في قلوبهم.

وأهلُ الشِّرْكِ والكفرِ قد سُدَّت بصائرهم وغُطِّيَتْ أسرارهم، ولُبِّسَ عليهم وجهُ التحقيق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

الذي يطلع فجرُ قلبه، ويتلألأ نورُ التوحيد فيه، ثم قَبْلَ متوع نهارِ إيمانه انكسفت شمسُ يومِهِ، وأظلم نهارُ عرفانه، ودَجا ليلُ شَكِّه، وغابت نجومُ عقله... فحدِّث عن ظُلُماتِه...! ولا حرج!.

ذلك جزاؤهم على ممالأتهم مع المنافقين، وتظاهرهم... فإذا تَوَفَّتْهُم الملائكةُ تتصل آلامُهم، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتُهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾.

ليس الأمرُ كما تَوَهَّموه، بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسَهم، ولقد أخبر الرسولَ عنهم، وعرَّفه أعيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي في معنى الخطاب، فالأَسِرَّةُ تَدُلُّ على السريرة، وما يخامر القلوبَ فَعَلى الوجوهِ يلوحُ أثرُه:

لستَ ممن ليس يدري ما هوان من كرامة
إنَّ للحبِّ وللبغضِ على الوجه علامة

والمؤمنُ ينظر بنور الفراسة، والعارفُ ينظر بنورِ التحقيق، والموحِّدُ ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء.

ويقال: بصائرُ الصديقين غيرُ مُغطَّاة، قال رسول الله ﷺ: «سدوا كل خوخة غير خوخة أبي بكر»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهرُ الرجال، فيظهر المخلصُ، ويفتضح الماذقُ، وينكشف المنافق، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا، والذين كفروا ونافقوا وقعوا في الهوان وأُذِلُّوا، ووسِموا بالشَقاوة وقُطعوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

---

(١) الآيات (٢٦، ٢٧، ٢٨) لم ترد.

(٢) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية ١٢/١٣٦).

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: بالرياء والإعجاب والملاحظة.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: بالمساكنة إليها. ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بطلب الأعواض عليها.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

أي لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة.

أنتم الأعلون بالنصرة. قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾. أي بالنصرة ويقال: لا تضعفوا بقلوبكم، وقوموا بالله؛ لأنكم - والله معكم - لا يخفى عليه شيءٌ منكم، فهو على الدوام يراكم. ومَنْ عَلِمَ أنَّ سَيِّدَه يراه يتحمل كلَّ مشتغلاً برؤيته:

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي لا ينقصكم أَجْرَ أعمالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

تجنبوا الشِّركَ والمعاصي حتى يَفِيَكم أجورَكم.

واللَّهُ لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾.

«الإحفاء» الإلحاح في المسألة... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نَفْسه، فأمّا الإخوان ومَنْ عَلَتْ رتبتُهم في باب حرية القلب فلا يُسامَحون في استيفاءِ ذَرَّةٍ، ويُطالَبون ببذل الرُّوح، والتزام الغرامات.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

البخلُ مَنْعُ الواجب، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه لأنه لو لم يفعل ذلك لَحَصَلَ له الثراء - هكذا يظن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

«غنيٌّ» بنفسه على قول، وغنيٌّ بوصفه على القول الثاني. وغناه كونه لا تتقيد مراداتُه. أمَّا البعدُ فهو فقيرٌ بنفسه؛ لأنه لا يستغني عن مولاه؛ في الابتداء منذ خَلْقه إلى الانتهاء، وهو في دوام الأوقات مفتقرٌ إلى مولاه.

---

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد افتقارَه إلى الله. وصِدْقُ الفقير في شهود فقره إلى الله. ومَنْ افتقر إلى الله استغنى بالله، ومَنْ افتقر إلى غير الله وقع في الذُّلِّ والهوان.

ويقال: اللَّهُ غنيٌّ عن طاعتِكم، وأنتم الفقراءُ إلى رحمتِه.

ويقال: اللَّهُ غنيٌّ لا يحتاج إليكم، وأنتم الفقراءُ لأنكم لا بديلَ لكم عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

يستبدل قوماً غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً، وأصدقَ منكم وفاءً؛ فهو قادرٌ على خَلْق أمثالَكم ثم لا يكونون أمثالكم في العصيانِ والإعراضِ وتَرْكِ الشكرِ والوفاءِ... بل سيكونون خيراً منكم.

سورة الفتح

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» تشير إلى سُمُوِّه في أزَلِهِ، وعُلُوِّه في أبَدِه؛ وسُمُوُّه في أزله نَفيُ البداية عنه بحقِّ القِدَم، وعُلُوُّه في أبده نَفيُ الانتهاء عنه باستحالة العَدَم؛ فمعرفةُ سُمُوِّه توجِبُ للعبد سُمُوًّا، ومعرفةُ عُلُوِّه توجِبُ للعبدِ عُلُوًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

قضينا لك قضاءً بَيِّناً، وحكمنا لكَ بتقويةِ دينِ الإسلام، والنصرةِ على عدوِّك، وأكرمناكَ بفتح ما انغلق على قلبِ مَنْ هو غيرك ـ مِنْ قَبْلِك ـ بتفصيلِ شرائعِ الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه.

نزلت الآيةُ في فتحِ مكة، ويقال في فتح الحُدَيبية[1].

ويقال: هديناك إلى شرائع الإسلام، ويَسَّرنا لك أمورَ الدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

كلا القسمين ـ المتقدِّم والمتأخِّر ـ كان قبلَ النبوة.

ويقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ من ذَنْبِ آدمِ بحُرمتك، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: من ذنوب أُمَّتك.

وإذا حُمِلَ على تَرْك الأَوْلَى فقد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك، قبل النبوة وبعدها.

ولمَّا نزلت هذه الآية قالوا: هنيئاً لك! فأنزل الله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.. ويقال: حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربين.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

يتم نعمته عليك بالنبوة، وبوفاء العاقبة، وببسط الشريعة، وبشفاعته لأمته، وبرؤية الله غداً، وبإظهار دينه على الأديان، وبأنه سيد ولد آدم، وبأنه أقْسَمَ بحياتِه، وخصَّه بالعيان. وبسماعِ كلامه سبحانه ليلةَ المعراج، وبأن بَعَثَه إلى سائرِ الأمم.. وغير ذلك من مناقبه.

---

(١) الحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. (معجم البلدان ٢/ ٢٢٩).

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يثبتك على الصراط المستقيم، ويزيدك هدايةً على هداية، ويهدي بك الخَلْقَ إلى الحقِّ.

ويقال: يهديك صراطاً مستقيماً بترك حَظِّك.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

لا ذُلَّ فيه، وتكون غالباً لا يَغْلِبُكَ أحَدٌ:

ويقال: ينصرك على هواك ونَفْسِك، وينصرك بحُسْنِ خُلُقِك ومقاساةِ الأذى من قومك.

ويقال نصراً عزيزاً: مُعِزّاً لك ولمن آمن بك.

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أكْرَمَ بها نبيَّه ـ ﷺ ـ وخصَّه بها من الفتح والظَّفَرِ على النَّفس والعدو، وتيسير ما انغلق على غيره، والمغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة.. ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصُ عظيمةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

السكينةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائر والحُجَج، فيرتقي القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْحِ اليقين وثَلَج الفؤاد، فتصير العلومُ ضروريةً.. وهذا للخواصِّ.

فأمّا عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها: السكون والطمأنينةُ واليقين.

ويقال: من أوصافِ القلب في اليقين المعارف والبصائر والسكينة.

وفي التفاسير: السكينة ريح هفَّافة. وقالوا: لها وجهٌ كوجه الإنسان. وقيل لها جناحان.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

أي يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم. تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقيل: هي جميع القلوب الدالَّةِ على وحدانية الله.

ويقال: مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما به من قوىً تقهر أعداءَ اللهِ.

ويقال: هم أنصارُ دينه.

ويقال: ما سلَّطه الحقُّ على شيءٍ فهو من جنوده، سواء سلَّطه على وليِّه في الشدة والرخاء، أو سلَّطه على عدوِّه في الراحة والبلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

يَسْتُرُ ذنوبَهم ويحطها عنهم. . وذلك فوزٌ عظيم، وهو الظَّفَرُ بالبغية.

وسُؤْلُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه، ومُبْتغاه ومقصودُه مختلِفٌ. . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفَراً به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾.

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم.

و ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾: هو ما كان بغير الإذن؛ ظنوا أنَّ الله لا ينصر دينَه ونَبيَّه عليه السلام.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾: عاقبته تدور عليهم وتحيقُ بهم.

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: أبعدهم عن فضله، وحقت فيهم كلمتُه، وما سبقت لهم - من الله سبحانه - قِسْمتُه[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾: على أُمَّتِكَ يوم القيامة. ويقال: شاهداً على الرُّسُلِ والكتب.

ويقال: شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا. ويقال: شاهداً لأمتك بتوحيدنا.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾: لهم مِنَّا بالثواب، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للخَلْق؛ زاجِراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات.

ويقال: شاهداً مِنْ قِبَلنا، ومُبَشِّراً بأمرنا، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا ومِنَّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

قرىء: «ليؤمنوا» بالياء؛ لأن ذكر المؤمنين جرى، أي ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أي الرسول، ويوقروه: أي: يُعَظِّموا الرسولَ. وتُسَبِّحوه: أي تُسَبِّحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً[2].

وقرىء: «لتؤمنوا» - بالتاء - أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُعَزروه - على المخاطَبة. وتعزيرُه يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نَفْسك، وتقديمِ حُكْمهِ على حُكمِك. وتوقيرُه يكون باتباع سُنَّتِه، والعلم بأنه سيِّدُ بَريَّته.

---

(١) الآية (٧) لم ترد.

(٢) البُكرة: الغُدوة وهي أول النهار إلى طلوع الشمس.
الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغربها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمُرَة[1].

وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث عثمانَ رضي الله عنه إلى قريش ليُكلِّمَهم فأرجفوا بقَتْلِه. وأتى عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال:

جئتَ بأوشاب الناس لتفضَّ بَيْضَتَكَ بيدك، وقد استعدت قريش لقتالك، وكأنّي بأصحابك قد انكشفوا عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح! فقال أبو بكر: أتظن أنّا نسلم رسولَ الله ﷺ؟

فبايعهم النبيُّ ﷺ على أن يُقاتِلوا وألا يهربوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾: أي عقدُك عليهم هو عقد الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾: في المنة عليهم بالتوفيق والهداية: ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالوفاء حين بايعوك.

ويقال: قدرة الله وقوته في نصرة دينه ونصرة نبيِّه ﷺ فوقَ نَصْرِهم لدين الله ولرسوله.

وفي هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أي عذابُ النكثِ عائدٌ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً.

وإذا كان العبد بوصف إخلاصِه، يعامِل اللَّهَ في شيءٍ هو به متحقِّقٌ، وله بقلبه شاهدٌ فإنَّ الوسائطَ التي تُظْهِرُها أماراتُ التعريفاتِ تجعله محواً في أسرارِه.. والحكم عندئذ راجعٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

لمَّا قَصَدَ رسولُ الله ﷺ التوجه إلى الحديبية تخلَّفَ قومٌ من الأعراب عنه. قيل: هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع، وقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وليس لنا مَنْ يقوم

---

(١) السمرة: هي الشجرة (شجرة طلح) التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية. (اللسان ٤/ ٣٧٩ مادة: سمر).

بشأننا وقالوا: انتظروا ماذا يكون؛ فما هم من قريشٍ إلّا أَكَلَةُ رأسٍ. فلما رجع رسول الله ﷺ جاءوه مُعْتَذِرين بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأمورهم! وقالوا: استغفر لنا.

فأطلعه الله ـ سبحانه ـ على كذبهم ونفاقهم؛ وأنهم لا يقولون ذلك إخلاصاً، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

فضَحَهم. ويقال: ما شغل العبد عن الله شُؤمٌ عليه.

ويقال: عُذْرُ المماذِقِ وتوبةُ المنافِق كلاهما ليس حقائق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

حسبتم أن لن يرجعَ الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهليهم أبداً، وزَيَّنتْ لكم الأماني ألا يعودوا، وأنَّ الله لن ينصرهم. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هالكين فاسدين.

ويقال: إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتمنَّى ما تتقاصر عنه مُكنتُهُ، وتلك صفةُ كلِّ عاجز، ونعتُ كلِّ لئيم. ثم إن الله ـ سبحانه ـ يعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

ويقال: من العقوبات الشديدة التي يعاقِبُ اللَّهُ بها المُبْطِل أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه ويوطِّن نَفْسَه عليه لفرط جَهْله. ويُلقى الحقُّ في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسهُ أن ذلك كالكائن.. ثم يعذبه الله بامتناعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وما هو آتٍ فقريب.. وإنَّ الله ليرخي عنانَ الظَّلَمةِ ثم لا يفلتون من عقابه. وكيف ـ وفي الحقيقة ـ ما يحصل منهم هو الذي يجريه عليهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

يغفرُ ـ وليس له شريك يقول له: لا تفعل، ويعذِّب من يشاء ـ وليس هناك مانعٌ عن فعله يقول له: لا تفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم اللَّهُ خيبرَ، وأنَّ فيها سيظفرُ بأعدائه، فلمَّا هَمَّ بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة، فقال النبي ﷺ: «إنما يخرج معي إلى خيبر من خرج إلى الحديبية، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا».

فقال المتخلفون: إنما يقول المؤمنون ذلك حَسداً لنا؛ وليس هذا من قول الله! فأنزل اللَّهُ تعالى ذلك لتكذيبهم، ولبيان حكمه ألا يستصحبَهم فهم أهل طمع. وكانت عاقبتُهم أنهم لم يجدوا مرادَهم ورُدُّوا بالمذلة وافتضح أمرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

جاء في التفاسير أنهم أهلُ اليمامة أصحاب مسيلمة[1] ـ وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم، فالآية تدل على إمامته.. وقيل هم أهل فارس ـ وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم؛ فالآيةُ تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبي بكر. ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أولى شدَّة. فإنْ أطعتُم استوجبتم الثواب، وإن تخلَّفتم استحقَقْتُم العقاب. ودلت الآيةُ على أنه يجوز أن تكون للعبد بدايةٌ غيرُ مُرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح ـ كما كان لهؤلاء وأنشدوا:

إذا فَسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه ... فَرجّ له عَوْدَ الصلاح.. لعلَّه

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

هؤلاء أصحاب الأعذار.. رفع عنهم الحَرَج في تخلفهم عن الوقعة في قتال المشركين.

وكذلك مَنْ كان لهُ عذرٌ في المجاهدة مع النفس. «فإنَّ الله يحُبُّ أن تؤتى رُخصَهُ كما يحب أن تؤتى عزائمه»[2].

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٧/ ٢٢٦، وفي الكامل لابن الأثير ٢/ ١٣٧ ـ ١٤٠، وفي شذرات الذهب ١/ ٢٣، وفي الروض الأنف ٢/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٠٨)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ١٤٠)، والهيثمي في (موارد الظمآن ٥٤٥، ٩١٣، ٩١٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٣/ ٩)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٣/ ١٦٢)، وابن خزيمة في (الصحيح ٩٥٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢/ ١٠١، ٦/ ٢٧٦)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢/ ١٣٥)، وابن كثير في (التفسير ٣/ ٢٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ١٩٣)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٢/ ٢٨٩) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ٣٤٧)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٨، ٥١٩٩، ٥٢٠٠) والمتقي الهندي في (كنز=

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

هذا بيعة الرضوان، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ . . . ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة. وكانوا قصدوا دخولَ مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادِّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب، فقصده المشركون، ثم صالحوه على أن ينصرفَ هذا العام، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً)(١) وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصحابه، فلما صدهم المشركون خامر قلوبَهم شيءٌ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصِّدِّيقُ: لم يَقُلْ العام! فسكنت قلوبهم بنزول الآية؛ لأن الله سبحانه علم في قلوبهم من الاضطراب والتشكك. فأنزل السكينة في قلوبهم، وثبَّتهم باليقين. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتحُ خيبر بعد مدة يسيرة، وما حصلوا عليه من مغانم كثيرةٍ من خيبر. وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة.

وفي الآية دليلٌ على أنه قد تخطر ببال الإنسان خواطرُ مُشكِّكة، وفي الرِّيب موقعة، ولكن لا عبرة بها؛ فإنّ الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيدُ قلبَه، وقارن التحقيق سِرَّه فلا يضرُّه كيدُ الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ ويدخل في ذلك جميعُ ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجَّل لكم هذه ـ يعني خيبر، وقيل: الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ لما خرجوا من المدينة حرسهم اللّهُ، وحفظ عيالهم، وحمى بَيْضَتهم حين هبَّ اليهود في المدينة بعد خروج المسلمين، فمنعهم اللّهُ عنهم.

أو يقال: كفَّ أيدي الناس من أهل الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

لتكون هذه آيةً للمؤمنون وعلامةً يَسْتدلُّون بها على حراسة الله لهم.

= العمال ٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٧٢)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٣٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٥/١٧١٨، ٦/٢٣٦٣) والألباني في (السلسة الصحيحة ١٩٤)، والشهاب في (المسند ١٠٧٨، ١٠٧٩).

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: في التوكل على الله والثقة به.

ويقال: كفُّ أيدي الناس عن العبد هو أنْ يَرزُقَه من حيث لا يحتسب، لئلا يحتاجَ إلى أن يتكفَّفَ الناس.

ويقال: أنْ يَرْفَعَ عنه أيدي الظَّلَمة.

ويقال: ألا تحمله المطالبةُ بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه؛ فيأخذ من الأشياء ـ برخصة التأويل ـ ما ليس بطيِّب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

قيل: فتح الروم وفارس. وقيل: فتح مكة.

وكان الله على كل شيءٍ قديراً: فلا تُعلِّقوا بغيره قلوبكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

يعني: خيبر وأسد وغطفان وغيرهم ـ لو قاتلوكم لانهزموا، ولا يجدون من دون الله ناصراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

أي سُنَّةُ اللَّهِ خذلانُهم ولن تَجد لسنة الله تحويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل اللَّهُ هذه الآيَةَ في شأنهم.

وقيل أخذ اثني عشر رجلاً من المشركين ـ بلا عَهْدٍ ـ فمنَّ عليهم الرسولُ ﷺ

وقيل: هم أهلُ الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين، وحصل ترامي الأحجار بينهم؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم، فأنزل اللَّهُ هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا من عجزٍ؛ فأما الكفار فكفُّوا أيديهم رُعْباً وخوفاً؛ وأمَّا المسلمون فَنَهياً مِنْ قِبَلِ الله، لما في أصلابهم من المؤمنين ـ أراد اللَّهُ أن يخرجوا، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون.

والإشارة فيه: أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يَسْلَم الناسُ منك، وتسلم منهم. وإن الله يفعل بأوليائه ذلك، فلا من أحد عليهم حَيف، ولا منهم على أحد

حيفٌ ولا حسابٌ ولا مطالبة ولا صلحٌ ولا معاتبة، ولا صداقة ولا عداوة. وكذا من كان بالحق ـ وأنشدوا:

فلم يبْقَ لي وقتٌ لِذكرِ مُخَالِفٍ ولم يبقَ لي قلبٌ لذكر موافق

قوله جلّ ذكره: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

﴿كَفَرُواْ﴾ وجحدوا، ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾: أي منعوا الهَدْيَ أن يبلغَ مَنحرَه، فمعكوفاً حالٌ من الهدي أي محبوساً.

وكان النبي ﷺ قد ساق تلك السَّنَة سبعين بَدَنَةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرّة منكم بغير علم لَسَلْطناكم عليهم ولأظفرناكم بهم. وفي هذا تعريفٌ للعبد بأن أموراً قد تنغلق وتَتعَسّر فيضيق قلب الإنسان.. ولله في ذلك سِرٌ، ولا يعدم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري.. كما قالوا:

كم مرة حفَّت بك المكاره خير لك اللّهُ.. وأنت كاره

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

يعني الأنفة؛ أي دَفَعْتهم أنفةُ الجاهلية أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سَنَةَ الحديبية، فأنزل اللّهُ سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحِلْم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي كلمةُ التوحيد تَصْدُرُ عن قلبٍ صادق: فكلمةُ التقوى يكون معها الاتقاءُ من الشِّرْك.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ حسب سابق حُكْمِه وقديم علمه.. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

ويقال: الإلزامُ في الآية هو إلزامُ إكرامٍ ولطف، لا الإلزام إكراهٍ وعُنْفٍ؛ وإلزامُ برّ لا إلزام جبر...

وكم باسطين إلى وَصْلنا أكفهمو . لم ينالوا نصيبا!

ويقال كلمة التقوى: التواصي بينهم بحفظ حق الله.

ويقال: هي أن تكون لك حاجةٌ فتسأل الله ولا تُبديها للناس.

ويقال: هي سؤالك من الله أن يحرُسَك من المطامع.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه؛ صدقه فيما أراه من دخول مكة ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأَخبر أصحابه. فوطَّن أصحابه نفوسهم على دخول مكة في تلك السنة. فلمّا كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء، حتى قيل لهم لم يكن فيْ الرؤيا دخولهم في هذا العام، ثم أذن الله في العام القابل، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فكان ذلك تحقيقاً لما أراه، فرؤياه صلوات الله حق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق.

وكان في ذلك نوعُ امتحانٍ لهم: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أنتم من الحكمة في التأخير.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ معناه إذ شاء الله كقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقيل قالها على جهة تنبيههم إلى التأدب بتقديم المشيئة في خطابهم.

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى: إن شاء الله آمنين أو غير آمنين.

وقيل: يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلِّهم أو دخول بعضهم؛ فإنَّ الدخول كان بعد سنة، ومات منهم قومٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أرسل رسولَه محمداً ﷺ بالدين الحنفي، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين؛ فما من دينٍ لقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سِرٌ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات.

وقيل: ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام.

وقيل: في القيامة حيث يظهر الإسلامُ على كل الأديان.

وقيل: ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل.

قوله جلّ ذكره: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾.

﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع شديد، أي فيهم صلابةٌ مع الكفار.

﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع رحيم، وصَفَهم بالرحمة والتوادِّ فيما بينهم.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾.

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾.

أي علامة التخشع التي على الصالحين.

ويقال: هي في القيامة يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ، وأنهم يكونون غداً محجلين.

وقد قال ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجههُ بالنهار»[١].

ويقال في التفسير: «معه» أبو بكر، و ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ عمر؛ و ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾. عثمان، و ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ عليٌّ رضي الله عنهم.

وقيل: الآيةُ عامةٌ في المؤمنين.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾.

هذا مثلهم في التوراة، وأما مثلهم في الإنجيل فكزرع أخرج شطأه أي: فراخه.

يقال: أشطأ الزرعُ إذا أخرج صغاره على جوانبه. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي عاونه. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي غَلظُ واستوى على سوقه؛ وآزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض. يعجب هذا الزرعُ الزرّاع ليغيظ بالمسلمين الكفار؛ شَبَّهَ النبي (ﷺ) بالزرع حين تخرج طاقة واحدة ما ينبت حولها فتشتد، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن حوله من المسلمين.

فمَنْ حملِ الآية على الصحابة: فمن أبغضهم دخل في الكفر، لأنه قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي بأصحابه الكفارَ. ومَنْ حمله على المسلمين ففيه حُجَّة على الإجماع، لأنَّ من خالف الإجماع ـ فالله يغايظ به الكفارَ ـ فمخالفُ الإجماع كافرٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

وَعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة للذنوب، وأجراً عظيماً في الجنة فقوله: «منهم» للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (إقامة ١٧٤).

سورة الحجرات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ كريمٌ مَنْ تَنصَّلَ إليه من زَّلاته تَفَضَّلَ عليه بنجاته، ومَنْ تَوَسَّلَ إليهُ بطاعاته تطوَّل عليه بدرجاته.

«بسم الله» اسم عزيز مَنْ تقرَّب إليه بمناجاته قَابَلَه بلطف أفضاله، ومَنْ تحبَّبَ إليه بإيمانه أقبلَ عليه بكشف جلاله وجماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: شهادةٌ للمنادَى بالشَّرف.

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أَمْرٌ بتحمُّل الكُلَف. قدَّمَ الإكرام بالشرف على الإلزام بالكُلَف أي لا تقدموا بحكمكم ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾: أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله أي لا تعملوا من ذات أنفسِكم شيئاً.

ويقال: قفوا حيثما وُقِفتم، وافعلوا ما به أُمِرتُم، وكونوا أصحابَ الاقتداءِ والاتّباع.. لا أربابَ الابتداءِ والابتداع.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

أَمَرَهم بحفظِ حرمته، ومراعاةِ الأدب في خدمته وصحبته، وألّا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم. وأنه إذا كان بخُلُقهِ يُلاينُهم فينبغي ألا يتبسَّطوا معه متجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به مِنْ تَخَلُّقِه عن حدودِهم زائدين.

ويقال: لا تبدأوه بحديثٍ حتى يُفَاتِحَكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرته، أولئك هم الذين امتحن اللّهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها، فاتقوا سوءَ الأخلاقِ، وراعوا الأدبَ.

ويقال: هم الذيْن انسلخوا من عادات البشرية.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَك، والتزموا هَيبَتَك.

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم.

أمّا أصحابه ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ الذين يعرفون قدْره فإنَّ أحدهم ـ كما في الخبر: «كأنه يَقْرَعُ بابَه بالأظافر».

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾.

دلَّت الآية على تَرْكِ السكونِ إلى خَبَرِ الفاسق إلى أن يظهر صِدْقُه.

وفي الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماعِ إلى كلامِ الساعي والنَّمامِ والمغتابِ للناس.

والآيةُ تَدُلُّ على قبول خبرِ والواحدِ إذا كان عَدْلاً.

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة[١]. ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة.

ويقال: هو الذي ألقى جِلبابَ الحياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أي لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللّهِ ﷺ في كثير مما تطلبون منه لوقعتم في العَنَتِ[٢] ـ وهو الفساد. ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأَصابتكم من ذلك شدة.

والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم في أكثر الأمور إذا لم يَرَ في ذلك مصلحة لكم وللدين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾: الإسلام والطاعة والتوحيد، وزيَّنها في قلوبكم.

---

(١) مشتق من فسقت الرطبة من قشرها، وكأن الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من حجرها على الناس. (لسان العرب ١٠/٣٠٨ مادة: فسق).

(٢) العنت: دخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة. وقيل: العنت: الفجور والزنا وقيل: الجور والإثم والأذى. (لسان العرب ٢/٦١، ٦٢ مادة: عنت).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾: هذا من تلوين الخطاب.

وفي الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقِّ في القَدَر، وتخصيص المؤمنين بألطافٍ لا يشترك فيها الكفارُ. ولولا أنَّه يوفِّر الدواعي للطاعات لَحَصَلَ التفريط والتقصير في العبادات.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: أي فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه ـ والفسق دون الكفر ـ لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين ـ لا محالة ـ فاسقة إذا اقتتلا.

وتدل الآية على وجوب نصرة المظلوم؛ حيث قال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾.

والإشارة فيه: أن النفس إذا ظَلَمتْ القلب بدعائه إلى شهواتها، واشتغالها في فسادها فيجب أن يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة. فإن استجابت إلى الطاعة يُعفى عنها لأنها هي المطيَّةُ إلى باب الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أوْكَد عزائم الدِّين.

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وِزْرِ الواشي والنَّمام؛ والمَصْدَرِ في إفساد ذات البَيْن.

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْق هِمةِ عبدٍ في إصلاح ذات البيْن) فإنه يرفع عنهم تلك العصبيَّة.

فأما شرط الأخوة: فَمِنْ حقِّ الأُخُوةِ في الدِّين ألا تُحْوِجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك، وألا تُقصِّرَ في تَفَقُّدِ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساءلتك.

ومن حقِّه ألا تُلْجِئَه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَه؛ فإنْ أُشْكِلَ عليكَ وَجْهُه عُدْت باللائمة على نفسك في خفاء عُذْرِه عليك ومن حقه أنْ تتوبَ عنه إذا أذْنَبَ، وتَعودَه إذا مرض. وإذا أشار عليك بشيءٍ فلا تُطَالِبْه بالدليل عليه وإبراز الحُجَّة ـ كما قالوا:

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم   لأيَّـــةِ حَـــرْبٍ أم لأي مـــكـــان

ومِنْ حقِّه أَنْ تَحفظَ عَهْدَه القديم، وأَنْ تُراعِيَ حقَّه في أهله المتصلين به في المشهد والمغيب، وفي حال الحياة وبعد الممات ـ كما قيل:

وخليل إن لم يكن منصفاً كُنْتَ منصفا
تتحسَّى له الأَمَرَّ ين وكُنْ ملاطفا
إنْ يَقُل لكَ استوِ احترفْـ ـتَ رضى لا تكلُّفا

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

نهى اللَّهُ ـ سبحانه وتعالى ـ عن ازدراءِ الناس، وعن الغَيْبَةِ، وعن الاستهانةِ بالحقوق، وعن تَرْكِ الاحترام.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي لا يَعِيبَنَّ بعضُكم بعضاً، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

ويقال: ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلِّطَ عليه. ولا ينبغي أن يُعْتَبَر بظاهر أحوال الناس فإنَّ في الزوايا خبايا. والحقُّ يستر أولياءَه في حجابِ الضّعَة[1]؛ وقد جاء في الخبر:

«رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأَبَرَّه»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

النَّفْسُ لا تَصْدُقُ، والقلبُ لا يَكْذِبُ. والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ ومَنْ بَقِيَتْ عليه من حظوظه بقيَّةٌ ـ وإنْ قَلَّتْ ـ فليس له أن يَدَّعي بيانَ القلب بل هو بنفسه ما دام عليه شيءٌ من نَفْسِه، ويجب أن يَتَّهِمَ نَفْسَهُ في كل ما يقع له من نقصان غيره.. هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يخطب. «كلُّ الناس أفقهُ من عمر.. أمرأةٌ أفقهُ من عمر».

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾. والعارف لا يتفرغ من شهود الحقِّ إلى شهود الخَلْق.. فكيف

---

(١) الضّعة: خلاف الرفعة في القدر. (لسان العرب ٨/ ٣٩٧ مادة: وضع).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٢٣٤، ٢٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٣).

يتفرغ إلى تجَسُّسِ أحوالهم؟ وهو لا يتفرغ إلى نَفْسِه فكيف إلى غيره؟ ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: لا تحصل الغيبة للخَلق إلّا من الغيبةِ عن الحقّ.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية. وأَخَسُّ الكفّار وأَقَلُّهم قَدْراً مَنْ يأكل الميتةَ.. وعزيزٌ رؤيةُ مَنْ لا يغتاب أحداً بين يديك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إنّا خلقناكم أجمعكم من آدمَ وحواء، ثم جعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا لا لتُكَاثروا ولا لتنافسوا. فإذا كانت الأصولُ تربةً ونطفةً وعَلَقَةً.. فالتفاخر بماذا؟ أبا لحمأ المسنون؟[1] أم بالنطفة في قرار مكين؟ أم بما ينطوي عليه ظاهرك مما تعرفه؟! وقد قيل:

إنَّ آثارنا تَدُل علينا فانظُروا بَعْدَنا إلى الآثارِ

أم بأفعالك التي هي بالرياء مَشُوبة؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة؟ أم بمعاملاتك التي هي ملأى بالخيانة؟

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾؟ أتقاكم أي أبْعَدكم عن نَفْسِه، فالتقوى هي التحرُّر من النفس وأطماعها وحظوظها. فأكرمُ العبادِ عند اللّهِ مَنْ كان أبْعد عن نَفْسِه وأَقربَ إلى الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

الإيمانُ هو حياة القلب، والقلب لا يحيا إلا بعد ذَبْح النَّفس، والنفوسُ لا تموت ولكنها تغيب، ومع حضورها لا يَتمُّ خيرٌ، والاستسلامُ في الظاهر إسلام. وليس كلُّ مَنْ استسلَمَ ظاهراً مخلصٌ في سِرِّه.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

في هذا دليلٌ على أن محلَّ الإيمانِ القلبُ. كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] ومَرَضُ القلبِ والإيمانُ ضدان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

جَعَلَ اللّهُ الإيمانَ مشروطاً بخصالٍ ذَكَرَها، ونَصَّ عليها بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي

---

(١) الحمأة والحمأ: الطين الأسود المنتن. (لسان العرب ١/ ٦١ مادة: حمأ).

للتحقيق الذي يقتضي طَرْدَ العَكْسِ؛ فَمَنْ خَرَج عن هذه الشرائط التي جَعَلَها للإيمان فمردودٌ عليه قَوْلُه.

والإيمانُ يوجِبُ للعبد الأَمان، فما لم يكن الإيمان موجِباً للأَمانِ فصاحبُه بغيره أَوْلَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تدل الآية على أَنَّ الوقوف في المسائل الدينية يُعْتَبَرُ واجباً؛ فالأسامي منه تُؤْخَذ، والأحكامُ منه تُطْلَب، وأوامره مُتَّبعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

مَنْ لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإنْ رآها مِنْ نَفْسه كان شِرْكاً، وإنْ رآها لنفسه كان مكراً فكيف يمن العبد بما هو شِرْكٌ أو بما هو مكر؟!

والذي يجب عليه قبول المِنَّة.. كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة؟! هذا لعمري فضيحة! بل المِنَّةُ لله؛ فهو وليُّ النعمة. ولا تكون المنةُ منةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حاله، فأمَّا إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنةٌ لصاحبها لا مِنَّة.

والمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصنيعَ إذا كانت من المخلوقين، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ومَنْ وُقِف ها هنا تكدَّرَ عليه عَيْشُه؛ إذ ليس يدري ما غيبه فيه، وفي معنى هذا قول القائل:

أبكي.. وهل تدرين ما يبكيني؟
أبكي حذاراً أن تفارقيني
وتقطعي وَصْلي وتهجريني

سورة قٓ

«بسم الله» اسم جَبَرَ أحوالَ مَنْ رَحِمَه، متجبِّرُ بكبريائه على من أقماه فَقَهَرَه وحَرَمه.

«بسم الله» لطيفٌ يعلم خفايا تصنُّع العابدين، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

قَ مفتاح أسمائه: «قوي وقادر وقدير وقريب».. أقسم بهذه الأسماءِ وبالقرآن المجيد.

وجوابُ القَسَم محذوف ومعناه لَتُبْعَثُنَّ في القيامة.

ويقال جوابه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ أي لقد علمنا.. وحذفت اللام لمَّا تطاول الخطاب.

ويقال: جوابه قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾: هو محمد ﷺ.

والتعجُّبُ نوعٌ من تعبير النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارج العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل. وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك:

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾.

أي يَبْعُدُ عندنا أَنْ نُبعثَ بعد ما مِتْنا. فقال جل ذكره:

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾.

في هذا تسليةٌ للعبد فإنه إذا وُسِّدَ التراب، وانصرف عنه الأصحاب، واضطرب لوفاته الأحباب. فَمَنْ يَتَفَقَّدُه ومَنْ يَتَعَهَّدُه... وهو في شفير قبره، وليس لهم منه شيءُ سوى ذكرِه، ولا أحدَ منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرته؟ فيقول الحقُّ ـ سبحانه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا﴾ ولعلَّه يخبر الملائكة قائلاً: عَبدي الذي أَخْرَجته من دنياه ـ ماذا بقي بينه مَنْ يهواه؟ هذه أجزاؤه قد تَفرَّقَتْ، وهذه عِظامُه بَلِيَتْ، وهذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ!

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾: وهو اللّوحُ المحفوظ؛ أَثْبَتنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ، وبيَّنَّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلى تَذكُّره.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿مَّرِيجٍ﴾ أي مختلط ومُلتبس؛ فهم يتردَّدون في ظُلُمات تحيُّرهم، ويضطربون في شكِّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

أَوَ لَمْ يعتبروا؟ أَوَ لَمْ يَسْتَدِلُّوا بما رفعنا فوقهم من السماء، رفعنا سَمْكها فَسَوَّيْناها، وأثبتنا فيها الكواكبَ وبها زَيَّناها، وأَدَرْنا فيها شَمْسَها وقمرَها؟ أو لم يروا كيف جَنَّسْنا عَيْنَها ونَوَّعْنا أَثَرَها؟

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

والأرض مددناها؛ فجعلناها لهم مِهاداً، وجَعَلْنا لها الجبالَ أوتاداً، وأَنْبَتْنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً.. كل ذلك:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

علامةً ودلالةً لكل من أناب إلينا، ورجع من شهودِ أفعالنا إلى رؤية صفاتنا، ومن شهود صفاتنا إلى شهودِ حقِّنا وذاتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾.

أنزلنا من المساءِ ماءً مباركاً كثيرَ النفعِ والزيادة، فأنبتنا به ﴿جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: أي الذي يُحْصَد ـ كما تقول مسجد الجامع.

الأجزاء متجانسة.. ولكنَّ أوصافَها في الطعوم والروائحِ والألوانِ والهيئاتِ والمقادير مختلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

والنخلُ باسقاتٌ: طويلاتٌ، لها طَلْعٌ منضود بعضُه فوق بعض لكثرة الطَّلْع أو لما فيها مِن الثمار. وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالتفاح والكمثرى[1] وغيرهما، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب[2] وغيرهما.. كلُّ ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي ينتفعوا به.

---

(١) الكُمَّثْرَى: معروف من الفواكه هذا الذي تسميه العامة الإجاص، مؤنث لا ينصرف. (لسان العرب ٥/ ١٥٢ مادة: كمثر).

(٢) الرُّطَب: نضيج البُسر قبل أن يُتمر، واحدته رطبة. (اللسان ١/ ٤٢٠ مادة: رطب).

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها، وكما فَعلْنا كُلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك ـ كذلك نجمعكم في الحشر والنشر، فليس بَعْثُكم بأبعدَ من هذا.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

إنّا لم نَعْجَزْ عن هؤلاء ـ الذين ذكر أسماءَهم ـ وفيه تهديدٌ لهم وتسليةٌ للرسول.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي إنّا لم نعجز عن الخَلْق الأول.. فكيف نعجز عن الخلق الثاني ـ وهو الإعادة؟ لم يعتص علينا فعلُ شيءٍ، ولم نتعب من شيء.. فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أي ليس كذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

نعلم ما توسوس به نَفْسُه من شهواتٍ تطلب استنفاذها، مثل التصنُّع مع الخَلْق، وسوءِ الخُلُق، والحقد.. وغير ذلك من آفات النَّفس التي تُشَوِّش على القلب والوقت.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فَحَبْلُ الوريد أقربُ أجزاءِ نَفْسِه إلى نَفْسِه، والمرادُ من ذلك العلم والقدرة، وأنه يسمع قولهم، ولا يشكل عليه شيءٌ من أمرهم.

وفي هذه الآية هَيْبَةٌ وفَزَعٌ وخوفٌ لقوم، ورَوْحٌ وسكونٌ وأُنسُ قلبٍ لقوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

خوَّفهم بشهود الملائكة وحضور الحَفَظَة، وبكتابتهم عليهم أعمالَهم، فهما قَعيدا كلِّ أحدٍ: ويقال: إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيراتِه، وواحدٌ على يساره يكتب معاصيه، وإذا قام فواحدٌ عند رأسِه وواحد عند قَدَمِه، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرُ خَلْفَه.

ويقال: هما اثنان بالليل لكلِّ واحدٍ، واثنان بالنهار.

ويقال: بل الذي يكتب الخيراتِ اليومَ يكون غيره غداً، وأمّا الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك.

ويقال: بل الذي يكتب المعصية اثنان؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلةٍ اثنان آخران لئلا يُعْلَمَ من مساويك إلا القليل منها، ويكون عِلْمُ المعاصي متفرقاً بهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

إذا أشرفت النَّفْسُ على الخروجِ من الدنيا فأحوالُهم مختلفة؛ فمنهم مَنْ يزداد في ذلك الوقت خوفُه ولا يَتَبيَّنُ إلا عند ذهابِ الروح حالُه. ومنهم مَنْ يُكاشَفُ قبلَ خروجه فَيسكن رَوْعُه، ويُحْفَظُ عليه عَقْلُه، ويتم له حضورُه وتمييزُه، فيُسْلِمَ الرُّوحَ على مَهَلٍ مِنْ غير استكراهٍ ولا عبوس.. ومنهم، ومنهم.. وفي معناه يقول بعضهم:

أنا إنْ مِتُّ ـ والهوى حشو قلبي ـ فبداءِ الهوى يموت الكرامُ

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾.

سائقٌ يسوقها إمّا إلى الجنة أو إلى النار، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشرّ.

ويقال له: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾.

المؤمنون ـ اليومَ بَصَرُهم حديد؛ يُبْصرون رُشْدَهم ويحذرون شرَّهم.

والكافر يقال له غداً: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: ها أنت عَلِمْتَ ما كنتَ فيه من التكذيب؛ فاليومَ لا يُسْمَعُ منكَ خطابٌ، ولا يُرْفَعُ عنكَ عذابٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾.

لا يَخْفَى من أحوالهم شيءٌ إلا ذُكِرَ، إنْ كان خيراً يُجَازون عليه، وإن كان غير خيرٍ يُحَاسَبون عليه: إمَّا برحمةٍ منه فيغفر لهم وينجون، وإمَّا على مقدار جُرْمِهم يُعَذَّبون.

﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾.

منَّاع للزكاة المفروضة.

ويقال: يمنع فَضْلَ مائِه وفَضْلَ كَلَئِه عن المسلمين.

ويقال: يمنع الناسَ من الخيرِ والإحسانِ، ويسيءُ القول فيهما حتى يُزَهِّدَ الناسَ فيهما.

ويقال: المناعُ للخير هو المِعْوانُ على الشَّرِّ.

ويقال: هو الذي قيل فيه: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي يُشَكِّكُ الناسَ في أمره لأنه غير مخلص، ويُلَبِّسُ على الناس حالَه لأنه منافق.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾.

يقول المَلَكُ من الحَفَظَةِ المُوَكَّلُ به: ما أَعْجَلْتُه على الزَّلَّة.

وإنما كَتَبْتُها بعدما فَعَلَها ـ وذلك حين يقول الكافر: لم أفعلْ هذا، وإنما أعجلني بالكتابة عليّ، فيقول المَلَكُ: ربَّنا ما أعجلته.

ويقال: هو الشيطانُ المقرونُ به، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطانُ: ما أكرهته على كفره، ولكنه فعل ـ باختياره ـ ما وسوسْتُ به إليه.

فيقول جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

لا تختصموا لديَّ اليومَ وقد أَمَرْتُكم بالرُّشْدِ ونَهَيْتُكم عن الغيِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ ﴿وَتَقُولُ﴾: القولُ هنا على التوسُّع؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقالت ذلك بل يُحْيِيها حتى تقولَ ذلك.

﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: على جهة التغليظ، والاستزادة من الكفار.

ويقال: بل تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: أي ليس فيَّ زيادة كقوله عليه السلام لمَّا قيل له: يومَ فتح مكة: هل ترجع إلى دارك؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل داراً»؟![1] أي لم يترك، فإن الله ـ تعالى ـ يملأ جهنمَ من الكفارِ والعصاةِ، فإذا ما أُخرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ غيظُ الكفارِ حتى تمتلىء بهم جهنم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

يقال: إنَّ الجنَّةَ تُقَرَّبُ من المتقين، كما أَنَّ النَار تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين.

ويقال: بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها... وهم خواص الخواص.

ويقال: هم ثلاثةُ أصناف: قوم يُحْشَرون إلى الجنة مشاةً وهم الذين قال فيهم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] ـ وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصوَّرة لهم بصورة حيوان، وهم الذين قال فيهم جَلَّ وعلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] ـ وهؤلاء هم الخواص وأمَّا خاص الخاص فهم الذين قال عنهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي تُقَرَّبُ الجنةُ منهم.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: تأكيدٌ لقوله: «وأزلفت».

ويقال: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: من العاصين تطييباً لقلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٦/ ٣٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٤٢٩، ٣٠٦٨٥).

الأوَّابُ: الراجعُ إلى الله في جميع أحواله.

﴿حَفِيظٌ﴾: أي محافظ على أوقاته، (ويقال محافظ على حواسه في الله حافظ لأنفاسه مع الله).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

الخشيةُ من الرحمنِ هي الخشية من الفراق. (والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأُنس؛ ولذلك لم يقل: من خشي الجبَّار ولا من خشي القهَّار».

ويقال الخشية من الله تقتضي العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسْأَلُ عمَّا يفعل.

ويقال: الخشيةُ ألطفُ من الخوف، وكأنها قريبةٌ من الهيبة[1].

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: لم يقل بَنَفْسٍ مطيعة بل قال: بقلبٍ منيب ليكونَ للعصاةِ في هذا أملٌ؛ لأنهم ـ وإن قَصَّروا بنفوسهم وليس لهم صِدْقُ القَدَمِ ـ فلهم الأسفُ بقلوبهم وصدق الندَّم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

أي يقال لهم: ادخلوها بسلامةٍ من كل آفةٍ، ووجودِ رضوان ولا يسخطُ عليكم الحقُّ أبداً.

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ: ادخلوها بسلامٍ، ومنهم من يقول له: لكم ما تشاؤون فيها ـ قال تعالى:

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

لم يقل: «لهم ما يسألون» بل قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾: فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلَهم يتحقق لهم في الوَهْلة، وإذا كانوا اليوم يقولون: ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان... وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية، والنظر إلى الله سبحانه وقومٌ يقولون: المزيد على الثواب في الجنة ـ ولا منافاة بينهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

---

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الخوف: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة. فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه. قال الله تعالى: **﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**. والخشية: من شروط العلم. قال الله تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**. والهيبة: من شروط المعرفة، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾. وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على نوعين: رهبة وخشية، فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب. (الرسالة القشيرية ص١٢٥، ١٢٦).

أي اعْتَبِروا بالذين تَقَدَّموكم؛ انهمكوا في ضلالتهم، وأَصَرُّوا، ولم يُقْلِعوا. . . فأهلكناهم وما أَبْقَيْنا منهم أحداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

قيل: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: أي من كان له عقل. وقيل: قلب حاضر. ويقال قلبٌ على الإحسان مُقْبِل. ويقال: قَلْبٌ غيرُ قُلَّب.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾: استمع إلى ما يَنادى به ظاهرُه من الخَلْق وإلى ما يعود إلى سِرِّه من الحق. ويقال: لمن كان له قلبٌ صاح لم يَسْكر من الغفلة. ويقال: قلبٌ يعد أنفاسَه مع الله. ويقال: قلبٌ حيٌّ بنور الموافقة. ويقال: قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن الاعتبار والاستبصار.

ويقال: «القلبُ ـ كما في الخبر ـ بين إصبعين من أصابع الرحمن»[1]: أي بين نعمتين؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء، وما ينفعه به من النَّعماء، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقُّ عنه الأوصافَ الذميمةَ وأَلْزَمَه النعوتَ الحميدةَ فهو الذي قال فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

وفي الخبر: «إن لله أوانيَ ألَا وهي القلوب، وأقربها من الله مارقَّ وصفا»[2]. شبَّه القلوب بالأواني؛ فقلبُ الكافرِ منكوسٌ لا يدخل فيه شيء، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور، ما يُلْقى فيه من أوَّله يخرج من أسفله، وقلبُ المؤمنِ إناءٌ صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويَبْقَى.

ولكنَّ هذه القلوبَ مختلفةٌ؛ فقلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات؛ فالشرابُ الذي يُلْقَى فيه يصحبه أثر، ويتلطخ به.

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قَدْراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

وأَنى يَمَسُّه اللُّغوبُ. وهو صَمَدٌ لا يحدث في ذاته حادث؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

إنْ تَأَذَّ سَمْعُكَ بما يقولون فيَّ من الأشياء التي يتقدَّس عنها نَعْتي فاصبِرْ على ما يقولون، واسترِحْ عن ذلك بتسبيحك لنا.

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٠٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٧٣).

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

فالليلُ وقتُ الخلوة ـ والصفاءُ في الخلوة أتَمُّ وأصْفَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾.

النداءُ من الحق ـ سبحانه ـ واردٌ عليهم، كما أنَّ النجوى تحصل دائماً بينهم. والنداءُ الذي يَردُ عليهم يكون بغتةً ولا يكون للعبد في فِعْلِه اختيارٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾.

إلينا مَرْجِعُ الكُلِّ ومصيرُهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾.

هذا يسيرٌ علينا: سواء خلقناهم جملةً أو فرادى؛ قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٣١].

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

ما أنت عليهم بُمتَسَلِّطٍ تُكرِههم.

وإنما يُؤَثِّرُ التخويفُ والإنذارُ والتذكيرُ في الخائفين، فأمّا مَنْ لا يخاف فلا ينجحُ فيه التخويفُ ـ وطيرُ السماء على أُلّافها تقعُ.

سورة الذاريات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها عزَّ لسانُه، ومَنْ عَرَفَها اهتزَّ بصحبتها جنانه.
«بسم الله» كلمةٌ للألبابِ غلَّابةٌ، كلمة لأرواح المحُبين سلَّابةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾.

والذارياتُ: أي الرياح الحاملات ﴿وِقْرًا﴾ أي السحاب ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ أي السفن. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة... أقسم بربِّ هذه الأشياء وبقدرته عليها. وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ...﴾ والإشارة في هذه الأشياء أن من جملة الرياح. الرياح الصيحية تحمل أنينَ المشتاقين إلى ساحات العزَّةِ فيأتي نسيمُ القربةِ إلى مَشَامِّ أسرارِ أهل المحبة... فعندئذٍ يجدون راحةً من غَلَبَات اللوعة، وفي معناه أنشدوا:

وإني لأستهدي الرياحَ نسيمكم ... إذا أقبلَتْ من أرضكم بهبوب
وأسألُها حمْلَ السلام إليكمو ... فإنْ هي يوماً بَلَّغتْ... فأجيبي

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة، ويُؤذن بهواجم النَّوى والفُرْقة. فإذا عَنَّ لهم من ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتهال، والتضرُّع في السؤال استعاذةً منها... كما قالوا:

أقول ـ وقد رأيتُ لها سحاباً ... من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحَّت عزاليها[1] بِبَيْنٍ ... حوالينا الصدودُ ولا علينا

وكما قد يَحْمِلُ الملَّاحُ بعضَ الفقراء بلا أجرة طمعاً في سلامة السفينة ـ فهؤلاء يرجُون أن يُحمَلُوا في فُلْكِ العناية في بحار القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة.

ومِنَ الملائكةِ مَنْ يتنزَّلُ لتفقد أهل الوصلة، أو لتعزية أهل المصيبة، أو لأنواعِ

(١) الأعزل: سحاب لا مطر فيه. (اللسان ١١/ ٤٤٣ مادة: عزل).

من الأمور تتصل بأهل هذه القصة، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم: هل عندهم خيرٌ عن فراقهم ووصالهم ـ كما قالوا:

أسائلكم عن حالهم وآسألانيا .... بربّكما يا صاحبيَّ قِفَا بيا.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾: الحقُّ ـ سبحانه ـ وَعَدَ المطيعين بالجنة، والتائبين بالرحمة، والأولياءَ بالقربة، والعارفين بالوصلة، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]، وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد ـ واللّهُ رؤوفٌ بالعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي ذات الطرائق الحسنة ـ وهذا قَسَمٌ ثانٍ، وجوابه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يعني في أمر محمدٍ ﷺ فأحدهم يقول: إنه ساحر، وآخر يقول: مجنون، وثالث يقول: شاعر... وغير ذلك.

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان، وقمر المحبة، ونجوم القُرب... إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف؛ فَمِنْ مُنْكِرٍ يجحد الطريقة، ومِنْ مُعترِضٍ يعترض على أهلها يتوهَّم نقصانهم في القيام بحق الشريعة، ومن متعسِّفٍ لا يخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقِّ أولياءَه بالأحوال السنية، قال قائلهم:

قد سَحبَ الناسُ أذيال الظنون بنا ... وفَرَّقَ الناسُ فينا قولهم فِرَقَا

فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غَيْرتكم ... وصادقٌ ليس يدري أنه صَدَقَا

قوله جلّ ذكره: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

أي يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِف، وذلك أنهم كانوا يصدُّون الناسَ عنه ويقولون: إنه لمجنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾.

لُعِنَ الكذَّابون الذين هم في غمرة الضلالة وظلمة الجهالة ساهون لاهون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

يسألون أيان يومُ القيامة؟؛ يستعجلون بها، فلأَجْلِ تكذيبهم بها كانت نفوسُهم لا تسكن إليها. ويوم هم على النار يُحْرَقون ويُعَذَّبون يقال لهم: قاسوا عقوبتكم، هذا الذي كنتم به تَسْتَعْجِلون.

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبون في أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب، ويكذبون على الله فيما يدّعونه من الأحوال... قُتِلُوا ولُعِنوا... وسيلقون غِبَّ تلبيسهم بما يُحْرَمون من اشتمام رائحة الصدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

في عاجلهم في جنّاتِ وَصْلِهم، وفي آجلهم في جنّاتِ فَضْلِهم؛ فغداً درجات ونجاة، واليومَ قُرُبات ومناجاة، فما هو مؤجّلٌ حظُّ أنفسِهم، وما هو معجّلٌ حقُّ ربِّهم. هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم؛ يأخذون نصيبه منه بِيَدِ الشكر والحمد، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفد.

ومَنْ كان اليومَ آخذه بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان. كان غداً آخذه بلا واسطة في الجنان عند اللقاء والعيان. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا[1] ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا... فهم كما في الخبر: «أعبد الله كأنك تراه...»[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

المعنى إمّا: كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أو: كان نومُهم بالليل قليلاً، أو: كانوا لا ينامون بالليل قليلاً.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: أخبر عنهم أنهم - مع تهجدهم ودُعائهم - يُنْزِلون أنفسَهم في الأسحار منزِلةَ العاصين، فيستغفرون استصغاراً لِقدْرِهم، واستحقاراً لِفعْلهم.

والليلُ... للأحباب في أُنْس المناجاة، وللعصاة في طلب النجاة. والسهرُ لهم

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: سُئل يحيى بن معاذ عن العارف فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان. (الرسالة القشيرية ص٣١٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ١٣٢)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٢/ ٤٠، ٤/ ٢١٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٣٠٩٦، ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٢٦٨، ٣/ ٥٩٢، ٤/ ٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ١٧٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ١١٥) وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٢٣٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ١٢٤، ٧/ ٤٥٣، ١٠/ ٥٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٠٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٩٩) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٥٠، ٥٢٥١، ٥٢٥٦، ٥٢٧٩، ٤٤١٥٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/ ٢٢٥).

في لياليهم دائماً؛ إمّا لفَرْطِ أَسَفٍ أو لِشدَّةِ لَهَفٍ، وإمّا لاشتياقٍ أو لفراقٍ ـ كما قالوا:

كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها   أفنيتُها قابضاً على كبدي
قد غُصَّت العينُ بالدموعِ وقد   وَضَعْتُ خدي على بنان يدي

وإمّا لكمال أُنسٍ وطيب روح ـ كما قالوا:

سقى اللَّهُ عيشاً قصيراً مضى   زمانَ الهوى في الصبا والمجون
لياليه تحكي انسدادَ لحاظٍ   لَعينِي عند ارتداد الجفون

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

السائلُ هو المُتكفِّف، والمحرومُ هو المتعفِّف ـ ويقال هو الذي يحرم نفسه بترك السؤال. . . هؤلاء هم الذين يُعْطَون بشرط العلم، فأمَّا أصحابُ المروءة: فغير المستحق لمالهم أَوْلَى من المستحق. وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة؛ لأنهم أهل الإيثار ـ في الوقت ـ لكلِّ ما يُفْتَحُ عليهم به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

كما أَنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمّل كلَّ أحد.

ومَنْ استثقل أحداً أو تبرّمَ برؤية أحدٍ فلِغَيْبته عن الحقيقة، ولمطالعته الخَلْقَ بعين التفرقة ـ وأهلُ الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة.

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة ـ ومع ذلك تُنْبِتُ كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ. . . كذلك العارف يتشرب كلَّ ما يُسْقَى من الجفاء، ولا يترشح إلَّا بكل خُلُقٍ عَلِيٍّ وشيمةٍ زكيَّة(١).

ومن الآيات التي في الأرضِ أنَّ ما كان منها سبخاً يُتْرَكُ ولا يُعَمَّر لأنه لا يحتمل العمارة ـ كذلك الذي لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَل، فمقابلته بهذه الصفة كإلقاء البذر في الأرض السبخة.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي وفي أنفسكم أيضاً آيات، فمنها وقاحتها في همتها، ووقاحتها في صفتها، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أَنَّ ذَرَّةَ أو (. . .)(٢) بها أو منها.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التصوف: قال الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطْرَح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال أيضاً إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يُظل كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء، وقال: إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أن باطنه خراب. (الرسالة القشيرية ص٢٨١).

(٢) بياض في الأصل.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: أي قسمة أرزاقكم في السماء، فالملائكة الموكَّلون بالأرزاق ينزلون من السماء.

ويقال: السماء ها هنا المطر، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى.

ويقال: على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمِنَها.

ويقال: قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ وها هنا وقف ثم تبتدىء: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾.

أي: إنَّ البعثَ والنشرَ لَحَقٌّ.

ويقال: إنَّ نصري لمحمدٍ ولديني، وللذي أتاكم به من الأحكام ـ لحقٌّ مثل ما أنَّكم تنطقون.

كما يقال: هذا حقٌّ مثل ما أنك ها هنا.

ويقال: معناه: «أنَّ اللَّهَ رازقُكم» ـ هذا القولُ حقٌّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُم: مَنْ ربُّكم؟ ومَنْ خالقكم؟ قلتم: الله... فكما أنكم تقولون: إن الله خالق ـ وهذا حقٌّ... كذلك القولُ بأَنَّ اللَّهَ رازقٌ ـ هو أيضاً حقٌّ.

ويقال: كما أنَّ نُطْقَكَ لا يتكلم به غيرُك فرزقُكَ لا يأكله غيرك.

ويقال: الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء، ولا سبيلَ لك إلى العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تتعنَّى في طلب ما لا تصل إليه.

ويقال: في السماء رزقكم، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكم... فإنْ أرَدْتَ أنْ ينزلَ عليكَ رزقُك فأَصْعِدْ إلى السماءِ عَمَلكَ ـ ولهذا قالوا: الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق، وقال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ [طه: ١٣٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

قيل في التفاسير: لم يكن قد أتاه خبرُهم قبل نزول هذه الآية.

وقيل: كان عددُهم اثني عشر مَلَكاً. وقيل: جبريل وكان معه سبعة. وقيل: كانوا ثلاثة.

وقوله: ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ قيل لقيامه ـ عليه السلام ـ بخدمتهم. وقيل: أكرم الضيفَ بطلاقة وجهه، والاستبشار بوفودهم.

وقيل: لم يتكلَّف إبراهيمُ لهم، وما اعتذر إليهم ـ وهذا هو إكرام الضيف ـ حتى لا تكون من المضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها.

ويقال: سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوِّ عند الكرام كريم.

ويقال: ضيفُ الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال: المكرمين عند الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

أي سلَّمنا عليك ﴿سَلَـٰمًا﴾ فقال إبراهيم: لكم مني ﴿سَلَـٰمًا﴾.

وقولُهم: ﴿سَلَـٰمًا﴾ أي لك منّا سلام، لأنَّ السلامَ: الأمانُ.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي أنتم قوم منكرون؛ لأنه لم يكن يعرف مِثلَهم في الأضياف. ويقال: غُرَبَاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

أي عَدَلَ إليهم من حيث لا يعلمون وكذلك يكون الروغان.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فشواه، وقرَّبه منهم وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وحين امتنعوا عن الأكل:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

تَوَهَّمَ أنهم لصوص فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾: أي بَشَّروه بالوَلد، وببقاء هذا الوَلَدِ إلى أن يصير عليماً؛ والعليم مبالغة من العلم، وإنما يصير عليماً بعد كبره.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي في صيحة شديدة، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي فضربت وجهها بيدها كفعل النساء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: أي أنا عجوز عقيم. وقيل: إنها يومَها كانت ابنةَ ثمانٍ وتسعين سنة، وكان إبراهيمُ ابنَ تسع وتسعين سنة.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي قلنا لكِ كما قال ربُّكِ لنا، وأنْ نُخبِرَكِ أنَّ اللَّهَ هو المُحْكِمُ لأفعالِه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ؟﴾.

سألهم: ما شأنُكم؟ وما أمرُكم؟ وبماذا أُرسِلتُم؟

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

هم قوم لوط، ولم نجد فيها غيرَ لوطٍ ومَنْ آمن به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون ـ دون القاسية قلوبهم[1].

---

(١) الآيات من (٣٩ حتى ٤٦) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

أي بحجة ظاهرة باهرة.

... إلى قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]: أي جعلنا بينها وبين الأرض سعة، «وإنا لقادرون»: على أن نزيد في تلك السعة.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

أي جعلناها مهاداً لكم ثم أثنى على نَفسه قائلاً: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

دلَّ بهذا كلِّه على كمال قدرته، وعلى تمام فضله ورحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي صنفين في الحيوان كالذَّكرِ والأنثى، وفي غير الحيوانِ؛ كالحركة والسكون، والسواد والبياض، وأصناف المتضادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي فارجعوا إلى الله ـ والإنسان بإحدى حالتين؛ إمَّا حالة رغبةٍ في شيءٍ، أو حالة رهبة من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جَلْبِ نَفعٍ أو رفع ضُرٍّ... وفي الحالتين ينبغي أَنْ يكونَ فِرارُه إلى الله؛ فإنَّ النافعَ والضارَّ هو اللَّهُ.

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرارُه إلى اللَّهِ صَحَّ قَرارُه مع الله.

ويقال: يجب على العبد أَنْ يفرَّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التُّقى، ومن الشكِّ إلى اليقين، ومن الشيطانِ إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أَنْ يفرَّ من فعله ـ الذيْ هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه ـ حيث قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى نفسه حيث قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أُخَوِّفُكم أليمَ عقوبته إنْ أشركتُم به ـ فإنَّه لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به.

ثم بيَّنَ أنه على ذلك جرَت عادتُهم في تكذيب الرُّسُل، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

فأَعْرِضْ عنهم فليست تلحقك ـ بسوء صنيعهم ـ ملامةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذَكِّر العاصين عقوبتِي ليرجعوا عن خالفةِ أمري، وذَكِّر المطيعين جزيلَ ثوابي ليزدادوا طاعةً وعبادةً، وذَكِّرْ العارفين ما صَرَفْتُ عنهم من بلائي، وذكِّرْ الأغنياء ما

أَتَحتُ لهم من إحساني وعطائي، وذَكَّر الفقراء ما أوجبْتُ لهم من صَرْفِ الدنيا عنهم وأَعْدَدْتُ له من لقائي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

الذين اصطفيْتُهم في آزالي، وخَصَصْتُهم - اليومَ - بحسْنِ إقبالي، ووعدْتُهم جزيلَ أفضالي - ما خَلَقْتُهم إلّا ليعبدونِ.

والذين سخطت عليهم في آزالي، وربطتهم - اليوم - بالخذلان فيما كلّفتهم من أعمالي، وخَلَقْتُ النارَ لهم - بحُكْم إلهيتي ووجوب حُكْمي في سلطاني - ما خلقتهم إلا لعذابي وأنكالي، وما أَعْدَدْتُ لهم من سلاسلي وأغلالي.

ما أريد منهم أَنْ يُطْعِموا أو يرزقوا أحداً من عبادي فإنَّ الرزَّاقَ أنا.

وما أريد أن يطعمونِ فإنني أنا اللّهُ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾: المتينُ القَوِى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾.

لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ من أصحابهم من الكفار فلِمَ استعجالُ العذابِ - والعذابُ لن يفوتَهم؟.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

وهو يوم القيامة.

سورة الطُّور

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ ما استولت على قلبِ عارفٍ إلّا تَيَّمَتْه بكشف جلاله، وما استولت على قلب مُتَأَفِّفٍ إلّا أكرمته بلطف أفضاله... فهي كلمةٌ قهّارةٌ للقلوب.. ولكن لا لكلِّ قلب، مُذْهَبةٌ للكروب... ولكن لا لكلِّ كرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾.

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة)، وجواب القَسَم قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾. والطورُ هو الجبلُ الذي كُلِّم عليه موسى عليه السلام؛ لأنه مَحَلُّ قَدَم الأحبابِ وقتَ سماع الخطاب. ولأنه الموضعُ الذي سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ محمدٍ ﷺ وذِكْرَ أُمَّته حتى نادانا ونحن في أصلاب آبائنا فقال: أعطيتكم قبل أن تسألوني ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ.

وقيل: كتاب الملائكة في السماء يقرؤون منه ما كان وما يكون.

ويقال: ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده.

ويقال ما كتب من قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

ويقال: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويقال: الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعْطَى لعباده بأيْمانهم وشمائلهم يوم القيامة. ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾[2] يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾.

---

(١) أخرجه الحميدي في (المسند ١١٢٦)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٢٧٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٥٥٦، ١٠/٥٥٨)، وابن أبي الدنيا في (حسن الظن ١٣) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٩٦).

(٢) الرَّق: الصحيفة البيضاء أو هو ما يُكتب فيه وهو جلد رقيق. وقيل: الرق الصحائف التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشمال. (لسان العرب ١٠/١٢٣ مادة: رقق).

في السماء الرابعة ويقال: هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته. ويقال: هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم. وقيل: الكعبة.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾.

هي السماء. وقيل سماء هِمَمِهم في الملكوت.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾.

البحار المملوءة.

أقسم بهذه الأشياء: ﴿إنّ عذابَه لواقع﴾ وعذابُه في الظاهر ما توعَّدَ به عبادَه العاصين، وفي الباطن الحجابُ بعد الحضور، والسترُ بعد الكشف، والردُّ بعد القبول.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾.

إذا رَدَّ عَبْداً أبرمَ القضاءَ بردِّه:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن إليـه بـوجـه آخَـر ـ الـدهـر ـ تُـقْـبِـلُ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾.

﴿تَمُورُ﴾: أي تدور بما فيها، وتسير الجبالُ عن أماكنها، فتسير سيراً.

﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾.

الويلُ كلمة تقولها العرب لمن وقع في الهلاك.

﴿فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾: في باطل التكذيب يخوضون.

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾.

يومَ يُدْفَعون إلى النارِ دَفْعاً، ويقال لهم: هذه هي النار التي كنتم بها تكذِّبون...

ثم يسألون: أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غُطِّيَ على أبصاركم؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لا قيمة له، لأنَّ عذابَهم عقوبةٌ لهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي مُعْجَبِين بما آتاهم ربهم وما أعطاهم.

ويقال: فاكهون: أي ذوو فاكهة: كقولهم رجل تامر أي ذو تمر، ولابنٌ أي ذو لَبن.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطَعْمِه ولَذَّتِه، وقومٌ يصير هنيئاً لهم سماعُ قولهم عنه ـ سبحانه ـ هنيئاً، وقوم يصير لهم ذلك هيناً ليّناً وهم بمشهد منه:

فاشرب على وجهها كَغُرَّتِها مُدامةً في الكؤوس كالشَّررِ[1]

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

يظلُّون في سرور وحبور، ونصيب من الأنس موفور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

يُكملُ عليهم سرورهم بأَنْ يُلْحِق بهم ذُرِّياتِهم؛ فإنَّ الانفرادَ بالنعمة عَمَّنْ القلبُ مشتغِلٌ به من الأهل والولد والذرية يوجِب تَنَغص العيش.

وكذلك كلُّ مَن قلبُ الوليّ يلاحِظه من صديقٍ وقريب، ووليٍّ وخادم، قال تعالى في قصة يوسف: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

وفي هذا المعنى قالوا:

إنيّ على جفواتها ـ فبربِّها وبكلِّ مُتَّصلٍ بها متوسِّلِ
لأُحبها، وأُحِبُّ منزلَها الذي نزلت به وأحب أهل المنزلِ

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي ما أنقصنا من أجورهم من شيءٍ بل وفينا ووفَّرنا. وفي الابتداء نحن أَوْلينا وزدنا على ما أعطينا.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مُطالَبٌ بعمله، يوفىَّ عليه أَجره بلا تأخير، وإنْ كان ذنباً فالكثيرُ منه مغفور، كما أنه اليوم مستور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

أي لا يجري بينهم باطلٌ ولا يؤثمهم كما يجري بين الشَّربِ[2] في الدنيا، ولا يَذْهبُ الشُّرْبُ بعقولهم فيجري بينهم ما يُخرِجهم عن حَدِّ الأدبِ والاستقامة.

وكيف لا يكون مجلِسهم بهذه الصفة ومِن المعلوم من يسقيهم، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه؟.

---

(١) المُدامة: الخمر، الشرر: ما تطاير من النار، واحدته شررة.

(٢) الشَّرْب: القوم يشربون، ويجتمعون على الشراب. (لسان العرب ١/٤٨٨ مادة: شرب).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

والقومُ عن الدارِ وعمَّن في الدار مُخْتَطَفُون لاستيلاء ما يستغرقهم؛ فالشرابُ يؤنِسُهم ولكن لا بِمَنْ يجانسهم؛ وإذا كان ـ اليومَ ـ للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعةُ امتناع عن سماع خطاب الأغيار، وشهود واحدٍ من المخلوقين ـ وإنْ كان ولداً عزيزاً، أو أخاً شفيقاً ـ فمِنَ المحال أنْ يُظَنّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى... إنْ كان من أهل القبول والجنة، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة.

وإذا كان العبدُ في الدنيا يقاسي في غُرْبته من مُقَاساة اللتيا والتي ـ فماذا يجب أن يقال إذا رجع إلى منزله؟ أيبقى على ما كان عليه في سفرته؟ أم يلقى غير ما كان يقاسي في سَفْرته، ويتجرع غير ما كان يُسْقى من كاسات كُرْبته؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾.

لولا أَنهم قالوا: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ لكانوا قد لاحظوا إشفاقَهم، ولَكن الحقّ ـ سبحانه ـ اختطفهم عن شُهود إشفاقهم؛ حيث أَشهدهم مِنَّته عليهم حتى قالوا: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

أي أنهم يعلمون أَنَّكَ ليست بك كَهَانةٌ ولا جُنونٌ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه؛ فالسّفيهُ يبسط لسانَه فيمن يَسُبُّه بما يعلم أنه منه بريء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

نتربص به حوادث الأيام؛ فإنّ مِثْل هذا لا يدوم، وسيموت كما مات مِنْ قبْله كُهّانٌ وشعراء.

ويقال: قالوا: إنَّ أباه مات شاباً، ورَجَوْا أَنْ يموت كما مات أبوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا...﴾ فإننا منتظرون، وجاء في التفسير أَنّ جميعَهم ماتوا. فلا ينبغي لأحدٍ أن يُؤَمِّلَ موتَ أحدٍ. فقَلّ مَنْ تكون هذه صَنعتُه إلّا سَبقَتْه المَنيَّةُ ـ دون أَنْ يُدْرِكَ ما يتمنّاه مِنْ الأمنيّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أتأمرهم عقولهم بهذا؟ أَم تحملهم مجَاوزة الحدّ في ضلالهم وطغيانهم عَلَى هذا؟

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول من ذاتِ نَفْسك فليأتوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانوا صادقين فيما رَمَوْك به!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .

كلّا ليس الأمرُ كذلك، بل اللَّهُ هو الخالق وهم المخلوقون[1] .

أم هم الذين خلقوا السمواتِ والأرضَ؟ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ .

- أي خزائن أرزاقه ومقدوراته؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المُتَسلِّطون عَلَى الناس؟ .

أم لهم سُلّمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجري في السموات؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم إنه سفهَ أحلامهم فقال:

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ .

أم تسألهم عَلَى تبليغ الرسالة أجراً فهم مثقلون من الغُرْم والإلزام في المال (بحيث يزهدهم ذلك في اتباعك؟).

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ذلك؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي أن يمكروا بك مكراً ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ .

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يفعل شيئاً مما يفعل الله؟ تنزيهاً له عن ذلك! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ .

أي إنْ رأَوْا قطعةً من السماء ساقطةً عليهم قالوا: إنه سحابٌ مركوم رُكم بعضه عَلَى بعض والمقصود أنهم مهما رَأَوْا من الآيات لا يُؤمِنون. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى شاهدوا بالعين لقالوا: إنما سُكِرَتْ أبصارنا، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

أي فأعرضْ عنهم حتى يُلاقوا يومَهم الذي فيه يموتون، يوم لا يُغْني عنهم كيدُهم شيئاً، ولا يُمنَعون من عذابنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

دونَ يوم القيامة لهم عذابُ القَتْلِ والسَّبْيِ، وما نَزَلَ بهم من الهوان والخزي يوم بدر وغيره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنَّ اللَّهَ ناصرٌ لدينه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .

أنت بمرأىً مِنّا، وفي نصرةٍ منّا.

---

(١) الآية (٣٦) لم ترد.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: في هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسي الصبر.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

أي تقوم للصلاةِ المفروضةِ عليك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾.

قيل: المغرب والعشاء وركعتا الفجر.

وفي الآيةِ دليل وإشارة إلى أنه أَمَرَه أَنْ يَذْكُرَه في كلِّ وقت، وألا يخلوَ وقتٌ من ذِكْره.

والصبرُ لحُكمِ اللَّهِ شديدٌ، ولكن إذا عَرَفَ اطلاعَ الربِّ عليه سَهُلَ عليه ذلك وهان.

سورة النَّجْم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ حليمٌ رحيمٌ، يحلم فيما يعلم، ويستر ما يبصر ويغفر، وعَلَى العقوبة يقْدِرُ، يَرَى ويُخْفى، ويَعْلم ولا يُبْدِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

والثريا إذا سقط وغرب. ويقال: هو جِنْسُ النجوم أقسم بها.

ويقال: هي الكواكب. ويقال: أقسم بنجوم القرآن عَلَى النبي ﷺ ويقال هي الكواكب التي تُرمَى بها الشياطين.

ويقال أقسم بالنبي ﷺ عند مُنَصَرفهِ من المعراج.

ويقال: أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقولِ الطالبين.

وجوابُ القسَم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: أي ما ضَلَّ عن التوحيد قط، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: الغيُّ: نقيضُ الرُّشد.. وفي هذا تخصيصٌ للنبي ﷺ حيث تولّى ـ سبحانه ـ الذّبّ عنه فيما رُميَ به، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأذِنَ له حتى قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، وهود قال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]. وغير ذلك، وموسى قال لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال لنبينا ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: معناه ما ضلَّ صاحبُكم، ولا غَفَلَ عن الشهود طَرْفَةَ عينٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أي ما ينطق بالهوى، وما هذا القرآنُ إلا وحيٌ يُوحَى. وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة؛ إذ قال لداود: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

وقال في صفة نبيّنا ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

﴿ومتى ينطق عن الهوى﴾ وهو في محل النجوى؟ في الظاهر مزمومٌ بِزِمام التقوى، وفي السرائر في إيواء المولى، مُصَفًّى عن كدورات البشرية، مُرَقًّى إلى شهود الأَحَدِية، مُكاشَفٌ بجلالِ الصمدية، مُخْتَطفٌ عنه بالكُلِّيَّة، لم تبقَ منه إلا للحقِّ بالحقِّ بقية... ومَنْ كان بهذا النعت... متى ينطق عن الهوى؟

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.

أي جبريل عليه السلام. و ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾: أي ذو قوة وهو جبريل. ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي جبريل.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

دنا جبريلُ من محمدٍ عليه السلام، فتدلَّى جبريلُ: أي نَزَلَ من العُلُوّ إلى محمد.

وقيل: «تدلَّى» تفيد الزيادةَ في القُرْب، وأَنَّ محمداً عليه السلام هو الذي دنا من ربِّه دُنُوَّ كرامة، وأَنَّ التدلِّي هنا معناها السجود.

ويقال: دنا محمدٌ من ربِّه بما أُودِعَ من لطائفِ المعرفة وزوائِدِها، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾: فكان جبريل ـ وهو في صورته التي هو عليها ـ من محمد ﷺ بحيث كان بينهما قَدْرُ قوسين أو أدنى.

ويقال: كان بينه ـ ﷺ ـ وبين الله قَدْر قوسين: أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ مسافة.

ويقال: كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيقَ الأُلْفَةِ بينهم إلصاقُ أحدِهم قوسَه بقوس صاحبه عبارةً عن عقد الموالاة بينهما، وأنزل اللَّهُ ـ سبحانه ـ هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم. ثم رفع اللَّهُ هذا فقال: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بل أدنى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾.

أي أوحى اللَّهُ إلى محمدٍ ما أوحى. ويقال: أَحْمَلَه أحْمَالاً لم يَطَّلِعْ عليها أحدٌ.

ويقال: قال له: ألم أجدك يتيماً فآويتُك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتُك؟

أَلم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ أَلم أشرح لك صدرك؟

ويقال: بَشَّرَه بالحوض والكوثر.

ويقال: أوحى إليه أَنَّ الجنَّةَ مُحَرَّمةٌ عَلَى الأنبياءِ حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أُمتُّك. والأَوْلَى أن يقال: هذا الذي قالوه كله حَسَنٌ، وغيره مما لم يَطَّلِعْ أحدٌ... كله أيضاً كان له في تلك الليلة وحدَه؛ إذ رقَّاه إلى ما رقَّاه، ولقَّاه بما لقَّاه، وأدناه حيث لا دنوٌ قبله ولا بعده، وأخذه عنه حيث لا غيرٌ، وأصحاه له في عين ما محاه عنه، وقال له ما قال... دون أن يَطَّلِعَ أحدٌ على ما كان بينهما من السِّرِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

ما كذَّبَ فؤادُ محمدٍ ﷺ ما رآه ببصره من الآيات. وكذلك يقال: رأى ربَّه تلك الليلة على الوصف الذي عَلِمَه قبل أن يراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

أفتجادلونه على ما يرى؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

أي جبريلُ رأى اللَّهَ مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرة المنتهى؛ وهي شجرة في الجنة، وهي منتهى الملائكة، وقيل: تنتهي إليها أرواحُ الشهداء. ويقال: تنتهي إليها أرواحُ الخَلْقِ، ولا يَعْلم ما وراءها إلا الله تعالى ـ وعندها ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وهي جنة من الجِنان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾.

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به.

وفي خبر: «يغشاها رفرف طير خُضْرٍ».

ويقال: يغشاها فَرَاشٌ من ذَهَبٍ.

ويقال: أُعْطِيَ رسول الله (ﷺ) عندها خواتيم البقرة، وغُفِرَ لمن مات من أُمَّتِه لا يشرك بالله شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

ما مَالَ ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ببصره عمَّا أُبيح له من النظر إلى الآيات، والاعتبارِ بدلائلها.

فما جَاوَزَ حَدَّه، بل رَاعَى شروطَ الأدبِ في الحَضْرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

أي «الآية» الكبرى، وحَذَفَ الآية... وهي تلك التي رآها في هذه الليلة. ويقال: هي بقاؤه في حال لقائه ربَّه بوصفِ الصَّحْوِ، وحَفِظَه حتى رآه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها؛ فاللات صنمٌ لثقيف، والعُزَّى شجرةٌ لغطفان، ومناة صخرة لهذيل وخزاعة.

ومعنى الآية: أَخْبِرونا... هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بعائذٍ بها ما فَعَلْنا نحن لمحمدٍ ﷺ من الرُّتب والتخصيص؟.

ثم وبَّخهم فقال: أرأيتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله؟ تلك إذاً قسمةٌ ناقصةٌ!

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أنتم ابتدعتُم هذه الأسماءَ من غير أنْ يكونَ اللَّهُ أَمَرَكم بهذا، أو أَذِنَ لكم به.

فأنتم تتبعون الظنَّ، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: فأعرضوا عنه، وكما أنَّ ظنَّ الكفار أوْجبَ لهم الجهلَ والحَيْرةَ والحُكْمَ بالخطأ ـ فكذلك في هذه الطريقة: مَنْ عرَّجَ على أوصاف الظنِّ لا يَحظَى بشيءٍ من الحقيقة؛ فليس في هذا الحديث إلا القطعُ والتحقُّق، فنهارُهم قد مَتَعَ، وشمسُهم قد طلعت، وعلومُهم أكثرها صارت ضرورية.

أمَّا الظنُّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب، والتباسُ عاقبةِ الرجلِ عليه ليس أيضاً من هذه الجملة ذات الظن المعلول في الله، وفي صفاته وأحكامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾.

أي ليس للإنسان ما يتمنَّاه؛ فإنَّه يتمنى طولَ الحياةِ والرفاهيةَ وخِصْبَ العَيْشِ... وما لا نهاية له، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه.

ويقال: ما يتمنَّاه الإنسانُ أنْ يرتفعَ مرادُه واجباً في كل شيء ـ وأَن يرتفعَ مرادُ عَبْدٍ واجباً في كل شيءٍ ليس من صفات الخَلْقِ بل هو الله، الذي له ما يشاء:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

له الآخرةُ والأُولى خَلْقاً ومِلْكاً، فهو المَلِكُ المالك صاحبُ المُلْكِ التام. فأمَّا المخلوقُ فالنقصُ لازمٌ للكُلِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

وهذا ردٌّ عليهم حيث قالوا: إنَّ الملائكةَ شفعاؤنا عند الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

هذه التَّسْمِيةُ من عندهم، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً... بل ظنًّا ـ والظنُّ لا يفيد شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

أي أَعْرِض عمَّن أعرض عن القرآنِ والإيمان به وتدبُّرِ معانيه، ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة، وإنَّ ربَّك عليمٌ بالضالّ، عليمٌ بالمهتدِي... وهو يجازي كلاً بما يستحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

يجزي الذين أساؤوا بالعقوبات، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾.

الذنوبُ كلُّها كبائر لأنها مخالِفةٌ لأمر الله، ولكن بعضَها أكبرُ من بعضٍ. ولا شيءَ أعظمُ من الشِّرك. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ المعاصي.

﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش.

ويقال: اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً ـ فأخبر أنه يغفرها.

ويقال: اللمم هو أن يأتيَ المرءُ ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة.

وقال بعضُ السَّلَفِ: هو الوقعة من الزِّنا تحصل مرةً ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب الخمر، والسرقة... وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهم بالزَّلّة ثم لا يفعلها.

ويقال: هو النَّظَر. ويقال: ما لا حدَّ عليه من المعاصي، وتُكَفِّر عنه الصلوات. (والأصحُّ أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصي).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: يعني خَلْقَ آدم.

ويقال: تزكيةُ النَّفْسِ من علامات كَوْنِ المرءِ محجوباً عن الله؛ لأنَّ المجذوب إلى الغاية والمستغرق في شهود ربِّه لا يُزكِّي نفسه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾: لأنه أعلمُ بكم منكم.

ويقال: مَنْ اعتقد أنَّ على البسيطة أحداً شرٌّ منه فهو مُتَكبِّرٌ.

ويقال: المسلمُ يجب أنْ يكونَ بحيث يرى كلَّ مسلمٍ خيراً منه: فإن رأى

شيخاً، قال: هو أكثرُ منّي طاعةً وهو أفضلُ منّي، وإنْ رأى شاباً قال: هو أفضلُ مني لأنه أقلُّ منّي ذَنباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾.

أعرض عن الحقّ، وتصدَّق بالقليل. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي قطع عطاءَه.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾.

﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾: فهو يعلم صِحَّةَ ذلك. يقال: هو المنافق الذي يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك:

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾: فهو يرى حاله في الآخرة؟

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

أم لم يُنَبَّأْ هذا الكافرُ بما في صحف موسى، وصحف إبراهيم الذي وفَّى؛ أي أتمّ ما طُولِبَ به في نَفْسِه ومالِه ووَلَدِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

الناسُ في سَعْيِهم مختلِفون؛ فَمَنْ كان سعيُهُ في طلب الدنيا خَسِرت صفقتُه، ومن كان سعيُهُ في طَلَبِ الجنة ربحت صفقته، ومن كان سعيُهُ في رياضة نَفْسِه وصل إلى رضوان الله، ومَنْ كان سعيه في الإرادة شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَه ثم هداه إلى نَفْسِه.

وأمَّا المُذْنِبُ ـ فإذا كان سعيُهُ في طلب غفرانه، ونَدَمِ القلبِ على ما اسودَّ من ديوانه، فسوف يجد من الله الثوابَ والقربة والكرامة والزلفة.

ومَنْ كان سَعْيُه في عَدِّ أنفاسِه مع الله؛ لا يُعَرِّج على تقصير، ولا يُفَرِّط في مأمور فسيرى جزاءَ سَعْيِهِ مشكوراً في الدنيا والآخرة، ثم يشكره بأَنْ يُخاطِبَه في ذلك المعنى بإسماعِهِ كلامَه من غير واسطة: عبدي، سَعْيُك مشكور، عبدي، ذَنْبُكَ مغفور.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾: هو الجزاءُ الأكبرُ والأَجَلُّ، جزاءٌ غير مقطوعٍ ولا ممنوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

إليه المرجعُ والمصيرُ، فابتداءُ الأشياءِ من الله خَلْقاً، وانتهاءُ الأشياءِ إلى الله مصيراً.

ويقال: إذا انتهى الكلامُ إلى اللّهِ تعالى فاسْكُتوا.

ويقال: إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفةِ الله فليس بعدَه شيءٌ إلا ألطافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ. . . يُجْريها على مرادِه ـ وهي حظوظٌ للعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

أراد به الضحك والبكاء المتعارَف عليهما بين الناس؛ فهو الذي يُجْريه ويَخْلُقُه.

ويقال: أضحك الأرضَ بالنباتِ، وأبكى السماءَ بالمطرِ.

ويقال: أضحك أهلَ الجنة بالجنة، وأبكى أهل النار بالنار.

ويقال: أضحك المؤمنَ في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافرَ في الدنيا وأبكاه في الآخرة.

ويقال: أضحكهم في الظاهر، وأبكاهم بقلوبهم.

ويقال: أضحك المؤمنَ في الآخرة بغفرانه، وأبكى الكافرَ بهوانه.

ويقال: أضحك قلوبَ العارِفين بالرضا، وأبكى عيونهم بخوف الفراق.

ويقال: أضحكهم برحمته، وأبكى الأعداءَ بسخطه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

أماته في الدنيا، وأحياه في القبر؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة.

ويقال: أماته في الدنيا، وأحياه في الحشر.

ويقال: أمات نفوسَ الزاهدين بالمجاهدة، وأحيا قلوبَ العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات نفوسَهم بالمعاملات، وأحيا قلوبهم بالمواصلات.

ويقال: أماتها بالهيبة، وأحياها بالأُنْس.

ويقال: بالاستتار، والتجلّي.

ويقال: بالإعراض عنه، والإقبال عليه.

ويقال: بالطاعة، والمعصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾.

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلْقهما من النُّطْفة[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾.

﴿أَغْنَىٰ﴾: أعطى الغِنَى، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أكثر القنية أي المال. وقيل ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أي أحوجه إلى المال ـ فعلى هذا يكون المعنى: أنه خَلَقَ الغِنَى والفقر.

ويقال: ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي أرضاه بما أعطاه.

ويقال: ﴿أَغْنَىٰ﴾ أي أقنع، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أي أرضى.

---

(١) الآيتان (٤٦، ٤٧) لم تردا.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾.

(الشِّعرى: كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء[1] في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبدها فأَعْلَمَ اللّهُ أنه ربُّ معبودهم هذا).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾.

عاد الأولى هم قوم هود، وعاد الأخرى هي إرَم ذات العماد، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً. وأهْلَكَ مِنْ قَبْلِهم قومَ نوحٍ الذين كانوا أظلمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم، وقوة أجسادهم.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

أي المخسوف بها، وهي قرى قوم لوط، قَلَبَها جبريل عليهم، فهي مقلوبة معكوسة.

وقوله: ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي: أسقطها اللّهُ إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها، ثم عَكَسَها وألقاها في الأرض، فغشاها ما غشاها من العذاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

فبأي آلاء ربك ـ أيها الإنسان ـ تتشكك؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامَه عليهم وإحسانَه إليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾.

هو محمد ﷺ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين.

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

أي قَرُبَت القيامة. ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردِّها وكَشْفِها إلا الله.

ويقال: إذا قامت قيامة هذه الطائفة ـ اليومَ ـ فليس لها كاشفٌ غيره. وقيامتُهم تقوم في اليومِ غيرَ مَرَّةٍ. تقوم بالهَجْرِ والنَّوى والفراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾.

أفمن هذا القرآن تعجبون، وتكونون في شكٍّ، وتستهزئون؟

﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾: أي لاهون..

﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ﴾: فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه.

---

(١) الجوزاء: أحد بروج السماء. ونطاق الجوزاء: ثلاثة نجوم نيرة مصطفة في وسط الجوزاء.

سورة القمر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: كلمة بها نور القلوب والأبصار، وبعرفانها يحصل سرورُ الأرواح والأسرار. كلمة تدلُّ على جلاله ـ الذي هو استحقاقه لأوصافه. كلمة تدل على نعته الذي هو غاية أفضاله وألطافه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

أجمع أهلُ التفسير على أنَّ القمرَ قد انشقَّ على عهد الرسول ﷺ.

قال ابن مسعود[١]: «رأيت حراء بين فلقتي القمر»[٢] ولم يوجد لابن مسعود مخالف في ذلك؛ فقد روي أيضاً عن أنس[٣] وابن عمر[٤] وحذيفة[٥] وابن عباس[٦] وجبير بن مطعم[٧].. كلهم رووا هذا الخبر.

---

(١) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (... ـ ٣٢ هـ = ... ـ ٦٥٣م) أبو عبد الرحمن، صحابي. من أكابرهم، فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سره. ورفيقه في حله وترحاله وغزواته. وولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً.
الأعلام ٤/ ١٣٧، والإصابة ت٤٩٥٥، وغاية النهاية ١/ ٤٥٨، وحلية الأولياء ١/ ١٢٤.

(٢) هناك روايات أخرى للحديث: «إذا انفلق، انشق، فانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين أو فلقتين...» أخرجه مسلم (منافقين ٤٤، ٤٥)، والترمذي (تفسير سورة ٥٤، ١)، وأحمد بن حنبل ١، ٤٤٧.

(٣) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري (١٠ ق.هـ ـ ٩٣ هـ = ٦١٢ ـ ٧١٢م) أبو ثمامة أو أبو حمزة. صاحب رسول الله ﷺ وخادمه. روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.
الأعلام ٢/ ٢٤، ٢٥، وطبقات ابن سعد ٧/ ١٠، وصفة الصفوة ١/ ٢٩٨، وتهذيب ابن عساكر ٣/ ١٣٩.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ١٠٨، والإصابة ت٤٨٢٥، وحلية ١/ ٢٩٢، وصفة الصفوة ١/ ٢٢٨.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام ٢/ ١٧١، وتهذيب التهذيب ٢/ ٢١٩، وحلية ١/ ٢٧٠، وصفة الصفوة ١/ ٢٤٩.

(٦) انظر ترجمته في الأعلام ٤/ ٩٥، وصفة الصفوة ١/ ٣١٤، وحلية ١/ ٣١٤، والإصابة ت٤٧٧٢.

(٧) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي (... ـ ٥٩ هـ = ... ـ ٦٧٩م) أبو عدي صحابي، كان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة. وعده الجاحظ من كبار النسابين. له ٦٠ حديثاً. =

وفيه إعجازٌ من وجهين: أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك، والثاني خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَه؛ لأنه لا ينكتم مثله في العادة فإذا خفي كان نقض العادة.

وأهل مكة رأوا ذلك، وقالوا: إنَّ محمداً قد سحر القمر.

ومعنى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: أي ما بقي من الزمانِ إلى القيامةِ إلا قليلٌ بالإضافةِ إلى ما مضى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

يعني أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظر فيها، ولو نظروا لحصل لهم العلمُ واجباً.

﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: أي دائمٌ قويٌّ شديد.. ويقال إنهم قالوا: هذا ذاهب لا تبقى مدته فاستمر: أي ذهب.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾: التكذيب واتباع الهوى قريبان؛ فإذا حَصَل اتباعُ الهوى فمِنْ شُؤمِه يحصل التكذيب؛ لأنَّ اللَّهَ يُلَبِّس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد.

أما اتباع الرضا فمقرونٌ بالتصديق؛ لأنَّ اللَّهَ ببركاتِ اتباع الحقِّ يفتح عينَ البصيرة فيحصل التصديق.

وكلُّ امرىءٍ جَرَتْ له القِسْمةُ والتقدير فلا محالةَ يستقر له حصولُ ما قُسِمَ وقدِّر له.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾: يستقر عملُ المؤمنِ فتُوجَبُ له الجنة، ويستقر عملُ الكافرِ فيُجازَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

جاءهم من أخبارِ الأنبياءِ والأممِ الذين مِنْ قَبْلِهم والأزمنةِ الماضية ما يجب أَنْ يحصلَ به الارتداعُ، ولكنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ أَسْبَلَ على بصائرهم سُجُوف[1] الجهلِ فعَموا عن مواضع الرشد.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ..﴾: بدل من (ما) فيما سبق: (ما فيه مزدجر).

= الأعلام ٢/ ١١٢، والإصابة ١/ ٢٣٥ وفيه: مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين.

(١) السجوف: (ج) السجف: أحد السترين المقرونين بينهما فرجة.

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكّر فيها.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾: وأي شيء يغني إنذارُ النذيرِ وقد سَبَقَ التقديرُ لهم بالشقاء؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: ها هنا تمام الكلام - أي فأعرِضْ عنهم، وهذا قبل الأمر بالقتال. ثم استأنف الكلامَ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ..﴾ والجواب: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ - أراد به يوم القيامة.

ومعنى ﴿نُّكُرٍ﴾: أي شيءٍ ينكرونه (بِهَوْله وفظاعته)[1] وهو يوم البعث والحشر.

وقوله: ﴿خُشَّعًا﴾ منصوب على الحال، أي يخرجون من الأجداث - وهي القبور - خاشعي الأبصار.

﴿... كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

كأنهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم، ﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أي مُديمي النظر إلى الداعي - وهو إسْرافيل.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: لتوالي الشدائد التي فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾.

كذب قوم نوح نبيَّهم، وقالوا: إنه مجنون، وزجروه وشتموه.

وقيل: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾: أي استطار عَقْلَهُ، أي قومُ نوحٍ قالوا له ذلك.

فدعا ربَّه فقال: إني مغلوب؛ أي بتسلُّطِ قومي عليَّ؛ فلم يكن مغلوباً بالحُجَّة لأنَّ الحُجَّةَ كانت عليهم، فقال نوح لله: اللهمَّ فانتَصِرْ منهم أي انْتَقِمْ.

ففتحنا أبواب السماء بماءٍ مُنْصَبٍّ، وشَقَقْنَا عيوناً بالماء، فالتقي ماء السماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ، وَقُدِرَ عليه بإهلاكهم!

وفي التفاسير: أن الماء الذي نَبَعَ من الأرضِ نَضَبَ. والماء الذي نزل من السماء هو البخارُ اليومَ.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

وحملنا نوحاً على ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أي سفينة، ﴿وَدُسُرٍ﴾ يعني المسامير وهي جمع دسار أي مسمار.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بمرأى مِنَّا. وقيل: تجري بأوليائنا.

ويقال: بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم.

ويقال: بأعين الماء الذي أنبعناه من أوجه الأرض.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾: أي الذين كفروا بنوح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

جعلنا أَمْرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَنْ يعتبر بها.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: فهل منكم من يعتبر؟. أَمَرَهم بالاعتبار بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

قالها على جهة التعظيم لأمره.

وقد ذَكَرَ قصة نوح هنا على أفصح بيانٍ وأقصرِ كلام وأَتَمّ معنًى.

وكان نوحٌ ـ عليه السلام ـ أطولَ الأنبياء عمراً، وَأَشَدَّهم للبلاءِ مقاساةً.

ثم إن اللَّهَ ـ سبحانه ـ لما نَجَّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام. وفي هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين، إذا لقوا في دين الله محنةً؛ فإنَّ الله يُهلِكُ ـ عن قريب ـ عَدوَّهم، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم.

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وسنةُ اللَّهِ في جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءَه بعد أن يزهق أعداءَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

يَسَّرنا قراءَته على ألسنةِ الناسِ، ويسَّرنا عِلْمه على قلوبِ قومٍ، ويسَّرنا فَهْمَه على قلوب قوم، ويَسَّرْنا حِفْظَه على قلوبِ قومٍ، وكلُّهم أهلُ القرآن، وكلُّهم أهلُ القرآن، وكلُّهم أهلُ الله وخاصته.

ويقال: كاشَفَ الأرواحَ من قومٍ ـ بالقرآن ـ قبل إدخالها في الأجساد.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ لهذا العهد الذي جرى لنا معه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾.

كَذَّبوا هوداً، فأرسلنا عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: باردةً شديدة الهُبوب، يُسْمَعُ لها صوت.

﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يوم شؤم استمرَّ فيه العذابُ بهم، ودام ذلك فيهم

ثمانيةَ أيام وسَبْعَ ليالٍ. وقيل: دائم الشؤم تنزع رياحُه الناسَ عن حُفَرِهم التي حفروها حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنقَطِع. وقيل: كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم ثم تُلْقي بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعتْ رؤوسُها.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

هَوَّنا قراءتَه وحِفْظَه؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقْرَأُ ظاهراً إلَّا القرآن.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

هم قوم صالح. وقد مضى القولُ فيه، وما كان من عقرهم للناقة.. إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك، فَصيَّرَهم كالهشيم، وهو اليابس من النبات، ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي: المجعول في الحظيرة، أو الحاصل في الحظيرة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

فأرسلنا عليهم ﴿حَاصِبًا﴾: أي: حجارةً رُمُوا بها.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾: أي: جعلنا إنجاءَهم في إهلاك أعدائهم.

وهكذا نجزي من شكر؛ فمثل هذا نعامِلُ به مَن شَكَرَ نعمتنا.

والشُّكْرُ على نِعَم الدفع أتمُّ من الشكر على نِعَم النفع ـ ولا يَعْرِفُ ذلك إلا كلُّ مُوَفَّق كَيِّس[2].

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

جاء جبريلُ ومَسَحَ بجناحه عَلَى وجوههم فَعمُوا، ولم يهتدوا للخروج ـ وكذلك أجرى سُنَّتَه في أوليائه أنْ يَطْمِسَ على قلوبِ أعدائهم حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أولياءَه ثم يُخَلِّصُهم من كيدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول ﷺ، وحقَّق ذلك يوم بَدر، فصار ذلك معجزاته صلوات الله عليه وسلامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾.

سَحْبُهم على الوجوهِ أمارةٌ لإذلالهم، ولو كان ذلك مرةً واحدةً لكانت عظيمة ـ فكيف وهو التأبيد والتخليد؟!

وكما أنّ أمارةَ الذُّلّ تظهر على وجوههم فعلامةُ إعزازِ المؤمنين وإكرامهم تظهر

---

(١) الآيات من (٢٥ حتى ٣٢) غير موجودة.

(٢) الآية (٣٦) لم ترد.

على وجوههم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]. وقال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

أي بِقَدَرٍ مكتوب في اللوح المحفوظ.

ويقال: خلقناه بقدر ما عَلِمْنا وأردْنا وأخبرْنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

أي إذا أردنا خَلْقَ شيءٍ لا يتعسَّرُ ولا يتعذَّرُ علينا، نقول له: كُنْ ـ فيكون بقدرتنا. ولا يقتضي هذا استئناف قولٍ في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القدم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يَحصل في ذلك الوقت.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: أي كما أن هذا القَدْرَ عندكم أي قَدْرَ ما يلمح أحدُكم ببصره لا تلحقكم به مشقةٌ ـ كذلك عندنا: إذا أردنا نخلق شيئاً ـ قلّ أو كَثُرَ، صَغُرَ أو كَبُرَ ـ لا تلحقنا فيه مشقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي أهلكنا القرونَ التي كانت قبلكم فكلُّهم أمثالكم من بني آدم...

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.

في اللوح المحفوظ مكتوبٌ قبل أن يعمله. وفي صحيفة الملائكة مكتوب. لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها..

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

كلُّ صغيرٍ من الخَلْق، وكلُّ كبيرٍ من الخَلْقِ ـ تخترمه المنيَّةُ.

ويقال: كلُّ صغيرٍ من الأعمال وكبيرٍ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وفي ديوان الملائكة.

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف؛ لئلا يتجاسر العبدُ على الزَّلَّةِ إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

لهم بساتين وأنهار، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالآحادُ تُقابَلُ بالآحاد.

فظاهرُ هذا الخطاب يقتضي أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونَهرٌ.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: أي في مجلس صِدْقٍ.

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: أراد به عِنْديَّةَ القُرْبة والزلفة.

ويقال: مقعد الصدق أي مكان الصدق، والصادق في عبادته مَنْ لا يتعبَّدُ على ملاحظة الأطماع ومطالعة الأعواض.

ويقال: مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْه الأطماع، ومَنْ صَدَقَ في العبوديَّة تحرَّرَ عن المقاصد الدَّنِيَّة.

ويقال: مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْه الدنيا عن الآخرة، ومَنْ أَسَرَه نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة، ومَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكوْن بجملته.

سورة الرحمن

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: إخبارٌ عن عِزِّه وعظمته.

«الرحمن الرحيم»: إخبارٌ عن فضله ورحمته.

فبشهود عظمته يكمل سرورُ الأرواح، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح. ولولا عظمته لما عَبَدَ الرحمنَ عابدٌ ولولا رحمتُه لما أحبَّ الرحمنَ واحدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أي الرحمن الذي عَرَفَه الموحِّدون وجَحَدَه الكافرون هو الذي علَّم القرآن. ويقال: الرحمن الذي رحمهم، وعن الشِّرك عَصَمَهم، وبالإيمان أكرمهم، وكلمةَ التقوى ألزمهم ـ هو الذي عرَّفهم بالقرآن وعلَّمهم.

ويقال: انفرد الحقُّ بتعليم القرآن لعِباده.

ويقال: أجرى اللَّهُ سُنَّتَه أنه إذا أعطى نبينا ﷺ شيئاً أَشْرَكَ أُمتَّه فيه على ما يليق بصفاتهم؛ فلمَّا قال له (ﷺ): ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

قال لأمته: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

ويقال: علَّم الله آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم أمره بِعَرْضها على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم ـ قال تعالى: ﴿أنبئني بأسماء هؤلاء﴾ [البقرة: ٣٣] يا آدم، وعلَّمَ (نبيُّنا ﷺ)[(١)] المسلمين القرآنَ فقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، والمُصَلِّي مُناجٍ ربه»[(٢)] قال لآدم: أُذْكرْ ما علَّمْتُكَ للملائكة. وقال لنا: ناجِني يا عبدي بما عَلَّمْتُك. وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخَدم بما لا يُلاطَفُ به آباؤهم.

ويقال: لمَّا علَّم آدمَ أسماءَ المخلوقاتِ قال له: أَخْبِرْ الملائكة بذلك، وعلَّمَنا كلامَه وأسماءَه فقال: اقْرَأوا عليَّ وخاطِبوا به معي.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣/ ٤٧، ٤٨)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/ ٢٥٢)، وأبو عوانة في (المسند ٢/ ١٢٥)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧/ ١٢٤)، وصاحب (الأذكار النووية ٤٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/ ١٤٣٧).

ويقال: علَّم الأرواحَ القرآن ـ قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة، والصبيانُ إنما يُعَلَّمُونَ القرآن ـ في حالِ صِغَرِهم ـ قبل أَنْ عَرَفَتْ أرواحُنا أحداً، أو سَمِعْنا من أحدٍ شيئاً. علَّمَنَا أسماءَه:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبي فارغاً فتَمَكَّنَا

ويقال: سقياً لأيامٍ مضت ـ وهو يُعلِّمنا القرآن.

ويقال: برحمته علَّمَهم القرآن؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن ـ لا بقراءة القرآن يَصِلُون إلى رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: ها هنا جِنسُ الناس؛ عَلَّمَهم البيانَ حتى صاروا مُمَيَّزين ـ فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان. وعَلَّمَ كُلَّ قومٍ لسانَهم الذي يتكلمون ويتخاطبون به.

والبيانُ ما به تبينُ المعاني ـ وشَرْحُه في مسائل الأصول.

ويقال: لمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعلِّمه بَشَرٌ ردَّ الله ـ سبحانه ـ عليهم وقال: بل عَلَّمَه اللَّهُ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ ﷺ. وقيل هو آدم عليه السلام.

ويقال: البيان الذي خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرِفُ به كيفيةَ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال. وأمَّا أهل الإيمان والمعرفة فبيانُهم هو عِلْمُهم كيفيةَ مخاطبةِ مولاهم ـ وبيانُ العبيدِ مع الحقِّ مختلفٌ: فقومٌ يخاطِبونه بلسانهم، وقومٌ بأنفاسهم، وقوم بدموعهم:

دموعُ الفتى عمَّا يحسُّ تترجمُ وأشواقه تبدين ما هو يكتم

وقومُ بأنينهم وحنينهم:

قُلْ لي بألسنة التنفُّس كيف أنت وكيف حالك؟

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

يعني يجري أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب في زيادة الليل والنهار، وزيادة القمر ونقصانه، وتُعْرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام. وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأَجَلُ. فالشمسُ تُكَوَّرُ والقمرُ يَنْكَدِر.

وكذلك لشمسِ المعارفِ وأقمارِ العلوم ـ في طلوعها في أوج القلوبِ والأسرار ـ في حكمة الله حسابٌ معلومٌ، يُجْريها على ما سَبَق به الحُكْمُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

ويقال: النجم من الأشجار: ما ليس له ساق، والشجر: ما له ساق.

ويقال: النجومُ الطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ ﴿يَسْجُدَانِ﴾ سجودَ دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

سَمَكَ السماءَ وأعلاها، وعلى وصفِ الإتقانِ والإحكام بناها، والنجومَ فيها أجراها، وبثَّ فيها كواكبَها، وحفظ عن الاختلالِ مناكِبَها، وأثبت على ما شاءَ مشارِقَها ومغاربَها.. وخَلَقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ في المعاملات بينهم.

ويقال: الميزانُ العَدْلُ.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾.

احفظوا العَدْل في جميع الأمور؛ في حقوق الآدميين وفي حقوق الله، فيعتبرُ العدلُ، وتَرْكُ الحَيْفِ ومجاوزةُ الحدِّ في كل شيءٍ؛ ففي الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاصُ، وفي الأحوال الصدقُ، وفي الأنفاس الحقائقُ ومساواةُ الظاهرِ والباطنِ وتَرْكُ المداهنةِ والخداعِ والمكرِ ودقائق الشِّرك وخفايا النفاق وغوامض الجنايات.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾.

وأقيموا الوزن بالمكيال الذي تحبون أن تُكَالوا به، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

خلق الأرض وَجعلَها مهاداً ومثوى للأنام.

ويقال: وضعها على الماء وبسط أقطارها، وأنبت أشجارها وأزهارها، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارَها.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ..﴾ يعني ألوانُ الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها، وحرارتها وبرودتها.. وغير ذلك من اختلافٍ في حَبِّها وشجرها، وورقها ونَوْرها.

﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وأكمام النخل ليفها وما يُغطِّيها من السَّعف.

﴿وَٱلْحَبُّ﴾: حَبُّ الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحُبوب.

﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾: والعصف ورق الزرع[1].

---

(١) العصف: ما كان على ساق الزرع من الورق الذي ييبس فيتفتت، وقيل: هو ورقه من غير أن يُعيّن بيُبس ولا غيره، وقيل: ورقه وما لا يؤكل. وفي التنزيل: ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ يعني=

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ الذي يُشَمُّ.. ويقال: «الرزق لأن العرب تقول: خرجنا نطلب ريحانَ الله».

ذكَّرهم عظِمَ مِنَّتِه عليهم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التي ينتفعون بها من مأكولاتٍ ومشمومات وغير ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فبأي آلاء ربكما تجحدان؟ والآلاءُ النَّعماء.

والتثنيةُ في الخطاب للمُكلَّفين من الجِنّ والإِنس.

ويقال: هي على عادة العرب في قولهم: خليليَّ، وقِفَا، وأرحلاها بأغلام، وأرجراها بأغلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾.

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: يعني آدم، والصلصالُ الطينُ اليابس الذي إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار. ويقال: طين مخلوط بالرمل.

ويقال: مُنْتِنٌ؛ من قولهم صَلَّ وأَصَلَّ إذا تغيرٌ.

﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾.

المارج: هو اللهب المختلط بسواد النار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يُذَكِّرُ الخَلْقَ من الجن والإنس كما سبق ـ وكرَّر اللَّهُ سبحانه هذه الآية في غير موضع على جهة التقرير بالنعمة على التفصيل، أي نعمةً بعد نعمة.

ووجُه النعمة في خلق آدم من طين أنه رقاه إلى رتبته بعد أن خلقه من طين.

ويقال ذَكَّرَ آدمَ نِسبتَه وذكَّرنا نسبَتنا لئلا نَعجبَ بأحوالنا.

ويقال عَرَّفَه قدْرَه لئلا يتعدَّى طَوْرَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾: مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما.

ووجه النعمة في ذلك جريانهما على ترتيب واحدٍ حتى يكمل انتفاع الخَلْقِ بهما.

ويقال: مشرق القلب ومغربه، وشوارق القلب وغوار به إنما هي الأنوار والبصائر التي جرىَ ذِكْرُ بعضها فيما مضى.

= بالعصف ورق الزرع وما لا يؤكل منه، وأما الريحان فالرزق وما أُكل منه، وقيل: العصف التبن وقيل: هو ما على حب الحنطة ونحوها من قشور التبن. (اللسان ٩/٢٤٧ مادة: عصف).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾.

﴿بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر، أراد به البحر العذب والبحر الملح. ويقال: لا يبغيان على الناس ولا يغرقانهم(١).

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

اللؤلؤ: كبار الدُرّ، والمَرجان: صغار الدُّرّ. ويقال: المرجان النَّسْل.

وفي الإشارة: خَلَقَ في القلوب بحرين: بحر الخوف وبحر الرجاء. ويقال القبض والبسط. وقيل الهيبة والأنس. يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية.

ويقال: البحران. إشارة إلى النفس والقلب، فالقلب هو البحر العَذْب والنفس هي البحر الملح.. فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين، وكلُّ حالة لطيفة.. ومن النفس كل خلق ذميم. والدرُّ من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التمساح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾: يصون الحقُّ هذا عن هذا، فلا يَبْغي هذا على هذا(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

﴿**الجواري**﴾: واحدها جارية، وهي السفينة.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: الجبال.

له هذه السفن التي أنشئت وخلقت في البحر كأنها الجبال العالية(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز. ومن حيث الخبر: «ستفنى الدنيا ومن عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» «والوجه»: صفة لله ـ سبحانه ـ لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلَّ عليه جَوازاً، وورد الخبر بكونه قطعاً.

ويقال: في بقاءِ الوجه بقاءُ الذات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولا محالة شَرطها قيامها بنفسه وذاته. وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعْرَفُ بالعقل، والوجه لا يُعْلَمُ بالعقل، وإنما يُعْرَفُ بالنقل والأخبار. و «يبقى»: وفي بقائه. سبحانه خَلَفٌ عن كلِّ تلفٍ، وتسليةٌ للمسلمين عمّا يصيبهم من المصائب، ويفوتهم من المواهب(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

---

(١) الآية (٢١) لم ترد.
(٢) الآية (٢٣) لم ترد.
(٣) الآية (٢٥) لم ترد.
(٤) الآيتان (٢٧ ـ ٢٨) لم تردا.

أهلُ السمواتِ يسألون أبداً المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغْفرَة، أي لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه).

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله: وهم مَنْ قيل فيهم: «مَنْ شَغَلَه ذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»[١].

ويقال: ليس كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرض يسألونه مِمَّا في السموات والأرض ولكن:

بين المحبين سِرٌّ ليس يُغْشيه قولٌ ولا قَلَمٌ للخَلْق يحكيه

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ مِنْ إحياء وإماتة، وقبضِ قوم وبَسْطِ قومٍ.. وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات، وما يُجْريه عليها من اختلاف الصفات.

وفي الآية ردُّ على اليهود حيث قالوا: إنَّ اللَّهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِه لتلاشى وبَطُلَ.

(ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً، ويَسْتُرَ عيباً، ويُذْهِبَ كرباً)، ويُطَيِّب قلباً، ويُقْصِي عَبْداً ويُدْنِي عبداً.. إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلَّ ساعَةٍ بِرٌّ جديدٌ، وسِرٌّ بينه وبين عبده ـ عن الرقباء ـ بعيد.

ويقال: كل يوم هو في شأنِ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها.

ويقال: كل يوم هو في شأنِ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[٣].

أي للحساب يومَ القيامة ـ وليس به اشتغالٌ... تعالى اللَّهُ عن ذلك.

ومعنى الآية: سنقصد لحسابكم[٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾.

أقطارُ السمواتِ والأرضِ نواحيها. أي إنْ قدرتم أن تخرجوا من مُلْكِه فاخرجوا.

---

(١) أخرجه الترمذي (ثواب القرآن ٢٥)، والدارمي (فضائل القرآن ٦).

(٢) الآية (٣٠) لم ترد.

(٣) الثقلان: الجن والإنس سُمّيا بذلك لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق في الأرض بالتمييز والعقل الذي خُصّا به، وقيل: لأنهما كالثقل للأرض وعليها. (لسان العرب ١١/٨٨ مادة: ثقل).

(٤) الآية (٣٢) لم ترد.

ثم قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾. أي لا تَصِلون إلى موضع إلَّا وهناك سلطاني ومُلْكي ولا تنفذون في قُطرٍ إلا وهناك عليكم حجة[(١)].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

أي فلا تنتقمان. والشواظُ: اللَّهَبُ من النار لا دخانَ معه. والنحاس: الصُّفْرُ[(٢)] المذاب[(٣)].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

ينفكُّ بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر. ويقال: بها الفُرُش الموردة كالدهان وهو جمع دهن. أي كدهن الزيت وهو دردي[(٤)] الزيت.

ويقال: كما أن الوردة يتلوّن لونُها؛ إذ تكون في الربيع إلى الصُّفرة، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء، وبعد ذلك إلى الغبرة ـ فكذلك حالُ السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ في القيامة[(٥)].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾.

أراد في بعض أحوال القيامة لا يُسألون، ويُسْأَلون في البعض... فيومُ القيامة طويلٌ.

ويقال: لمَّا كانت لهم يومئذٍ علامات: فللكفارِ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات ـ فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم: من أنتم؟ لأنهم يعرفون كُلاً بسيماهم.

ويقال: لا يُسْأَلونِ سؤالاً يكون لهم ويُسْأَلون سؤالاً يكون عليهم[(٦)].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

المؤمنون غُرٌّ مُحَجَّلُون[(٧)]، والكفَّارُ سود الوجوهِ زُرْقُ العيون، فيعرف الملائكة

---

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

(٢) الصفر: النحاس الجيد، وقيل: الصفر ضرب من النحاس، وقيل: هو ما صفر منه. (اللسان ٤/ ٤٦١ مادة: صفر).

(٣) الآية (٣٦) لم ترد.

(٤) الدردي: ما رسب أسفل الزيت والعسل ونحوهما.

(٥) الآية (٣٨) لم ترد. (٦) الآية (٤٠) لم ترد.

(٧) الغرّ المحجلون: أي بيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام، استعار الوضوء في الوجوه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون من وجه الفرس ويديه ورجليه. (لسان العرب ١١/ ١٤٤ مادة: حجل).

هؤلاء فيأخذون بنواصيهم[(١)] ويَجُرُّونهم مرة بها ومرةً بأقدامهم ثم يلقونُهم في النار، ويطرحونهم في جهنم[(٢)]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

يقال لهم: هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون!

﴿حَمِيمٍ﴾: ماءٌ حارٌ. ﴿ءَانٍ﴾ تناهى في النضج[(٣)].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

يقال: لِمَنْ خاف قُرْبَ ربِّه منه واطلاعه عليه.

ويقال: لمن خاف وقوفَه غداً بين يدي الله ـ جنتان، ولفظة التثنية هنا على العادة في قولهم: خليليَّ ونحوه.

وقيل: بل جنتان على الحقيقة، مُعَجَّلة في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح الوقت، ومؤجَّلة في الآخرة وهي جنة الثواب. ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم[(٤)].

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾.

دلَّ على أن الجنتين في الآخرة. والأفنانِ الأغصان. وهي جمع فنن.

ويقال: ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشتهيه النَّفْسُ والعينُ ـ وتكون جمع فن. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل.

ويقال: عينان تجريان غداً لمن كان له ـ اليومَ ـ عينان تجريان بالدموع[(٥)].

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

زوجان أي صِنفان وضَرْبان؛ كالرطب واليابس، والعنب والزبيب.

ويقال: إنها في نهاية الحسن والجودة[(٦)].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

بطائنها من استبرق فكيف بظهائرها؟ «والبطائن»: ما يلي الأرض. «والاستبرق»: الديباج الغليظ. وإنما خاطَبَهم على قَدْرِ فَهْمِهم؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أفهامهم.

---

(١) النواصي: (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس يكون حداء الجبهة.
(٢) الآية (٤٢) لم ترد.
(٣) الآية (٤٥) لم ترد.
(٤) الآية (٤٧) لم ترد.
(٥) الآية (٥١) لم ترد.
(٦) الآية (٥٣) لم ترد.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: أي ما يجتنى من ثمرها - إذا أرادوه - دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تنالهم. وفي الخبر المسند: «مَنْ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غَرَسَ الله له شجرةً في الجنة أصلها الذهب وفرعها الدر وطلعها كثدي الأبكار ألين من الزبد وأحلى من العسل، كلما أخذ منها شيئاً عاد كما كان»[١] - وذلك قوله: ﴿ودنا الجنتين دان﴾.

ويقال: ينالها القائم والقاعد والنائم[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

أي في الجنان حورٌ قَصَرْن عيونَهن عن غير أزواجهن.

وإذا كانت الزوجاتُ قاصراتِ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأَوْلى بالعبد إذ رجا لقاءَه - سبحانه - أن يقصر طَرْفَه ويَغُضّه عن غير مُبَاحٍ.

بل عن الكُلّ... إلى أن يلقاه.

ويقال: من الأولياء مَنْ لا يَنْظُرُ إليهن - وإنْ أُبيح له ذلك لتحرُّره عن الشهوات، ولعلوّ همته عن المخلوقات - وأنشدوا:

جِئنا بَليْلَى وهي جُنَّتْ بغيرنا ... وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ويقال: هُنَّ لمن قصرت يدُه عن الحرام والشبهة، وطرفُه عن الرِّيَبِ.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾: لم يصحبهن غيرُ الوليّ ولم يَحْزُنَ غيرَه، وفي الخبر: «اشتاقت الجنة لثلاثة»[٣][٤].

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

أي: في صفاء الياقوت ولون المرجان[٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

يقال: الإحسانُ الأول من الله والثاني من العبد؛ أي: هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالنصرة إلّا أن يُحْسِن لنا بالخدمة؟ وهل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالولاء إلا أن يحسن لنا بالوفاء؟

---

(١) أخرجه البخاري (أيمان ١٩)، ومسلم (طهارة ١) وأبو داود (صلاة ١٣٥)، (تطوع ١٤)، والترمذي (وتر ١٩)، والدارمي (استئذان ٥٣)، والموطأ (قرآن ٢٣)، وأحمد بن حنبل ١/٧١، ٢/١٥٨، ٢١٠، ٢١١، ٣/٣٥، ١٥٢، ٤٤٣، ٤/٢٣٧، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٨٢، ٥/١٠، ١١، ٢٠، ٢١، ١٦٨، ١٧٣، ٢٥٣، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٦٦).

(٢) الآية (٥٥) لم ترد.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في (العلل المتناهية ١/٢٨٣).

(٤) الآية (٥٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥٩) لم ترد.

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثاني من الله؛ أي: هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث القبول والثواب؟

وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث النعمة؟

ويصح أن يكون الإحسانان من الحقّ؛ أي: هل جزاء مَنْ أحسنًا إليه في الابتداء إلا أن نُحْسِنَ إليه في الانتهاء؟ وهل جزاء مَنْ فاتحناه باللُّطف إلا أن نُرْبِيَ له في الفضل والعطف؟

ويصحُّ أن يكون كلاهما من العبد؛ أي: هل جزاء من آمن بنا إلّا أن يَثْبت في المستقبل على إيمانه؟ وهل جزاء مَنْ عَقَدَ معنا عقد الوفاء إلا أَنْ يقوم بما يقتضيه بالتفصيل؟

ويقال: هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِه إلّا أَنْ نُقرِّبَه مِنّا؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَن نَفِسه إلّا أَنْ يبقى بنا؟

وهل جزاء مَنْ رَفَعَ لنا خطوة إلّا أَن نكافِئَه بكل خطوة ألف حظْوَة، وهل جزاء من حفظ لنا طَرْفَه إلا أن نُكْرِمَه بلقائنا[1]؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتا؛ جنتان أُخْرَيان. وليس يريد دونهما في الفضل، ولكن يريد ﴿جَنَّتَانِ﴾ سواهما[2].

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

أي: خضراوان خُضْرةً تضرب إلى السواد. فالدهمة السواد والفعل منه ادهامَّ والاسم منه مُدْهامٌّ. وللمؤنث مدهامَّة، ولتثنية المؤنث مدهامتان[3].

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

والنَّضْخُ فَوَرانُ العينِ بالماء[4].

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

الأسماء متشابهة.. والعيون فلا[5].

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

أي: حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه. واحدها خَيِّرة والجمع خيِّرات وهذا هو الأصل ثم خُفِّفَ فصارت خيرات[6].

---

(١) الآية (٦١) لم ترد.
(٢) الآية (٦٣) لم ترد.
(٣) الآية (٦٥) لم ترد.
(٤) الآية (٦٧) لم ترد.
(٥) الآية (٦٩) لم ترد.
(٦) الآية (٧١) لم ترد.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

محبوسات على أزواجهن. وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورُ الجوارح عن الزَّلَّات، مقصورُ القلب عن الغفلات، مقصور السِّرِّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال.

وفي بعض التفاسير: أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ[١] في فرسخ لها ألف باب.

ويقال: قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن. وفي الخبر: «أنهن يقلن: نحن الناعمات. فلا نبؤس، الخالدات فلا نبيد، الراضيات فلا نسخط»[٢].

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها: «أن المؤمنات أجَبْنَهُنَّ: نحن المصلياتُ وما صَلَّيْتُنَّ، ونحن الصائماتُ وما صُمْتُنَّ، ونحن المتصدِّقاتُ وما تَصَدَّقْتُنَّ» قالت عائشة يغلبهن[٣] قولُه:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾.

قيل: رياض الجنة، وقيل: المجالس، وقيل: الزرابيّ[٥] والوسائد ـ وهي خُضْرٌ ﴿وعبقريٍ حسان﴾: العبقري عند العرب كلُّ ثوبٍ مُوَشًّى[٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

مضى تفسيره.

---

(١) الفرسخ: فرسخ الطريق: مسافة تبلغ ثلاثة أميال هاشمية، والميل الهاشمي ٥٧٦٠ متراً (ج) فراسخ (مع) فارسي.

(٢) أخرجه الترمذي (جنة ٢٤)، وأحمد بن حنبل ١، ١٥٦.

(٣) الآية (٧٣) لم ترد.

(٤) الآية (٧٥) لم ترد.

(٥) الزرابي: (ج) الزربية: البساط أو السجادة، أو الوسادة تُبسط ليُتكأ عليها.

(٦) الآية (٧٧) لم ترد.

سورة الواقعة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بِسْم الله»: اسم جبَّار مَنْ اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه، فإنْ أَبى إلَّا تمادياً في عصيانه حَالَ بينه وبين اختياره بقَهْرِ سلطانه، وإنْ لم يلازم هذه الطاعة أَلْجَأه بالبلاءِ فيأتيها باضطراره.

اسم عزيزٌ أزليٌّ، جبَّارٌ صَمَدِيّ، قهَّارٌ أحديّ، للمؤمنين وليّ، وبالعاصين حَفِيّ، ليس لجماله كَفِيّ، ولا في جلاله سميّ، لكنه للعُصَاةِ من المؤمنين وليّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

إذا قامت القيامة لا يردُّها شيءٌ.

﴿كَاذِبَةٌ﴾ هاهنا مصدر: كالعافية، والعاقبة: أي: هي حقَّةٌ لا يردها شيءٌ، وليس في وقوعها كذب.

ويقال: إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ منهاج الصحة والاستقامة وَصَلَ إلى السلامة ولقي الكرامة، ومَنْ حادَ عن نهج الاستقامة وَقَعَ في الندامة والغرامة، وعند وقوعها يتبين الصادق من المماذق:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ ... تَبَيَّنَ مَنْ بكى مِمَّن تباكى

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأهل الشقاوة، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لأهل الوفاق.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأصحاب الدعاوى، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لأرباب المعاني.

﴿خَافِضَةٌ﴾: للنفوس، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: للقلوب.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأهل الشهوة، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لأهل الصفوة.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لمن جَحَد، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: لمن وَحَدَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾.

حُرِّكت حركةً شديدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾.

فُتِّتت فكانت كالهباء الذي يقع في الكوّة عند شعاع الشمس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؟ على جهته التفخيم لشأنهم والتعظيم لِقَدْرهم وهم أصحاب اليمن والبركة والثواب.

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: على جهة التعظيم والمبالغة في ذَمِّهم، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم عليه السلام يومَ الذَّرِّ[1]، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله.

ويقال: الذين يُعْطَوْن الكتابَ بأَيْمانهم، والذين يُعْطَوْن الكتاب بشمائلهم.

ويقال: هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين.. إلى الجنة، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشمال.. إلى النار.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: وهم الصف الثالث. وهم السابقون إلى الخصال الحميدة، والأفضال الجميلة.

ويقال: السابقون إلى الهجرة. ويقال: إلى الإسلام. ويقال: إلى الصلوات الخمس.

ويقال: السابقون بصدْق القَدَم. ويقال: السابقون بعُلُوِّ الهِمَم. ويقال: السابقون إلى كل خير. ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى النَّدَمَ إن لم يتسارعوا بصدق القَدَم.

ويقال: الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه:

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

ولم يقل: ﴿**المتقربون**﴾ بل قال: أولئك المُقَرَّبون ـ وهذا عين الجَمْع، فعَلِمَ الكافة أنهم بتقريب ربِّهم سبقوا ـ لا بِتقرُّبهم.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

أي: في الجنة. ويقال: مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا في الجنة ثم يُقَرَّبون من الجنة، وإنما يُقَرَّبون إلى غير الجنة: يُقَرَّبون من بِساط القربة..

وأنَّى بالبساط ولا بساط؟! مقربون.. ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة؛ مُقَرَّبةٌ نفوسُهم من الجنة وقلوبهم إلى الحقِّ.

---

(١) الذر: أي بني آدم.

مُقَرَّبةٌ قلوبهُم من بساط المعرفة، وأرواحُهم من ساحات الشهود ـ فالحقُّ عزيز.. لا قُرْبَ ولا بُعْدَ، ولا فَصْلَ ولا وَصْلَ.

ويقال: مقربون ولكن من حظوظِهم ونصيبِهم. وأحوالُهم ـ وإنْ صَفَتْ ـ فالحقُّ وراء الوراء.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

الثُّلّة: الجماعة. ويقال: ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبيَّنا ﷺ.

ويقال: ثُلّةٌ من الأولين: من السلف وقليل من المتأخرين: من الأمة.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾[١].

أي منسوخة نسيج الدرع من الذهب. جاء في التفسير: طولُ كل سريرٍ ثلاثمائة ذراع، إنْ أراد الجلوسَ عليه تواضع، وإن استوى عليه ارتفع.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾.

أي لا يرى بعضُهم قفا بعضٍ. وَصَفَهم بصفاء المودة وتَهَذُّب الأخلاق.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يبرحون ولدانٌ في سِنٍّ واحدة.. لا يهرمون.

وقيل: مُقرَّطون (الخَلدة. القُرْط).

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهي آنية بلا عروة ولا خرطوم، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾: جمع إبريق وهو عكس الكوب (أي له خرطوم وعروة).

ولا صداع لهم في شربهم إياها، كما لا تذهب عقولهم بسببها.

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون، ولحم طيرٍ مما يشتهون، وحُورٌ عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أي: المصون، جزاءً بما كانوا يعملون[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾.

اللغو: الباطل من القول، والتأثيم: الإثم والهذيان.

ولا يسمعون إلا قيلاً سلاماً، وسلاماً: نعت للقيل.

---

(١) الموضونة: المنسوجة أي منسوجة بالدر والجوهر، بعضها مداخل في بعض. (لسان العرب ١٣/ ٤٥٠ مادة: وضن).

(٢) الآيات من (٢٠ حتى ٢٤) لم ترد.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾: لا شوكَ فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾: والطلح شجر الموز، متراكم نضيد بعضه على بعض.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ كما بين الإسفار إلى طلوع الشمس. وقيل: ممدود أي دائم.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾: جَارٍ لا يتعبون فيه.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾: لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم(١).

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ لهم. وقيل: أراد بها النساء.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي الحُور العين.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب وهي الغَنِجَةُ المتحببةُ إلى زَوْجِها. ويقال عرباً: أي مُتَشَهيَّات إلى أزواجهن.

﴿أَتْرَابًا﴾: جمع تِرْب، أي: هُنَّ على سِنٍّ واحدة.

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾: أي خلقناهن لأصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾: أي: ثلة من أُولى هذه الأمة، وثلة من أُخراها.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾: والسَّموم فيحُ جهنم وحَرُّها. والحميم: الماءُ الحار.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، وهو الدُّخان الأُسود.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾: لا بارد: أي لا راحةَ فيه. ولا كريم: ولا حَسَنٍ لهم؛ (حيث لا نفع فيه).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: كانوا في الدنيا مُمَتَّعين.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي الذَّنبِ العظيم.

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ أي: أنهم يُكَذِّبون بالبعث(٢).

ثم يقال لهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ اليومَ ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وجاء في التفسير: أن الزقوم شجرة في أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافرُ في جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ شرابٌ لا تهنأون به ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾: وهي الإبل العِطاش. ويقال: الهيم أي الرَّمْلُ ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عليه.

---

(١) الآية (٣٣) لم ترد.

(٢) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: يوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

نحن خلقناكم: يا أهلَ مكة ـ فهلّا آمَنْتُم لتتخلصوا؟ توبِّخون وتُعَاتَبون.. واليومَ تَعْتَذِرون! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شيء.

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرَّغون من آلامِ نفوسِهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التَحسُّر على ما فاتهم في حقِّ الله.

ويقال: أشدُّ البلاء ـ اليوم ـ على قلوب هذه الطائفة خوفُهم من أنْ يَشْغَلَهم ـ غداً ـ بمقاساة آلامهم عن التحسُّر على ما تكدَّرَ عليهم من المشارب في هذا الطريق. وهذه محنةٌ لا شيءَ أعظمُ على الأصحاب منها. وإنَّ أصحابَ القلوبِ ـ اليومَ ـ يبتهلون إليه ويقولون: إنْ حَرَمْتَنا مشاهدَ الأُنْس فلا تَشْغَلْنا بلذَّاتٍ تشغلنا عن التحسُّر على ما فاتنا، ولا بآلامٍ تشغلنا عن التأسُّف على ما عَدِمْنا منك.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

يقال: مَنىَ الرجلُ وأَمْنَى. والمعنى: هل إذا باشَرْتُم وأنزلتم وانعقد الولد.. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ والخَلْقُ ها هنا: التصوير؛ أي: أأنتم تجمعون صُوَرَ المولود وتُرَكِّبون أعضاءَه.. أم نحن؟

وهم كانوا يُقِرُّون بالنشأة الأولى فاحتجَّ بهذا على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذي كانوا ينكرونه. وهذه الآية أصلٌ في إثبات الصانع؛ فإن أصلَ خِلْقَةِ الإنسان من قطرتين: قطرة من صُلْبِ الأب وهو المني وقطرة من تربية الأم، وتجتمع القطرتان في الرَّحِم فيصير الولد. وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التي هي أجزاء الإنسان من العَظْم والعَصَبِ والعرقِ والجِلْدِ والشَّعْر.. ثم يركبها على هذه الصور في الأعضاء الظاهرة وفي الأجزاء الباطنة حيث يُشَكِّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص، والعِظام بكيفية خاصة.. إلى غير ذلك.

وليس يخلو: إمَّا أَنْ يكونَ الأبوَان يصنعانه ـ وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر عِلْمِها وقُدْرتهما عن ذلك وتمَنِّيهما الولَدَ ثم لا يكون، وكراهتهما الولدَ ثم يكون!

والنُّطفة أو القَطْرةُ مُحَالٌ تقديرُ فِعْلها في نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدُ، ولا عِلْمَ لها ولا قدرة.

أو مِنْ غيرِ صانعٍ.. وبالضرورة يُعْلَمُ أنه لا يجوز.

فلم يَبْقَ إلَّا أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يكون الموتُ في الوقت الذي يريده؛ منكم مَنْ يموت طفلاً ومنكم من يموت شابًا، ومنكم من يموت كهلاً، وبِعللٍ مختلفة وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفي أوقاتٍ مختلفة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ في تقديرنا فيفوتنا شيءٌ ولَسْنا بعاجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالَكم، ولا بعاجزين عن تبديلَ صُوَركم التي تعلمون؛ إن أردنا مَسْخَكُم وتبديلَ صُوَركم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ.

ويقال: ونُنشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أنتم أقررتم بالنشأة الأولى.. فهلّا تذكَّرون لتعلموا جَوازَ الإعادة؛ إذ هي في معناها.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾.

أي: إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض.. أأنتم تُنْبِتُونه أم نحن المُنبِتون؟ وكذلك وُجوهُ الحكمةِ في إنبات الزَّرْع، وانقسام الحَبَّةِ الواحدةِ على الشجرة النابتةِ منها في قِشْرِها ولحائها وجِذْعِها وأغصانها وأوراقها وثمارها ـ كل هذا:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَته، فصِرْتُم تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه، وإنفاقكم عليه، ثم تقولون:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

أي: لَمُلْزَمون غرامةَ ما أنفقنا في الزَّرع، وقد صار ذلك غُرْماً علينا ـ فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقُه بغير عِوَضٍ.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

أأنتم أنزلتموه من السحاب.. أم نحن نُنْزِلُهُ متى نشاء أنَّى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية، في القِلّة وفي الكثرة.

ولو نشاء لجعلناه ملحاً. . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ اللّهِ ـ سبحانه ـ عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خَلَقها لكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

وَرَى الزَّنْدَ يُرَى فهو وارٍ. . وأوْراه يُورِيه أي يَقْدَحُه.

يعني: إذا قدحتم الزند. . أرأيتم كيف تظهر النار ـ فهل أنتم تخلقون ذلك؟

أأنتم أنشأتم شجرتها ـ يعني المَرْخ[1] والعَفَار[2] ـ أم نحن المنشئون؟

﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾: أي يمكن الاستدلالُ بها.

﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: يقال: أقوى الرجلُ إذا نزل بالقواء أي: الأرض الخالية.

فالمعنى: أن هذه النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ يتذكّر بها الإنسان ما توعده به في الآخرة من نار جهنم، و ﴿وَمَتَـٰعًا﴾: يستمتع بها المسافر في سفره في وجوه الانتفاع المختلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي: اسبحْ بفكرك في بحار عقلك، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظْفَرْ بجواهر العلم، وإيَّاكَ أَنْ تُقَصِّرَ في الغوص لسببٍ أو لآخر، وإياكَ أن تتداخَلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسَ مالِك ويخرجَ من يدكَ وهو دينُك واعتقادُك. . وإلَّا غرقتَ في بحار الشُّبَه، وضَلَلْتَ.

وهذه الآيات التي عَدَّها الله ـ سبحانه ـ تُمَهِّدُ لسلوكِ طريقِ الاستدلالِ، فكما في الخبر «فِكْرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سَنَةٍ»[3] ـ وقد نبَّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

---

(١) المَرْخ: من العضاه وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سِلبة قضبان دقاق، وينبت في شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، واحدته مرخة. (لسان العرب ٣/ ٥٤ مادة: مرخ).

(٢) العَفار: شجر يُتخذ منه الزناد. (لسان العرب ٤/ ٥٨٩ مادة: عفر).

(٣) للحديث رواية تقول: «فكرة ساعة خير من عباده ستين سنة» أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/ ١١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٧١٠)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٢) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١) والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٨٨)، والسيوطي في (اللآليء المصنوعة ٢/ ١٧٥)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ١٧٣)، وابن الجوزي في (الموضوعات ٣/ ١٤٤).

قيل: هي مواقع نجوم السماء. ويقال: مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول ﷺ.

﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: والكَرَمُ نَفْيُ الدناءة ـ أي: أنه غير مخلوق ويقال: هو ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾: لأنه يدل على مكارم الأخلاق.

ويقال هو قرآن كريمٌ لأنه من عند ربٍّ كريم على رسولٍ كريم، على لسان مَلَكٍ كريم. ﴿فِي كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: يقال: في اللوح المحفوظ. ويقال: في المصاحفَ. وهو محفوظ عن التبديل. ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ عن الأدناس والعيوب والمعاصي.

ويقال: هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر: أي لا ينبغي أَنْ يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتَطهِّراً من الشِّرْكِ وعن الأحداث(١).

ويقال: لا يجد طَعْمَه وبَرَكَته إلَّا مَنْ آمَنَ به.

ويقال: لا يقربه إلَّا الموَحِّدون، فأمَّا الكفَّار فيكرهون سماعَه فلا يقربونه.

وقرىء المُطَهِّرون: أي الذين يُطَهِّرون نفوسَهم عن الذنوب والخُلُقِ الدَّنيّ.

ويقال: لا يَمَسُّ خبره إلَّا من طُهِّر يومَ القسمة عن الشقاوة.

ويقال: لا يَفْهَم لطائفَة إلَّا مَنْ طَهَّر سِرَّه عن الكون.

ويقال: المطهَّرون سرائرَهم عن غيره.

ويقال: إلا المُحْتَرِمون له القائمون بحقِّه.

ويقال: إلا مَنْ طُهِّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: مُنَزَّل من قِبَلِهِ ـ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

أبهذا القرآن أنتم تُنافِقون، وبه تُكذِّبون.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: كانوا إذا أُمطِروا يقولون: أُمْطِرْنا بِنَوْءِ كذا.

يقول: أتجعلون بَدَلَ إنعام اللّهِ عليكم بالمطر الكفرانَ به، وتتوهمون أن المطرَ ـ الذي هو نعمةٌ من الله ـ من الأنواء والكواكب؟!.

ويقال: أتجعلون حظَّكم ونصيبَكم من القرآنِ التكذيبَ؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) الأحداث: (ج) الحدث (عند الفقهاء): ما ينقض الطهارة.

يخاطِبُ أولياء الميت فيقول: هَّلا إذا بَلَغتْ روحُه الحلقوم، وأنتم تنظرون إلى هذا المريض، رجعتم إلى الله تعالى وتحققتم به؟ فنحن أقرب إليه منكم بالعلم والرؤية والقدرة.. ولكن لا تبصرون!

ويقال: أقرب ما يكون العبدُ من الحقِّ عندما يتم استيلاءُ ذِكْرِه وشهودِه عليه، فينتفِي إحساسُ العبدِ بغيره، وعلى حسب انتفاءِ العلمِ والإحساسِ بالأغيار ـ حتى عن نفسه ـ يكون تحقُّقُ العبد في سِرِّه حتى لا يرى غير الحقّ.

فالقرب والبعد معناهما: أنَّ العبدَ في أوان صحوه وأنه لم يُؤخَذْ ـ بَعْدُ ـ عن نفسه؛ فإذا أُخِذَ عنه فلا يكون إلا الحق.. لأنه حينئذٍ لا قُرْب ولا بُعْدِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ليس لكم من أمر الموت شيء.

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: تردُّون الروح إلى الجسد.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في أنه لا بعث.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

المقرَّبون هم الذين قرَّبهم اللَّهُ بفضله، فلهم ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

ويقال: الرَّوْح الاستراحة، والريحانُ الرزقُ.

وقيل: الرَّوْح في القبر، والريحانُ: في الجنة.

ويقال: لا يخرج مؤمِنٌ في الدنيا حتى يُؤتَى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل خروج روحه، فالرَّوْح راحةٌ عند الموت، والريحان في الآخرة.

وقيل: كانت قراءة النبي ﷺ «الرُّوح» بضم الراء أي لهم فيها حياة دائمة.

ويقال: الرَّوْحُ لقلوبهم، والرياح لنفوسهم، والجنَّةُ لأبدانهم.

ويقال: رَوْحٌ في الدنيا، وريحانٌ في الجنة، وجنَّةُ نعيمٍ في الآخرة.

ويقال: رَوْحٌ وريحان مُعَجَّلان، وجنة نعيم مؤجلة.

ويقال: رَوْحٌ للعابدين، وريحان للعارفين، وجَنَّةُ نعيم لعوام المؤمنين.

ويقال: رَوْحٌ نسيم القرب، وريحان كمال البسط، وجنة نعيمٍ في محل المناجاة.

ويقال: رَوْح رؤية الله، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

أن نخبرك بسلامة أحوالِهم.

ويقال: سترى فيهم ما تحب من السلامة.

ويقال: أمانٌ لك في بابهم؛ فلهم السلامة. ولا تُشْغِلْ قلبَك بهم.

ويقالْ: فسلامٌ لك ـ أيها الإنسان ـ إنك من أصحاب اليمين، أو أيها الإنسانُ الذي من أصحاب اليمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾.

إن كان من المكذبين لله، الضالّين عن دين الله فله إقامةٌ في الجحيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

هذا هو الحقّ اليقين الذي لا محالةَ حاصلٌ.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي قَدِّسْ اللَّهَ عَمَّا لا يجوز في وصفه.

ويقال: صلِّ لله. ويقال: اشكرْ اللَّهَ على عصمة أُمَّتِكَ من الضّلال، وعلى توفيقهم في اتِّباعِ سُنَّتِكَ.

سورة الحديد

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

سماعُ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي به الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ قلوبَ أحبّائه، فإذا شَرِبوا طَرِبُوا، وإذا طَرِبوا انبسطوا[1]، ثم لشهود حقِّه تعرَّضوا، وبنسيم قُرْبه استأنسوا، وعند الإحساس بهم غابوا.. فعقولُهم تُسْتَغرقُ في لُطْفِه، وقلوبهم تُسْتَهلَكُ في كَشْفِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التسبيحُ التقديسُ والتنزيه، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد ويَنْظِمونها في عقود الإيمان، ويُرَصِّعونها في أطواق الوصلة:

وقله ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المرادُ به «من» في السموات والأرض، يسجدون لله طوعاً وكرهاً؛ طوعاً تسبيحَ طاعةٍ وعبادة، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة.

وتُحملُ «ما» على ظاهرها فيكون المعنى: ما من مخلوقٍ من عينٍ أو أَثَرٍ إلا ويَدُلُّ على الصانع، وعلى إثبات جلاله، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه.

ويقال: يُسبح لله ما في السموات والأرض، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهدِ الطّلَبِ... ولكنه ـ سبحانه عزيزٌ.

ويقال: ما تَقَلّب أحدُ من جاحدٍ أو ساجدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد، فما يُصَرِّفهم إلا مَنْ خَلَقَهم؛ فمِنْ مُطيعٍ أَلْبَسَه نطاق وفاقه ـ وذلك فَضْلُه، ومِنْ عاصٍ رَبَطَه بمثقلة الخذلان ـ وذلك عَدْلُه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز: المُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الوصول، بل العزيز: المتقدِّسُ عن كل وصول.. فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إلا حظَّه ونصيبه وصفته على ما يليق به.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن القبض والبسط: هما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف. وكذلك المبسوط: قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال. (الرسالة القشيرية ص٥٨).

المُلْك مبالغةٌ من المِلْك، وهو القدرة على الإبداع، ولا مالكَ إلا الله. وإذا قيل لغيره: مالك فعلى سبيل المجاز؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحةٌ في الشرع، ولكنَّ لفظَ المِلْك فيها توسُّعٌ كما أن لفظَ التيمم في استعمال التراب ـ عند عدم الماء ـ في السفر مجازٌ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: يحيي النفوس ويميتها. ويُحْيي القلوبَ بإقباله عليها، ويميتها بإعراضه عنها. ويقال: يحييها بنظره وتفضُّله، ويميتها بقهره وتعزُّزه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿**الأول**﴾: لاستحقاقه صفة القِدَم، و ﴿**الآخر**﴾ لاستحالة نعت العدَم.

و ﴿**الظاهر**﴾ بالعلو والرفعة، و ﴿**الباطن**﴾: بالعلم والحكمة.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ فلا افتتاحَ لوجوده و ﴿**الآخِر**﴾ فلا انقطاعَ لثبوته.

﴿**الظاهر**﴾ فلا خفاءَ في جلال عِزِّه، ﴿**الباطن**﴾ فلا سبيل إلى إدراك حقِّه.

ويقال ﴿**الأول**﴾ بلا ابتداء، و ﴿**الآخِر**﴾ بلا انتهاء، و ﴿**الظاهر**﴾ بلا خفاء، و ﴿**الباطن**﴾ بنعت العلاء وعِزِّ الكبرياء.

ويقال ﴿**الأول**﴾ بالعناية، و ﴿**الآخِر**﴾ بالهداية، و ﴿**الظاهر**﴾ بالرعاية، و ﴿**الباطن**﴾ بالولاية.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالخَلْق، و ﴿**الآخِر**﴾ بالرزق، و ﴿**الظاهر**﴾ بالإحياء، و ﴿**الباطن**﴾ بالإماتة والإفناء.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

ويقال: ﴿**الأول**﴾ لا بزمان، و ﴿**الآخر**﴾ لا بأوان، و ﴿**الظاهر**﴾ بلا اقتراب، و ﴿**الباطن**﴾ بلا احتجاب.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالوصلة، و ﴿**الآخر**﴾ بالخلّة، و ﴿**الظاهر**﴾ بالأدلة، و ﴿**الباطن**﴾ بالبعد عن مشابهة الجملة.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالتعريف، ﴿**والآخر**﴾ بالتكليف، ﴿**والظاهر**﴾ بالتشريف ﴿**والباطن**﴾ بالتخفيف.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بالإعلام، ﴿**والآخر**﴾ بالإلزام، ﴿**والظاهر**﴾ بالإنعام ﴿**والباطن**﴾ بالإكرام.

ويقال: ﴿**الأول**﴾ بأن اصطفاك ﴿**والآخر**﴾ بأن هداك، ﴿**والظاهر**﴾ بأن رعاك، ﴿**والباطن**﴾ بأن كفاك.

ويقال: مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه ﴿الأول﴾ كانت فكرته في حديثِ سابقته: بماذا سمَّاه مولاه؟ وما الذي أجرى له في سابق حُكْمه؟ أبسعادته أم بشقائه؟

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الآخِر﴾ كانت فكرته فيه: بماذا يختم له حالَه؟ وإلام يصير مآلُه؟ أعَلَى التوحيد يَخْرُجُ من دنياه أو ـ والعياذُ بالله ـ في النارِ غداً ـ مثواه؟

ومن كان الغالبُ على قلبه اسمُه ﴿الظاهر﴾ فاشتغاله بشكر ما يجري في الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسْنِ الرعاية.

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الباطن﴾ كانت فكرتُه في استبهام أمره عليه فيتعثَّر ولا يدري.. أَفَضْلٌ ما يعامله به ربُّه أم مَكْرٌ ما يستدرجه به ربُّه؟

ويقال: ﴿الأول﴾ علم ما يفعله عبادُه ولم يمنعه عِلْمُه من تعريفهم، ﴿والآخِر﴾ رأى ما عَمِلوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم ﴿والظاهر﴾ ليس يَخْفَى عليه شيءٌ من شأنهم، وليس يَدَعُ شيئاً من إحسانهم ﴿والباطن﴾ يعلم ما ليس لهم به عِلْمٌ من خسرانهم ونقصانهم فيدفع عنهم فنونَ مِحَنهم وأحزانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

مضى الكلام في ذلك.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

أي ما يدخل فيها من القَطْرِ، والكنوزِ، والبذورِ، والأمواتِ الذين يُدْفَنون فيها، ﴿وما يخرج منها﴾ من النبات وانفجار العيون وما يُسْتَخْرَجُ من المعادن.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

من المطر والأرزاق. أو ما يأتي به الملائكةُ من القضاء والوحي.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

أي وما يصعد إليها من الملائكة، وطاعاتِ العباد، ودعوات الخَلْقِ، وصحف المُكَلَّفين، وأرواح المؤمنين.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وهو معكم﴾ بالعلم والقدرة.

ويقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا دُفِنَ العَبْدُ فاللَّه سبحانه يعلم ما الذي كان في قلبه من إخلاصٍ في توحيدِه، ووجوهِ أحزانه خسرانه، وشَكِّه وجحوده، وأوصافه المحمودة والمذمومة.. ونحو ذلك مما يخفى عليكم.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات وفنون الأحوال العزيزة.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ﴾ من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا عَلَت[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ﴾.

مضى معناه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

صَدِّقوا باللَّهِ ورسولِهِ، وتَصَدَّقوا ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ بتمليككم ذلك وتصييره إليكم. والذين آمنوا منكم وتصدَّقوا على الوجه الذي أُمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ؛ فإنَّ ما تحويه الأيدي مُعَرَّضٌ للزوال فالسَّعيدُ مَنْ قَدَّمَ في دنياه مَالَه في الآخرة عمارة حاله، والشقيُّ من سار فيما له في الآخرة وَبالُ مآله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي شيء لكم في تَرْكِكُم الإيمان بالله وبرسوله، وما أتاكم به من الحشر والنشر، وقد أزاح العِلَّةَ بأنْ ألاحَ لكم الحُجَّة، وقد أَخَذَ ميثاقَكم وقتَ الذَّرِّ، وأوجب عليكم ذلك بحُكم الشَّرْع.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ليخرِجَكم من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشكِّ إلى نور اليقين.

وكذلك يُريهم في أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السِّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفع والخيرَ؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير إلى سعة فضاء التفويض، وملاحظة فنون جريان المقادير.

وكذلك إذا أرادت النَّفْس الجنوحَ إلى الرُّخَصِ والأخذِ بالتخفيف وما تكون عليه المطالبةُ بالأشَقّ ـ فإن بادَرَ إلى ما تدعوه الحقيقةُ إليه وَجَدَ في قلبه من النور ما يَغْلَمُ به ظلمةَ هواجس النَّفْسِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾.

---

(١) الآية (٥) لم ترد.

ما في أيديكم ميراثُه الله، وعن قريبٍ سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتطاول أحمالكم. وهو بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدارِ إلى الطاعة وتَرْكِ الإخلاد إلى الأمل.. ثم قال:

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك. بل أولئك أعظم ثواباً وأعلى درجةً من هؤلاء؛ لأنَّ حاجةَ الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشقَّ على أصحابه.

ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلَّا أنَّ فضيلة السَّبْقِ لهم، ولهذا قالوا:

السابقَ السابقَ قولاً وفعلاً حذْرَ النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

المراد بالقرض الصدقة، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطييباً لقلوبهم، فكأن المتصدِّق وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المُسْتَقْرِض.

ويقال: ﴿يُقْرِضُ﴾ أي يفعل فعلاً حسناً، وأراد بالقرض الحسن ها هنا ما يكون من وجهِ حلالٍ ثم عن طِيبِ قلبٍ، وصاحبُه مخلِصٌ فيه، بلا رياء يشوبه، وبلا مَنٍّ على الفقير، ولا يُكَدِّره تطويلُ الوعد ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض.

ويقال: أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين، ففي الخبر: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى»[(١)] ومَنْ لم يتحرَّز من شيء فخروجُه عنه تكلُّفٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/ ١٣٩، ٧/ ٨١)، ومسلم في (الصحيح الزكاة ب٣٢ رقم ٩٥) وأبو داود في (السنن الزكاة ب٤٠)، والنسائي في (السنن ٥/ ٦٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٧٨، ٤٠٢، ٤٧٦، ٥٢٤، ٣/ ٤٣٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٤/ ١٥٤، ١٧٧، ١٨٠، ٧/ ٤٦٦)، والطبراني في (المعجم الكبير ٣/ ٢٢٤)، والدولابي في (الكنى والأسماء ١/ ١٠٨)، والزيلعي في (نصب الراية ٢/ ٤١٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٥٨٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٢٩)، والبغوي ١/ ٢١٣، والألباني في (إرواء الغليل ٣/ ٤١٥) وابن حجر في (فتح الباري ٩/ ٥٠٠)، والبغوي في (شرح السنة ٦/ ١٧٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٢٣١، ١٦٢٦٤، ١٦٢٦٦، ١٦٢٦٧)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٤٣٩)، وابن كثير في (التفسير ١/ ٣٧٤)، والقرطبي في (التفسير ٧/ ١١١، ١٩/ ١٣٤)، والدارقطني في (السنن ٣/ ٢٩٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/ ١٥٨٦)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٦٤٠٤).

وهو نورٌ يُعْطَى للمؤمنين والمؤمنات بقَدْر أعمالهم الصالحة، ويكون لذلك النور مطارحُ شعاع يمشون فيها والنورُ يسعى بين أيديهم، ويحيط جميع جهاتهم.

ويقال: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ كتبهم.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي بشارتكم اليومَ ـ من الله جنات. وكما أن لهم في العرصة هذا النور فاليومَ لهم في قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه، ويهتدون به في جميع أحوالهم، قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»[1] وقال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْربُ منهم. وربما يقع من ذلك على القلوب قَهْراً ـ ولأوليائه ـ لا محالةَ ـ هذه الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبسَ من نوركم. وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعْطَوْن كُتُبهم وهم في في النور، فإذا مَرُّوا... انطفأ النور أمام المنافقين وسَبقَ المؤمنون، فيقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا حتى نقتبسَ من نوركم. فيقول المؤمنون:

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

أي إلى الدنيا وأَخلِصوا! ـ تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين في الدنيا.

ويقال: ارجعوا إلى حُكْم الأزلِ فاطلبوا هذا من القِسْمة! ـ وهذا على جهة ضربِ المَثل والاستبعاد.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

﴿بِسُورٍ﴾: وهو جَبَلُ أصحاب الأعراف، يستر بينهم وبين المنافقين، فالوجهُ الذي يلي المؤمن فيه الرحمة وفي الوجه الآخر العذابُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والمعاشرة؟.

قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم..

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (تفسير سورة ١٥، ١٦).

تربصتم عن الإخلاص، وشككتم، وغرَّكم الشيطان، وركنتم إلى الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

النارُ مأواكم ومصيرُكم ومُتَقَلبُكم.

و ﴿**هي مولاكم**﴾ أي هي أوْلَى بكم، وبئس المصير!

ويقال: مخالفة الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

ألم يَحِنْ للذين آمنوا أن تتواضعَ قلوبُهم وتلين لذِكْر اللَّهِ وللقرآنِ وما فيه من العِبَرِ؟ وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل؟ وأراد بهم اليهودَ، وكثيرٌ من اليهود فاسقون كافرون.

وأراد بطول الأمَدِ الفترةَ التي كانت بين موسى ونبيِّنا ﷺ، وفي الخبر: «أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم ملالةٌ فقالوا: لو حَدَّثتنا»[1].

فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فبعد مُدَّةٍ قالوا:

لو قَصَصْتَ علينا!

فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] فبعد مدةٍ قالوا: لو ذَكَّرتَنا ووَعَظْتَنا!

فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وفي هذه الآية ما يشبه الاستبطاء.

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة، والشهوة والصفة لا تجتمعان؛ فإذا حَصَلت الشهوةُ رَحَلت الصفوة. وموجِبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الربِّ. ويقال: موجب القسوة أوَّله خَطْرة ـ فإلَّم تُتَدارك صارت فكرة، وإلَمّ تُتَدارَكْ صارت عزيمة، فإن لم تُتَدَارَكْ جَرَت المخالفة، فإن لم تُتدارَكْ بالتلافي صارت قسوةً وبعدئذ تصير طَبعاً ورَيْناً[2].

---

(١) أخرجه أبو داود في (السنن ١٨٩٦).

(٢) الرين: الطبع والدنس، ران الثوب ريناً: تطبّع. ران الذنب على قلبه: غلب عليه وغطاه. (لسان العرب ١٣/ ١٩٢ مادة: رين).

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

يُحْيي الأرضَ بعد موتها بإنزال المطرِ عليها وإخراج النَّبتِ منها. ويُحيي القلوبَ الميتةَ ـ بعد إعراضِ الحقِّ عنها ـ بحسن إقباله عليها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

أي المتصدقين والمتصدقات.

﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: يعني في النوافل.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ في الحسنات، الحسنةُ بعَشْر أمثالها.. إلى ما شاء اللَّهُ.

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾: ثوابٌ كبيرٌ حَسَنٌ. والثوابُ الكريمُ أنَّه لا يضن بأقصى الأجْرِ على الطاعةِ ـ وإنْ قَلَّتْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾.

الصدِّيقون: مبالغة في الصدق، والشهداء: الذين استشهدوا في سبيل الله، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء ـ لهم أجرهم في الجنة ونورهم في القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

والصدِّيق مَنْ استوى ظاهرُه وباطنُه.

ويقال: هو الذي يحمل الأمرَ على الأشقِّ، ولا ينزلُ إلى الرُّخَصِ، ولا يجنح للتأويلات.

والشهداءُ: الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة، ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة، ﴿وَنُورُهُمْ﴾: ما كحل الحقُّ به بصائرهم من أنوار التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ﴾.

الحياةُ الدنيا مُعَرَّضَةٌ للزوال، غيرُ لابثةٍ ولا ماكثة، وهي في الحال شاغلةٌ عن الله، مُطْمِعةٌ وغير مُشْبِعة، وتجري على غير سَنن الاستقامة كجريان لَعِب[1] الصبيان، فهي تُلْهي عن الصوابِ واستبصارَ الحقِّ، وهي تفاخرٌ وتكاثرٌ في الأموال والأولاد.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ﴾.

---

(١) اللُّعَاب: ما سال من الفم. (اللسان ١/ ٧٤١ مادة: لعب).

الكفار: الزُّرَّاع.

هو في غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف، ثم ينتهي إلى أنْ يتحطّم ويتكسَّر.

﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لأهله من الكفَّار.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

لأهله من المؤمنين.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

الدنيا حقيرةٌ ـ وأحقرُ منها قَدْراً طالبُها وأقلُّ منه خَطَراً المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة؛ وطالِبُ الجيفةِ ليس له خطرٌ. وأخس أهل الدنيا مَنْ بَخِلَ بها.

وهذه الدنيا المذمومة هي التي تَشْغَلُ العبدَ عن الآخرة!

قوله جلّ ذكره: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي سارِعوا إلى عَمَلٍ يوجب لكم مغفرةً من ربكم، وذلك العملُ هو التوبة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ ذَكر عَرْضها ولم يذكرْ طولها؛ فالطول على ما يوافيه العَرْضُ.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: وفي هذا دليلٌ على أنَّ الجنةَ مخلوقة.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وفي ذلك ردٌّ على من يقول: «إن الجنة مُسْتَحقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها». . . لأن الفضلَ لا يكون واجباً.

ويقال: لمَّا سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةَ المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبةِ، مُستبشرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاءَ من جانب الحقِّ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المصيبة خَصْلةٌ تقع وتحصل. فيقول تعالى: لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيءٌ إلا وهو مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العِلْم، وحقَّ فيه الحكم؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ.

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصبٍ أو جدبٍ، من سعة أو ضيق، من فتنة أو

استقامة وما حصل في النفوس من حزن أو سرور، من حياةٍ أو موت كلُّ ذلك مُثبت في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل.

وفي قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه. وللعبدِ في العلم بأنَّ ما يصيبه: من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من اللَّهِ ـ أشدُّ السرور وأتمُّ الإنسِ؛ حيث عَلِمَ أنه أُفرِدَ بذلك بظهر غيبٍ منه، بل وهو في كنز العَدَم، ولهذا قالوا:

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن ... ما كان قلبي للصبابة معهدا

قوله جلّ ذكره: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾.

عَدَمُ الفرحة بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْس، فقيمةُ الرجالِ تتبين بتغيُّرِهم ـ فَمَنْ لم يتغيرْ بما يَرِدُ عليه ـ مما لا يريده ـ من جفاءٍ أو مكروهٍ أو محنة فهو كاملٌ، ومَنْ لم يتغيَّرْ بالمسارّ كما لا يتغير بالمضارّ، ولا يَسُرُّه الوجودُ كما لا يُحْزِنُه العَدَمُ ـ فهو سَيِّد وقته[(١)].

ويقال: إذا أردْتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الموارد؛ فالتغيُّرُ علامةُ بقاء النَّفْس بأيِّ وجهٍ كان:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها، والفخرُ (ناتجٌ)[(٢)] عن رؤيةِ ما به يفتخر.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

بخلوا بكتمان صفة نبيِّنا ﷺ وأمروا أتباعَهم بذلك، وذلك لما خافوا من كسادِ سُوقِهم وبطلان رياستهم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الإيمان، أو إعطاء الصَّدَقة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

والبخلُ ـ على لسان العلم ـ مَنْعُ الواجب، فأمّا على بيان هذه الطائفة فقد قالوا: البخلُ رؤية قَدْر للأشياء، والبخيلُ الذي يُعْطِي عند السؤال، وقيل: مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمه فهو بخيل[(٣)].

---

(١) انظر حديث القشيري في الرسالة عن التلوين والتمكين. ص٧٨ ـ ٨٠.

(٢) ما بين القوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قال القشيري: أصل الفتوة أن يكون العبد دائماً في أمر غيره. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٢٦، ٢٣١).

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي أرسلناهم مُؤيَّدين بالحُجَج اللائحة والبراهين الواضحة، وأزَحْنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوكَ الحُجَّةِ المُثلى، ويَسَّرنا السبيل على مَنْ آثَرَ اتِّباعَ الهُدَى. وأنزلنا معهم الكُتُبَ المُنَزّلةَ، و﴿الميزان﴾: أي الحُكْمَ بالقرآن، واعتبار العَدْلِ والتسويةِ بين الناس.

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾: فلا يَظْلِمُ أحدٌ أحداً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿أنزلنا الحديد﴾: أي خلقنا الحديد.

ونصرة الله هي نصرةُ دينه، ونصرةُ الرسولِ باتِّباع سُنَّتِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾: أقوى من أن يُنازَعه شريكٌ، أو يضارِعَه في المُلْكِ مليك، وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: أرسلنا نوحاً، ومن بعده إبراهيم، وجعلنا في نَسْلِهما النبوَّةَ والكتاب.

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾.

أي: مستجيبٌ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

خرجوا عن الطاعة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

بيَّن أنّه لم يأمرهم بالرهبانيّة[1] بل هم الذين ابتدعوها ثم قال:

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾.

(١) الرهبانية: مصدر الراهب، والاسم الرهبانية من الرهبة: الخوف؛ فالنصارى كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهد مشاقها، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه. (لسان العرب ١/ ٤٣٧، ٤٣٨ مادة: رهب).

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا أن يقوموا بحقِّنا.

﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا.

﴿كِفۡلَيۡنِ﴾: أي نَصِيبَيْنِ؛ نصيباً على الإيمان بالله، وآخَرَ على تصديقهم وإيمانهم بالرُّسُل.

قوله جل ذكره: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

ومعناه: يعلم أهل الكتاب، و«لا» صلة. أي: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، فإن الفضل بيد الله. و«اليد» هنا بمعنى: القدرة، فالفضلُ بقدرة الله.

والإشارة في هذا: اتَّقُوا الله بحِفْظِ الأدبِ معه، ولا تأمنوا مَكْرَه أن يَسْلَبكم ما وَهَبَكم من أوقاتكم. وكونوا على حَذَرٍ من بَغَتَاتِ تقديره في تغيير ما أذاقكم من أُنْسِ محبته.

واتَّبِعوا السُّفَراء والرُّسُلَ، وحافظوا على اتِّباعهم حتى يُؤْتِيَكُم نصيبين من فضله: عصمةً ونعمةً؛ فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة هي البقاء به.

ويقال: يؤتكم نصيبين: نصيباً من التوفيق في طَلَبِه، ونصيباً من التحقيق في وجوده[1].

---

(١) الوجود هنا لم يقصد به ضد العدم. انظر الرسالة القشيرية ص٦٣: فالتواجد بداية والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية.

سورة المجادلة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ عَرَفها بَذَلَ الرُّوحَ في طلبها ـ وإن لم يَحْظَ بوصولها، كلمةٌ مَنْ طلبها اكتفى بالطلب من قبولها.

كلمة جبَّارة لا تنظر إلى كلِّ أحد، كلمة قهّارةٌ لا يُوجَدُ من دونها مُلْتَحَد.

كلمةٌ منها بلاء الأحباب ـ لكن بها شفاء الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

لمَّا صَدَقَت في شكواها إلى الله وأيِسَتْ من استكشاف ضُرِّها من غير الله ـ أنزل الله في شأنها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

تَضَرَّعَتْ إلى الله، ورَفَعَتْ قِصَّتَها إلى الله، ونَشَرَت غُصَّتَها بين يدي الله ـ فنَظرَ إليها الله، وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

ويقال: صارت فرجةً ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظِّهار[1]، وليعلم العالِمون أنَّ أحداً لا يخسر عَلَى الله.

وفي الخبر: أنها قالت: «يا رسول الله، إنَّ أوساً تزوَّجنِي شابَّةً غنيةً ذات أهلٍ، ومالٍ كثير، فلما كبرت سِنِّي، وذَهَبَ مالي، وتَفرَّق أهلي جعلني عليه كظَهْرِ أُمِّه، وقد نَدِم ونَدِمت، وإنَّ لي منه صبيةً صِغَاراً إن ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا.

فقال لها الرسول ﷺ ـ في رواية ـ: «ما أُمِرْتُ بشيءٍ في شأنك»[2].

وفي رواية أخرى أنه قال لها: «بنتِ عنه» (أي حرمت عليه).

---

(١) الظِّهار: من النساء، وظاهر الرجل امرأته، ومنها، مظاهرة وظهاراً إذا قال: هي عليّ كظهر ذات رحم، وقد تظهّر منها وتظاهر. (اللسان ٤/ ٥٢٨ مادة: ظهر).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٩/ ١١٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/ ٢٠٤)، والطبري في (التفسير ٤/ ٢٨، ٥/ ١٤٥).

فترددت إلى رسول الله ﷺ في ذلك، وشكت.. إلى أن أنزل الله حُكْم الظِّهار.

قوله جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

قَوْلُ الذين يقولون لنسائهم ـ جرياً على عادة أهل الشِّرْكِ ـ أنتِ عليَّ كظهر أمي.. هذا شيءٌ لم يَحْكُمْ الله به؛ ولا هذا الكلامُ في نَفْسِه صِدْقٌ، ولم يثبت فيه شَرْعٌ، وإنما هو زورٌ مَحْضٌ وكَذِبٌ صِرْفٌ.

فَعَلِمَ الكافةُ أن الحقائق بالتلبيسِ لا تتعزّز؛ والسَّبَبُ إذا لم يكن صحيحاً فبالمعاودةِ لا يثبت؛ فالمرأةُ لمَّا سمعت من رسول الله ﷺ قولَه «بِنْتِ عنه» ـ كان واجباً عليها السكونُ والصبرُ؛ ولكنَّ الضرورةَ أنطقتها وحَمَلتْهَا على المعاودة، وحصلت من ذلك مسألة: وهي أن كثيراً من الأشياء يحكم فيها ظاهرُ العلمِ بشيء؛ ثم تُغَيِّر الضرورة ذلك الحُكْمَ لصاحبها.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الظِّهار ـ وإن لم يكن له في الحقيقة أصل، ولا بتصحيحه نطق أو دلالة شرع، فإنه بعد ما رُفعَ أمرُه إلى الرسول ﷺ ولوَّح بشيء ما، وقال فيه حُكمه، لم يُخِلْ الله ذلك من بيانٍ ساق به شَرعه؛ فقضى فيه بما انتظم جوانب الأمر كلِّه.

فارتفاعُ الأمر حتى وصوله إلى مجلس النبي ﷺ، والتحاكُم لديه حَمَّل المتعدِّي عناء فعلته، وأعاد للمرأة حقَّها، وكان سَبيلاً لتحديد المسألة برُمَّتها... وهكذا فإنَّ كلَّ صعبٍ إلى زوالٍ.. وكلُّ ليلة ـ وإنْ طالَتْ ـ فإلى إسفار[1].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

الذين يخالفون أمر الله ويتركون طاعةَ رسولِ الله أُذِلُّوا وخُذِلوا، كما أُذِلَّ الذين من قَبْلهم من الكفَّار والعُصَاة.

وقد أجرى اللّهُ سُنَّته بالانتقام من أهل الإجرام؛ فَمَنْ ضيَّعَ للرسولِ سُنَّةً،

---

(١) الآية (٤) لم ترد.

وأحدَثَ في دينه بدعة انخرط في هذا السلك، ووقع في هذا الذُّلّ.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يقال: إذا حُوسِبَ أحدٌ في القيامة على عمله تصور له ما فعله وتذكَّره، حتى كأنه قائمٌ في تلك الحالة عن بِسَاط الزَّلَّةِ، فيقع عليه من الخَجَلِ والنَّدَم ما يَنْسى في جَنْبِه كُلَّ عقوبة.

فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاه، فإنْ جَرَى المقدورُ ووقَعَ في هجنة التقصير فلتكن زَلَّتُه على بال، وليتضرع إلى الله بحُسْن الابتهال.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مَعِيَّةُ الحقِّ ـ سبحانه ـ وإن كانت على العموم بالعلم والرواية، وعلى الخصوص بالفضل والنصرة ـ فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ، ولهم إلى أنْ ينتهيَ الأمرُ بهم إلى التولُّه فالوَلَهِ فالهيمان في غمار سماع هذا عيش راغد.

ويقال: أصحابُ الكهف ـ وإن جَلَّتْ رتبتُهم واختصت من بين الناس مرتبتهم ـ فالحقُّ سبحانه يقول: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] ولمَّا انتهى إلى هذه الآية قال: ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة**﴾ فشتَّان بين مَنْ رابِعُهُ كَلْبُه وبين من رابِعُه ربُّه!!

ويقال: أهلُ التوحيد، وأصحابُ العقولِ من أهلِ الأصولِ يقولون: اللَّهُ واحدٌ لا من طريق العدد، والحقُّ يقول: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ويقال حيثما كنتَ فأنا معك؛ إن كنت في المسجد فأنا معك، وإن كنت في المصطبة فأنا معك، إن طَلَبَ العلماء التأويلَ[(١)] وشوَّشوا قلوبَ أُولي المواجيد فلا بأس ـ فأنا معهم.

---

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن الوصية للمريدين: فإن حجج هؤلاء في مسائلهم أظهر من حجج كل واحد وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب. والناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال. (الرسالة القشيرية ص٣٧٨).

إن حضرتَ المسجد فأنا معك بإسباغ النعمة ولكن وَغداً، وإن أتيتَ المصطبة فأنا معك بالرحمة وإسبالِ ستر المغفرة ولكن نَقْداً:

هَبْكَ تباعَدْتَ وخالَفْتَني ... تقدِرُ أن تخرجَ عن لُطْفي

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

آذَوْا قلوبَ المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم، ولم تكن في تناجيهم فائدةٌ إلا قصدهم بذلك شَغْلَ قلوبِ المؤمنين، ولم ينتهوا عنه لمَّا نهُوا عنه، وأصَرُّوا على ذلك ولم يَنْزَجِروا، فتَوَعَّدهم اللَّهُ على ذلك، وتكون عقوبتُهم بأن تتغامز الملائكةُ في باب فيما بينهم، وحين يشاهدون ذلك تتَرَجَّمُ ظنونُهم، ويتعذَّبون بتَقَسُّم قلوبهم، ثم لا ينكشف الحالُ لهم إلَّا بما يزيدهم حزناً على حزنٍ، وأسفاً على أسفٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إنما قَبُحَ ذلك منهم وعَظُمَ الخطرُ لأنه تضمَّن إفسادَ ذات البَيْن، وخيرُ الأمورِ ما عاد بإصلاح ذات البَيْن، وبعكسه إذا كان الأمر بضدِّه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا. وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً، والقلوبُ حاضرةً، والتوكلُ صحيحاً؛ والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثيرَ لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾.

لكمال رحمته بهم وتمام رأفته عليهم، علَّمَهم مراعاة حُسنِ الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة دون أحكام العبادة في التفسُّح في المجالس والنظام في حال الزَّحمة والكثرة... وأغرزَ بأقوامٍ أمرَهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحقُّقِهم بأركانه!.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لمّا كان الإذنُ في النجوى مقروناً ببذْلِ المالِ امتنعوا وتركوا، وبذلك ظَهَرت جواهر الأخلاق ونقاوةُ الرجال ـ ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ إِن يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾[1] [محمد: ٣٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

مَنْ وافقَ مغضوباً عليه أشرَكَ نفْسَه في استحقاقِ غضبِ مَنْ هو الغضبان؛ فَمَنْ تَولَّ مغضوباً عليه مِنْ قِبَلِ الله استوجبَ غَضَبَ الله وكفى بذلك هواناً وخسراناً.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

هذا وصفٌ للمنافقين.

﴿ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي وقايةً وستراً؛ ومَنْ استتر بجُنَّةِ طاعته لتَسْلَم له دنياه فإنَّ سهامَ التقدير من ورائه تكشفه من حيث لا يشعر. فلا دِينُه يبقى، ولا دنياه تَسْلَم، ولقد قال تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2] [آل عمران: ١٠].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

عقوبتُهم الكبرى ظَنُّهم أنَّ ما عَمِلوا مع الخَلْقِ يتمشَّى أيضاً في مُعَاملةِ الحقِّ، ففَرْطُ الأجنبية وغايةُ الجهلِ أكَبَّتهم على مناخرهم في وَهْدَةِ نَدَمِهم.

قوله جل ذكره: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أنْسَاه ذِكْرَ الله.

والنَّفْسُ إذا استولَتْ على إنسان أنْسَتْهُ الله.

ولقد خَسِرَ حزبُ الشيطان، وأخْسَرُ منه مَنْ أعان نَفْسَه ـ التي هي أعدى عدوِّه، إلّا بأن يسعى في قَهْرِها لعلَّه ينجو مِنْ شَرِّها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

مَنْ أَرْمَتْهُ شِقْوَتُه لم تُنعِشْهُ قُوَّتُه، ومَنْ قَصَمَهُ التقديرُ لم يَعْصِمه التدبير، ومَنْ استهانَ بالدِّين انخرطَ في سِلْكِ الأذَلِّين.

---

(١) الآية (١٣) لم ترد.
(٢) الآية (١٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

الذي ليس له إلا التدبير.. كيف تكون له مقاومة مع التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

مَنْ جَنَحَ إلى منحرفٍ عن دينه، أو داهَنَ مُبْتَدِعاً في عهده نزَعَ اللَّهُ نورَ التوحيدِ من قلبه فهو في خيانته جائرٌ على عقيدته، وسيذوق قريباً وَبَالَ أمره.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾.

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبته، ويقال: جعل قلوبهم مُطَرَّزَة باسمه. وأعْزِز بِحُلَّةٍ لأسرار قومٍ طرازُها اسمُ «الله»!!

سورة الحشر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ ـ الكونُ بجملته في طلبه.. وهو عزيز.

الشموسُ والأقمارُ والنجومُ، والليلُ والنهارُ، وجميع ما خَلَقَ اللّهُ من الأعيان والآثار متنادية على أنفسِها: نحن عبيدُه.. نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ.. نريد مَنْ لم يَزَلْ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قدَّس الله ونزَّهَهُ كُلُّ شيءٍ خَلَقه؛ فكلُّ ما خَلَقَه جَعَلَه على وحدانيته دليلاً، ولِمَنْ أراد أن يَعْرِفَ إلهيتَه طريقاً وسبيلاً.

أتقن كلَّ شيءٍ وذلك دليلُ عِلْمِه وحكمته، ورَتَّبَ كُلَّ شيءٍ، وذلك شاهِدٌ على مشيئته و(إرادته).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا شبيه يساويه، ولا شريكِ له في المُلْكِ ينازِعُه ويُضاهيه.

﴿الْحَكِيمُ﴾ الحاكم الذي لا يُوجَدُ في حُكْمِه عَيْبٌ، ولا يتوجَّه عليه عَتْبٌ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

هم أهل النضير، وكانوا قد عاهدوا النبيَّ ﷺ ألّا يكونوا عليه، ثم بعد أُحُد نقضوا العَهْدَ، وبايعوا أبا سفيان[(١)] وأهل مكة، فأخبر اللّهُ تعالى رسولَه بذلك، فبعثَ صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة[(٢)]، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ

---

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ ـ ٣١ هـ = ٥٦٧ ـ ٦٥٢م) صحابي، من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية. كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره. قاد قريشاً وكنانة يوم أحد والخندق لقتال رسول الله ﷺ، وأسلم يوم فتح مكة (٨ هـ) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، وشهد حنيناً والطائف. ففقئت عينه يوم الطائف ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك فعمي. ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عامله في نجران، ثم أتى الشام، وتوفي بالمدينة، وقيل: بالشام.
الأعلام ٣/ ٢٠١، والأغاني ٦/ ٨٩، والإصابة ت٤٠٤١، وابن عساكر ٦/ ٣٨٨.

(٢) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري (٣٥ ق هـ ـ ٤٣ هـ = ٥٨٩ ـ ٦٦٣ م) الحارثي أبو عبد الرحمن، صحابي من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدراً وما بعدها إلا غزوة تبوك. واستخلفه=

الصَّدَقَة. وكان رئيسهم كعب بن الأشرف[١] فقتله محمد بن مسلمة (غيلةً)، وغزاهم رسول الله ﷺ وأجلاهم عن حصونهم المنيعة وأخرجهم إلى الشام، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَرَ عليهم لكثرتهم، ولِمَنَعَةِ حصونهم.

وظلُّوا يهدمون دورَهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب، فسُمُّوا أولَ الحشر، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وحُشِرَ إلى الشام.

قال جل ذكره: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

كيف نَصَرَ المسلمين ـ مع قِلَّتهم ـ عليهم ـ مع كثرتهم. وكيف لم تمنعهم حصونُهم إذا كانت الدائرةُ عليهم. وإذا أراد اللَّهُ قَهْرَ عدوٍّ استنوق[٢] أَسَدُه.

ومن مواضع العِبْرةِ في ذلك ما قاله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ بحيث داخلتكم الرِّيبةُ في ذلك لِفَرْطِ قُوَّتِهم ـ فصَانَهُم بذلك عن الإعجاب.

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضاً ما قاله ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلم يكن كما ظنُّوه ـ ومَنْ تَقَوَّ بمخلوقٍ أَسْلَمَه ذلك إلى صَغَارِه[٣] ومذَلَّتِه.

ومن الدلائلة الناطقة ما أُلْقِي في قلوبهم من الخوفِ والرُّعب، ثم تخريبُهم بيوتَهم بأيديهم علامةُ ضَعْفِ أحوالهم، وبأيدي المؤمنين لقوة أحوالهم، فتمت لهم الغلبةُ عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم.

هذا كلُّه لا بُدَّ أن يحصل به الاعتبارُ ـ والاعتبارُ أَحَدُ قوانين الشَّرْع.

ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بغيره اعتُبِرَ به غيرُه.

= النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وولاه عمر على صدقات جهينة، واعتزل الفتنة في أيام عليّ فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان عند عمر مُعداً لكشف أمور الولاة في البلاد مات بالمدينة.
الأعلام ٧/ ٩٧، والإصابة ت٧٨٠٨، والبدء والتاريخ ٥/ ١٢٠، والكامل ٣/ ٢.

(١) هو كعب بن الأشرف الطائي (... ـ ٣ هـ = ... ـ ٦٢٤م) من بني نبهان، شاعر جاهلي. كانت أمه من «بني النضير» فدان باليهودية، وكان سيداً في أخواله. أدرك الإسلام ولم يُسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة «بدر» فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ بقتله فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.
الأعلام ٥/ ٢٢٥، وإمتاع الأسماع ١/ ١٠٧ ـ ١٠٩، وابن الأثير ٢/ ٥٣، والطبري ٣/ ٢ والجمحي ٢٣٨.

(٢) استنوق: صار كالناقة في ذلِّها. (اللسان ١٠/ ٣٦٢ مادة: نوق).

(٣) الصَّغار: الذل والضيم. (اللسان ٤/ ٤٥٩ مادة: صغر).

ويقال: يُخَرِّبون بيوتهم بأيديهم، وقلوبهم باتِّباع شهواتِ نفوسِهم، ودِينهم بما يمزجونه به من البِدَع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾.

لولا أن قضى اللَّهُ عليهم أن يخرجوا لعذَّبهم اللَّهُ بالقتل والاستئصال، ثم في الآخرة لهم عذابُ النار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ذلك بأنهم خالفوا أمرَ الله. والمشاقة أن يتحول المرء إلى شِقٍّ آخر.

فالعاصي إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله، ولِمَنْ شاقَّ الله عذابُ النار.

قوله جل ذكره: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

اللِّينة: كلُّ نوعٍ من النخيل ما عدا العجوة[1] والبَرْنِيّ[2].

لمَّا أمر رسولُ الله ﷺ بقَطْعِ بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟!

فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضِّح أن ذلك بإذن الله.. فانقطعَ الكلامُ.

وفي هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُعَلَّلةٍ، وأنَّ الأمرَ الشرعيَّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ، وسَكَتَتْ الألسنةُ عن المطالبة بـ «لِمَ؟» وخُطُورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حَدِّ العرفان. والشيوخُ.

قالوا: مَنْ قال لأستاذِه وشيخه: «لِمَ؟» لا يفلح. وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر في قلبِه جَوَلان لا يجيءُ منه شيءٌ. ومَنْ لم يتجرَّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجري واستحسانَ ما يبدو من الغيب لِسِرِّه وقلبِه ـ فليس من الله في شيء.

---

(١) العجوة: ضرب من أجود أنواع التمر بالمدينة أكبر من الصيحاني يضرب إلى السواد من غرس النبي ﷺ ونخلتها تسمى لينة. (اللسان ١٥/ ٣١ مادة: عجا).

(٢) البرني: ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء عذب الحلاوة. (اللسان ١٣/ ٥٠ مادة: برن).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يريد بذلك أموالَ بني النضير، فقد كانت من جملة الفَيْء لا من الغنيمة؛ فالفيءُ ما صار إلى المسلمين من أموالِ الكفَّارِ من غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيْلٍ وركابٍ، وتدخل في جملته أموالُهم إذا ماتوا وصاروا إلى بيت المال. والغنيمة ما كانت بقتالٍ وإيجاف خيلٍ وركابٍ. وقد خَصَّ رسولُ الله ﷺ بأموالِ هؤلاء فقراء المهاجرين، واستأثر لنفسه بما شاء، فطابت نفوسُ الأنصارِ بذلك، وشَكَرَ الله لهم. ذلك لأن تحرُّرَ القلب من الأعواضِ والأملاكِ صِفَةُ السادة والأكابر، ومَنْ أَسَرَتْهُ الأخطارُ وبقي في شُحِّ نَفْسِه فهو في تضييقه وتدنيقه، وهو في مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث في استيفاء حظوظه ـ وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة شيءٌ.

وأهلُ الصفاء لم تَبْقَ عليهم من هذه الأشياء بقيةٌ، وأمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيءٌ فمُتَرسِّمٌ[1] سُوقِيٌّ.. لا مُتَحقِّقٌ صوفيٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعتِه، ولزومِ طريقته وسيرته ـ وفي العِلْم تفصيلُه.

والواجبُ على العبدِ عَرْضُ ما وقع له من الخواطر وما يُكاشَفُ به من الأحوالِ على العلم ـ فما لا يقبله الكتابُ والسُّنَّة فهو في ضلال[2].

قوله جل ذكره: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

يريد أن هذا الفيء لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدارَ مائةِ رجلٍ.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو الرزق ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ بالثواب في الآخرة.

وينصرون دين الله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: والفقيرُ الصادقُ هو الذي يترك كلَّ سببٍ وعلاقة، ويفرغ أوقاته لعبادة الله، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله، ويَقِفُ مع الحقِّ راضياً بِجَرَيَانِ حُكْمه فيه.

---

(١) القشيري يربط بين الصفاء والتصوف. (انظر الرسالة القشيرية ص٢٧٩ ـ ٢٨٣).

(٢) اللقاء بين الحقيقية والشريعة عنصر أساسي في مذهب القشيري. (انظر الرسالة ص٨٢، ٨٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

نزلت هذه الآية في الأنصار. ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ أي سكنوا المدينة قبل المهاجرين.. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من أهل مكة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ مما خُصِّصَ به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يَعْترِضون بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين، حتى لو كانت بهم حاجةٌ أو اختلالُ أحوالٍ.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قيل نزلت الآية في رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول.

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرَّب منه الطعامَ وأطفأ السراجَ ليُوهِمَ ضيفَه أنه يأكل، حتى يؤثِرَ به الضيفَ عَلَى نفسه وعَلَى عياله، فأنزل الله الآية في شأنه.

ويقال: الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللئيمُ من بناها لنفسه).

وقيل: لم يقل اللَّهُ: ومَنْ يتَّقِ شحَّ نفسه بل قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾

ويقال: صاحبُ الإيثارِ يُؤْثر الشبعانَ على نفسه ـ وهو جائع.

ويقال: مَنْ مَيَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثارٍ حتى يؤثِرَ الجميع دون تمييز.

ويقال: الإيثار أنْ تَرَى أنَّ ما بأيدي الناسِ لهم، وأن ما يحصل في يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذنَ فيها.

ويقال: مَنْ رأى لنفسه مِلْكاً فليس من أهل الإيثار.

ويقال: العابدُ يؤثِر بدنياه غيرَه، والعارفُ يؤثِر بالجنة غيرَه.

وعزيزٌ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقِّ لنَفْسِه شيئاً: لا في الدنيا من جاهٍ أو مالٍ، ولا في الجنّة من الأفضال، ولا منه أيضاً ذَرّةً من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال.

وهكذا وصفُ الفقير؛ يكون بسقوطِ كلِّ أَرَبٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي والذين هاجروا من بعدهم، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة.. كلهُم يَتَرَحَّمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريقَ

الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيرون من الله أن يجعلَ لأحدٍ من المسلمين في قلوبهم غِلًا أي حِقْداً. ومَنْ لا شفقةَ له على جميع المسلمين فليس له نصيبٌ من الدِّين.

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يريد بهم منافقي المدينة؛ ظاهروا بني النضير وقريظة، وعاهَدوهم على الموافقة بكلِّ وَجْهٍ، فأخبر اللَّهُ ـ سبحانه ـ أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه، وأخبرَ أنَّهم لا يتناصرون، وأنَّهم يتخاذلون، ولئنْ ساعدوهم في بعضِ الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم ينهزمون أمام مَنْ يجاهدونهم[1].

قوله جل ذكره: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أخبر ـ سبحانه ـ أن المسلمين أشدُّ رهبةً في صدورهم من الله، وذلك لِقلَّةِ يقينهم، وإعراضِ قلوبِهم عن الله.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلّا مُخاتلةً، أو من وراء جدرانٍ. وإنما يشتدُّ بأسُهم فيما بينهم، أي إذا حارب بعضُبهم بعضاً، فأمّا معكم.. فلا.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

اجتماعُ النفوس ـ مع تنافرُ القلوب واختلافها ـ أصلُ كلِّ فساد، وموجِبُ كُلِّ تخاذُل، ومقتضى تجاسُرِ العدوِّ.

واتفاقُ القلوبِ؛ والاشتراكُ في الهِمَّةِ؛ والتساوي في القَصْدِ يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ وكلِّ سعادة.. ولا يكون ذلك للأعداء قطّ؛ فليس فيهم إلا اختلالُ كلِّ حالٍ، وانتقاضُ كلِّ شَمْلٍ.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

مَثَلُ بني قُرَيظة كمثل بني النضير؛ ذاق النضير وَبالَ أمرِهم قبل قريظة بِسَنَةٍ؛ وذاق قريظة بغْدَهم وبال أمرهم.

---

(١) الآية (١٢) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي مَثَلُ هؤلاء المنافقين مع النضير ـ في وَعْدِهم بعضهم لبعض بالتناصر ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ﴾.

وكذلك أربابُ الفترة وأصحاب الزَّلَّة وأصحاب الدعاوى.. هؤلاء كلُّهم في درجة واحدة في هذا الباب ـ وإن كان بينهم تفاوت ـ لا تنفع صُحْبَتُهم في الله؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكلُّ أحدٍ ـ اليومَ ـ يألَفُ شَكْلَه؛ فصاحبُ الدعوى إلى صاحب الدعوى، وصاحبُ المعنى إلى صاحب المعنى[(١)].

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفِكْرِ في العملِ خَيْرِه وشَرِّه[(٢)].

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة، ومَنْ لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله.. فعَنْ قريب سيفتضح[(٣)].

وعلامةُ مَنْ نَظَرَ لِغدِه أن يُحْسِنَ مراعاةَ يومِه؛ ولا يكون كذلك إلّا إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَه في أمْسِه والناس في هذا على أقسام: مُفَكِّرٌ في أمْسِه: ما الذي قُسِمَ له في الأزل؟ وآخر مفكِّر في غده: ما الذي يلقاه؟؟ وثالثٌ مُسْتَقِلٌ بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مُصْطَلَمٌ عن شاهده موصولٌ بربِّه، مُنْدَرِجٌ في مذكوره؛ لا يتطلَّعُ لماضيه ولا لمستقبله، فتوقيتُ الوقتِ يشغله عن وقته[(٤)].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

تركوا طاعتَه فَتَرَكَهم في العذاب؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

---

(١) الآية (١٧) لم ترد.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص٦٩ (الغيبة والحضور).

(٣) انظر حديث القشيري عن المراقبة بالرسالة القشيرية ص ١٨٩، ١٩٢.

(٤) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الوقت: يقولون: الصوفي ابن وقته، يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين، ويقولون: فلان بحكم الوقت أي أنه مستسلم بما يبدو له من الغيب من غير اختيار له. ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت. (الرسالة القشيرية ص٥٥، ٥٦).

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

لا يستوي أهلُ الغفلةِ مع أهل الوصلة.

وأصلُ كلِّ آفةٍ نسيانُ الربِّ، ولولا النسيان لما حَصَلَ العصيان، والذي نسِيَ أمرَ نَفْسِه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته، ويُسَوِّفُ فيما يُلْزِمَهُ به الوقتُ من طاعته.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي لو كان للجبلِ عقلٌ وصلاحُ فِكْرٍ وسِرٍّ، وأنزلنا عليه هذا القرآن لخَضَعَ وخَشَعَ. ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] ويدل عليه أيضاً قوله.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾: ليعقلوا ويهتدوا، أي بذلك أمرْناهم، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن.

ويقال: ليس هذا الخطابُ على وَجْهِ العتابِ معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إيَّاهم بالقوة؛ فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ لم يُطِقْ ولخَشَع ـ وهؤلاء خَصَصْتُهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما لا يُعْرَفُ بالضرورة، ولا يُعْرَف بالقياس من المعلومات. ويقال: هو ما استأثر الحقُّ بعِلْمِه، ولم يجعل لأحدٍ سبيلاً إليه.

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما يَعرفُه الخَلْقُ.

وفي الجملة: لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه معلومٌ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: ذو القدرة على الإيجاد.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: المُنَزَّهُ عن الآفة والنقص.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: ذو السلامة من النقائص، الذي يُسَلِّمُ على أوليائه، والذي سَلِمَ المؤمنون من عذابه.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: الذي يُصَدق عَبْدَه في توحيده فيقول له: صَدَقْتَ يا عبدي.

والذي يُصَدِّق نفسه في إخباره أي يعلم أنه صادق.

ويكون بمعنى المصدق لوعده. ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يُؤمِّنهم من عقوبته.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: الشاهد، وبمعنى الأمين، ويقال مؤيمن (مُفَيْعِل) من الأمن قلبت همزته هاءً وهو من الأمان، ويقال بمعنى المؤمِن.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ الذي لا يُغْلَب، والذي لا مثيلَ له، والمستحق لأوصاف الجلال، وبمعنى: المُعِزّ لغباده. والمَنِيعَ الذي لا يَقْدِرُ عليه أحد.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي لا تصل إليه الأيدي. أو بمعنى المُصْلِح لأمورهم من: جَبَرَ الكَسْرَ. أو بمعنى القادر على تحصيل مراده مِنْ خَلْقِه على الوجه الذي يريده من: جَبَرْتُه على الأمر وأجبرته.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: المتقدِّس عن الآفات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

هو المنشىء للأعيان والآثار.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المُسَمَّيات الحِسَان.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: مضى معناهما، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء (في كتابنا المسمَّى: «البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى»).

سورة الممتحنة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَلِكٍ لا أصلَ لمُلْكِه عند حَدَث ولا نَسْلَ له، فعَنْهُ يَرِث. ملكٍ لا يَسْتَظْهِرُ بجيشٍ وعُدَد، ولا يتعزَّزُ بقَوْم وعَدَد. ملكٍ للخَلْقِ بأجمعِهم ـ لكنه اختار قوماً ـ لا لينتفِعَ بهم ـ بل لِنَفْعِهم، وردَّ آخَرين وأذلَّهم بمَنْعِهم ووَضْعِهم:

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ﴾.

قال ﷺ: «أعدى عدوِّك نَفْسُك التي بين جنبيك»[1] وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام: «عادِ نَفْسَك فليس لي في المملكة مُنازِعٌ غيرها». فَمَنْ عادَى نَفسَه فقد قام بحقِّ الله، ومَنْ لم يعادِ نفسه لَحِقَتْه هذه الوصمة[2]. وأصلُ الإيمانِ الموالاةُ والمعاداةُ في الله ومَنْ جَنَحَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أنا أعلم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من دقائقِ التصنُّع وخَفِيَّات الرياء.

﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ﴾ من التزيُّن للناس.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من الاستسرار بالزَّلة، ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ﴾، من الطاعة والبرِّ.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من الخيانة ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ﴾ من الأمانة.

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٠٦، ٩/ ٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٤).
قال القشيري في رسالته عند حديثه عن النَّفْس: ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القالب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله. (الرسالة القشيرية ص٨٦، ٨٧).

(٢) الوصمة: العيب والعار.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من الغِلِّ والغِشِّ للناس، ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ من الفضيحةِ للناس.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من ارتكاب المحظورات، ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ من الأمرِ بالمعروف.

﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ من تَرْكِ الحشمة مني وقلة المبالاة باطِّلاعي، وما أعلنتم من تعليم الناسِ ووَعْظِهِمْ.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد حاد عن طريق الدين، ووَقَعَ في الكفر.

قوله جل ذكره: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾.

إنْ يَظْفَروا بكم وصادَفوكم يكونوا لكم أعداء، ولن تَسْلَموا من أيديهم بالسوءِ ولا من ألسنتهم بالذمّ وذكْرِ القبيح.

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: ولن يَنفَعَكم تَوَدُّدُكم وتَقَرُّبُكم إليهم، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام. ثم عقوبة الآخرةَ تُدْرِكُكُم.

وكذلك صفة المخالِف، ولا ينبغي للمرء أن يتعطَّش إلى عشيرته ـ وإن داهَنَتْه في قالَةٍ، ولا أن ينخدعَ بتغريرها ـ وإنْ لا يَنْتَه في حالة.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

أي لكم قُدْوَةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبرَّؤوا من الكفار من أقوامهم؛ فاقْتَدُوا بهم.. إلَّا استغفار إبراهيم لأبيه ـ وهو كافر ـ فلا تقتدوا به.

ولَا تَسْتَغْفِروا للكفار. وكان إبراهيمُ قد وعده أبوه أنه يُؤمِن فلذلك كان يستغفر له، فَلَمَّا تَبَيَّنَ له أنه لن يُؤمِنَ تَبرَّأ منه.

ويقال: كان منافقاً.. ولم يَعْلَمْ إبراهيم ذلك وقتَ استغفاره له.

ويقال: يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أنَّ الله لا يغفر للكفار.

والفائدةُ في هذه الآية تخفيفُ الأمر على قلب الرسول ﷺ والمؤمنين بتعريفهم أنَّ مَنْ كانوا قبلهم حين كَذَّبوا بأنبيائهم أهلكهم الله، وأنهم صبروا، وأنه ينبغي لذلك أن يكونَ بالصبرِ أمرُهم.

قوله جل ذكره: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أخبر أنهم قالوا ذلك.

ويصحُّ أن يكون معناه: قولوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

وقد مضى القولُ في معنى التوكل والإنابةُ.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ربَّنا لا تُظفِرهم بنا، ولا تُقَوِّهم علينا.

والإشارة في الآية: إلى الأمرِ بِسُنَّةِ إبراهيم في السخاء وحُسْنِ الخُلُقِ والإخلاصِ والصدقِ والصبرِ وكلِّ خصلةٍ له ذَكَرَها لنا[1].

قوله جل ذكره: ﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقفهم في مقتضى قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ عند حدِّ التجويز.. لا حُكْماً بالقَطْعِ، ولا دَفْعَ قلبٍ باليأس.. ثم أمَرَهم بالاقتصاد في العداوة والولاية معهم بقلوبهم، وعرَّفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته، وجَرَيانِ كلِّ شيءٍ على ما يريد لهم، وصَدَّق هذه الترجية بإيمان مَنْ آمَنَ منهم عند فتح مكة، وكيف أسلم كثيرون، وحصل بينهم وبين المسلمين مودةٌ أكيدة.

قوله جل ذكره: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أَمَرَهُم بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذي يفعلونه، وأمّا من كان فيهم ذا خُلُقٍ حَسَنٍ، أو كان منه للمسلمين وجهُ نَفْعٍ أو رِفْقٍ ـ فقد أمَرَهم بالملاينة معه. والمُؤَلَّفَةُ قلوبهم[2] شاهدٌ لهذه الجملة، «فإنَّ الله يحب الرِّفق في جميع الأمور»[3].

---

(١) الآية (٦) لم ترد.

(٢) المؤلفة قلوبهم: قوم من سادات العرب أمر الله تعالى نبيه ﷺ في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم ليرغبوا من وراءهم في الإسلام فلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلْباً مع الكفار على المسلمين، وقد نفّلهم النبي ﷺ يوم حُنين بمائتين من الإبل تألفاً لهم. منهم الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وغيرهما. (لسان العرب ٩/ ١١ مادة: ألف).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ١٤، ٧١، ١٠٤)، ومسلم في الصحيح (السلام ١٠)، والترمذي في (السنن ٢٧٧١)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٣٦، ٣٧، ٨٥، ١٩٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/ ٢٠٣) والدارمي في (السنن ٢/ ٣٢٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٨/ ١٠)، والهيثمي في (مجمع الزوائد٨/ ١٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٤٤٩، ١١/ ٤١، ١٩٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٤) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٣٣)، والخطيب البغدادي=

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

كان النبيُّ ﷺ يمتحنهن باليمين، فَيَحْلِفْنَ إنَّهن لم يخرجن إلَّا لله، ولم يخرجن مغايظةً لأزواجهن، ولم يخرجن طمعاً في مالٍ.

وفي الجملة: الامتحانُ طريقٌ إلى المعرفة، وجواهرُ الناس تتبيَّن بالتجربة. ومَنْ أقْدَمَ على شيءٍ من غير تجربة تَحَسَّى كأسَ الندم.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

لا توافِقوا مَنْ خالَفَ الحقَّ في قليل أو كثير[١].

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالِبْهُنَّ وشارِطْهُنَّ بهذه الأشياء:

تَرْك الشِّرك، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النَّسبِ، وألا يعصينك في معروفٍ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به، ويدخل في ذلك تَرْكُ النياحةِ وشقُّ الجيوب ونَتْفُ الشَّعْرِ عند المصيبة وتخميش[٢] الوجوه والتبرُّجُ[٣] وإظهارُ الزينة.. وغير ذلك مما هو من شعائر الدِّين في الجملة.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

الذين غضب الله عليهم هم الكفار. يئسوا من الآخرة كما يئِسَ أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويُبْعثوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم).

ويقال: كما يئس الكفار حين اعتقدوا أن الخَلْقَ لا يُبْعَثُون في القيامة.

= في (تاريخ بغداد ٤/ ١٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٥، ١٦٤)، والبغوي في (شرح السنة ١٣/ ٧٣) وعبد الرزاق في (المصنف ٩٨٣٩، ١٩٤٦٠)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٦) والبخاري في (التاريخ الكبير ٤/ ٨٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٤٦٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ٣٥٠).

(١) الآية (١١) لم ترد.

(٢) الخمش: الخدش يظهر في الوجه وغيره (ج) خموش.

(٣) التبرّج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. (اللسان ٢/ ٢١٢ مادة: برج).

سورة الصف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ وقفه اللَّهُ لعرفانها لم يَصْبِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصلَ إلى المُسَمَّى بها بِجِنَانِه: في البداية بتأمُّل برهانه لمعرفة سلطانه، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كعِيانِه.

قوله جل ذكره: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

مَنْ أراد أنْ يصفوَ له تسبيحُه فَلْيُصَفِّ قلبَه من آثار نَفْسِه، ومَنْ أراد أن يَصْفُوَ له في الجنَّةِ عَيشُه فَلْيُصَفِّ من أوضارِ[1] ذَنْبِهِ نَفْسَه.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

جاء في التفاسير أنهم قالوا: لو عَلِمْنا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنا ولو فيه كل جهد.. ثم لمَّا كان يومُ أُحُدُ لم يثبتوا، فنزلت هذه الآية في العتاب.

وفي الجملة: خلفُ الوعدِ مع كلِّ أحَدٍ قبيحٌ، ومع الله أقبح.

ويقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضِع الفقر إلى الحقِّ في كلِّ نَفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى.. والله يحب التبرِّي من الحوْلِ والقوة.

ويقال: لم يتوعَّد ـ سبحانه ـ زَلَّةٍ بِمثْلِ ما على هذا حين قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

المحبةُ توجِبُ الإيثارَ، وتقديم مُرَادِ حبيبك عَلَى مُرَادِ نَفْسِك، وتقديم محبوب حبيبك على محبوبِ نَفْسِك. فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أن يُقاتِلَ على الوجه الذي ذكره فَمَنْ لم يُؤثِرْ محبوبَ الله على محبوب نَفْسِه ـ أي

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

على سلامته ـ انسلخ من محبته لربِّه، ومَنْ خلا من محبةِ الله وَقَعَ في الشِّق الآخر، في خسرانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

لمَّا زاغوا بِتَرْكِ الحدِّ أزاغ اللَّهُ قلوبهم بنقض العهد.

ويقال: لمَّا زاغوا عن طريق الرُّشْدِ أزاغ الله قلوبَهم بالصدِّ والردِّ والبُعْدِ عن الوُدِّ.

ويقال: لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرَهم.

ويقال: لمَّا زاغوا عن خدمة الباب أزاغ اللَّهُ قلوبهم عن التشوُّق إلى البساط.

ويقال: لمَّا زاغوا عن العبادة أزاغ اللَّهُ قلوبَهم عن الإرادة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

بَشَّرَ كلُّ نبيٍّ قومَه بنَبِيِّنا ﷺ، وأفرد الله ـ سبحانه ـ عيسى بالذِّكرِ في هذا الموضع لأنه آخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا ﷺ: فبيَّن بذلك أن البشارة به عَمَّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام[1].

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فَمَنْ احتال لوَهنه، أو رامَ وهْيَه انعكس عليه كَيْدُه، وانتقض عليه تدبيرُه.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾: كما قالوا:

ولله سِـــرٌّ فـــي عُـــلاهُ وإنـــمـــا كـلامُ الـعِـدَى ضَـرْبٌ مـن الـهَـذَيـانِ

كأنه قال: مَنْ تمنَّى أن يُطْفِىءَ نورَ الإسلام بكيده كمن يحتال ويزاول إطفاء شعاعِ الشمس بنَفْثه ونَفْخِه فيه ـ وذلك من المُحال.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

لمَّا تقاعد قومُه عن نصرته، وانبرى أعداؤه لتكذيبه، وجحدوا ما شاهدوه من صِدْقِه قَيَّض الله له أنصاراً من أمته هم: نُزَّاعُ القبائل، والآحادُ الأفاضل، والساداتُ الأماثل، وأفرادُ المناقب ـ فبذلوا في إعانته ونصرة دينه مُهَجَهم، ولم يُؤثِروا عليه شيئاً من كرائمهم، ووقوه بأرواحهم، وأمَدَّهم اللَّهُ سبحانه بتوفيقه كي ينصروا

---

(١) الآية (٧) لم ترد.

دينه، أولئك أقوامٌ عَجَنَ الله بماء السعادة طِينَتَهم، وخَلَقَ من نور التوحيد أرواحهم وأهَلَّهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم.

ولقد أرسل الله نبيَّه لدينه مُوَضِّحاً، وبالحقِّ مُفْصِحاً، ولتوحيده مُعْلِناً، ولجهده في الدعاء إليه مستفرِغاً.. فأقْرَعَ بنُصْحِه قلوباً نُكْراً، وبصَّرَ بنور تبليغه عيوناً عُمْياً.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

سمَّى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا في التجارة من الرِّبح والخسران ونوعِ تَكسُّبٍ من التاجر ـ وكذلك: في الإيمان والجهاد رِبْحُ الجنَّة وفي ذلك يجتهد العبد، وخسرانها إذا كان الأمرُ بالضِّدِّ.

وقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي في ذلك جهادُكم وإيمانُكم واجتهادُكم، وهو خيرٌ لكم.

ثم بَيَّن الربحَ على تلك التجارة ما هو فقال:

﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

قدَّم ذِكْرَ أهمِّ الأشياء ـ وهو المغفرة. ثم إذا فرغَتْ القلوبُ عن العقوبة قال:

﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ فبعد ما ذَكَرَ الجنَّةَ ونعيمَهَا قال: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾، وبماذا تطيب تلك المساكن؟ لا تطيب إلَّا برؤية الحقِّ سبحانه، ولذلك قالوا:

أجيرانَنَا ما أوحشَ الدارَ بعدكم ... إذا غِبْتُمو عنها ونحن حضورُ
نحن في أكمل السرورِ ولكنْ ... ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهلَ وُدِّي ... أنكم غُيَّبٌ ونحن حضورُ

قوله جل ذكره: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي ولكم نعمة أخرى تحبونها: نصرٌ من الله؛ اليومَ حِفْظُ الإيمان وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة، وغداً على صراط القيامة.

﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾: الرؤية والزلفة. ويقال الشهود. ويقال: الوجود أبدَ الأبَد.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: بأنهم لا يبقون عنك في هذا التواصل.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ

أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

أي كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أنَّ عيسى لمَّا استعانَ واستنصرَ الحواريين نصروه. فانصروا محمداً إذا استنصركم.

ثم أخبر أنَّ طائفةً من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأُكْرِموا، وطائفةً كفروا فأُذِلُّوا، وأظفرَ أولياءَه على أعدائه.. لكي يعرف الرسولُ ﷺ أنَّ الله سبحانه يُظْفِرُ أولياءَه على أعدائه.

سورة الجمعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز إذا تجلّى لقلبِ عَبْدٍ بوصفِ جمالِه تجمعت أفكارُه على بساط جُودِه فلم يتفرَّق بسواه[1].

ومَنْ تجلَّى لِسِرِّه بنعت جلالِه اندرجت جملتُه، واستُهْلِكَ في وجوده فلم يشعر بكرائم دُنْياه ولا بعظائم عُقْباه.

وكم له من إنعام! وكم له من إحسان! وكم في أمثالهم: «جرى الوادي فطمَّ على القَرِيِّ»[2].

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

تَسْبَحُ في بحارِ توحيد الحقِّ أسرارُ أهلِ التحقيق، ويَخْرُهم بلا شاطىء؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروجَ ولا براحَ، فحازت أيديهم جواهرَ التفريد فرصَّعوها في تاج العرفان كي يَلْبَسُوه يومَ اللِّقاء.

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿الْمَلِكِ﴾: الملك المتفرِّد باستحقاق الجبروت.

﴿الْقُدُّوسِ﴾: المُنزَّهُ عن الدرك والوصول: فليس بيد الخَلْقِ إلَّا عرفان الحقائق بنعت التعالي، والتأمل في شهود أفعاله، فأمَّا الوقوف على حقيقة أنِّيته ـ فقد جَلَّتْ الصمديةُ عن إشرافٍ عليه، أو طمعِ إدراكٍ في حالِ رؤيته، أو جواز إحاطةٍ في العِلْم به.. فليس إلا قالة بلسانٍ مُسْتَنْطقٍ، وحالة بشهودِ حقٍّ مستغرق.

وقُلْنَ لنا: نحن الأهِلَّة إنما نُضيءُ لِمَنْ يَسْري بليلٍ ولا نَقْري

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) انظر حديث الجمع والفرق للقشيري برسالته ص ٦٤، ٦٧.

(٢) القَرِيُّ: مجرى الماء في الروض (ج) أقرية وقُريان. (اللسان ١٥/١٧٩ مادة: قرا).

جرَّده عن كلِّ تكلُّفٍ لِتَعَلُّمٍ، وعن الاتصافِ بتطَلُّبٍ. ثم بَعَثَه فيهم وأظهَرَ عليه من الأوصاف ما فاق الجميع.

فكما أيْتَمَهُ في الابتداء عن أبيه وأمِّه، ثم آواه بلُطْفِه ـ وكان ذلك أبلغَ وأتمَّ ـ فإنه كذلك أفرده عن تكلُّفِه العلم ـ ولكن قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] ألبسه لباسَ العِزَّة، وتوجَّه بتاجِ الكرامة، وخَلَعَ عليه حُسْنَ التولِّي. لتكونَ آثارُ البشرية عنه مندرجة، وأنوارُ الحقائقِ عليه لائحة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي بَعَثَه في الأميين، وفي آخرين منهم وهم العجم، ومن يأتي.. إلى يوم القيامة؛ فهو ﷺ مبعوثٌ إلى الناس كافَّة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

يقصد به هنا النبوة، يؤتيها ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾؛ وفي ذلك ردٌّ على مَنْ قال: إنها تُسْتَحَقُّ لكثرة طاعة الرسول ـ وردٌّ على من قال: إنها لتخصيصهم بطينتهم؛ فالفضل ما لا يكون مُسْتَحَقًّا، والاستحقاق فَرضٌ لا فضل.

ويقال: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمِنوا به.

ويقال: هو الأُنْسُ بالله، والعبدُ يَنْسَى كلَّ شيء إذا وَجَدَ الأُنْسَ.

ويقال: قَطَعَ الأسباب، ـ بالجملة ـ في استحقاق الفضل، إذ أحاله على المشيئة.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ثم لم يعملوا بها.

ويُلْحَقُ بهؤلاء في الوعيد ـ من حيث الإشارة ـ الموسومون بالتقليد في أي معنى شِئتَ: في علم الأصول، وممَّا طريقُه أدلةُ العقول، وفي هذه الطريقة ممَّا طريقُه المنازلات.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا من جملة معجزاته ﷺ، فَصَرْفُ قلوبِهم عن تمنِّي الموتِ إلى هذه المدة دَلَّ على صِدْقِه صلوات الله عليه.

ويقال: من علامات المحبة الاشتياقُ إلى المحبوب؛ فإذا كان لا يَصِلُ إلى لقائه

إلا بالموتِ فتمنّيه ـ لا محالة ـ شرطٌ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً. . وكان كما أخبر.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الموتُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ. وفي الخبر: «مَنْ كَرِهَ لقاء الله كَرِهَ الله لقاءه»[1]. والموتُ جِسْرٌ والمقصدُ عند الله. . ومَنْ لم يَعِشْ عفيفاً فَلْيَمُتْ ظريفاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أوْجَبَ السَّعْيَ يومَ الجمعة إذا نوديَ لها، وأمَرَ بتَرْكِ البيع.

ومنهم من يحمله على الظاهر؛ أي تَرْك المعاملة مع الخَلْق، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنىً آخر: هو تَرْكُ الاشتغال بملاحظة الأعراض، والتناسي عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر؛ فمنهم مَنْ يسعى إلى ذِكْرِ الله، ومنهم من يسعى إلى الله، بل يسعون إلى ذِكْرِ الله جَهْراً بِجَهْرٍ، ويسعون إلى الله تعالى سِرًّا بسِرٍّ.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

إنما ينصرف مَنْ كان له جَمْعٌ يرجع إليه، أو شغْلٌ يقصده ويشتغل به ـ ولكن. . مَنْ لا شُغْلَ له ولا مأوى. . فإلى أين يرجع؟ وإنما يقال: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إذا كان له أرَبٌ. . فأمّا مَنْ سَكَنَ عن المطالبات، وكُفِيَ داءَ الطَّلَبِ. . فما له وابتغاء ما ليس يريده ولا هو في رِقِّه؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

مَنْ أَسَرَتْهُ أخطارُ الأشياء استجاب لكلِّ داعٍ جَرَّه إليه لَهْوٌ أو حَمَلَه عليه سهوٌ ومَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور، ولم يلتفت في حال الشهود. ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ وما عند الله للعُبَّاد والزُّهَّاد ـ غداً ـ خيرٌ مما نالوه في الدنيا نقداً. وما عند الله للعارفين ـ نقداً ـ من واردات القلوب وبواده[2] الحقيقة خيرٌ مما يُؤمِّل المستأنِف في الدنيا والعُقْبى.

---

(١) أخرجه البخاري (رقاق ٤١)، ومسلم (ذكر ١٤ ـ ١٨)، والترمذي (زهد، ٦)، والنسائي (جنائز ١٠)، وابن ماجه (زهد ٣١)، والدارمي (رقاق ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٢/ ٤٢٠، ٣/١٠٧، ٤/ ٢٥٩، ٥/٣١٦، ٣٢١، ٦/ ٤٤،٤٥، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٦).

(٢) انظر حديث القشيري عن البواده والهجوم بالرسالة القشيرية ص٧٨.

سورة المنافقون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَنْ تحقَّق به صَدَقَ في أقوالِه، ثم صَدَقَ في أعمالِه، ثم صدق في أخلاقِه ثم صَدَقَ في أحواله، ثم صَدَقَ في أنفاسه.. فصِدْقُه في القول ألّا يقولَ إلّا عن برهان، وصِدْقُه في العمل ألا يكونَ للبِدْعةِ عليه سلطانٌ، وصِدْقُه في الأخلاقِ ألّا يُلاحِظَ إحسانَه مع الكافَّة بعين النقصان، وصِدْقُه في الأحوال أن يكونَ على كَشْفٍ وبيان، وصِدْقُه في الأنفاس ألا يَتَنفَّسَ إلا على وجودٍ كالعيان.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

كذَّبهم فيما قالوا وأظهروا، ولكنهم لم يشهدوا عن بصيرة ولم يعتقدوا تصديقك، فهم لم يكذبوا في الشهادة ولكنَّ كِذْبَهم في قولهم: إنَّهم مخلصون لك، مُصَدِّقون لك. فصِدْقُ القالة لا ينفع مع قُبْح الحالة.

ويقال: الإيمان ما يوجِبُ الأمان؛ فالإيمانُ يوجِبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصَه من العذاب أكثره وأقلّه.. إلّا ما ينقله من أعلى جهنم إلى أسفلها.

قوله جل ذكره: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

تَستَّرُوا بإقرارهم، وتكَشَّفوا بنفاقهم عن أسْتارِهم فافتضحوا، وذاقوا وبالَ أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

استضاؤوا بنورِ الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة، فانطفأ نورُهم بقَهرِ الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحُكم الشقاوة.

قوله جل ذكره: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

أي هم أشباحٌ وقوالبُ وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق ـ فالجوزُ الفارغُ مُزيَّنٌ ظاهِرُه ولكنه للعب الصبيان.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لِجُبْنِهم؛ إذ ليس لهم انتعاشٌ بربِّهم؛ ولا استقلالٌ بغيرهم.

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ هم عدوٌّ لك ـ يا محمد ـ فاحْذَرهم، ولا يَغُرَّنْكَ تَبَسُّطُهم في الكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبُّر، وإظهار الاستغناء عن استغفارك لهم.. فخَلِّ سبيلهم؛ فلبس للنُّصح فيهم مساغٌ، ولن يُصْحِيَهم من سَكْرَتهم إلَّا حَرُّ ما سيلقونه من العقوبة، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

فقد سبق العِلْمُ بذلك:

قوله جل ذكره: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

كأنهم مربوطون بالأسباب، محجوبون عن شهود التقدير، غيرُ متحقِّقين بتصريف الأيام، فأنطَقَهُم بما خَامَرَ قلوبَهم مِنْ تَمَنِّي انطفاء نورِ رسول الله، وانتكاث شَمْلِهم، فتواصَوْا فيما بينهم بقولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ﴾.

وليس استقلالُك ـ يا محمد ـ ولا استقلالُ أصحابِك بالمرزوقين.. بل بالرازق؛ فهو الذي يمسككم.

قوله جل ذكره: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنما وقع لهم الغَلَطُ في تعيين الأعزِّ والأذَلِّ؛ فتوَهَّموا أنَّ الأعزَّ هم المنافقون، والأذلَّ هم المسلمون، ولكن الأمر بالعكس، فلا جَرَمَ غَلَبَ الرسولُ ﷺ والمسلمون، وأُذِلَّ المنافقون بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: لله عِزُّ الإلهية، وللرسول عِزُّ النبوَّة، وللمؤمنين عِزُّ الولاية. وجميعُ ذلك لله؛ فعِزُّه القديم صِفَتُه، وعِزُّ الرسولِ وعِزُّ المؤمنين له فِعْلاً ومِنَّةً وفَضْلاً، فإذاً لله العِزَّةُ جميعاً.

ويقال: كما أنَّ عِزَّةَ الله ـ سبحانه ـ لا زوالَ لها فعِزَّة الأنبياء بأن لا عَزْلَ لهم، وعِزَّةُ المؤمنين بألا يَبْقَى منهم مُخَلَّدٌ في النار.

ويقال: مَنْ كان إيمانُه حقيقياً فلا زوالَ له.

ويقال: مَنْ تعزَّزَ بالله لم يلحقه تَغَيُّرٌ عن حاله بغير الله.

ويقال: لا عِزَّ إلَّا في طاعةِ الله، ولا ذُلَّ إلَّا في معصية الله.. وما سوى هذا فلا أصلَ له.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

لا تُضَيِّعوا أمورَ دينكم بسبب أموالكم وأولادكم بل آثروا حقَّ الله، واشتَغِلوا به يَكْفِكُم أمور دنياكم وأولادكم؛ فإذا كُنْتَ لله كان اللَّهُ لك.

ويقال: حقُّ الله مما ألزمكَ القيامَ به، وحقُّك ضمن لك القيام به؛ فاشتغِلْ بما كُلِّفْتَ لا بما كُفِيت.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لا تَغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم، وتَرَقَّبوا بَغَتاتِ آجالِكم، وتأهَّبوا لما بين أيديكم من الرحيل، ولا تُعَرِّجوا في أوطان التسويف[1].

---

(١) الآية (١١) لم ترد.

سورة التغابن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها يحتاج إلى لسانٍ عزيز في الغيبة لا يُبْتَذَلُ، وفي ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَل. ومَنْ عَرَفها يحتاج إلى قلبٍ عزيزٍ ليس في كلِّ ناحية منه خليط، ولا في كلِّ زاوية زبيط[1].

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المخلوقاتُ كلُّها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحةٌ.. ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحَها مَنْ به طَرَشُ النكرة.

ويقال: الذي طَرَأَ صَمَمُه فقد يُرْجَى زواله بنوعِ معالجة، أمَّا مَنْ يولَدُ أصَمَّ فلا حيلةَ في تحصيلِ سماعه. قال تعالى: ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ [الروم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِه سَمَّاه كافراً، وعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر.. وكذلك كانوا. ومنكم مؤمنٌ في سابق حُكْمِه سمَّاه مؤمناً، وعَلِمَ في آزاله أنه يُؤمِن وخَلَقَه مؤمناً، وأراده مؤمناً.. والله بما تعملون بصير.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي وهو مُحِقٌّ في خَلْقِه.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ لم يَقُلْ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذي قال لنا، صوَّر الظاهرَ وصوَّر الباطنَ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته، والباطن شاهدٌ على جلال قربته.

---

(١) الزبيط: صياح البطة. (اللسان ٧/ ٣٠٧ مادة: زبط).

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قصِّروا حِيَلكُم عن مطلوبكم، فهو تتقاصر عنه علومُكم، وأنا أعلمُ ذلك دونكم.. فاطلبوا منّي، فأنا بذلك أعلم، وعليه أقدر.

ويقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾. فاحذروا دقيقَ الرياء، وخَفِيَّ ذات الصدور ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: فاحذروا أن يخالِفَ ظاهرُكم باطنكم.

في قوله: ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربه.

وفي قوله: ﴿ما تعلنون﴾ أمرٌ بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخَلْق.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ، ومَنْ لم يعتبِرْ عَثَرَ في مَهْوَاةٍ من الأَمَلِ، ثم لا يَنْتَعِشُ إلّا بعد فواتِ الأمرِ من يده.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾. شاهدوا الأمر من حيث الخَلْق فتَطَوَّحوا في متاهاتِ الإشكالِ المختلفةِ الأحوال. ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلَّصوا من تفرقة الأباطيل، واستراحوا بشهود التقدير من اختلاف الأحوال ذات التغيير.

قوله جل ذكره: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الموتُ نوعان: موتُ نَفْسٍ، وموتُ قلب، ففي القيامة يُبْعَثون من موت النَّفْس، وأمَّا موتُ القلبِ فلا بَعْثَ منه ـ عند كثيرٍ من مخلصي هذه الطائفة، قال تعالى مُخْبِراً عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[يس: ٥٢] فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك؛ فموتُ قلوبِهم مُسَرْمَدٌ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿النور الذي أنزلنا﴾: القرآن. ويجوز أن يكون ما أنزل في قلوب أوليائه من السكينة وفنون الألطاف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

المطيعُ ـ يومئذٍ ـ في غبن لأنه لم يستكثر من الطاعة، والعاصي في غبن لأنه استكثر من الزلّة.

وليسَ كلُّ الغبنِ في تفاوت الدرجات قلَّةً وكثرة، فالغبن في الأحوال أكثر[١].

قوله جل ذكره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أيُّ خَصْلةٍ حَصَلت فمِنْ قِبَلِه خَلْقاً، وبعلمه وإرادته حُكماً.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ حتى يهتدي إلى الله في السَّراء والضَّراء ـ اليومَ ـ وفي الآخرة يهديه إلى الجنة.

ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ للأخلاق السنيَّة، والتنقِّي من شُحِّ النَّفْس.

ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ لاتِّباع السُّنَّةِ واجتنابِ البِدْعة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

طاعةُ الله واجبة، وطاعةُ الرُّسُلِ ـ الذين هم سفراءُ بينه وبين الخَلْقِ ـ واجبةٌ كذلك. والأنوار التي تظهر عليك وتطالِبُ بمقتضياتها كلُّها حقٌّ، ومن الحقِّ.. فتجب طاعتُها أيضاً[٢].

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا دَعَوْكَ لتجمَع لهم الدنيا فهم عدوٌّ لك، أمَّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف فليسوا لكم أعداء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿فِتْنَةٌۚ﴾: لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله؛ فما تَبْقَ عن الله مشغولاً بجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك.

ويقال: إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشغَلُون بذلك عن أداءِ حقِّ مولاكم، وتشغلكم أولادُكم، فتبقون بهم عن طاعة الله ـ وتلك فتنةٌ لكم.. ترومون إصلاحَهم. فتفسدون أنتم وهم لا يُصْلَحون!

قوله جل ذكره: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي ما دمتم في الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله. والتقوى

---

(١) الآية (١٠) لم ترد.

(٢) الآية (١٣) لم ترد.

عن شهود التقوى بعد ألا يكونَ تقصيرٌ في التقوى غايةُ التقوى.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى ترتفعَ الأخطارُ عن قلبه، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

يتوجَّه بهذا الخطاب إلى الأغنياء لِبَذْلِ أموالهم، وللفقراء في إخلاءِ أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثارِ مرادِ الحقِّ على مرادِ أنفسِهم.

فالغنيُّ يُقال له: آثِرْ حُكْمي على مرادك في مالِك، والفقيرُ يقال له: آثِرْ حُكْمي في نَفْسِك وقلبك ووقتك وزمانك.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

جلَّ شأنه.

سورة الطّلاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَنْ لا سبيلَ إلى وِصاله، ولا غُنْيَةَ ـ في غيره ـ عن فِعاله، اسمٌ مَنْ عَلِمَه وقع في كل سكونٍ وراحة، اسمٌ مَنْ عرفه وقع في كل اضطراب وإطاحة[1]، العلماءُ بسراب علمهم استقلوا فاستراحوا، والعارفون بسلطانِ حُكمِه اضطُلِموا عن شواهدِهم. . . فبادوا وطاحوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ. . .﴾.

الطلاقُ ـ وإنْ كان فراقاً ـ فلم يجعله الحقُّ محظوراً. . . وإن كان من وجهٍ مكروهاً.

وللطلاق وقتية: سُنِّية وبِدْعية، ومباحة، لا سنية ولا بدعية؛ فالسنية: أَنْ تطلَّقَ في طُهْرٍ لم تُباشَر فيه طلقةً واحدة، والبدعية: في حال الحيض وطُهْرٍ جُومعت فيه، والمباحة: في طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها ـ والطلاق أكثر من واحدة.

والعِدَّةُ ـ وإن كانت في الشريعة لتحصين ماء الزوج محاماةً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماءٌ آخر ـ فالغالبُ والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية في وصلة النكاح.

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلَّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التي لم تحِضْ، وهذه الآيسة من الحيض، وتلك التي انقطع حَيْضُهَا، والحُبْلَى حتى تلد. . . كل ذلك مراعاةٌ للحرمة: وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حُرْمَةَ الميت أعظم وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة. . . المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

---

(١) أطاح ماله: أفناه وأذهبه.

العبوديةُ: الوقوف عند الحدِّ، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومَنْ راعى مع اللَّهِ حَدَّه أخلص اللَّهُ له عَهْدَه...

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

قالوا: أراد نَدَماً، وقيل: وَلَداً، وقيل: مَيْلاً إليها، أولها إليه؛ فإن القلوبَ تتقلب:

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبرُ مع الأشكال حقًّا للحرمة المتقدمة فالخلاصُ من مُساكنة الأمثال، والتجرُّدُ لعبادة الله تعالى أوْلَى وأحَقُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

إذا صَدَقَ العبدُ في تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخْرَجُ من بين العجِين لا يَعْلَقُ بها شيءٌ. ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِي سرادقاتِ عنايته، ويُدْخِلُه في كنف الإيواء، ويَصْرِفُ الأشغال عن قلبه، ويُخْرِجُه من ظلمات تدبيره، ويُجَرِّدُه من كل أمر، وينقله إلى شهود فضاء تقديره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

لم يقل: ومَنْ يتوكل على الله فتوكُّلُه حَسْبُه، بل قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي فاللَّهُ حَسْبُه أي كافيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير فلا محالةَ يكون، وبتَوَكُّله لا يتغير المقدور ولا يستأخر، ولكنَّ التوكُّلَ بنيانه على أنْ يكونَ العبدُ مُرَوَّحَ القلب غيرَ كارهٍ... وهذا من أَجَلِّ النِّعم.

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾... إلى قوله:

﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

التوكلُ: شهود نَفْسِك خارجاً عن المُنَّة[1] تجري عليكَ أحكامُ التقديرِ من غير تدبيرِ منك ولا اطّلاع لكَ على حُكمِه، وسبيلُ العبدِ الخمودُ والرضا دونَ استعلام الأمر، وفي الخبر: «أعوذ بك من عِلْم لا ينفع»[2]: ومن العلم الذي لا ينفع ـ ويجبُ أَنْ تستعيذَ منه ـ أن يكون لك شُغْلٌ أو يستقبلك مُهِمٌّ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التدبيرِ فيه، وتكونَ مُطَالَباً بالتفويض ـ فَطَلَبُكَ العلم وتمنِّيكَ أَنْ تعرفَ متى يصلح هذا

---

(١) المُنَّة: القوة (ج) مُنن.

(٢) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٤١١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٢٢٧).

الأمرُ؟ ولأي سبَبٍ؟ ومِنْ أيِّ وجهٍ؟ وعلى يد مَنْ؟ . . . كل هذا تخليطٌ، وغيرُ مُسَلَّمٍ شيءٌ منه للأكابِرِ.

فيجب عليك السُّكونُ، وحُسْنُ الرضا. حتى إذا جاء وقتُ الكَشْف فسترى صورة الحال وتعرفه، وربما ينتظر العبدُ في هذه الحالة تعريفاً في المنام أو ينظر في (. . .)[1] من الجامع، أو يرجو بيان حاله بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت. . . كلُّ هذا تركٌ للأدب، واللَّهُ لا يَرْضَى بذلك من أوليائه، بل الواجبُ السكونُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

إذا اتسع رزقُ العبد فعلى قَدْرِ المُكنَةِ يُطَالَبُ بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه ـ أي ضيِّق ـ فلينفق مما آتاه الله أي من متاع البيت، ومن رأسِ المال ـ إن لم يكن من الربح، ومن ثمنِ الضيعة ـ إن لم يكن من الغَلَّة.

ومَنْ ملك ما يكفيه للوقت، ثم اهتمَّ بالزيادة للغد فذلك اهتمامٌ غيرُ مرضيٍّ عنه، وصاحبُه غير مُعَان. فأمَّا إذا حصل العجزُ بكلِّ وجهٍ، فإن الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ وسيجعل الله بعد عسرٍ يسراً. هذا من أصحاب المواعيد ـ وتصديقه على حسب الإيمان، وذاك على قَدْرِ اليقين ـ ويقينه على حسب القِسْمة. وانتظارُ اليُسْرِ من اللَّهِ صفةُ المتوسطين في الأحوال، الذين انحطُّوا عن حدِّ الرضا واستواءِ وجودِ السبب وفَقْدِه، وارتقوا عن حدِّ اليأس والقنوط، وعاشوا في أفياء الرجال يُعَلَّلون بحُسْنِ المواعيد. . . وأبداً هذه حالتهم وهي كما قلنا:

إنْ نَابَكَ الدهرُ بمكروهه فعِشْ بتهوين تصانيفه
فَعنْ قريبٍ ينجلي غَيْمُه وتنقضي كلُّ تصاريفه

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

مَنْ زرع الشوكَ لم يَجْنِ الوردَ، ومَنْ أضاع حقَّ اللَّهِ لا يُطَاع في حظِّ نَفْسه. ومن اجترأ بمخالفةِ أمرِ الله فليصبر على مقاساة عقوبة الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

---

(١) بياض في الأصل.

إنَّ كتابَ اللَّهِ فيه تبيانٌ لكلِّ شيءٍ. . . فَمَنْ استضاءَ بنوره اهتدى، ومَنْ لجأ إلى سعة فنائه وَصَلَ من داءِ الجهل إلى شِفائه.

ومَنْ يؤمِنْ بالله، ويعملْ صالحاً لله، وفي الله، فله دوامُ النُّعمى من الله. . . قال تعالى:

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

والرزقُ الحسنُ ما كان على حدِّ الكفاية؛ لا نقصانَ فيه تتعطَّلُ الأمورُ بسببه، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلُه عن الاستمتاع بما رُزِق لِحَرصِه.

كذلك أرزاقُ القلوبِ. أحسنُها أن يكون له من الأحوال ما يشتغل به في الوقت؛ من غير نقصانٍ يجعله يتعذَّب بتعَطُّشِه، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خَطَرٍ من مغاليطَ لا يَخرُجُ منها إلَّا بتأييدِ سماويٍّ من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

خَلَقَ سبعَ سمواتٍ، وخَلَقَ ما خَلَقَ وهو مُحِقٌّ فيما خَلَقَ وأمر، حتى نعلم استحقاقَ جلالهِ وكمالَ صفاته، وأنه أمضى فيما قضى حُكماً، وأنه أحاط بكل شيء علماً.

سورة التَّحريم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله». اسمٌ عزيزٌ يُمْهِل مَنْ عصاه، فإذا رجع وناداه... أجابه ولبَّاه فإنْ لم يتوسَّل بِصِدْق قَدَمِه في ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بصِدْقِ نَدَمِه في آخر عمره أوْسَعَه غفراً، وقبل منه عُذْراً، وأَكْمَلَ له ذُخْراً، وأجْزَلَ له بِرًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

جاء في القصة: أن النبي ﷺ حَرَّم على نفسه مارية القبطية[1]، وفي الحال حَلَفَ ألّا يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة[2] حيث رأت النبي ﷺ معها في يومها.

وقيل: حَرَّمَ على نَفْسِه شرْبَ العسل لمَّا قالت له زوجاته، إنَّا نشم منك ريح المغافير!

ـ والمغافير صمغ في البادية كريه الرائحة، ويقال: بقلة كريهة الرائحة... فعاتَبَه اللَّهُ على ذلك.

وهي صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصغائر عليه، وتَرْكٌ للأَوْلَى على مذهب مَنْ لم يجوِّز.

---

(١) هي مارية بنت شمعون القبطية (... ـ ١٦ هـ = ... ـ ٦٣٧م) أم إبراهيم، من سراري النبي (ﷺ) مصرية الأصل، بيضاء، ولدت في قرية «حفن» بمصر، وأهداها المقوقس القبطي إلى النبي ﷺ هي وأخت لها تدعى «سيرين» فولدت له «إبراهيم» فقال: أعتقها ولدها. وأهدى أختها سيرين إلى حسان بن ثابت ـ الشاعر ـ فولدت له عبد الرحمن، فلما علم الحسن بن علي أن مارية من قرية حفن كلم معاوية، فوضع عن أهل القرية خراج أرضهم، ولما توفي النبي ﷺ تولى الإنفاق عليها أبو بكر، ثم عمر، وماتت في خلافة عمر بالمدينة، ودفنت بالبقيع.
الأعلام ٥/ ٢٥٥، والسمط الثمين ١٣٩، ومعجم البلدان (حفن)، وأسد الغابة (٥/ ٥٤٣).

(٢) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب (١٨ ق هـ = ٦٠٤ ـ ٦٦٥م) صحابية جليلة صالحة من أزواج النبي ﷺ ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها فزوجه إياها، واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت بها. روى لها البخاري ومسلم في الصحيحين ٦٠ حديثاً.
الأعلام ٢/ ٢٦٥، والإصابة ٤/ ٢٧٣، وطبقات ابن سعد ٨/ ٥٦، وصفة الصفوة ٢/ ١٩، وحلية ٢/ ٥٠.

وقيل: إنه طَلَّقَ حفصة طلقةً واحدة، فأمره الله بمراجعتها، وقال له جبريل: إنها صوَّامَةٌ قوَّامَة.

وقيل: لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطليقها فَمَنَعه اللَّهُ عن ذلك.

وقيل: لمَّا رأته حفصة مع مارية في يومها قال لها: إنِّي مُسِرٌّ إليك سِرًّا فلا تخبري أحداً: إنَّ هذا الأمر يكون بعدي لأبي بكر ولأبيك.

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة، وأوحى الله له بذلك، فسأل النبيُّ حفصة: لِمَ أخبرتِ عائشة بما قلت؟

فقالت له: ومَنْ أخبرك بذلك؟ قال أخبرني الله، وعَرَّفَ حفصةَ بعضَ ما قالت، ولم يصرِّحْ لها بجميع ما قالت، قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، فعاتبها على بعضٍ وأعْرَضَ عن بعض ـ على عادة الكِرام.

ويقال: إن النبي ـ ﷺ ـ لمَّا نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من كلِّ قاطعٍ يقطعني عنك».

وظاهرُ هذا الخطاب عتاب على أنَّه مراعاةٌ لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ اللَّهُ له.

والإشارةُ فيه: وجوبُ تقديم حقِّ الله ـ سبحانه ـ على كل شيء في كل وقت.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام، وتجاوزاً عنه. وقيل: إنه كَفَّرَ بعتق رقبة، وعاوَدَ مارية.

واللَّهُ ـ سبحانه ـ أجرى سُنَّتَه بأنه إذا ساكَن عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوَّشَ على خواصِّه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أنْ يُعَاوِدَ رَبَّه، ثم يكفيه ذلك ـ ولكن بعد تطويل مدةٍ، وأنشدوا في معناه:

إذا عُلِّقَت روحي حبيباً تعلَّقت ... بـه غَـيـرُ الأيـام كـل تَـسْـلُـبَـنْـيَـهْ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله ﷺ تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن، وما كان من حديث طلاق حفصة، وما عاد إلى قلب أبيها، وحديث الكفاية، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة... كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه، وإرادتُه ـ سبحانه ـ تشويشُ قلوبهم حتى يكون رجوعُهم كلُّهم إلى الله تعالى بقلوبهم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

---

(١) الآية (٣) لم ترد.

عاتبهما على السير من خَطَراتِ القلب، ثم قال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ. . .﴾.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَنْ لم يكن منهم في قلبه نفاق، مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وجاء: أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله:

لو أمرتني لأضربنّ عُنُقَها!

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية.

ثم قال تعالى زيادةً في العتاب وبيان القصة:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

أي: فَقِّهوهم، وأدِّبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم.

ودلّت الآيةُ: على وجوبِ الأمرِ بالمعروف في الدِّين للأقرب فالأقرب.

وقيل: أظْهِرُوا من أنفسكم العبادات ليتعلّموا منكم، ويعتادوا كعادتكم.

ويقال: دلّوهم على السُّنَّةِ والجماعة.

ويقال: عَلِّموهم الأخلاقَ الحِسان.

ويقال: مُرُوهم بقبول النصيحة.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾: الوقود: الحطب.

ويقال: أمر الناس يصلح بحجرة أو مَدَرَة[1]، فإن أصل الإنسان مدرة، ولو أنه أقام حَجَرَةً مقامَ مَدَرة فلا غروَ من فَضْلِ الله.

اللهمَّ فألْقِ فيها بَدَلنا حَجَراً وخلِّصْنا منها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إذا فاتَ الوقتُ استفحل الأمرُ، وانغلق البابُ، وسقطت الحِيَلُ. . . فالواجبُ البِدارُ والفرارُ لتصل إلى رَوْحِ القَرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

التوبةُ النصوحُ: هي التي لا يَعقُبها نَقْضٌ.

---

(١) المدرة: واحدة المدر: قطع الطين اليابس المتماسك. أو التراب المتلبد.

ويقال: هي التي لا تراها من نَفْسِك، ولا ترى نجاتَكَ بها، وإنما تراها بربِّك.

ويقال: هي أنْ تجدَ المرارةَ في قلبك عند ذكر الزَّلَّة كما كُنْتَ تجد الراحةَ لنفسِك عند فِعْلِها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يُخزِي اللَّهُ النبيَّ بِتَرْكِ شفاعته، والذين آمنوا معه بافتضاحِهم بعد ما قَبِلَ فيهم شفاعته.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ عبَّر بذلك عن أنَّ الإيمانَ من جميع جهاتهم.

ويقال: بأَيمانهم كتابُ نجاتهم: أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم، وما يخصُّهم اللَّهُ به من الأنوارِ في ذلك اليوم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾: يستديمون التضرُّعَ والابتهالَ في السؤال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أمَرَه بالمُلايَنَةِ في وقت الدعوة، وقال: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ثم لمَّا أصرُّوا ـ بعد بيان الحُجَّةِ ـ قال: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: لأن هذا في حالِ إصرارهم، وزوالِ أعذارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

لمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقةُ يومَ القِسْمة لم تنفعْهما القربةُ يومَ العقوبةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

قالوا: صغرت هِمَّتُها حيث طلبت بيتاً في الجنة، وكان من حقِّها أنْ تطلب الكثير... ولا كما توهمَّوا: فإنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ﴾ فطلبَتْ جوارَ القربة، ولَبيْتٌ في الجِوار أفضلُ من ألف قصرٍ في غير الجوار. ومن المعلوم أنَّ العِنديَّةَ هنا عِنديَّةُ القربة والكرامة... ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره، وله خصوصية. وفي معناه أنشدوا:

إنـي لأحْـسُـد جـارَكـم لـجـواركـم طُـوبـى لِـمَـن أضـحـى لـدارِكَ جـارا
يـا لـيـت جـارَكَ بـاعـنـي مـن داره شِـبْـراً لأُعـطـيـه بِـشِـبْـر دارا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

خَتَم السورة بِذكْرها بعد ما ذكر امرأةُ فرعون، وهما من جملة النساء، ولمَّا كثُر في هذه السورة ذكْرُ النساء أراد الله سبحانه ألّا يُخلَى السورة من ذكرها تخصيصاً لقدْرِها.

سورة المُلْك

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَنْ لم تَتَعطَّرْ القلوبُ إلّا بنسيم إقبالِهِ، ولم تتقطَّرْ الدموعُ إلّا للوعة فراقه أو روْح وصاله؛ فدموعُهم في كلتا الحالتَين مُنْسِكبة، وقلوبهُم في عموم أحوالهم مُلْتَهِبَة وعقولُهم في غالب أوقاتهم مُنْتَهَبَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تَقَدَّسَ وتعالَى، مَنْ إحسانُه تَواتَرَ وتَوالَى، فهو المتكبِّرُ في جلالِ كبريائه، المتجرِّد في علاءِ بهائه ودوامِ سنائه.

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: بقدرته إظهارُ ما يريد، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

خَلَقَ الموتَ والحياةَ، ابتلاءً للخَلْق، يختبرهم ليَظْهَرَ له شكرانهُم وكفرانُهم، كيف يكونان عند المحنة في الصبر وعند النعمة في الشكر - ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

عَرَّفَهم كمالَ قدرتِه بدلالات خَلْقِه، فَمسَكَ السماءَ وأمسكها بلا عَمدَ، ورَكَّبَ أجزاءَها غيرَ مُستعينٍ بأحدٍ في خَلْقِها، وبالنجومِ زَيَّنَهَا، ومِنَ استراقِ سمعِ الشياطين حَصَّنها، وبغيرِ تعليمِ مُعلِّم أحكمها وأتقنها.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ؟﴾: لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافي آثارَ الحكمة ولا يدل على كمال القدرة.

ويقال: ما ترى فيها تفاوتاً، في استغنائه عن الجميع... ما ترى فيها تفاوتاً في الخَلْق؛ فَخلْقُ الكثير واليسير عنده سيَّان، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشُقُّ عليه الكثير؛ لأنه مُتَنَزِّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به.

فأنْعِمْ النظرَ، وكَرِّر السَّبْرَ والفِكْرَ... فلن تجد فيها عيباً ولا في عِزِّه قصوراً[1].

---

(١) الآية (٤) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

زَيَّنَ السماءَ بالكواكب والنجوم، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواعٍ من الأنوار والنجوم؛ فالمؤمنون قلوبُهم مُزَيَّنةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمُّل البرهان، ثم بالتوفيق لطلب البيان. والعارفون قلوبهم مُزَيَّنةٌ بشمسِ التوحيد، وأرواحُهم مُزَيَّنةٌ بأنوار التفريد، وأسرارُهم مزينةٌ بآثارِ التجريد... وعلى القياس: «لكلٍّ طائفةٍ أنوارٌ».

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم، ومنها ما هو للاهتداء به معلوم... فأخبر أن هذا القَدْرَ من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفي، وإنما يُعَذِّبهم مؤبَّدين في السعير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

أخبر: أنهم يحتَجُّ عليهم بإرسال الرسل، فتقول لهم الملائكةُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ...﴾ فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول، فاستوجبوا العقوبة لأجلِه، لم يسمعوا نصيحةَ الناصحين ولا وَعْظَ الواعظين، ولا ما فيه لقلوبهم حياة.

وفي الآية للمؤمنين بشارة؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون؛ فإنَّ مَنْ سَمِعَ بالحقِّ سمع كل ما يقال عن الحق مِنْ كل مَنْ يقول عن الحق، فيحصل له الفهم لما يسمع، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُه من الله وبالله وفي الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف... فلا جَرَمَ يقال لهم: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الخشيةُ توجِب عدمَ القرار فيكون العبدُ أبداً ـ لانزعاجه ـ كالحَبِّ على المَقْلَى؛ لا يَقَرُّ ليلَه أو نهارَه، يتوقَّعُ العقوباتِ مع مجاري الأنفاس، وكلمَّا ازداد في الله طاعةً ازداد لله خشيةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

خوَّفهم بِعلْمِه، ونَدَبَهم إلى مراقبته، لأنه يعلم السِّرَّ وأخفى، ويسمع الجَهْرَ والنجوى... ثم قال مُبيِّناً:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وفي كل جُزْءٍ مِنْ خَلْقِه ـ من الأعيانِ والآثارِ ـ أدِلةٌ على علمه وحكمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

أي إذا أردتم أن تضربوا في الأرضِ سَهَّلَ عليكم ذلك.

كذلك جعل النَّفْس ذلولاً؛ فلو طَالَبْتَها بالوفاقِ وَجَدْتَها مُساعدةً مُوافقة، مُتَابِعةً مُسَابِقة... وقد قيل في صفتها:

هي النَّفْسُ ما عَوَّدْتها تتعودُ وللدهرِ أيامٌ تُذَمُّ وتُحْمَدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء، فهم مُوَكَّلون بالعذاب.

وخوَّفهم بالملائكة أن يُنْزِلوا عليهم العقوبةَ من السماء، أو يخسفوا بهم الأرض، وكذلك خَوَّفَهم أنْ يُرْسِلوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط. وبيَّن أنَّ مَنْ كذَّب قَبْلَ هؤلاءِ رُسُلَهم كيف كانت عقوبتهم، ثم زاد في البيان[1] وقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

أو لم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة ـ بخلاف الأجسام الأخر... مَنْ الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء؟ وما الذي يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأُخر؟.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

إنْ أراد الرحمنُ بك سوءاً.. فَمَنْ الذي يُوَسِّعُ عليكم ما قَبَضَه، أو يمحو ما أثبته، أو يُقَدِّمُ ما أَخَرَه، أو يُؤَخِّرُ ما قدَّمه؟[2].

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) الآية (٢١) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾.

وخَصَّكم بالسمع والبصر والأفئدة، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمه[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ؟﴾.

وأجاب عنه حيث قال: لا تستعجلوا العذاب، وبيَّن أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا . . .﴾.

وإليه أمورنَا ـ جملةً ـ فوَّضْنا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

مَنْ الذي يأتيكم بالماء إذا صار غائراً في الأرض لا تناله الأيدي.

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم. . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب.

---

(١) الآية (٢٤) لم ترد.

(٢) الآيتان (٢٦، ٢٧) لم تردا.

سورة القَلَم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَه لم يتَذلَّلْ بعده لمخلوق، ولم يَسْتعِنْ فيما نابَه مِن ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أراده بمُحْدَثٍ مرزوق.

إنْ أعطاه قابله بالشُّكر، وإن منعه استجابَهُ بجميل الحمد.

قوله جلّ ذكره: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

﴿نٓ﴾ قيل: الحوت الذي على ظهره الكون، ويقال: هي الدواة.

ويقال: مفتاح اسمه ناصر واسمه نور.

ويقال: إنه أقسم بنُصْرَة الله تعالى لعبادِه المؤمنين.

وأقسم بالقلم ـ وجوابُ القسم قولُه:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾.

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه:

إنه مجنون، أزاله عنه بنفيه، ومحقِّقاً ذلك بالقَسَم عليه... وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله ﷺ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه ـ سبحانه ـ عليهم بخطابه وعنه ينفيه.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾: أي غير منقوص... لمَّا سَمَتْ هِمَّتُه ﷺ عن طلب الأعواض أثبت اللّهُ له الأجر، فقال له: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ ـ وإنْ كُنتَ لا تريده.

ومن ذلك الأَجْر العظيم هذا الخُلُق، فأنت لستَ تريدُ الأجْرَ ـ وبِنَا لَسْتَ تريد؛ فلولا أنْ خَصَصْناكَ بهذا التحرُّر لكنتَ كأمثالِك في أنهم في أَسْرِ الأعواض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

كما عرَّفه اللّهُ سبحانه أخبارَ مَنْ قبلَه من الأنبياء عرَّفه أنه اجتمعت فيه متفرقاتُ أخلاقهم فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

ويقال: إنه عَرَضَ عليه مفاتيحَ الأرضِ فلم يقبلْها، ورقّاه ليلةَ المعراج، وأراه جميع المملكة والجنة فلم يلتفتْ إليها، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:

١٧] فما التفت يميناً ولا شمالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. ويقال: ﴿على خلق عظيم﴾: لا بالبلاءِ تنحرف، ولا بالعطاءِ تنصِرف؛ احتمل صلوات الله عليه في الأذى شَجَّ رأسِه وثغرِه، وكان يقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(١). وغداً كلٌّ يقول: نفسي نفسي وهو صلوات الله عليه يقول: «أمتي أمتي»(٢).

ويقال: عَلّمه محاسنَ الأخلاق بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

سأل صلواتُ الله عليه جبريل: «بماذا يأمرني ربي؟ قال: يأمرك بمحاسن الأخلاق؛ يقول لك: صِلْ مَنْ قَطَعَكَ واعْطِ مَنْ حَرَمك واعفُ عمَّن ظَلَمَك»(٣)، فتأدَّب بهذا؛ فأثنى عليه وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

المفتون: المجنون لأنه فُتِنَ أي مُحِنَ بالجنون.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

معبودُكَ واحدٌ فليكن مقصودُك واحداً... وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكنْ مشهودك واحداً.

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

مَنْ أصبح عليلاً تمنّى أَنْ يكونَ الناسُ كلُّهم مَرْضَى.. وكذا مَنْ وُسِمَ بكيِّ الهجران ودَّ أَنْ يُشارِكه فيه مَنْ عاداه.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/ ٢١٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٤٤١)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/ ١١٧)، والطبري في (التفسير ١/ ١٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٤١٩)، والقرطبي في (التفسير ٤/ ١٩٩، ٨/ ٤٧٣، ١٤/ ١٥٦)، والقاضي عياض في (الشفا ١/ ٢٢٢)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٣/ ١٨٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣١٣، ٣/ ٦٨، ٢٨٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشريعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/ ٩٥)، والطبراني في التفسير ٦/ ١٤٦، ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٤، ٧/ ٩٣ـ١٠٨، ٣٦٠، ٨/ ٢٥٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣، ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩، ٩٨٧٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/ ٢٧٣، ١٢/ ٢٨٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٣/ ٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٨٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥١٠) والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٤٨٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٤٢٨، ٤٤٣)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/ ٣٨٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/ ٣١).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ١٤٨، ١٥٨).

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

وهو الذي سقط من عيننا، وأقميناه بالبعد عنا.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾.

محجوبٍ عنَّا مُعَذَّبٍ بخذلان الوقيعة في أوليائنا.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

مُهانٍ بالشُّحِّ، مسلوب التوفيق.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

ممنوعِ الحياءِ، مُشَتَّتٍ في أودية الحرمان.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

لئيمِ الأصل، عديم الفضل، شديد الخصومة بباطله، غير راجعٍ في شيءٍ منْ الخير إلى حاصله.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين... ثم استأنف الكلام فقال: إذا تتلى... قابَلَها بالتكذيب، وحَكَمَ أنَّ القرآن من الأساطير.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

أي سنجعل له في القيامة على أنفهِ تشويهاً لصورته كي يُعْرَفَ بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

أي امتحنَّاهم... حين دعا عليهم النبي ﷺ، فابتلاهم الله بالجوع، حتى أكلوا الجِيَف ـ كما بلونا أصحاب الجنة، قيل: إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مثمرة وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تَعدّاه المِنْجل فلم يجذه من الكَرْم، فإذا طُرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فما أخطأه القطافُ من نخله وكَرْمه يَدَعه للمساكين، وكان يجتمع منه مال، فلما مات هو قال وَرَثَتُه: إنَّ هذا المالَ تفرَّق فينا، وليس يمكننا أن نفعلَ ما كان يفعله أبونا، وأقسموا ألا يُعْطوا للفقراء شيئاً، فأهلكَ اللَّهُ جَنَّتهم؛ فندموا وتابوا.

وقيل: أبدَلَهم اللَّهُ جنةً حسنة، فأقسموا ليصرمُنَّ جنَّتهم وقت الصبح قبلَ أنْ تفطِنَ المساكينُ، ولم يقولوا: إن شاء الله[1]:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾.

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم. وأصبحت ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ أي كالليل المسودّ، فنادى بعضُهم بعضاً وقت الصبح: أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام، فانطلقوا لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعَهم أحدٌ. وقصدوا إلى الصرام[١] ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قادرين عند أنفسهم، ويقال: على غضبٍ منهم على المساكين.

فلمّا رأوا الجنةَ وقد استؤصلَتْ قالوا: ليست هذه جنتنا!!

ثم قالوا: بل هذه جَنّتُنا... ولكنّا حُرِمْنا خيرَها.

قال أوسطُهم: أي أعدلُهم طريقةً وأحسنُهم قولاً[٢]:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ؟﴾.

أي: تستثنون وتقولون: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٧٠].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

ثم أقبل بعضُهم على بعض يتلاومون، ويقولون[٣]:

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ لأهل مكة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾

وهكذا تكون حالُ مَنْ له بدايةٌ حسنةٌ ويجدُ التوفيق على التوالي، ويجتنبُ المعاصي، فيُعَوضه اللّهُ في الوقتِ نشاطاً، وتلوحُ في باطنه الأحوالُ... فإذا بَدَرَ منه سوءُ دعوى أو تَرْكَ أدبٍ من آداب الخدمة تَنْسَدُّ عليه تلك الأحوالُ ويقع في قرْةٍ[٤] من الأعمال فإذا حَصَلَ منه بالعبادات إخلالٌ، ولبعض الفرائض إهمالٌ ـ انقلب حالُه، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب، فصارت صفوتُه قسوةً. وإن كان له بعد ذلك توبة، وعلى مَا سَلَفَ منه ندامة ـ فقد فات الأمْرُ من يده، وقلّما يصل إلى حاله.

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله، فيقبله بعد ذلك رعايةً لما سَلَفَ في بدايته من أحواله... فإنَّ الله تعالى رؤوفٌ بعباده.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

الذين يتقون الشِّرْكَ والكُفْر، ثم المعاصيَ والفِسْقَ، لهم عند الله الثوابُ والأجْر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾.

---

(١) الآيات من (٢١ حتى ٢٤) لم ترد. (٢) الآيتان (٢٦ ـ ٢٧) لم تردا.

(٣) الآيتان (٣٠، ٣١) لم تردا.

(٤) قرة جلده: تقشّر أو اسود من شدة الضرب. (اللسان ١٣/ ٥٣٠ مادة: قرة).

كيف تحكمون؟ هل لديكم حجة؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أم لكم منا عهود فيها تحكمون؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفي ذلك[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿عَن سَاقٍ﴾: أي عن شِدَّةٍ يومَ القيامة.

ويقال في التفسير عن ساقِ العرش.

يُؤمَرون بالسجود؛ فأمَّا المؤمنون فيسجدون، وأمَّا الكفار فتُشَدُّ أصلابُهم فلا تنحني.

وقيل: يكشف المريضُ عن ساقه ـ وقت التوفِّي ـ ليُبْصِرَ ضعفَه، ويقول المؤذِّنُ: حيٌّ على الصلاة ـ فلا يستطيع.

وعلى الجملة فقد خَوَّفَهم بهذه القالة: إمَّا عند انتهائهم في الدنيا أو ابتدائهم في الآخرة.

﴿. . . وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

يذكرهم بذلك ليزدادوا حسرةً، ولتكونَ الحجةُ عليهم أبلغَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

سنُقَرِّبُهم من العقوبة بحيث لا يشعرون.

والاستدراجُ: أَنْ يريد الشيءَ ويَطْوِي عن صاحبه وَجْهَ القَصْدِ فيه، ويُدْرِجُه إليه شيئاً بعد شيء، حتى يأخذه بغتةً.

ويقال: الاستدراج: التمكين من النِّعم مقروناً بنسيان الشكر.

ويقال: الاستدارجُ: أنهم كلما ازدادوا معصيةً زادهم نعمةً.

ويقال: أَلَّا يُعاقِبَه في حالِ الزَّلَّة، وإنما يؤخِّر العقوبَة إلى ما بعدها..

ويقال: هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم.

ويقال: الاغترارُ بطول الإمهال.

ويقال: ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشَوَّش.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾.

أُمهِلُهم... ثم إذا أَخَذْتُهم فأَخْذِي أَليمٌ شديدٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

أي: ليس عليهم كُلْفة مقابلَ ما تدعوهم إليه، وليست عليهم غرامة إنْ هم اتبعوك... فأنت لا تسأل أجراً... فما موجِباتُ التأخُرِ وتركُ الاستجابة؟

---

(١) الآيات من (٣٨ ـ ٤١) لم ترد.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾.

أم عندهم شيءٌ من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

صاحب الحوت: هو يونس عليه السلام: ﴿نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوء بالغيظ على قومه. فلا تستعجلْ - يا محمد - بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقي ما لقي، وتَثَبَّتْ عند جريان حكمنا، ولا تُعارِضْ تقديرنا.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

أي: لولا أنَّ اللّهَ رَحِمَه بفَضْلِه لَطُرِحَ بالفضاء وهو مذموم ولكن:

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فاصطفاه واختاره، وجعله من الصالحين بأن أَرسله إلى مائة أَلف أَو يزيدون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

كانوا إذا أرادوا أَنْ يُصيبوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثةَ أَيام، ثم جاؤوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين: ما أَحسنه من شيء! فكان يسقط المنظورُ في الوقت. وقد فعلوا ذلك بالنبي صلوات الله عليه، فقالوا: ما أَفصحه من رجل! ولكنَّ الله سبحانه حفظه، ومَنَّ بذكره عليه(١).

(١) الآية (٥٢) لم ترد.

سورة الحاقة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ عزيزةٌ تحتاج في سماعها إلى سَمْعٍ عزيزٍ لم يُسْتَعملْ في سماع الغيبة، وتحتاج في معرفتها إلى قلبٍ عزيزٍ لم يَتَبذَّلْ في الغفلة والغيبة، لم ينظرْ صاحبُه بعينه إلى ما فيه رُتبة، ولم تتبع نَفْسُه اللُّبْسَ والطُّبَّة[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

«الحاقة»: اسمٌ للقيامة لأنها تَحُقُّ كلَّ إنسانٍ بعملهِ خَيْرِه وشَرِّه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ استفهام يفيد التعظيم لأمرها، والتفخيمَ لشأنها.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾.

ذَكَرَ في هذه السورة: الذين كَذَّبوا رُسُلَهم من الأمم، وأصرُّوا على كُفْرِهم، ولم يقبلوا النصيحةَ من أنبيائهم، فأهلكهم، وانتقم لأنبيائه منهم.

والفائدةُ في ذِكْرِهم: الاعتبارُ بهم، والتحرُّزُ عمَّا فعلوا لئلا يُصيبَهم ما أصابهم.

وعقوبةُ هذه الأمةِ مُؤَجَّلةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة، ولكنَّ خواصَّهم عقوبتُهم مُعجَّلة؛ فقومٌ من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا، أو أضاعوا أدباً يعاقبهم برياحِ الحجبة، فلا يَبْقَى في قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للدِّين، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات، ويصيرون على خَطَرٍ في أحوالهم بأنْ يُمْتَحنوا بالاعتراض على التقدير والقِسْمة.

وأمَّا فرعون وقومُه فكان عذابُهم بالغَرَقِ... كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشتغِلٌ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ - فإذا لم يشكرْ النعمةَ، وأساءَ أدبَه، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم اللَّهُ به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مَشْرَبُه، ويصير على خَطَرٍ بأن يُدْرِكَه سُخْطُ الحقِّ وغضبُه[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾.

وكذلك تكون مِنَّتُه على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم في أمواجِ بحارِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها، فيكونون بوصف السلام، لا

---

(١) الطب: الحذق والمهارة.

(٢) الآيات من (٥ حتى ١٠) لم ترد.

مُنَازَعَةَ ولا محاسبةَ لهم مع أحد، ولا تَوَقّعَ شيءٍ من أحدٍ؛ سالمون من الناسِ، والناسُ منهم سالمون[١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ . . .﴾.

بدأ في وصف القيامة والحساب[٢]. . .

قوله جلّ ذكره: ﴿. . . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وفي كلِّ نَفَسٍ مع هؤلاء القوم محاسبَةٌ ومطالَبةٌ، منهم مَنْ يستحق المعاتبة، ومنهم من يستحق المعاقبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

يسلم له السرورُ بنعمة الله، ويأخذ في الحمد والمدح.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾.

القومُ ـ غداً ـ في عيشةٍ راضية أي مَرْضِيَّةٍ لهم، وهؤلاء القوم ـ اليومَ ـ في عيشةٍ راضية، والفرق بينهما أنهم ـ غداً ـ في عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم، وارتفعت مآربُهم، وحصلت حاجاتُهم، وهم ـ اليومَ ـ في عيشةٍ راضية إذ كَفُّوا مآربَهم فَدَفَعَ عن قلوبِهم حوائجَهم؛ فليس لهم إرادةُ شيءٍ، ولا تَمَسُّهم حاجةٌ. وإنما هم في رَوْحِ الرضا. . . فعَيْشُ أولئك في العطاء، وعَيْشُ هؤلاء في الرضاء؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنًى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال. ويقال لأولئك غداً[٣].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

ويقال لهؤلاء: اسمعوا واشهدوا. . . اسمعوا منَّا. . . وانظروا إلينا، واستأنِسوا بقُرْبنا، وطالعوا جمالَنا وجلالَنا. . . فأنتم بنا ولنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ: يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾.

هناك ـ اليومَ ـ أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتُهم، ويتضاعف أنينُهم ـ ليلَهم ونهارَهم ـ فليلُهم ويلٌ ونهارهم بُعَاد؛ تكدَّرتْ مشاربُهم، وخربت أوطانُ أُنْسِهم، ولا بكاؤهم يُرْحَم، ولا أنينُهم يُسْمَع. . . فعِنْدَهم أنهم مُبْعَدون. . . وهم في الحقيقة من اللَّهِ مرحومون، أسبلَ عليهم السترَ فَصَغَّرَهم في أعينهم ـ وهم أكرمُ أهل القصة! كما قالوا[٤]:

لا تُنْكِرنْ جحدي هواكَ فإنما ... ذاك الجحودُ عليك سترٌ مُسْبَلُ

---

(١) الآية (١٢) لم ترد.
(٢) الآيات من (١٤ حتى ١٧) لم ترد.
(٣) الآيات (٢٢ ـ ٢٣) لم تردا.
(٤) الآيات من (٢٨ حتى ٣٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

«لا»: صلة والمعنى: أُقْسِم؛ كأنه قال: أقسم بجميع الأشياء، لأنه لا ثالثَ لما يبصرون وما لا يبصرون. وجوابُ القَسَم:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

أي وجيهٍ عند الله. وقولُ الرسولِ الكريم هو القرآنُ أو قراءةُ القرآن[1].

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أي أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾.

أي لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه، ولو تعمَّد لعذَّبناه. والقول بعصمة الأنبياء واجب. ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم، وهذا القرآن[2]:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء.

وعلوم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلاءً؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين، وخفاء الطريق وجلائه، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً، ثم ما يكون مع الإدراكات[3].

---

(١) الآيتان (٤١، ٤٢) لم تردا.

(٢) الآية (٤٧) لم ترد.

(٣) انظر حديث القشيري عن علم وعين وحق اليقين برسالته ص٨٥.
الآية (٥٢) لم ترد.

سورة المَعَارج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ من قالها وَجَدَ جمالَها، ومَنْ شهدها شهد جلالَها.

وليس كلُّ مَنْ قالَها نالَها، ولا كلُّ من احتالها عَرَفَ جلالَها.

كلمةٌ رفيعة عن إدراكِ الألبابِ منيعة، كلمةٌ على الحقيقة الصمدية دالَّة، كلمة لا بُدَّ للعبدِ من ذِكْرِها في كل حالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن، أي سأل سائلٌ عن هذا العذاب لِمَنْ هو؟ فقال تعالى:

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾؛ فهذا العذابُ من الله.

ومعنى ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ذي الفضل ومعالي الدرجات التي يُبْلِغُ إليها أولياءَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل، في يومٍ كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا يعني به يوم القيامة.

ويقال: معناه يحاسِبُ الخَلْقَ في يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسير ما لو كان الناسُ يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة، واللَّهُ يُجْرِي ذلك ويُمضيه في يومٍ واحد.

ويقال: من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرةُ خمسين ألف سنة للناس؛ فالملائكة تعرج فيه من أسفله إلى أعلاه في يومٍ واحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

فاصبرْ ـ يا محمد ـ على مقاساةِ أذاهم صبراً جميلاً. والصبرُ الجميلُ ما لا شكوى فيه.

ويقال: الصبر الجميل ألا تَسْتَثْقِلَ الصبرَ بل تستعذبه.

ويقال: الصبرُ الجميلُ ما لا ينتَظِرُ العبدُ الخروجَ منه، ويكون ساكناً راضياً.

ويقال: الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبْلِي.

ويقال: الصبرُ الجميل ما تجرَّد عن الشكوى والدَّعْوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾.

إنَّ ما هو آتٍ فقريبٌ، وما اسْتَبْعَدَ مَنْ يستَبْعِد إلّا لأنّه مُرْتابٌ؛ فأمّا الواثِقُ بالشيءِ فهو غيرُ مُسْتَبْعِدٍ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾.

الإشارة فيه أنه في ذلك اليوم مَنْ كان في سُمُوِّ نخوته ونُبُوِّ صولته يلين ويستكين ويَضْعُفُ مَنْ كان يَشْرُفُ، ويَذَلُّ مَنْ كان يُذِلُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

لا يَتَفَرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ؛ فلكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه.

ولا يَتَعَهَّدُ المساكينَ ـ في ذلك اليوم ـ إلا اللهُ.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرفون أقاربهم، ولكن لا تَرِقُّ قلوبُ بعضهم على بعض.

ويتمنَّى المجرمُ يومئذٍ أَنْ يُفتدىَ من عذاب جهنم بأعز مَنْ كان عليه في الدنيا من قريبٍ ونسيبٍ وحميمٍ وولدٍ، وبكلِّ من الأرض حتى يخلص من العذاب.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾.

اسم من أسماء جهنم.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[1].

قَلَّاعةٌ للأطراف. تكشط الجِلْدَ عن الوجه وعن العَظْم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

تقول جهنمُ للكافرِ والمنافقِ: يا فلان... إليَّ إليَّ.

والإشارة فيه: أنَّ جهنمَ الدنيا تعلق بقلبِ المرءِ فتدعوه بكلابِ الحِرْصِ إلى نَفْسِه وتجرُّه إلى جمعها حتى يؤثرها على نَفْسه وكلِّ أحد له؛ حتى لقد يَبْخَلُ بدنياه على أولاده وأَعِزَّتِه... وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها[2].

---

(١) الشَّوى: اليدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس، وجلدة الرأس يقال لها: شواة وما كان غير مقتل فهو شوىً، وقيل: الشوى: (ج) الشواة: وهي جلدة الرأس. (الرسالة القشيرية ص٤٤٧ مادة: شوا).

(٢) الآية (١٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾.

وتفسيره ما يتلوه:

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

والهَلَعُ شِدَّةُ الْحِرصِ مع الجزع. ويقال هلوعاً: متقلِّباً في غمرات الشهوات.

ويقال: يُرْضيه القليلُ ويُسْخِطه اليسير.

ويقال: عند المحنة يدعو، وعند النعمة ينسى ويسهو.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾.

استثنى منهم المصلين ـ وهم الذين يُلازِمون أبداً مواطنَ الافتقار؛ مِنْ صَلِيَ بالمكان[١].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

وهم المُتكفِّف والمُتعَفِّف.

وهم على أقسام: منهم مَنْ يُؤْثر بجميع مالِه؛ فأموالُهم لكلِّ مَنْ قَصَدَ، لا يخصُّون سائلاً من عائل. ومنهم مَن يعطي ويمسك ـ وهؤلاء منهم ـ ومنهم مَنْ يرى يَدَه يَدَ الأمانة فلا يتكلَّف باختياره، وإنما ينتظر ما يُشَار عليه به من الأمر؛ إمَّا بالإمساك فيقف أو ببذْلِ الكُلِّ أو البعضِ فيستجيب على ما يُطَالَبُ به وما يقتضيه حُكْمُ الوقت... وهؤلاءِ أتَمُّهُم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وأمارتهُم الاستعدادُ للموتِ قبل نزوله، وأن يكونوا كما قيل:

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو   فقد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا[٢]

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

وإنما تكون صحبتُهم مع أزواجهم للتَّعفُّفِ وصَوْنِ النَّفْسِ، ثم لابتغاء أن يكونَ له وَلَدٌ من صلبه يذكر الله. وشَرْطُ هذه الصحبة: أن يعيش معها على ما يهون، وألا يجرَّها إلى هَوَى نَفسِه ويحملها على مرادِه وهواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

---

(١) أصلت الناقة: إذا وقع ولدها في صلاها وقَرُب نتاجها. (اللسان ١٤/٤٦٦ مادة: صلا).

(٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

يحفظون الأمانات التي عندهم للخَلْق ولا يخونون فيها. وأمانات الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة ـ فلا يُدَنِّسُونها بالخطايا؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق، والأسرارُ التي بينهم وبين الله أماناتٌ عندهم. والفرائضُ واللوازمُ والتوحيدُ. . . كل ذلك أماناتٌ.

ويقال: من الأمانات إقرارُهم وقتَ الذَّرِّ. ويقال: من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها اللَّهُ في قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾.

شهادتهم لله بالوحدانية، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض ـ يقومون بحقوق ذلك كله[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

والإهطاع أن يُقْبِلَ ببصره إلى الشيءِ فلا يرفعه عنه، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي ﷺ ﴿عِزِينَ﴾: أي خَلْقاً خَلْقاً، وجماعةً جماعة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

كلا. . . إنك لا تدعو عن هذا! وليس هذا بصوابٍ؛ فإنهم ـ اليومَ ـ كفار، وغداً يعاملون بما يستوجبون.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ﴾ لا ـ هنا صلة، والمعنى أقسم. وقد مضى القولُ في المشارق والمغارب ـ ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ على ذلك[2].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ غاية التهديد والتوبيخ لهم.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ كأنهم يسرعون إلى أصنامهم، شبَّه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى النُّصُبِ ـ اليومَ ـ كي يقوموا بعبادتهم إياها[3]

---

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

(٢) الآية (٤١) لم ترد.

(٣) الآية (٤٤) لم ترد.

سورة نوح

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ لمَنْ قامت السمواتُ والأرض بقدرته واستقامت الأسرارُ والقلوبُ بنصرته.. دلَّتْ الأفعالُ على جلالِ شأنه، وذلَّت الرّقابُ عند شهودِ سلطانه. أشرقت الأقطارُ بنوره في العُقبى، وأشرقت الأسرارُ بظهوره في الدنيا، فهو المقدّس بالوصف الأعلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أرسلنا نوحاً بالنبوّةِ والرسالة. ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أنذرهم وإرسالُ الرُّسُل من الله فضلٌ، وله بحق مُلْكه أن يفعل ما أراد، ولم يجبْ عليه إرسالُ الرُّسُلِ لأن حقيقته لا تقبل الوجوب.

وإرسالُ الرسلِ إلى مَنْ عَلِمَ أنه لا يَقْبَل جائز، وتكليفُهم من ناحية العقل جائز فنوحٌ - عَلِمَ منهم أنهم لا يقبلون.. ومع ذلك بَلَّغ الرسالة وقال لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿**يغفر لكم من ذنوبكم**﴾ مِنْ هنا للجنس لا للتبعيض كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

ويقال: ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراءً لهم.. وذلك لا يجوز. فأبوا أن يَقْبَلوا منه، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾.

بَيّنَ أَنّ الهداية ليست إليه، وقال: إنْ أَرَدْتَ إيمانَهم فقلوبُهم بقدرتك - سبحانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾.

وإنّي ما ازدَدْتُ لهم دعاءً إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً.

ويقال: لمّا دام بينهم إصرارُهم تولّدَ من الإصرار استكبارُهم، قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾.

ليعلمَ العالِمون: أنَّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة، فمن وقعت له إلى اللّهِ حاجةٌ فلن يَصِلَ إلى مرادِه إلّا بتقديم الاستغفار.

ويقال: مَنْ أراد التَّفضُّل فعليه بالعُذْر والتنصُّل.

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾: كان نوح عليه السلام كلمّا ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

ما لَكُم لا تخافون للّهِ عَظَمَةً؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمّلون على توقيركم للأمرِ من اللّهِ لُطفاً ونعمة؟[١].

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

ثم نَبَّهَهُم إلى خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة، وعلى أنَّ خالقَها يستحقُّ صفاتِ العُلُوِّ والعِزَّة[٢].

ثم شكا نوحٌ إلى الله وقال:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

يعني كبراءَهم وأغنياءَهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة[٣].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وذلك بتعريفِ اللّهِ تعالى إيّاه أنّه لن يؤمِنَ من قومك إلّا من قد آمن. فاستجاب الله فيهم دعاءَه وأهلكهم[٤].

---

(١) الآية (١٤) لم ترد.
(٢) الآيات من (١٧، ٢٠) لم ترد.
(٣) الآيات من (٢٣، ٢٥) لم ترد.
(٤) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

سورة الجن

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز به أَقَرَّ مَنْ أَقرَّ بربوبيته، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ على معرفته، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته، وبه ظَهَرَ ما ظهر من مقدوراته، وبه بَطَنَ ما بطَنَ من مخلوقاته، فَمَنْ جَحَدَ فبخذلانه وحرمانه، ومن وَحّدَ فبإحسانه وامتنانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

قيل: إن الجنَّ كانوا يأتون السماءَ فيستمعون إلى قولِ الملائكة، فيحفظونه، ثم يلقونه إلى الكهنة، فيزيدون فيه وينقصون.. وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبيِّنا ﷺ وبين عيسى عليه السلام. فلمَّا بُعِثَ نبيُّنا ﷺ ورُجِمُوا بالشُّهُبِ عَلِمَ إبليس أنه وقع شيءٌ ففرَّ جنوده، فأتى تسعةٌ منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته ﷺ فآمنوا، ثم آتوا قومهم وقالوا: إنَّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به... إلى آخر الآيات[1].

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ..﴾ [الأحقاف: ٢٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

الجَدُّ العظمة، والعظمةُ استحقاقُ نعوتِ الجلال..

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾.

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعني إبليس. والشطط السَّرَف.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

في كفرهم وكلمتهم بالشِّرك.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أي ذِلة وصغاراً؛ فالجنُّ زادوا للإنس ذِلَّةً ورهقاً فكانوا إذا نزلوا يقولون: نعوذ بربِّ هذا الوادي فيتوهم الجنُّ أنهم على شيء ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ حيث استعاذوا بهم.

---

(١) الآية (٢) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾.

أي ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن ألّا بعثَ ولا نشور ـ كما ظننتم أيها الإنس.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

يعني حين مُنِعوا عن الاستماع.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

فالآن قد مُنِعْنا[١].

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

الاستقامة على الطريقة تقتضي إكمالَ النعمةِ وإكثارَ الراحةِ. والإعراضُ عن الله يُوجِب تَنَغُّصَ العَيْشِ ودوامَ العقوبة[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

للمسجد فضيلة، ولهذا خصَّه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع؛ فهو محلُّ العبادة.. وكيف يُحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلَّ قَدَمِه؟!.

ويقال: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها، أخبر أنها لله، فلا تعبدوا بما للَّهِ غَيْرَ الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو الخَلْقَ إلى الله كاد الجنُّ والإنس يكونون مجتمعين عليه، يمنعونه عن التبليغ[٣] قل يا محمد:

﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

لا أقدر أن أدفع عنكم ضرًّا، أو أسوق لكم خيراً.. فكل شيء من الله. ولن أجد من دونه ملتجأ:

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾.

فلن يُنَجِّيني من الله إلا تبليغي رسالاته بأمره.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾[٤].

---

(١) الآيات من (١١ حتى ١٥) لم ترد.

(٢) الآية (١٧) لم ترد.

(٣) الآية (٢٠) لم ترد.

(٤) الآية (٢٤) لم ترد.

أي: لا أَدْري ما تُوعَدون من العقوبة، ومن قيام الساعة أَقريب أم بعيد؟ فكونوا على حذرٍ. ويجب أنْ يتوقَّع العبدُ العقوبات أبداً مع مجاري الأنفاس ليَسلم من العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

فيطلعه بقَدْرِ ما يريده.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدَّامه وخَلْفه.. هم ملائكةٌ حَفَظَه، يحفظون الوحيَ من الكهنة والشياطين، حتى لا يزيدوا أو ينقصوا الرسالاتِ التي يحملها... والله يعلم ذلك، وأحاط عِلْمُه به.

سورة المزمل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: الحادثاتُ بالله حَصَلَت، فقلوبُ العارِفين بالله عَرَفتْ ما عرفت وأرواحُ الصِّدِّيقين بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفت وفُهُومُ الموحِّدين بساحاتِ جلاله وقَفَت، ونفوسُ العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتَّصَفَت وعقولُ الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: المتزمل المتلفِّف في ثيابه. وفي الخبر: «أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ[1] من شَعْرٍ وَبَرٍ، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان نصفُه عليَّ وأنا نائمة، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي، وطولُ المِرْطِ أربعةَ عشر ذراعاً».

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصفَه بَدَلٌ منه؛ أي: قم نصف الليل، وأَنْقِصْ من النصف إلى الثلث أو زِدْ على الثلث، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُخَيَّراً ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث. وكان ذلك قبل فَرْضِ الصلوات الخمس، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة ـ وإن كانت بقيت واجبة على الرسول ﷺ.

ويقال: يا أيها المتزمل بأعباء النبوّة.. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾.

ويقال: يا أيها الذي يُخْفِي ما خصصناه به قُمْ فأنذِرْ.. فإنّا نصرناك.

ويقال: قُمْ بنا.. يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس.. قُمْ أنت. فليسكنْ الكلُّ.. ولْتَقُمْ أنت.

ويقال: لمَّا فَرَضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نَفْسِه لأجل أُمَّته وإكراماً لشأنه وقدره.

---

(١) المرط: كساء من خَزّ أو صوف أو كتّان. (لسان العرب / ٤٠١ مادة: مرط).
وقيل: هو الثوب الأخضر، وجمعه مروط.

وفي الخبر: «أنه ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا...»[١] ولا يُدْرَى التأويل للخبر، أو أنَّ التأويل معلوم.. وإلى أن ينتهي إلى التأويل فللأحبابِ راحاتٌ كثيرة، ووجوهٌ من الإحسان موفورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

ارْتَعْ بِسِرِّك في فَهْمِه، وَتأَنَّ بلسانِك في قراءته.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

قيل: هو القرآن. وقيل: كلمة لا إلَهَ إلا الله.

ويقال: الوحي؛ وسمّاه ثقيلاً أي خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان.

ويقال: ثقيل أي: له وزن وخطر. وفي الخبر «كان إذا نزل عليه القرآن ـ وهو على ناقته ـ وضعت جِرانها[٢]، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه»[٣].

وروى ابن عباس: أنَّ سورة الأنعامِ نَزَلَتْ مرةً واحدةً فَبَرَكَت ناقةُ رسول الله ﷺ من ثقل القرآن وهيبته.

ويقال ﴿ثَقِيلًا﴾ سماعه على مَنْ جحده.

ويقال: «ثقيلاً بِعِبئِه ـ إلّا على من أُيِّدِ بقوةِ سماوية، ورُبِّي في حِجْرِ التقريب».

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

أي: ساعات الليل، فكلُّ ساعةٍ تحدث فهي ناشئة، وهي أشد وطئاً أي: مُوَطَّأة أي: هي أشدُّ موافقةً للسانِ والقلبِ، وأشدُّ نشاطاً.

ويحتمل: هي أشدُّ وأغلظُ على الإنسان من القيام بالنهار.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أَبْيَنُ قولاً.

ويقال: هي أشدُّ مواطأةً للقلب وأقوم قيلاً لأنها أبعدُ من الرياء، ويكون فيها حضورُ القلبِ وسكونُ السِّرِّ أبلغَ وأتمّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

أي: سبحاً في أعمالك، والسبح: الذهاب والسرعة، ومنه السباحة في الماء.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٥٠٤، ٤/ ٨١)، وصاحب (الإتحافات السنية ٣٢٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٢٢١).
وللحديث رواية أخرى «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله...» أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٢١٨).

(٢) الجران: باطن العنق. (اللسان ١٣/ ٨٦ مادة: جرن).

(٣) أخرجه الترمذي (وصايا، ٥) وأحمد بن حنبل (٤/ ١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٩).

فالمعنى: مذاهبُك في النهار فيما يَشغَلُك كثيرةٌ ـ والليلُ أَخلَى لك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾.

أي: انقَطِعْ إليه انقطاعاً تاماً.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾.

الوكيلُ مَنْ تُوكَلُ إليه الأمورُ؛ أي: تَوَكَّلْ عليه وكِلْ أمورَك إليه، وثِقْ به.

ويقال: إنك إذا اتخذْتَ من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالَكَ وطالبوك بالأجرة، وإذا اتخذتني وكيلاً أُوَفِّرُ عليكَ مَالَكَ وأُعطيكَ الأجر.

ويقال: وكيلُك ينفق عليك من مالِك، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي.

ويقال: وكيلُك مَنْ هو في القَدْرِ دونَك، وأنت تترفَّعُ أن تكلِّمَه كثيراً. وأنا ربُّكَ سَيِّدُك وأحبُّ أَنْ تكلِّمَني وأكلِّمَكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

الهَجْرُ الجميلُ: أن تعاشِرَهم بظاهرك وتُباينَهم بِسِرِّك وقلبك.

ويقال: الهجرُ الجميل ما يكون لحقِّ ربِّك لا لِحَظِّ نَفْسِك.

ويقال: الهجرُ الجميلُ ألا تُكلِّمَهم، وتكلمني لأجلهم بالدعاء لهم.

وهذه الآية منسوخة بآية القتال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾.

أي: أُولِي التَّنَعُّم وأَنْظِرْهم قليلاً، ولا تهتمْ بشأنهم، فإني أكفيكَ أمرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

ثم ذكر وصف القيامة فقال:

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾.

ثم قال:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾.

يعني: أرسلنا إليكم محمداً ﷺ شاهداً عليكم ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾، ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ ثقيلاً.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا﴾ من هَوْله يصير الولدانُ شيباً ـ وهذا على ضَرْبِ المثل.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ أي بذلك: اليوم لهوله.

ويقال: مُنْفَطِرٌ بالله أي: بأمره.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾: فما وَعَدَ اللّهُ سيصدقه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾: يعني هذه السورة، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ؛ فَمَنْ اتعظ بها سَعِدَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ من المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فهو خالقهما ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وتطيعوه.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خَفَّفَ عنكم ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ من خمس آيات إلى ما زاد. ويقال: من عَشْرِ آيات إلى ما يزيد.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يسافرون، ويعلم أصحاب الأعذار، فَنَسخَ عنهم قيامَ الليل.

﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة.

﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مضى معناه.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أي: ما تقدِّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا.

سورة المدثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها نزهةُ قلوبِ الفقراء، كلمةٌ سماعُها بهجة أسرارِ الضعفاء، راحةُ أرواحِ الأحِبَّاء، قوةُ قلوبِ الأولياء، سَلْوَةُ صدورِ الأصفياء، قُرَّةُ عيونِ أهلِ البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

يا أيها المتدثر بثوبه.

وهذه السورة من أول ما أُنزِلَ من القرآن. قيل: إنَّ رسولَ الله ﷺ ذَهَبَ إلى حِرَاء قبل النُّبُوة، فَبَدا له جبريلُ في الهواء، فرجع الرسول إلى بيت خديجة[1] وهو يقول «دثِّروني دثِّروني»[2] فَدُثِّرَ بثوبٍ فنزل عليه جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وقيل: أيها الطالبُ صَرْفَ الأذى عنك بالدثار اطلبْه بالإنذار.

ويقال: قُمْ بنا، وأَسْقِطْ عنك ما سوانا، وأَنذِر عبادَنا؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقف، ووقفناك بأعلى المقامات.

ويقال: لمَّا سَكَنَ إلى قوله ﴿قُمْ﴾ وقام قَطَعَ سِرَّه عن السُّكونِ إلى قيامِه، ومن الطمأنينة في قيامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

---

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى (٦٨ ـ ٣ ق هـ = ٥٥٦ ـ ٦٢٠ م) من قريش زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وكانت أسنّ منه بخمس عشرة سنة. ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار، وتزوجت بأبي هالة بن زرارة فمات عنها وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، فلما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصري وعاد رابحاً، فدست له من عرض عليه الزواج بها فأجاب وتزوجها فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولما بُعث رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. توفيت بمكة.
الأعلام ٢/ ٣٠٢، وطبقات ابن سعد ٨/ ٧ ـ ١١، وصفة الصفوة ٢/ ٢، والدر المنثور ١٨٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/ ٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) وابن أبي شيبة في (المصنف ٣/ ٧٤)، والطبري في (التاريخ ٢/ ٣٠٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

كَبِّرْه عن كلِّ طَلَبٍ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ، وعِلَّةٍ وخَلْقٍ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

طَهِّرْ قلبكَ عن الخلائق أجمع، وعن كلِّ صفةٍ مذمومة.

وطَهِّرْ نَفْسَك عن الزَّلات، وقلبَك عن المخالفات، وسِرَّك عن الالتفاتات.

ويقال: أَهْلَكَ طَهِّرْهم بالوعظ؛ قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فيعبر عنهن ـ أحياناً ـ بالثياب واللِّباس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

أي: المعاصي. ويقال: الشيطان. ويقال: طهِّرْ قلبَك من الخطايا وأشغال الدنيا.

ويقال: مَنْ لا يَصِحُّ جِسْمُه لا يجد شهوةَ الطعام كذلك مَنْ لا يَصِحُّ قلبُه لا يجد حلاوةَ الطاعة.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾.

لا تُعْطِ عطاءً تطلب به زيادةً على ما تعطيه.

ويقال: لا تستكثِرْ الطاعةَ من نفسك.

ويقال: لا تمنُنْ بعملك فتَسْتكثِرَ عملك، وتُعْجَبَ به.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

أي: أنت تُؤذَى في اللَّهِ. فاصبِرْ على مقاساةِ أذاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

يعني: إذا قامت القيامةُ، فذلك يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ هيِّنٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

أي: لا تهتمْ بشأنهم، ولا تَحْتَفِلْ؛ فإنِّي أكفيكَ أمرَهم.

إنِّي خَلَقْتُه وحدي؛ لم يشارِكْني في خلقي إيَّاه أحدٌ.

ويحتمل: خَلَقْتُه وَحْدَه لا ناصرَ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا﴾.

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السَّفرِ.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾.

أراد: تسهيلَ التصرُّف، أي: مكَّنْتُهُ من التصرُّف في الأمور.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾.

يطمع أن أزيده في النعمة:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾.

جحوداً.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.

سأحمله على مشقةٍ من العذاب.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾.

أي: لُعِنَ كيف فكّر، وكيف قدّر، ويعني به: الوليد بن المغيرة[1] الذي قال في النبي ﷺ: إنّه ليس بشاعرٍ ولا بمجنونٍ ولا بكذّاب، وإنه ليس ساحر، وما يأتي به ليس إلا سحرٌ يُرْوَى:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾.

لا تُبقي لَحْماً، ولا تَذَرُ عَظْماً، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّدها، من لاحته الشمسُ ولوّحته.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

قال المشركون: نحن جَمْعٌ كثير.. فما يفعل بنا تسعة عشر؟! فأنزل الله سبحانه:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

فيزداد المؤمنون إيماناً، ويقول هؤلاء: أي فائدة في هذا القَدْر؟ فقال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

ثم قال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

أي: تقاصرت علومُ الخَلْقِ فلم تتعلّقْ إلا بمقدار دون مقدار، والذي أحاط بكل شيء علماً هو الله ـ سبحانه

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾.

---

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (٩٥ هـ ـ ١ هـ = ٥٣٠ ـ ٦٢٢م) أو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. يقال له «العدل» لأنه كان عدل قريش كلها، كان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته. هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون وهو والد سيف الله خالد بن الوليد.
الأعلام ٨/ ١٢٢، والكامل لابن الأثير ٢/ ٢٦، ورغبة الآمل ٥/ ٢٩، واليعقوبي ١/ ٢١٥.

كلّا ـ حرفُ ردعٍ وتنبيه؛ أي: ارتدعوا عما أنتم عليه، وانتبهوا لغيرِه.

وأقسم بهذه الأشياء ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾: أي بالقمر، أو بقدرته على القمر.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وقُرِىءَ «ودَبَرَ» أي: مضى، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي: تجلَّى.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾.

أي: النار لإحدى الدواهي الكُبَر.

ويقال في ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ إشارةٌ إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالُها في الزيادة بزيادة البراهين، فإنها تزداد، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام في العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة، فالعلم يأخذ النقصان، وتطلع شمسُ المعرفة، فكما أنه إذا قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً ـ كذلك إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفانِ تأخذ أقمارُ العلوم في النقصان لزيادة المعارف؛ كالسراج في ضوء الشمس وضياء النهار. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي إذا انكشفت ظُلَمُ البواطن، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ وتجلَّت أنوار الحقائق في السرائر.. إنها لإحدى العظائم! وذلك من باب التخويف من عودة الظُّلَم إلى القلوب.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾.

في هذا تحذيرٌ من الشواغل التي هي قواطع عن الحقيقة، فيحذروا المساكنةَ والملاحظةَ إلى الطاعات والموافقات.. فإنّها ـ في الحقيقة ـ لا خطرَ لها.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عن الطاعات.. وهذا على جهة التهديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

أي: مرتهنة بما عملت، ثم استثنى:

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾.

فقال: إنهم غير مرتهنين بأعمالهم، ويقال: هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي»!

وقيل: أطفال المؤمنين.

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين، ويقولون لأهل النار إذا حَصَلَ لهم إشرافٌ عليهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ ﴿قالوا ألم نك من المصلين﴾ ألم نكُ نُطعِمُ المسكين؟

وهذا يدل على أنَّ الكفارَ مُخاطَبون بتفصيل الشرائع.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾: نشرع في الباطل، ونكذِّب بيوم الدين.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

وهو معاينة القيامة.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

أي: لا تنالهم شفاعةُ مَنْ يشفع.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

والتذكرة: القرآن:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾.

كأنهم حُمُرٌ نافرة فرَّت من أَسَدٍ.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

بل يريد كلُّ منهم أن يُعْطَى كتاباً منشوراً.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

أي: كَلَّا لا يُعْطَوْن ما يتمنَّون لأنهم لا يخافون الآخرة.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

إلَّا أَنْ يشاءَ اللَّهُ ـ لا أَنْ تشاؤوا.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أهل لأن يُتَّقىٰ.

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

وأهلٌ لأَنْ يغفِرَ لمن يَتَّقِي ـ إن شاء.

سورة القيامة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العِلْم استبصر، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحيَّر.. فالعلماءُ في سكون برهانه، والعارفون في دَهَش سلطانه.. أولئك في نجوم علومهم، فأحوالُهم صَحْوٌ في صَحْو، وهؤلاءِ في شموسِ معارفهم: فأوقاتُهم محوٌ في محو.. فشتان ما هما!!

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: أقسم بيوم القيامة.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

أي: أقسم بالنفس اللَّوَّامة، وهي النَّفْسُ التي تلوم صاحبَها، وتعرِف نقصانَ حالِها.

ويقال: غداً.. كلُّ نَفْسٍ تلوم نَفْسَها: إمَّا على كُفْرِها، وإمَّا على تقصيرها ـ وعلى هذا فالقَسَمُ يكون بإضمار «الرَّب» أي: أقسم بربِّ النفس اللوامة. وليس للوم النَّفْسِ في القيامةِ خطرٌ ـ وإنْ حُمِلَ على الكُلِّ ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً ـ ستكون على هذه الجملة. وجوابُ القَسَم قولُه: ﴿بَلَىٰ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾.

أيظن أنَّا لن نبعثَه بعد موته؟

﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

﴿قَادِرِينَ﴾ نصب على الحال؛ أي بلى، نسوي بنانه في الوقت قادرين، ونقدر أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ[1] البعير وظلف[2] الشاة.. فكيف لا نقدر على إعادته؟!

---

(١) الخُفُّ للبعير: كالحافر للفرس (ج) أخفاف.

(٢) الظِّلْف: الظفر المشقوق لكل حيوان مجترّ كالبقرة والشاة والظبي ونحوها، وهو بمنزلة الحافر للفرس (ج) أظلاف. وظلوف.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ .

يُقدِّم الزلّةَ ويؤخر التوبة. ويقول: سوف أتوب، ثم يموت ولا يتوب. ويقال: يعزم على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته، وبهذا لا تَنْحَلُّ ـ في الوقت ـ عقدةُ الإصرار من قلبه، وبذلك لا تصحُّ توبتُه؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل ما عَمِل. فإذا كان استحلاءُ الزلّةِ في قلبه، ويفكر في الرجوع إلى مثلها ـ فلا تصح ندامتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ .

على جهة الاستبعاد، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ .

﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء معناها تحيَّرَ، ﴿وَبَرَقَ﴾ بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك، لها زفير وشهيق، فلا يَبْقى مَلَكٌ ولا رسول إلّا وهو يقول: نفسي نفسي!

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كأنهما ثوران عقيران.

ويقال: يجمع بينهما في ألّا نورَ لهما.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ والمفرّ موضع الفرار إليه، فيقال لهم:

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾[1] .

اليومَ، ولا مَهْربَ من قضاءِ الله.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ .

أي: لا مَحِيدَ عن حُكْمِه.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ .

أي: يَعْرِف ما أسْلَفَه من ذنوب أحصاها اللّهُ ـ وإن كان العبدُ نسيَها.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عملِه.

ويقال: هو بصيرةٌ وحُجّةٌ على نفسه في إنكار البعث.

ويقال: إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً، ولو أتى بكلّ حجةٍ فلن تُسْمع منه ولن تنفعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ .

---

(١) الوَزَر: الملجأ يُعتصم به.

لا تستعجِلْ في تَلَقُّفِ القرآنِ على جبريل، فإنَّ علينا جَمْعَه في قلبك وحِفْظَه، وكذلك علينا تيسيرُ قراءته على لسانك، فإذا قرأناه أي: جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقرائك جَمْعَه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

نُبيِّنُ لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها. وكان رسول الله ﷺ يستعجل في التلقفِ مخافةَ النسيان، فنُهِيَ عن ذلك، وضمن اللّٰهُ له التيسير والتسهيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

أي: إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا، أي: يحبون البقاء في الدنيا.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾: أي: تتركون العملَ للآخرة. ويقال: تكفرون بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي مشرقة حسنة، وهي مشرقة لأنها إلى ربها «ناظرة» أي رائية لله. والنظر المقرون بـ «إلى» مضافاً إلى الوجه لا يكون إلّا الرؤية، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قَلْبِ العادة، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى.

ويقال: العين من جملة الوجه فاسم الوجه يتناوله.

ويقال: الوجهُ لا ينظر ولكنّ العينَ في الوجهِ هي التي تنظر؛ كما أنّ النهرَ لا يجري ولكنّ الماءَ في النهر هو الذي يجري، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

ويقال: في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ دليل على أنهم بصفة الصحو، ولا تتداخلهم حيرة ولا دَهَش؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء في حال اللقاء أتمُّ من اللقاء.

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي، وعندهم استهلاكُ العبدِ في وجود الحقّ أتمُّ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي كالحةٌ عابسة. ﴿فَاقِرَةٌ﴾ أي: داهية وهي بقاؤهم في النار عَلَى التأبيد. تظن أن يخلق في وجوههم النظر.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿تَظُنُّ﴾: أي يخلق ظنًّا في قلوبهم يظهر أَثَرُه على وجوههم.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾.

أي ليس الأمر على ما يظنون؛ بل إذا بلغت نفوسُهم التراقيَ[1]، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؟ أي يقول مَنْ حولَه: هل أحدٌ يَرْقِيه؟ هل طبيبٌ يداويه؟ هل دواءٌ يشفيه؟

ويقال: مَنْ حَوْله من الملائكة يقولون: مَنْ الذي يَرْقى برُوحه؛ أملائكةُ الرحمة أو ملائكة العذاب؟.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾: وعلم الميت أنه الموت!.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾: ساقا الميت. فتقترنُ شِدَّةُ آخرِ الدنيا بشدَّة أوّلِ الآخرة.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي الملائكة يسوقون روحه إلى الله حيث يُأمرهم بأن يحملوها إليه: إمّا إلى عليين ـ ثم لها تفاوت درجَات، وإمّا إلى سجّين[2] ـ ولها تفاوت دَرَكات.

ويقال: الناسُ يُكَفِّنون بَدنَ الميت ويغسلونه، ويُصَلُّون عليه.. والحقُّ سبحانه يُلْبِسُ روحَه ما تستحق من الحُلَلِ، ويغسله بماء الرحمة، ويصلي عليه وملائكتُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

يعني: الكافر ما صدَّق اللَّهَ ولا صلَّى له، ولكن كذَّب وتولَّى عن الإيمان. وتدل الآيةُ على أنَّ الكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾.

أي: يتبختر ويختال.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾.

العَربُ إذا دَعَتْ على أحدٍ بالمكروه قالوا: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ وهنا أتبع اللفظَ اللفظَ على سبيل المبالغة.

ويقال: معناه الويلُ لَكَ يومَ تحيا، والويلُ لكَ يوم تَموت، والويلُ لكَ يومَ تُبْعَث، والويل لكَ يوم تدخل النار.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

مُهمَلاً لا يُكلَّفُ!؟. ليس كذلك.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

---

(١) التراقي: (ج) الترقوة: هي عظم وصل بين ثغره النحر والعاتق من الجانبين. (لسان العرب ١٠/ ٣٢ مادة: ترق).

(٢) سجّين: وادٍ في جهنم.

﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي تُلْقى في الرَّحم ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: دماً عبيطاً[١]، فسوّى أَعضاءَه في بطن أُمه، وركَّبَ أجزاءَه على ما هو عليه في الخِلْقة، وجعل منه الزوجين: إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ، وإن شاء خَلَقَ الأنثى، وإن شاء كليهما.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أَليس الذي قدر على هذا كلِّه بقادر على إحياء الموتى؟ فهو استفهام في معنى التقرير.

---

(١) العبيط: من اللحم: الطري غير النضيج. (لسان العرب ٧/ ٣٤٧ مادة: عبط).

سورة الإنسان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ جبّارٌ تَوَحّد في آزالِه بوصف جبروته، وتَفَرّدَ في آباده بنعت ملكوته؛ فأَزَلُه أَبَدُه، وأَبَدُه أَزَلُه، وجبروتُه ملكوتُه، وملكوته جبروتُه.

أحديُّ الوصفِ، صَمَدِيُّ الذات، مُقَدَّسُ النَّعْتِ، واحدُ الجلالِ، فَرْدُ التعالي، دائمُ العِزِّ، قديمُ البقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾.

في التفسير: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار. قيل: كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُه بين مكة والطائف. ثم من صلصالٍ[1] أربعين سنة، ثم من حمإٍ مسنون أربعين سنة، فتمّ خَلْقُه بعد مائة وعشرين سنةٍ.

ويقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ...﴾: أي لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إليَّ.

ويقال: هل غَفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِك؟ هل ألقيتُ ـ لحظةً ـ حَبْلَكَ على غارِبِك؟ هل أخليتُك ـ ساعةً ـ من رعاية جديدة وحمايةٍ مزيدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾.

﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾: أي من قطرة ماءٍ، ﴿أَمۡشَاجٖ﴾: أَخلاط من بين الرجل والمرأة.

ويقال: طوراً نطفة، وطوراً عَلَقَة، وطوراً عَظْماً، وطوراً لَحْماً.

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾: نمتحنه ونختبره. وقد مضى معناه.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

أي: عَرّفْناه الطريقَ؛ أي طريقَ الخيرِ والشرّ.

---

(١) الصلصال: الطين اليابس، أو الطين الحر خُلط بالرمل فصار يتصلصل (يصوّت) إذا جف فإذا طبخ بالنار فهو الفجار.

وقيل: إمَّا للشقاوة، وإمَّا للسعادة، إمَّا شاكراً من أوليائنا، وإما أن يكون كافراً من أعدائنا؛ فإنْ شَكَرَ فبالتوفيق، وإنْ كَفَرَ فبالخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.

أي: هَيَّأنا لهم سلاسلَ يُسْحَبون فيها، ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ لأعناقهم يُهانون بها، ﴿وَسَعِيرًا﴾: ناراً مستعرة.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

قيل: البَرُّ: الذي لا يُضْمِرُ الشَّرَّ، ولا يؤذي الذَّرّ.

وقيل: ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهم عن المستحقرات، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة فاتّقوا عن مُسَاكنةِ الدنيا.

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ رائحتها كرائحة الكافور[1]، أو ممزوجة بالكافور.

ويقال: اختلفت مشاربهُم في الآخرة؛ فكلٌّ يُسْقَى ما يليق بحاله... وكذلك في الدنيا مشاربهُم مختلفة؛ فمنهم مَنْ يُسقَى مَزْجاً، ومنهم من يُسقَى صِرْفاً، ومنهم من يسقى على النُّوَب، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسْقَى وحدَه ولا يُسقي مما يُسقى غيره، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً.. وقالوا:

إن كنت من ندماي فبالأكبر اسْقِني ولا تَسْقِني بالأصغر المتثلم

وفائدة الشرابِ ـ اليومَ ـ أن يشغلهم عن كل شيءٍ فيريحُهم عن الإحساس، ويأخذهم عن قضايا العقل.. كذلك قضايا الشراب في الآخرة، فيها زوالُ الأَرَبِ، وسقوطُ الطلبِ، ودَوَامُ الطَّرَب، وذَهَابُ الحَرَب، والغفلة عن كلِّ سبب.

ولقد قالوا:

عاقِرْ عقارك واصطبِخ واقدَحْ سرورَك بالقَدحَ
واخلع عذارك[2] في الهوى وأَرِحْ عذولَك واسترحْ
وافرَحْ بوقتِك إنما عُمْرُ الفتى وقتُ الفَرَح

قوله جلّ ذكره: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

---

(١) الكافور: هنا قيل: نبات له نور أبيض كنور الأقحوان. والكافور عين ماء في الجنة طيب الريح، والكافور من أخلاط الطيب. (لسان العرب ٥/١٤٩، ١٥٠، مادة: كفر).

(٢) يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهمك في الغيء ولم يستح منه واتبع هواه.

يُشَقِّقونها تشقيقاً، ومعناه أَن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون. واليومَ ـ لهم عيونٌ في أَسرارهم من عين المحبة، وعين الصفاء، وعين الوفاء، وعين البسط، وعين الروح.. وغير ذلك، وغداً لهم عيون.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال: يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجهٍ مخصوص.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

قاسياً، منتشراً، ممتداً.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

أي: على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه. ويقال: على حُبِّ الله، ولذلك يُطْعِمون.

ويقال: على حُبِّ الإطعام.

وجاء في التفسير: أَن الأسير كان كافراً ـ لأنَّ المسلَم ما كان يُستأسَرُ في عهده ـ فطاف على بيت فاطمة رضي الله عنها وقال: تأسروننا ولا تطعموننا!

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾.

إنما نطعمكم ابتغاءَ مرضاةِ الله، لا نريد من قِبلكُم جزاءً ولا شكراً.

ويقال: إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم، ولكن كان ذلك بضمائرهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.

أي: يوم القيامة.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾.

﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

كافأَهم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنَّةً وحريراً.

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

واحدها أريكة، وهي السرير في الحجال[1].

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾.

---

(١) الحجال: (ج) الحجلة: مثل القبة، وحجلة العروس: بيت يُزين بالثياب والأسرّة والستور. (لسان العرب ١١/ ١٤٤ مادة: حجل).

أي: لا يتأذون فيها بِحَرٍّ ولا بَرْدٍ.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

يتمكنون من قطافها على الوجه الذي هم فيه من غير مشقة؛ فإن كانوا قعوداً تُدلَّى لهم، وإن كانوا قياماً ـ وهي على الأرض ـ ارتقت إليهم.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾.

الاسم فضة، والعين لا تشبه العين.

﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

أي: في صفاء القوارير وبياض الفضة.. قَدَّرَ ذلك على مقدار إرادتهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾.

المقصود منه الطِّيب، فقد كانوا (أي العرب) يستطيبون الزنجبيل[(١)]، ويستلذون نكهته، وبه يشبِّهون الفاكهة، ولا يريدون به ما يقرص اللسان.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾.

أي: يُسْقَوْنَ من عينٍ ـ أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ ـ سبحانه ـ بلا واسطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

أي: يخدمهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصائف.

وجاء في التفسير: لا يَهْرَمون ولا يموتون. وجاء مُقَرَّطون.

إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منثوراً.

وفي التفسير: ما من إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

﴿ثَمَّ﴾: أي في الجنة.

﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: في التفاسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول.

وقيل: هو قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥] ويقال: أي لا زوالَ له.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

---

(١) الزنجبيل: مما ينبت في بلاد العرب بأرض عُمان، وهو عروق تسري في الأرض، ونباته شبيه بنبات الراسن وليس منه شيء بريًا، وليس بشجر، يؤكل رطباً كما يؤكل البقل، ويستعمل يابساً وأجوده ما يؤتى به من الزنج وبلاد الصين.
وقيل: الزنجبيل: العود الحرّيف الذي يحذي اللسان. (لسان العرب ٣١٢/١١ مادة: زنجبيل).

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار. ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى، والاسم يوافق الاسم دون العين.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: الشراب الطهورُ هو الطاهر في نفسِه المُطَهِّرُ لغيره.

فالشراب يكون طهوراً في الجنة ـ وإنْ لم يحصل به التطهيرُ لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير.

ولكنه ـ سبحانه ـ لمَّا ذَكَرَ الشرابَ ـ وهو اليومَ في الشاهد نجَسٌ ـ أخبر أنَّ ذلك الشرابَ غداً طاهرٌ، ومع ذلك مُطَهِّر؛ يُطَهِّرُهم عن محبة الأغيار، فمن يَحْتسِ من ذلك الشرابِ شيئاً طَهَّرَه عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات.

ويقال: يُطَهِّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ، ولا يُبْقِي لبعضهم مع بعض خصيمة ولا عداوة ولا دَعْوَى ولا شيء.

ويقال: يُطهِّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين.

ويقال: إن الملائكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبولَه منهم، ويقولون:

لقد طال أَخْذُنا مِنْ هؤلاء، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقِي أفواهَهَم بغير أكُفٍّ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ.

ويقال: اليومَ شرابٌ وغداً شراب.. اليوم شرابُ الإيناس وغداً شرابُ الكاس، اليوم شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكفّ.

ويقال: مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبَّتِه آنَسَه وشَجَّعَه؛ فلا يستوحِش في وقته من شيء، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذْل. ومن مقتضى شُرْبه بكأسِ محبته أن يجودَ على كلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار.

ومن آثارِ شُرْبِه تذلُّلُه لكلِّ أحدٍ لأجل محبوبه، فيكون لأصغرِ الخَدم تُرَابَ القَدَم، لا يتحرَّكُ فيه للتكبُّر عِرْقٌ.

وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً في بعض الأحايين أَنْ يَتِيه على أهل الدارين.

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أَنْ يمْلِكَه سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار وإلقاء قناع الحياء ويظهر ما هو به من المواجيد:

يخلع فيك العذارَ قومٌ   فكيف مَنْ ما لَه عذارُ؟

ومن موجِبات ذلك الشراب سقوط الحشمة، فيتكلم بمقتضى البسط، أو بموجب لفظ الشكوى، وبما لا يَستخرجُ منه ـ في حال صَحْوه ـ سفيهٌ

بالمناقيش[١]. . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقالوا: سَكِرَ من سماع كلامِه، فَنَطَقَ بذلك لسانُه. وأمَّا مَنْ يسقيهم شرابَ التوحيد فَيَنْفي عنهم شهودَ كلِّ غَيْرٍ فيهيمون في أودية العِزِّ، ويتيهون في مفاوزِ[٢] الكبرياء، وتتلاشى جملتهُم في هواء الفردانية. . فلا عقلَ ولا تمييزَ ولا فَهْمَ ولا إدراك. . فكلُّ هذه المعاني ساقطة.

فالعبدُ يكون في ابتداء الكَشْفِ مُستوْعَباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصيرُ مُسْتَهْلَكا. . ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾.

يقال لهم: هذا جزاءٌ لكم، ﴿مَّشۡكُورًا﴾: وشُكْرُه لسعيهِمْ تكثيرُ الثوابِ على القليل من العمل ـ هذا على طريقة العلماء، وعند قومٍ شُكْرُهم جزاؤهم على شكرهم.

ويقال: شُكْرُه لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾.

في مُدَّةِ سنين.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾.

أي: ارضَ بقضائه، واستسلِمْ لِحُكْمِه.

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾: أي: ولا كفوراً، وهذا أمرٌ له بإفرادِ ربِّه بطاعته.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾.

الفَرْضُ في الأول، ثم النَّفل.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ. .﴾.

أي كفَّار قريش:

﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾.

أي: لا يعملون ليوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾.

---

(١) المناقيش: (ج) المنقاش: ما يُنقش به.

(٢) المفاوز: (ج) المفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وهي كذلك الموضع المهلك.

أعدمناهم، وخلقنا غيرَهم بدلاً عنهم. ويقال: أخذنا عنهم الميثاق.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ...﴾.

أي: القرآن تذكرة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

بطاعته.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

أي: عذاباً أليماً موجِعاً يخلص وَجَعُه إلى قلوبهم.

سورة المرسلات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ سمعها بسمع الوَجْدِ وَفَى له فلم ينظرْ إلى أحد، ومَنْ سمعها بسمع العِلْمِ جَادَ له فلم يبخلْ بروحه على أحد.

ومن سمعها بسمع التوحيد جَرَّدَ سِرَّه عن إيثارِ ما سواه في الدنيا والعُقبى عيناً وأَثَراً فما كان هذا كله إلا حاصلاً به كائناً منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾.

﴿**المرسلات**﴾: الملائكة، ﴿**عرفاً**﴾ أي: أرسلوا بالمعروف من الأمر، أو كثيرين كعُرْفِ الفَرس.

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾.

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه).

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾.

الأمطار (لأنها تنشر النبات. فالنشر بمعنى الإحياء). ويقال: السُّحُبُ تنشر الغيث. ويقال: الملائكة.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾.

الملائكة؛ تفرق بين الحلال والحرام.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

الملائكة: تُلقِي الوحيَ على الأنبياء عليهم السلام؛ إعذاراً وإنذاراً..

وجوابُ القَسَم:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

فأقسم بهذه الأشياء: إنَّ القيامة لحقٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾.

إنما تكون هذه القيامة. و ﴿**طمست**﴾: ذهب ضَوؤُها[1].

---

(١) الآية (٩) لم ترد.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾.

ذَهَبَ بها كلِّها بسرعة، حتى لا يَبْقَى لها أَثَرٌ.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾.

أي: جَعَلَ لها وقتاً وأَجَلاً لفَصْلِ القضاءِ يومَ القيامة.

ويقال: أُرْسِلَتْ لأوقاتٍ معلومة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

على جهة التعظيم له.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

مضى تفسيرُ معنى الويل.

ويقال في الإشارات: فإذا نجومُ المعارف طمست بوقوع الغيبة.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ القلوبُ الساكنة بيقين الشهود حُرِّكَتْ عقوبةً على ما هَمَّتْ بالذي لا يجوز. فويلٌ يومئذٍ لأرباب الدعاوَى الباطلةِ الحاصلةِ من ذوي القلوب المُطبقة الخالية من المعاني.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾.

الذين كذَّبوا رُسُلَهم، وجحدوا آياتنا؛ فمثلما أهلكنا الأولين كذلك نفعل بالمجرمين إذا فعلوا مثلَ فِعْلِهم(١).

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين لا يستوي ظاهرُهم وباطنهم في التصديق.

وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّلَّة والفَترة في الطريقة، والخيانة في أحكام المحبة فعُذِّبوا بالحرمان في عاجلهم، ولم يذوقوا من المعاني شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾.

أي: حقير. وإذ قد علمتم ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه؟

ويقال: ذَكَّرَهم أصلَ خلقتم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدَّ دعوى من بني آدم. فمن الواجب أَنْ يَتَفَكَّرَ الإنسانُ في أَصلِه... كان نطفةً وفي انتهائه يكون جيفة، وفي وسائط حالِه كنيفٌ(٢) في قميص!! فبالحريِّ أَلَّا يُدِلَّ ولا يفتخر:

كيف يزهو مَنْ رجيعهُ ... أَبَدَ الدهرِ ضجيعُه

---

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) الكنيف: الساتر أو المرحاض.

فهو منه وإليه وأخوه ورضيعُه
وهو يدعوه إلى الحُشّ[(١)] بصغر فيطيعه؟!!

ويقال: يُذكّرهم أصلَهم.. كيف كان كذلك... ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة، قال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، والذي يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرقِّيَكَ من الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة[(٢)].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾.

﴿كِفَاتًا﴾ أي: ذات جَمْع؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياءً وأمواتاً؛ فهم يعيشون على ظهرها، ويُودَعونَ بعد الموت في بطنها..

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

أي: جبالاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم. يُذكّرهم عظيم مِنّتهِ بذلك عليهم. والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنّته أنّه لم يخسف بكم الأرض ـ وإن عملتم ما عملتم[(٣)].

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

يقال لهم: انطلقوا إلى النار التي كذّبتم بها.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

كذلك إذا لم يعرف العبدُ قَدْرَ انفتاحِ طريقه إلى الله بقلبه، وتعزُّزِه بتوكله.. فإذا رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاءِ الغفلة نَزَعَ اللّهُ عن قلبه الرحمةَ، وانسدَّت عليه طُرُقُ رُشْدِه، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا.

ويقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون. والاستقلالُ بالله جنّة المأوى، والرجوعُ إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم.. وفي معناه أنشدوا:

ولم أرَ قبلي مَنْ يُفارِقُ جنّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم[(٤)]

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التنصُّل والاعتذار:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾.

فإلى أنْ تنتهيَ مُدّةُ العقوبة فحينئذٍ: إنْ استأنَفْتَ وقتاً استؤنِفَ لك وقتٌ. فأمّا الآن.. فصبراً حتى تنقضِيَ أيامُ العقاب[(٥)].

---

(١) الحُشّ: البستان: أو مكان قضاء الحاجة.
(٢) الآيات من (٢١ ـ ٢٤) لم ترد.
(٣) الآية (٢٨) لم ترد.
(٤) الآيات من (٣٢ ـ ٣٤) لم ترد.
(٥) الآية (٣٧) لم ترد.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾.

اليومَ.. في ظلال العناية والحماية، وغداً.. هم في ظلال الرحمة والكلاءة.

اليومَ.. في ظلال التوحيد، وغداً.. في ظلال حُسْن المزيد.

اليومَ.. في ظلال المعارف، وغداً.. في ظلال اللطائف.

اليومَ.. في ظلال التعريف، وغداً.. في ظلال التشريف(٢).

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

اليومَ تشربون على ذِكْره.. وغداً تشربون على شهوده، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء(٣).

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

والإحسانُ من العبد تَرْكُ الكلِّ لأجله! كذلك غداً: يجازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾.

هذا خطابٌ للكفار، وهذا تهديد ووعيد، والويل يومئذٍ لكم(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾.

كانوا يُصِرُّون على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم.

[ذكر في التفسير: أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار، وقصور الدرِّ مع الأبرار، وعيون جارية وأنهار، وألوانٍ من الفاكهة والثمار.. من كل ما يريدون من الملِك الجبَّار. ويقال لهم في الجنة: كلوا من ثمار الجنات، واشربوا شراباً سليماً من الآفات. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الكرامات. قيل: كلوا واشربوا ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾: لا تبعة عليكم من جهة الخصومات، ولا أذيّة في المأكولات والمشروبات.

وقيل: الهنيء الذي لا تَبِعَةَ فيه على صاحبه، ولا أَذِيَّةَ فيه من مكروهٍ لغيره(٥).

---

(١) الآيتان (٣٩، ٤٠) لم تردا.
(٢) الآية (٤٢) لم ترد.
(٣) الآية (٤٥) لم ترد.
(٤) الآية (٤٧) لم ترد.
(٥) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

سورة النبأ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَلِكٍ تجمَّلَ عِبادُه بطاعته، وتَزَّينَ خَدَمُه بعبادته وهو سبحانه لا يتجمَّلُ بطاعة المطيعين، ولا يتزيَّنُ بخدمة العابدين؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم، وزينة العارفينَ حُلَّةُ معرفتهم، وزينة المحبِّين تاجُ ولايتهم.. وزينة المذنبين غَسْلُ وجوهِهم بصَوْبِ عَبْرَتِهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث، ولالتباسِ ذلك عليهم، وكثرةِ مُساءَلتهم عنه، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول ﷺ في معناه.

تكرَّر من الله إنزالُ أمرِ البعث، وكم استدلَّ عليهم في حوازِه بوجوهٍ من الأمثلة.. فهذا من ذلك، يقول: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: عن الخبر العظيم ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم[1]:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾.

ذَلَّلْناها لهم حتى سَكَنوها.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

أوتاداً للأرضِ حتى تَمِيدَ بِهم.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.

ذَكَراً وأنثى، وحَسَناً وقبيحاً.. وغير ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

أي راحةً لكم، لتَنْقَطِعوا عن حركاتِكم التي تعبتم بها في نهاركم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾.

تُغَطِّي ظُلْمتُه كلَّ شيءٍ فتسكنوا فيه.

---

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ .

أي وقتَ معاشِكم.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ .

أي سبع سموات.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ .

أي الشمس، جعلناها سراجاً وقَّاداً مشتعلاً.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ .

﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ الرياح التي تعْصِرُ السحاب.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ مطراً صَبَّاباً.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ .

﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير، ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ بساتين يَلْتَفُّ بعضُها ببعض.

وإذا قد علمتم ذلك فهلَّا علمتم أنِّي قادرٌ على أَنْ أُعيدَ الخَلْقَ وأُقيمَ القيامة؟ فبعدَ أن عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه، وتمكينهم من منافعهم.. قال:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ .

مضى معناه.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ .

أي في ذلك اليوم تأتون زُمراً وجماعاتٍ.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ .

أي: تَشَقَّقَتْ وانفطرت.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ .

أي كالسراب.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ .

أي ممراً. ويقال: ذات ارتقابٍ لأهلها.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ .

أي مرجعاً.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ .

أي دهوراً، والمعنى مُؤَبَّدين.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ .

مضى معناه. ثم يُعَذَّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ .

أي: جُوزُوا على فرق أعمالهم. ويقال: على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ، وجرى به الحكم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ .

لا يؤمنون فيرجعون الثواب ويخافون العقاب.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ .

أي: تكذيباً.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ .

يأي: كتبناه كتاباً، وعلمناه عِلْماً.

والمسبِّحُ الزاهدُ يحصي تسبيحَه، والمهجورُ البائسُ يحصي أيامَ هجرانه، والذي هو صاحب وصالٍ لا يتفرَّغ من وَصْلِه إلى تذكُّرِ أيامه في العدد، أو الطول والقصر.

والملائكة يُحصون زلَّات العاصين، ويكتبونها في صحائفهم. والحق سبحانه يقول:

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ فكما أحصى زَلَّاتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أَحْصَى أيامَ هجرانِ المهجورين وأَيَامَ مِحَنِ الممتحَنين، وإنَّ لهم في ذلك لَسَلْوَةً ونَفَساً:

ثمانٍ قد مضينَ بلا تلاقٍ وما في الصبر فَضْلٌ عن ثمانِ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ! وأَرْبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَصْر!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ .

يا أيها المُنَعَّمُون في الجنة.. افرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً.

أيها الكافرون.. احترقوا في النار.. ولن نزيدكم إلا عذاباً.

ويا أيها المطيعون.. افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْل.

يا أيها المساكين.. ابكوا واجزعوا فلن نزيدَكم إلَّا عَزْلاً على عَزْل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّـٰبًا جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ .

مُسَلَّمٌ للمتقين ما وعدناهم به.. فهنيئاً لهم ما أَعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْية

والظَّفَرِ بالسُّؤْلِ والمُنْيَة: من حدائق وأَعناب، ومن كواعبَ أَترابٍ وغير ذلك.

فيا أيها المُهَيَّمون المتيَّمون هنيئاً لكم ما أنتم فيه اليومَ في سبيل مولاكم من تجرُّدٍ وفقر، وما كلَّفكم به من توكل وصبر، وما تجرعتم من صَدٍّ وهجر.

أحرى الملابسِ ما تَلْقَى الحبيبَ به يومَ التزاورِ في الثوب الذي خَلَعا

قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ آذانُهم مصونةٌ عن سماع الأغيار، وأبصارهم محفوظةٌ عن ملاحظة الرسوم والآثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

وكيف تكون للمُكَوَّن المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكْنَةٌ أَنْ يملك منه خطاباً؟ أو يتنفَّسَ بدونه نَفَساً؟ كلّا.. بل هو اللَّهُ الواحدُ الجبّار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

إنما تظهر الهيبةُ على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأمَّا الخواص وأصحابُ الحضور فهُم أبداً بمشهدِ العِزِّ بنعت الهيبة، لا نَفَسَ لهم ولا راحة؛ أحاط بهم سرادُقها واستولت عليهم حقائقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

هم بمشهد الحقّ، والحَكَمُ عليهم الحقُّ، حكم عليهم بالحق، وهم مجذوبون بالحقِّ للحقِّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

وهو عند أهلِ الغفلة بعيدٌ، ولكنَّه في التحقيق قريبٌ.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

مضوا في ذُلِّ الاختيار والتعنِّي، وبُعِثوا في حسرة التمنِّي، ولو أنهم رضوا بالتقدير لتخلَّصوا عن التمنِّي.

سورة النازعات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ لربٍّ عزيز، سماعُه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز، وذِكْرُه يحتاج إلى وقتٍ عزيز، وفهمُه يحتاج إلى قلبٍ عزيز.

وأنّى لصاحبِ سَمْعٍ بالغيبة مُبْتَذَل، ووقتٍ مُعَطَّلٍ في الخسائسِ مُسْتَغْرق، وقلبٍ في الاشتغال بالأغيار مستعمل.. أنّى له أنْ يَصْلُح لسماع هذا الاسم؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾.

أي الملائكة؛ تنزعُ أرواحَ الكفّارِ من أبدانهم.

﴿غَرْقًا﴾: أي إغراقاً كالمُغرِق في قَوْسِه.

ويقال: هي النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾.

هي أنفس المؤمنين تَنْشَط للخروج عند الموت.

ويقال: هي الملائكة تنشِطُ أرواحَ الكفار، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها.

ويقال: هي الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ.

ويقال: هي الأوهاق(١).

ويقال: هي النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى المشارق.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾.

الملائكة تسبح في نزولها.

ويقال: هي النجوم تسبح في أفلاكها.

ويقال: هي السفن في البحار.

ويقال: هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾.

---

(١) الأوهاق: (ج) الوهق: الحبل المُغاريرُ من فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان. (لسان العرب ١٠/ ٣٨٥ مادة: وهق).

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار.

ويقال: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾.

الملائكة تنزل بالحرام والحلال.

ويقال: جبريل بالوحي، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات، وإسرافيل بالصُّور، ومَلَكُ الموت يَقْبِضِ الأرواح.. عليهم السلام.

وجوابُ القَسم قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾.

تتحرك الأرضُ حركةً شديدة.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾.

النفخة الأولى في الصُّور. وقيل: الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.

خائفة.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾.

أي إلى أول أمرنا وحالنا، يعني أئِذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشي على الأرض بأقدامنا)؟. قالوه على جهة الاستبعاد.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾.

أي بالية.

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

رَجْعَةٌ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

جاء في التفسير إنها أرض المحشر، ويقال: إنها أرضٌ بيضاء لم يُعْصَ الله فيها.

ويقال: ﴿**الساهرة**﴾ نَفْخَةُ الصُّور تذهب بنومهم وتسهرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

أي الأرض المطهرة المباركة. ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي هناك.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾.

قلنا له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، فقل له: هل يقع لك أَنْ تؤمِنَ وتتطهر من ذنوبك.

وفي التفسير: لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول، وشبابك لا يهرم، وتعيش أربعمائة سنةٍ في السرورة والنعمة.. ثم لك الجنة في الآخرة.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

أُقَرِّرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول، وأعرفك صحة الدين.. فهل لك ذلك؟ فلم يَقْبَلْ.

ويقال: أظهر له كل هذا التلطُّفَ ولكنه في خَفِيِّ سِرِّه وواجبِ مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبَه عن إرادة هذه الأشياء، وإيثار مرادِه على مراد ربِّه، وألقى في قلبه الامتناعَ، وتَرْكَ قبولِ النُّصح.. وأيُّ قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ؟ وأيُّ كَبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

جاء في التفسير: هي إخراجُ يده بيضاءَ لها شعاعٌ كشعاع الشمس. فقال فرعون: حتى أشاوِرَ هامانَ، فشاوَرَه، فقال له هامان: أبعد ما كُنتَ ربًّا تكون مربوباً؟! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك، وعَصَى، وجَمَعَ السَّحَرَة، ونادى[1]:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ويقال: إنَّ إبليس لمَّا سَمِع هذا الخطابَ فرَّ وقال: لا أطيق هذا!

ويقال قال: أنا ادَّعَيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت.. وهذا يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

أي في إهلاكنا فرعون لَعِبْرَةً لمن يخشى.

قوله جلّ ذكره: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ جعلها مستوية. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلم ليلها. ﴿ضُحَىٰهَا﴾ ضوؤها ونهارها. ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بَسَطَها ومدَّها[3].

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

---

(١) الآيات من (٢١ ـ ٢٣) لم ترد.
(٢) الآية (٢٥) لم ترد.
(٣) الآية: (٣٠) لم ترد.

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء، وأخرج النبات..

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾.

أثبتها أوتاداً للأرض.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

أي أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع، وكذلك لأنعامِكم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

الداهية العُظمى.. وهي القيامة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾.

وبرزت الجحيم لمن يرى، فأمّا من طغى وكَفَرَ وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له المأوى والمُسْتَقَرُ والمثوى[1].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: وقوفه غداً في محل الحساب. ويقال: إقبالُ الله عليه وأنّه راءٍ له.. وهذا عينُ المراقبة، والآخر محلُّ المحاسبة.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي لم يتابع هواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

أي متى تقوم؟

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾.

مِنْ أين لك عِلْمُها ولم نعلمك ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

أي إنما يعلم ذلك ربُّكَ.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

أي تخوِّف، فيقبل تخويفَك مَنْ يخشاها ويؤمن.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

كأنهم يومَ يَرَوْن القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ فلشدة ما يرون تقل عندهم كثرةُ ما لبثوا تحت الأرض.

---

(١) الآيات من (٣٦ ـ ٣٩) لم ترد.

سورة عبس

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده، اسم عزيز انسدَّ على الأولين والآخرين طريقُ وُجُودِه.. وأنَّى بذلك ولا حَدَّ له؟ مَنْ الذي يدركه بالزمانِ والزمانُ خَلْقُه؟ ومن الذي يحسبه في المكانِ والمكانُ فِعْلُه؟ ومَنْ الذي يعرفه ـ إلّا وبه يعرفه؟ ومَنْ الذي يَذْكُره ـ إلا وبه يذكره؟

قوله جلّ ذكره: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾.

نَزَلَت في ابن أمِّ مكتوم[1]، وكان ضريراً.. أتى النبيَّ ﷺ وكان عنده العباس بن عبد المطلب[2] وأمية بن خلف الجُمَحي[3] ـ يرجو الرسولُ ﷺ إيمانَهما، فَكَرِه أَنْ يَقْطَعَ حديثَه معهما، فأعرض عن ابن أمِّ مكتوم، وعَبَسَ وَجْهُه، فأنزل اللَّهُ هذه الآية.

وجاء في التفسير: أن النبيَّ ﷺ خرج على أثرِه، وأَمَرَ بطلبِه، وكان بعد ذلك يَبَرُّه ويُكْرِمُه، فاستخلفه على المدينة مرتين.

---

(١) هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (... ـ ٢٣ هـ = ... ـ ٦٤٣ م) ابن أم مكتوم، صحابي شجاع كان ضرير البصر. أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في المدينة، مع بلال، وكان النبي يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس، في عامة غزواته وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة، فتوفي فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب.
الأعلام ٥/ ٨٣، وابن سعد ٤/ ١٥٣، وصفة الصفوة ١/ ٢٣٧.

(٢) هو العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (٥١ ق هـ ـ ٣٢هـ = ٥٧٣ ـ ٦٥٣م) أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجدّ الخلفاء العباسيين، وهو عم النبي ﷺ كان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، اشترى ٧٠ عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين. ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، كانت وفاته في المدينة، وله في كتب الحديث ٣٥ حديثاً.
الأعلام ٣/ ٢٦٢، ونكت الهميان ١٧٥، وصفة الصفوة ١/ ٢٠٣، وذيل المذيل ١٠.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٢/ ٢٢، وسيرة ابن هشام ٢/ ٥٢، والكامل لابن الأثير ٢/ ٤٨ وعيون الأثر ١/ ٢٥٩.

وجاء في التفسير: أنه ﷺ لم يَعْبَسْ ـ بعد هذا ـ في وجهِ فقيرٍ قط، ولم يُعْرِضْ عنه.

ويقال: في الخطاب لُطْفٌ... وهو أنه لم يواجهه بل قالَه على الكنايةِ، ثم بعده قال:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

أي يتذكر بما يتعلم منك أو.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾.

أمّا مَنْ استغنى عن نَفْسِه فإنه استغنى عن الله.

ويقال: استغنى بما له فأنت له تصدّى، أي تُقْبِلُ عليه بوجهك.

﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ فأنت لا تُؤَاخَذُ بألا يتزكّى هو فإنما عليكَ البلاغ.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾.

لطَلَبِ العِلْم، ويخشى الله فأنت عنه تَتَلَهّى، وتتشاغل... وهذا كله مِنْ قبيلِ العتاب معه لأَجْلِ الفقراء[٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

القرآن تذكرة؛ فَمَنْ شاء الله أن يَذْكُرَه ذَكُرَه، ومَنْ شاء الله ألا يَذْكُرَه لم يُذَكِّرْه؛ أي بذلك جرى القضاءُ، فلا يكون إلا ما شاء اللّهُ.

ويقال: الكلامُ على جهة التهديد؛ ومعناه: فَمَنْ أراد أن يذكره فليذكره، ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره! كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ ولم يقل «ذَكَرَها» لأنه أراد به القرآن.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾.

أي صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك، وفي اللوح المحفوظ.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾.

مرفوعة في القَدْر والرتبة، مطهرة من التناقض والكذب.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾.

أي: الملائكة الكَتَبَة.

---

(١) الآيتان (٩، ١٠) لم تردا.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

كرامٍ عند الله بَرَرَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.

لُعِنَ الإنسان ما أعظم كُفْره!.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾.

خَلَقَه وصَوَّرَه وقَدَّره أطواراً: من نطفةٍ، ثم عَلَقَةٍ، ثم طوراً بعد طور.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.

يَسَّرَ عليه السبيلَ في الخير والشرّ، وألهمه كيف التصرُّف.

ويقال: يَسَّرَ عليه الخروجَ من بطن أُمِّه يخرج أولاً رأسه منكوساً.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾.

أي: جعل له قَبْراً لئلا تفترِسَه السِّباعُ والطيورُ ولئلا يفتضح.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾.

بَعَثَه من قبره.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾.

أي: عصى وخالَفَ ما أُمِرَ به.

ويقال: لم يقضِ الله له ما أمره به، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَا عصاه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾.

في الإشارة: صَبَبْنا ماءَ الرحمةِ على القلوب القاسية فَلانَتْ للتوبة، وصببنا ماءَ التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد.

﴿وَقَضْبًا﴾ أي القَتّ[1].

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ متكاثفةً غلاظاً.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾.

الفاكهة: جمع الفواكه، و ﴿وَأَبًّا﴾: المرعى.

﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ...﴾.

---

(١) القَتّ: الفصفصة، وخص بعضهم به اليابسة منها، وقيل: الفسفسة، ويكون رطباً ويكون يابساً. (لسان ٢/ ٧١ مادة: قتت).

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي: القيامة؛ فيومئذٍ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، ثم بيَّن ما سبب ذلك فقال[1].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

لا يتفرَّغ إلى ذاك، ولا ذاك إلى هذه. كذلك قالوا: الاستقامةُ أَنْ تشهدَ الوقتَ قيامةً، فما من وليٍّ ولا عارفٍ إلّا وهو ـ اليومَ ـ بقلبه يَفِرُّ من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.

فالعارفُ مع الخَلْق ولكنه يُفَارقهم بقلبه ـ قالوا:

فلقد جعلتك في الفؤادِ مُحَدِّثي وأَبَحْتُ جسمي مَنْ أراد جلوسي

قوله جلّ ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.

وسببُ استبشارهم مختلفٌ؛ فمنهم مَنْ استبشاره لوصوله إلى جنّته، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته.. ومنهم ومنهم، وبعضهم لأنه نظر إلى ربِّه فرآه.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

وهي غَبَرةُ الفُسّاق. ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾. وهي ذُلُّ الحجاب.

---

(١) الآيات من (٣٤ ـ ٣٦) لم ترد.

سورة التَّكْوِير

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ أَثْلَجَتْ من قومٍ قلوباً، وأوهجت من آخرين قلوباً؛ من المطيعين أَثْلَجَتْها، ومن العاصين أَوْهَجَتْها، ومَن المريدين أبهجتها، ومن العارفين أزعجتها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

ذَهَبَ ضَوْؤُها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾.

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.

أُزِيلَتْ عنها مناكبُها.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾.

وهي النُّوق الحواملُ التي أتى حَمْلُها عَشَرَةَ أشهر... أهملت في ذلك اليوم لشدة أهواله، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها).

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

أُخْيِيَتْ، وجُمِعَتْ في القيامة لِيُقْتَصَّ لبعضها من بعض؛ فيقتصّ للجّماء[1] من القَرْناء ـ وهذا على جهة ضَرْبِ المثل؛ إذ لا تكليف عليها.

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم ـ اليومَ ـ على العِوَضِ... جوازاً لا وجوباً على ما قالَه أهلُ البِدَع.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

أُوقدت ـ مِنْ سَجَرْتُ التنور أَسْجُرُه سَجْراً، أي: أَحْمَيْتُه.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

بالأزواج.

---

(١) شاة جمّاء: إذا لم تكن ذات قرن بيّنة الجمم. (اللسان ١٢/١٠٨ مادة: جمم).

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾.

نُشِرَتْ، أي: بُسِطَت.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾.

أي: نُزِعَتْ وطُوِيَتْ.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

أُوقِدَت.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

أي: قُرِّبَتْ من المتقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

هو جوابٌ لهذه الأشياء، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة.

وفي قيام هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم، وتجلّي هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء.

فمن اختلاف أحوالهم: أنَّ لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما يُرَدُّون.

ونجومُ علومِهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريدين في بعض الأحوال، فعند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾.

أي: أُقْسِمُ، والخُنَّس والكُنَّس هي النجوم إذا غربت.

ويقال: البقر الوحشي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾.

عسعس: أي جاءَ وأقبل. ﴿تَنَفَّسَ﴾: خرج من جوف الليلِ.

أقسم بهذه الأشياء، وجواب القسم:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

إن هذا القرآنَ لقولُ رسولٍ كريمٍ، يعني به جبريل عليه السلام.

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

﴿مَكِينٍ﴾ من المكانة، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آلِ لوطٍ وقلَبَها[1].

---

(١) الآية (٢١) لم ترد.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾.

وهذا أيضاً من جواب القَسَم.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾.

رأى محمدٌ جبريلَ عليه السلام بالأفق المبين ليلةَ المعراج.

ويقال: رأى ربَّه وكان ﷺ بالأفق المبين.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

بمُتَّهَم[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

إلى متى تتطوحون في أودية الظنون والحسبان؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة؟

وهلّا رجعتم إلى مولاكم فيما سرَّكم أو أساءكم؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

ما هذا القرآن إلّا ذكرى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾... وقد مضى القولُ في الاستقامة.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

أنْ يشاؤوا.

(١) الآية (٢٥) لم ترد.

سورة الانفِطَار

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ منيعةٌ ليس يسمو إلى فَهمها كلُّ خاطر؛ فإذا كان الخاطِرُ غيرَ عاطرٍ فهو عن عِلْمِ حقيقتها مُتقاصِر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾.

أي: انشقت.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾.

تساقطت وتهافتت.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾.

أي: فُتِحَ بعضها على بعض.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾.

أي: قُلِبَ ترابُها، وبُعِثَ الموتى الذين فيها، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

جوابٌ لهذه الأمور؛ أي إذا كانت هذه الأشياء: عَلِمَتْ كلُّ نَفْس ما قدَّمت من خيرها وشرِّها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.

أي: ما خَدعَكَ وما سَوَّلَ لكَ حتى عَمِلْتَ بمعاصيه؟

ويقال: سَأَلَه وكأنما في نَفْسِ السؤال لقَّنَه الجوابَ يقول: غرَّني كَرَمُكَ بي، ولولا كَرَمُكَ لَمَا فَعَلْتُ؛ لأنك رأيتَ فَسَتَرْتَ، وقدَرْتَ فأَمْهَلْتَ.

ويقال: إن المؤمِنَ وثِقَ بِحُسْن إفضالِه فاغترَّ بطولِ إمهالِهِ فلم يرتكبْ الزلَّة لاستحلاله، ولكنَّ طولَ حِلمه عنه حَمَله على سوء خصالِه، وكما قلت:

يقول مولاي: أمَا تستحي ... مما أرى من سوء أفعالِكَ

قلت: يا مولاي رفقاً فقد ... جرَّأني كثرةُ أفضالِك

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

أي: ركَّبَ أعضاءَكَ على الوجوه الحكميَّة ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ﴾، من الحُسْنِ والقُبْح، والطولِ والقِصَر. ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصِّفَة، و «في» بمعنى «على»؛ فيكون معناه: على أي صفة شاء ركَّبَكَ؛ من السعادة أو الشقاوة، والإيمان أو المعصية...

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

أي: القيامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال. وقد خوَّفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر حشمتهم من اطِّلاع الحق، ولو علموا ذلك حقَّ العلم لَكانَ تَوقِّيهم عن المخالفاتِ لرؤيته ـ سبحانه، واستحياؤهم من اطّلاعه ـ أتَمَّ من رُؤية الملائكة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: هم المؤمنون؛ اليومَ في نعمة العصمة، وغداً هم في الكرامة والنعمة ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾: اليومَ في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشِّرْكِ الموجِبِ للفُرقة، وغداً في النارِ على وجه التخليد والتأبيد.

ويقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾. في رَوْحِ الذِّكْر، وفي الأُنْسِ في أوان خَلْوَتهم.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾. في ضيق قلوبهم وتَسَخُّطِهم على التقدير، وفي ظُلُمات تدبيرهم، وضيق اختيارهم.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي النار. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا﴾ عن النار. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ قالها على جهة التهويل[1].

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

الأمر لله يومئذٍ، ولله من قبله ومن بعده، ولكن ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنقطع الدعاوَى، إذ يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية.

(١) الآية (١٨) لم ترد.

سورة المُطَفِّفِين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه، وسناؤه علاؤه، وعلاؤه بهاؤه، وجلالُه جمالُه، وجمالُه جلالُه. الوجودُ له غيرُ مُسْتَفْتَح، والموجودُ منه غيرُ مُسْتَقْبَح. المعهودُ منه لُطْفُه، المأمولُ منه لُطْفه. . . كيفما قَسَمَ للعبدِ فالعبدُ عَبْدُه؛ إنْ أقصاه فالحُكْمُ حكمه، وإنْ أدناه فالأمر أمرُه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: الويلُ كلمةٌ تُذْكَر عند وقوع البلاء، فيقال: ويلٌ لك، وويلٌ عليك! و «المطفِّف»، الذي يُنْقِصُ الكيْلَ والوزنَ، وأراد بهذا الذين يعامِلون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلّى ذلك في: الوزن والكيْلِ، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والاقتضاء؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه فليس بمنصف. وأمّا الصِّدِّيقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكلِّ مَنْ لهم معهم معاملة ـ والصدقُ عزيزٌ، وكذلك أحوالهم في الصُّحْبَةِ والمعاشرة. . . فالذي يرى عَيْبَ الناسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو من هذه الجملة ـ جملة المطففين ـ كما قيل:

وتُبْصِرُ في العينِ منِّي القَذَى[1] وفي عينِكَ الجِذْعَ لا تُبْصِرُ

ومَنْ اقتضى حقَّ نَفْسه ـ دون أن يَقْضِيَ حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه ـ فهو من جملة المطففين.

والفتى مَنْ يقضي حقوق الناس ولا يقتضي من أحدٍ لنفسه حقًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ؟ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحَاسَبون غداً، وأنهم مُطَالَبون بحقوق الناس؟.

ويقال: مَنْ لم يَذْكُرْ ـ في حال معاملةِ الناسِ ـ معاينة القيامة ومحاسبتها فهو في خسرانٍ في معاملته.

---

(١) القذى: ما يتكوّن في العين من رمص وغمص وغيرهما.

ويقال: مَنْ كان صاحبَ مراقبة لله ربِّ العالَمين استشعر الهيبةَ في عاجلِهِ، كما يكون حالُ الناسِ في المحشر؛ لأنَّ اطلاعَ الحقِّ اليومَ كاطلاعه غداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ؟ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾.

﴿سِجِّينٍ﴾ قيل: هي الأرض السابعة، وهي الأرض السفلى، يُوضَع كتابُ أعمالِ الكفار هنالك إذلالاً لهم وإهانة، ثم تُحْمَلُ أرواحُهم إلى ما هنالك.

ويقال: «السِّجين» جُبٌّ في جهنم. وقيل: صخرةٌ في الأرض السفلى، وفي اللغة السِّجين: فعيلٌ من السجن.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾. استفهامٌ على جهة التهويل.

﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾. أي مكتوب؛ كَتَبَ اللَّهُ فيه ما هم عاملون، وما هم إليه صائرون. وإنما المكتوبُ على بني آدم في الخير والشر، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلَّق به علمه وإرادته، وإنما أخبر على الوجه الذي علم أن يكون أو لا يكون، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون. ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خَلْقِه إلَّا مَنْ شاءَ من المقربين بالقَدْرِ الذي أراده؛ فإنه يُجْرِي عليهم في دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التقدير.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

ويلٌ للذين لا يُصَدِّقون بيوم الدين، وما يُكذِّبُ به إلا كل مُجَاوِزٍ للحَدِّ الذي وُضِعَ له؛ إذا يُتْلَى عليه القرآن كَفَرَ به[1].

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

أي: غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصي... وكما أنهم ـ اليومَ ـ ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته. ودليلُ الخطابِ يوجِبُ أن يكونَ المؤمنون يَرَوْنَه غداً كما يعرفونه اليوم[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

﴿عِلِّيِّينَ﴾ أعلى الأمكنة، تحمل إليه أرواح الأبرار تشريفاً لهم وإجلالاً.

ويقال: إنها سِدْرة المنتهى[3]. ويقال: فوق السماء السابعة. كتابٌ مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون من الملائكة[4].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

---

(١) الآية (١٣) لم ترد.
(٢) الآيتان (١٦، ١٧) لم تردا.
(٣) سدرة المنتهى: شجرة في الجنة.
(٤) الآيات (١٩، ٢٠، ٢١) لم ترد.

اليومَ وغداً: ٱليومَ في رَوْح العرفان، وراحةِ الطاعة والإحسان، ونعمةِ الرضا وأُنسِ القُربة وبَسْطِ الوصلة. وغداً ـ في الجنة وما وُعِدوا به من فنون الزلفة والقربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

أثبَتَ النظرَ ولم يُبيِّنْ المنظور إليه لاختلافهم في أحوالهم؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره. ومنهم من ينظر إلى حُورِه، ومنهم ومنهم... ومنهم الخواصُّ فهم على دوامِ الأوقات إلى الله ـ سبحانه ـ يَنظُرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

مَنْ نظر إليهم عَلِمَ أنَّ أثرَ نَظَرِه إلى مولاه ما يلوح على وجه من النعيم؛ فأحوال المحبِّ شهودٌ عليه أبداً. فإنْ كان الوقتُ وقتَ وصالٍ فاختيالُه ودلالُه، وسرورُه وحبورُه، ونشاطُه وانبساطُه. وإنْ كان الوقتُ وقتَ غيبةٍ وفراق فالشهودُ عليه نحولُه وذبولُه، وحنينُه وأنينُه، ودموعُه وهجوعُه... وفي معناه قلت:

يا مَنْ تَغَيُّرُ صورتي لَمَّا بدا ـ لجميع ما ظنوا بنا ـ تحقيقُ

وقلت:

ولمَّا أتى الواشين أنّي زُرْتُها جَحَدْتُ حذاراً أنْ تَشِيعَ السرائرُ
فقالوا: نرى في وجهِك اليومَ نضرةً كَسَتْ مُحيَّاك[1].. وهاذاك ظاهِرُ!
وبُرْدُكَ لا ذاكَ الذي كان قبلَه به طِيبُ نَشْرٍ لم تُشِعْهُ المجامِرُ
فما كان منّي من بيانٍ أُقيمه وهيهات أن يخفي مُريبٌ مساتِرُ!

قوله جلّ ذكره: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي رحيقٌ لا غِشَّ فيه.

ويقال: عتيقٌ طَيِّبٌ.

ويقال: إنهم يشربون شراباً آخره مِسْكٌ.

ويقال: بل هو مختومٌ قبل حضورهم.

ويقال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. ممنوعٌ من كلِّ أحدٍ، مُعَدٌّ مُدَّخَرٌ لكلِّ أحدٍ باسمه.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾. وتنافُسُهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة، والسباقُ إلى القُرْب، وتعْليقُ القلبِ بالله، والانسلاخُ عن الأخلاقِ الدَّنِيَّة، وجَوَلانُ الهِمَمِ في الملكوت، واستدامةُ المناجاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

---

(١) المُحَيا: جماعة الوجه أو حُرُه، يقال: فلان طلق المحيا؛ أي: بشوش الوجه.

﴿تَسۡنِيمٍ﴾: أي: عينٌ تسَنَّمُ عليهم من عُلُوّ.

وقيل: ميزابٌ يَنْصَبُّ عليهم من فوقهم.

ويقال: سُمِّي تسنيماً؛ لأن ماءَه يجري في الهواء مُتَسَنِّماً فينصبُّ في أواني أهل الجنة؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجاً، ومنهم مَنْ يُسْقى صِرْفاً... الأولياء يُسْقَون مزجاً، والخواصُ يُسْقَون صِرْفاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾.

كانوا[1] يضحكون استهزاءً بهم ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾!

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

﴿هَلۡ...﴾ استفهام يراد منه التقرير.

ويقال: إذا رأوا أهلَ النارَ في النار يُعذَّبون لا تأخذهم بهم رأفة، ولا تَرِقُّ لهم قلوبُهم، بل يضحكون ويستهزئون ويُعَيِّرونهم.

---

(١) الآيات (٣١ ـ ٣٣) لم ترد.

سورة الانشقاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال، وجماله لا على احتذاء أمثال، وأفعالُه لا بأغراضٍ وأعلال، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال، فهو الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه فناءٌ ولا زوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾.

﴿انشَقَّتْ﴾: انصدعت.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

أي قابَلَتْ أمرَ ربِّها بالسمع والطاعة... وحقَّ لها أن تفعل ذلك.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾.

بُسِطَتْ باندكاكِ آكامها وجبالِها حتى صارت ملساء، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلَّت عنها... وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة[1].

وجواب هذه الأشياء في قوله: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ أي يَلْقى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾: يأيها المُكلَّفُ... إنك ساعٍ بما لَكَ سَعْياً ستلقى جزاءه؛ بالخير خيراً وبالشَّرِّ شرًا.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾.

وهو المؤمن المحسن.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾

أي حساباً لا مَشَقَّة فيه. ويقال: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي يُسْمِعُه كلامَه ـ سبحانه ـ بلا واسطة، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابِه ما في الحساب من عناءٍ.

ويقال: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾: لا يُذَكِّرُه ذنوبَه. ويقال: يقول: ألم أفعل كذا؟ وألم أفعل كذا؟ يعُدُّ عليه إحسانَه... ولا يقول: ألم تفعل كذا؟ لا يُذَكِّرُه عصيانَه.

---

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ .

أي بالنجاة والدرجات، وما وَجَدَ من المناجاة، وقبول الطاعات، وغفران الزّلات.

ويقال: بأن يُشفِّعَه فيمن يتعلّق به قلبُه. ويقال: بألا يفضحه.

ويقال: بأن يَلْقى ربَّه ويُكَلِّمَه قبل أَنْ يُدْخِلَه الجنة فيَلْقى حَظِيَّتَه من الحورِ العين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ .

وهو الكافر.

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ .

أي وَيْلاً.

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ .

جهنم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ .

من البَطَرِ والمدح.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ .

أنه لن يرجعَ إلينا، ولن يُبْعَثَ[1].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ .

بالحُمْرَةِ التي تعقب غروبَ الشمس.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ .

وما جَمَعَ وضمّ.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ .

تَمّ واستوى واجتمع.

ويقال: الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم، وأُذيقوا الفراقَ في بعض أحوالهم، وذلك زمانُ قبضٍ بعد بَسْطٍ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبَ جَمْعٍ[2]. ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾: ليالي غيبتهم وهم بوصف الاستياقِ؛ أو ليالي وصالهم وهم في روح التلاقي، أو ليالي طَلَبِهم وهم بنعتِ القَلَبِ والاحتراقِ.

---

(١) الآية (١٥) لم ترد.

(٢) انظر حديث القشيري (عن الجمع والفرق) في رسالته ص٦٤ ـ ٦٧.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: إذا ظَهرَ سلطانُ العرفان على القلوب فلا بَخْسَ ولا نُقْصان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

أي حالاً بعد حال. وقيل: من أطباق السماء. ويقال: شِدَّةً بعد شدَّة.

ويقال: تاراتُ الإنسانِ طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً.

ويقال: طالباً ثم واصلاً ثم مُتَّصِلاً.

ويقال: حالاً بعد حالٍ، من الفقر والغِنَى، والصحة والسَقَم.

ويقال: حالاً بعد حالٍ في الآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟﴾.

أي فما الكُفَّارِ أُمَّتِكَ لا يُصَدِّقون... وقد ظهرت البراهين؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾.

﴿يُوعُونَ﴾ أي تنطوي عليه قلوبُهم ـ من أَوْعَيْتُ المتاعَ في الظَّرْفِ أي جعلته فيه.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم ليسوا منهم، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع.

سورة البُرُوج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمُ مَنْ لا عقل يَكْتَنِهُه، اسمُ مَنْ لا مِثْلَ يُشْبِهُه، اسمُ من لا فَهْمَ[1] يرتقي إليه بالتصوير، اسمُ مَنْ لا علمَ ينتهي إليه بالتقدير، اسمُ مَنْ لم يَرَه بَصَرٌ إلّا واحدٌ ـ وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه، اسمُ مَنْ لا يَجْسُرُ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ بغير ما إِذْنٍ فيه، اسمُ مَنْ لا قُطْرَ يحويه، ولا سِرَّ يُخفيه، ولا أحدَ يصل إلى معرفته إلّا مَنْ يرتضيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾.

أراد البروج الاثني عشر[2].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾.

يوم القيامة.

وجوابُ القَسَمِ قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.

يقال: الشاهدُ اللّهُ، والمشهودُ الخَلْقُ.

ويقال: الشاهدُ الخَلْقُ، والمشهودُ اللّهُ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم، وغداً بأبصارهم.

ويقال: الشاهدُ محمدٌ ﷺ، والمشهودُ القيامة، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال في القيامة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: الشاهد يومُ الجمعة، والمشهود يومُ عَرَفة[3].

---

(١) ربما كانت: لا وهم أو لا خيال. فمن أقوال ذي النون المصري: وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصوّر في خيالك فالله بخلاف ذلك. (الرسالة القشيرية ص٤٣).

(٢) قيل: ذات الكواكب؛ وقيل: ذات القصور في السماء، وقيل: هي النجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً، وقالوا: هي القصور في السماء، والله أعلم بما أراد. (اللسان ٢/ ٢١٢ مادة: برج).

(٣) يوم عرفة: عرفة: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة ويوم عرفة غير منون ولا تدخله الألف واللام.

ويقال: الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتب العمل، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه، وأعضاؤه تشهد عليه؛ فهو شاهد وهو مشهود.

ويقال: الشاهدُ يومُ القيامة، والمشهودُ الناس.

ويقال: المشهودُ هم الأمة لأنه ﷺ يشهد لهم وعليهم.

ويقال: الشاهدُ هذه الأمة، والمشهودُ سائر الأمم.

ويقال: الشاهدُ الحجرُ الأسود[1] لأنَّ فيه كتابَ العهد.

ويقال: الشاهدُ جميعُ الخَلْق؛ يشهدون لله بالوحدانية، والمشهود الله.

ويقال: الشاهدُ الله؛ شهد لنفسه بالوحدانية، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾.

أي لُعِنوا. والأخدودُ: الحُفرةُ في الأرض إذا كانت مستطيلةً، وقصتهم في التفسير معلومة و «الوقود» الحطب.

وهم أقوامٌ كتموا إيمانَهم فلمّا عَلِمَ مَلِكُهم بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة، وألقاهم فيها. وآخِرُ مَنْ دَخَلَها امرأةٌ كان معها رضيعٌ، وهَمَّت أن ترجع، فقال لها الولد: قِفي واصبري... فأنت على الحقِّ.

وألقوها في النار، واقتحمتها، وبينا كان أصحابُ الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النارُ من الأخدود وأحرقتهم جميعاً، ونجا من كان في النار من المؤمنين وسَلِموا[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما غَضبوا منهم إلّا لإيمانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

أي أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: نوعٌ من العذاب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: نوع آخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

---

(١) الحجر الأسود: حجر في الكعبة يستلمه الحُجّاج عند طوافهم. يُقال: ما بيدك غير الحجر ويُكنى به عن الحرمان والخيبة.

(٢) الآيتان (٦، ٧) لم تردا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾: النجاة العظيمة.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

البطشُ الأخذ بالشدة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

يُبدىءُ الخَلْق ثم يُعيدُهم بعد البعث.

ويقال: يبدىء بالعذاب ثم يُعيد، وبالثواب ثم يُعيد.

ويقال: يبدىء على حُكْم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه، ويبدىء على الضعف ويعيدهم إلى الضعف.

ويقال: يبدي الأحوال السَّنيَّة فإذا وقعت حجبة يعيد ثانية.

ويقال: يبدي بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه، فإذا نَقَضَ توبتَه فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله.

ويقال: يبدي لطائفَ تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً، فلا يزال يبدي ويعيد إلى آخر العمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

«الغفور» كثيرُ المغفرة، «الودود» مبالغة من الوَادِّ، ويكون بمعنى المودود؛ فهو يغفر له كثيراً لأنه يَوَدُّهم، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودُّونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾.

ذو المُلْكِ الرفيع، والمَجْد الشريف.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

لأنه مالِكٌ على الإطلاق؛ فلا حَجْر عليه ولا حَظْرَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾.

الجموع من الكفار.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾.

وقد تقدم ذكر شأنهما.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني مُشركي مكة؛ ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ للبعث والنشر.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾.

عالمٌ بهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ مكتوبٌ فيه. وجاء في التفسير: أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء، دِفَّتَاه[1] من ياقوتة حمراء عَرْضُها بين السماء والأرض، وأعلاه متعلّقٌ بالعرش، وأسفله في حِجْرِ مَلَكٍ كريم.

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فهو في اللوح مكتوبٌ، وفي القلوبِ محفوظٌ.

(١) الدفة من كل شيء: جنبه أو صفحته.

سورة الطارِق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وَفَّقه لعرفانه، ثم زيَّنَه بإحسانه، ثم استخلصه بامتنانه؛ فعَصَمَه من عِصيانه، وقام بحسن التولِّي ـ في جميع أحواله ـ بشأنِه، ثم قَبَضَه على إيمانه، ثم بَوَّأَه في جنانه، وأكرمه برضوانه، ثم أكمل عليه نِعْمتَه برؤيته وعيانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

أقسم بالسماءِ، وبالنجمِ الذي يَطْرُق ليلاً.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾.

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم.

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾.

المضيءُ العالي. وقيل: الذي ترمى به الشياطين.

ويقال: هي نجوم المعرفة التي تدل على التوحيد يستضيءُ بنورها ويهتدي بها أولو البصائر.

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾.

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حافِظٌ من الملائكة، يحفظ عليه عملَه ورزقَه وأجلَه، ويحمله على دوامِ التيقُّظ وجميلِ التحفُّظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾.

يخرج من صُلْبِ الأب، وتربيةِ الأم.

وهو بذلك يحثُّه على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته ـ سبحانه.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾.

إنه على بَعْثِه، وخَلْقِه مرةً أخرى لقادِرٌ؛ لأنه قادر على الكمال ـ والقدرةُ على الشيءِ تقتضي القدرةَ على مِثْلِه، والإعادةُ في معنى الابتداء.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ .

يوم تُمْتَحنُ الضمائر .

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ .

أي ما لهذا الإنسان ـ يومئذٍ ـ من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ .

أي المطر .

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ .

«الصدع» : الانشقاقُ بالنباتِ للزرع والشجر .

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ .

أي : إن القرآن لقولٌ جَزْمٌ .

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ .

الهزل ضد الجِدّ ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِب .

قوله جلّ ذكره : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ .

أي يحتالون حيلةً .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ .

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحْكِمُ فِعْلاً ونُبْرِمُ خَلْقاً ، ونجازيهم على كيدهم ، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ .

أي أَنظِرهم ، وأمهِلهم قليلاً ، وأزوِدْهم رويداً .

سورة الأعلى

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَه وَجَدَه، ومَنْ استسعفه حَمِدَه. مَنْ طَلَبَهَ عَرَفَه، ومَنْ عَرَفَه لاطَفَه، فإذا وَجَدَ لُطْفَه أَلِفَه، وإذا أَلِفَه أَنِف أنْ يخَالِفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾.

أي سَبِّحْ ربَّك بمعرفة أسمائه، واسبح بسِرِّك في بحار علائه، واستخرِجْ من جواهر عُلوِّه وسنائه ما ترصِّعُ به عِقْدَ مَدْحِه وثنائه.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

خَلق كلَّ ذي روحٍ فسوَّى أجزاءَه، وركَّبَ أعضاءَه على ما خَصّه به من النظم العجيب والتركيب البديع.

﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

أي قدَّر ما خَلَقَه، فجَعَلَه على مقدار ما أراده، وهدى كلَّ حيوانٍ إلى ما فيه رشده من المنافع، فيأخذ ما يُصْلِحه ويترك ما يضره ـ بحُكم الإلهام.

ويقال: هَدَى قلوبَ الغافلين إلى طلب الدنيا فعمروها، وهدى قلوبَ العابدين إلى طلب العقبى فآثروها، وهدى قلوبَ الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها، وهدى قلوبَ العلماءِ إلى النظر في آياته والاستدلال بمصنوعاته فعرفوا تلك الآيات ولازموها.

وهدى قلوبَ المريدين إلى عِزِّ وَصْفِه فآثروه، واستفرغوا جُهْدَهم فطلبوه، وهدى العارفين إلى قُدْس نعتِه فراقبوه ثم شاهدوه، وهدى الموحِّدين إلى علاء سلطانه في توحد كبريائه فتركوا ما سواه وهجروه، وخرجوا عن كلِّ مألوفٍ لهم ومعهود حتى قصدوه. فلمّا ارتقوا عن حدِّ البرهان ثم عن حدِّ البيان ثم عمَّا كالعيان عَلِموا أنَّه عزيزٌ، وأنَّه وراءَ كلِّ فَصْلٍ ووَصْلٍ، فرجعوا إلى موطنِ العَجْزِ فتوسَّدوه.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾.

أي النبات.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾.

جعله هشيماً[1] كالغثاء، وهو الذي يقذفه السيل. و «أحوى» أسود.

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

سنجمع القرآن في قلبك ـ يا محمد ـ حِفْظاً حتى لا تنسى لأنا نحفظه عليك.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾.

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه.

وهو ـ سبحانه ـ يعلم السِّرَّ والعَلَن[2].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

والذِّكرى تنفع لا محالة، ولكنْ لِمَنْ وَفَّقَه اللَّهُ للاتعاظِ بها، أمّا مَنْ كان المعلومُ من حاله الكفرَ والإعراضَ فهو كما قيل:

وما انتافعُ أخي الدنيا بِمُقْلَتِهِ إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾.

الذي يخشى الله ويخشى عقوبته.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

أي يتجنَّبُ الذِّكْرَ الأشقى الذي يَصْلَى النارَ الكبرى، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه، ولا يحيا حياةً تَلَذُّ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوبِ والعيوبِ، ومشاهدة الخَلْقِ وأدَّى الزكاة ـ وَجَدَ النجاة، والظَّفَرَ بالبُغْيَة، والفوزَ بالطِّلبة.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

ذَكَرَ اسمَ ربِّه في صلاته. ويقال: ذَكَره بالوحدانية وصَلَّى له.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

تميلون إليها؛ فتُقَدِّمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

والآخرة للمؤمنين خيرٌ وأبقَى ـ من الدنيا ـ لطُلّابها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

إن هذا الوعظَ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما؛ لأنَّ التوحيدَ، والوعدَ والوعيدَ. . . لا تختلف باختلاف الشرائع.

---

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر. أو المتكسر من كل شيء.

(٢) الآية (٨) لم ترد.

سورة الغَاشِيَة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ من سمعها وفي قلبه عرفانُه تلألأت أنوارُ قلبه، وتَفَرَّقَتْ أنواعُ كُرَبِه، وتضاعَفَتْ في جماله طوارقُ حُبِّه، وتحيَّرت في جلالِهِ شوارقُ لُبِّه.

كلمةٌ مَنْ عَرَفَها ـ وفي قلبه إيمانُه ـ أَحَبَّها من داخل الفؤاد، وهَجَرَ ـ في طَلَبِها ـ الرُّقاد، وتَرَكَ ـ لأَجْلِها ـ كلَّ همٍّ ومراد.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾.

«الغاشية» المُجَلِّلَةُ، يريد بها القيامة تَغْشَى الخَلْقَ، تَغْشَى وجوهَ الكفَّار.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾.

وجوهٌ ـ إذا جاءت القيامة ـ خاشعة أي ذليلة. عاملة ناصبة: النَّصَب التعب.

جاء في التفسير: أنهم يُجَرُّون على وجوههم.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ تلزم ناراً شديدة الحرِّ.

ويقال: «عاملة» في الدنيا بالمعاصي، «ناصبة» في الآخرة بالعذاب.

ويقال: «ناصبة» في الدنيا «عاملة» لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان، وفي معناه عملُ أهل النفاق.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾.

تناهى حَرُّها.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾.

نَبْتٌ ينمو بالحجاز له شَوْكٌ، وهو سمٌّ لا تأكله الدواب، فإذا أكلوا ذلك في النار يُغَصُّون، فَيُسْقَوْنَ الزقُّوم.

وإن اتصافَ الأبدانِ ـ اليومَ ـ بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواحِ وجدانَ المكاشفات (وفقدِ)[1] الأسرارِ أنوارَ المشاهدات، (وفقدِ) القلبِ الإخلاصَ

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

والصدق في الاعتقادات لا يجدي خيراً، ولا ينفع شيئاً ـ وإنما هي كما قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾.

أي: مُتَنَعِّمة، ذات نعمةٍ ونضارةٍ.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

حين وَجَدَتْ الثوابَ على سعيها، والقبول لها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها. هم بأبدانهم في درجاتهم، ولكن بأرواحهم مع الله في عزيز مناجاتهم.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾.

لأنهم يسمعون بالله؛ فليس فيها كلمةُ لغوٍ.

قومٌ يسمعون بالله، وقومٌ يسمعون لله، وقومٌ يسمعون من الله، وفي الخبر: «كنت له سمعاً وبصراً فبي يَسْمَعُ وبي يُبْصِرُ»(١).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

أراد عيوناً؛ لأن العين اسم جنس، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة.

ويقال: تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له ـ اليومَ ـ عيونٌ جارية بالبكاء، وغداً لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

النمارق المصفوفة في التفسير: الطنافس المبسوطة.

الزرابي المبثوثة في التفسير: البُسُط المتفرقة.

وإنما خاطبهم على مقادير فُهومهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

لمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُرِ المرفوعة المشيَّدة قالوا: كيف يصعدها المؤمن؟ فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها تنزل؟ فكذلك تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الوليُّ.

---

(١) رواية الحديث: «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها، وسمعه الذي يسمع به...» أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٤٧٧، ٩/ ٦١٠)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٣٤١).

والحديث بالرسالة القشيرية ص٣١٨ بغير هذه الرواية انظره.

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته ـ سبحانه.

فالقومُ كانوا أصحابَ البوادي لا يرون شيئاً إلا السماءَ والأرضَ والجبالَ والجِمالَ... فأَمَرَهم بالنظر في هذه الأشياء.

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه؛ منها: ما في إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحَمْلِ والركوب، ثم بنَسْلِها، ثم بلحمها ولبنها ووَبَرِها... ثم من سهولة تسخيرها لهم، حتى ليستطيع الصبيُّ أنْ يأخذَ بزِمامها، فتنجرّ وراءه. والإبل تصبر على مقاساة العَطَش في الأسفار الطويلة، وهي تَقْوَى على أن تحمِلَ فوق ظهورها الكثيرَ من الحَمولات... ثم حِرَانُها إذا حقدت، واسترواحُها إلى صوتِ مَنْ يحدوها عند الإعياء والتعب، ثم ما يُعَلِّل المرءُ بما يناط بها من بِرِّها[1].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

لستَ عليهم بمُسَلَّطٍ؛ فذَكِّر ـ يا محمد ـ بما أمرناك به، فبذلك أمرناك.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

إلا مَنْ تولّى عن الإيمان وكفر فيعذبه اللّهُ بالخلودِ في النار.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

إن إلينا رجوعَهم، ثم نجازيهم على الخير والشرّ.

(١) الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) لم ترد.

سورة الفجر

قوله جل ذُكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ ما استولت على قلبِ فقير فأقلقته، وما تمكّنت من سِرّ مُتَيَّم فَشَتَّتْه، وما استولت على روح محبٍّ فرحمته. كلمةٌ قهّارة للقلوب.. ولكن لا لكلّ قلب، كلمةٌ لا سبيل لها لكلِّ عقل، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببَذْلِ أرواحهم فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

الفجرُ انفجارُ الصُّبح وهو اثنان: مستطيلٌ وقصير؛ ففي التفسير: إنه فَجْرُ المحرَّم لأنه ابتداء السنة كلها، وقيل: فجر ذي الحجة.

ويقال: هو الصخور ينفجر منها الماء.

ويقال: أقسم به لأنّه وقتُ عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل: هي عَشْرُ ذي الحجة، ويقال: عَشْرُ المحرم؛ لأن آخرها عاشوراء. ويقال: العَشْرُ الأخيرة من رمضان.

ويقال: هي العَشْرُ التي ذكرها اللّهُ في قصة موسى عليه السلام تمّ به ميعاده بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾.

ويقال: هو «فجرُ» قلوبِ العارفين إذا ارتقوا عن حدِّ العلم، وأسفر صُبْحُ معارفِهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان بما تجلّى في قلوبهم من البيان.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾.

جاء في التفاسير: الشفعُ يومُ النَّحْرِ(١)، والوتر يوم عَرَفَة.

ويقال: آدم كان وتراً فشُفِعَ بزوجته حواء.

وفي خبرٍ: إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبح.

ويقال: الشفع الزوج من العَدَد، والوتر الفَرْدُ من العدد.

---

(١) يوم النحر: اليوم العاشر من ذي الحجة لنحرهم فيه.

ويقال: الشفع تضادُّ أوصاف الخَلْق: كالعلم والجهل، والقدرة والعجز، والحياة والموت. والوتر انفرادُ صفاتِ الله سبحانه عمَّا يضادُّها؛ علم بلا جهلٍ، وقدرة بلا عجزٍ، وحياة بلا موتٍ.

ويقال: الشفعُ الإرادة والنية، والوتر الهِمَّة؛ لا تكتفي بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله ـ لتَقَدُّسِه عن الوَصْلِ والفَصْل.. فبقيت الهِمَّةُ غريبةً.

ويقال: الشفع الزاهد والعابد، لأن لكل منهما شكلاً وقريناً، والوترُ المريْدُ فهو كما قيل:

فريدٌ من الخِلَّانِ في كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

«يسري» يمضي.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾.

«حِجْرِ». لُبٌّ. وجوابُ القَسَم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

ذكر[1] قصص هؤلاء المتقدمين.. إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. أي: شدة العذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

لا يفوته شيءٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾.

﴿**فيقول ربي أكرمني**﴾: أي: شَكَرَه.

﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾. أي: ضيَّق، ﴿**فيقول ربي أهانني**﴾. أي: أذَلَّني. كلا.. ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلانِ للعصيان.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة؛ فلا تُكْرِمون اليتيمَ.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾.

لمًّا. أي شديداً.

---

(١) الآيات من (٨ ـ ١٢) لم ترد.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ .

جمًّا أي كثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ .

أي: قامت القيامة.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي الملائكة بأمره.

ويقال: يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ .

يقال: تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام[1].

وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسانُ.. ولا يَنفَعه التذكُّر، ولا يُقبَلُ منه العُذْرُ.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ .

أي: أطَعتُ ربِّي ونظرت لنفسي.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ .

أي: لا يعذِّب في الدنيا أحدٌ مثلما يعذِّبه الله في ذلك اليوم.. إذا قرئت الذال بالكسر.

أما إذا قرئت بالفتح ﴿لا يعذب﴾ فالمعنى: لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا الكافر.

قوله جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس.

ويقال: المطمئنةُ بالمعرفة: ويقال: المطمئنة بذكر الله.

ويقال: بالبشارة بالجنة. ويقال: النفس المطمئنة: الروح الساكنة.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ .

راضيةً عن الله، مَرْضيةً من قِبَلِ الله.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ .

أي: في عبادي الصالحين.

---

(١) «تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده...» أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/ ٥١٨).

سورة البلد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ تُخبر عن جلالٍ أزليّ، وجمالٍ سرمديّ، جلالٍ ليس له زوال، وجمالٍ ليس له انتقال، جلالٍ لا بأغيارٍ وأمثال، جمالٍ لا بصورةٍ ومثال، وجلالٍ وهو استحقاقُه لجبروته وجمالٍ وهو استيجابُه لملكوته، جلالِ مَنْ كاشَفَه به فأوصافُه فناءٌ في فناء، وجمالِ مَنْ لاطَفَه به فأحوالُه بقاءٌ في بقاء.

قوله جل ذكره: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾.

أي: أُقسِم بهذا البلد، وهو مكة.

﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾

وإنما أُحِلَّتْ له ساعةً واحدةً.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

كلِّ والدٍ وكلِّ مولود. وقيل: آدم وأولاده.

وجواب القسم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

ويقال: أُقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به.. وبَلَدُ الحبيبِ حبيبٌ.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

أي: في مشقة؛ فهو يقاسي شدائد الدنيا والآخرة.

ويقال: خَلَقه في بطن أمه (منتصباً رأسُه) فإذا أذِنَ الله أن يخرج من بطن أمّه تنكّس رأسُه عند خروجه، ثم في القِماط[1] وشدِّ الرِّباط.. ثم إلى الصِّراط هو في الهِياط والمِياط[2].

قوله جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾.

أي: لقوّته وشجاعته عند نَفْسِه يقول:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾.

---

(١) القِماط: خرقة عريضة يُلف بها المولود (ج) أقمطة وقمط.

(٢) يقال: ما زال في هياط ومياط أي في ضجاج وشر وجلبة، وقيل: في دنو وتباعد. (لسان العرب ٧/ ٤٢٤ مادة: هيط).

﴿لبداً﴾ كثيراً، في عداوة محمد ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

أليس يعلم أنَّ الله يراه، وأنه مُطَّلِعٌ عليه؟

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

أي: ألم نخلقه سميعاً بصيراً متكلِّماً.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

ألهمناه طريق الخيرِ والشرِّ.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.

أي: فهلّا اقتحم العقبة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ استفهام على التفخيم لشأنها.

ويقال: هي عَقَبَةٌ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله: وهو فكُّ رقبة؛ أي: إعتاقُ مملوك، والفكُّ الإزالة. وأطعم في يوم ذي مجاعةٍ وقحطٍ وشدَّةٍ يتيماً ذا قرابة، أو ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: لا شيء له حتى كأنّه قد التصق بالتراب من الجوع.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: من الذين يرحم بعضُهم بعضاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

أي: أصحاب اليُمْنِ والبركة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾.

هم المشائيمُ على أنفسهم، عليهم نارٌ مُطْبِقَة؛ يعني أبواب النيران (عليهم مغلقة).

والعقبة التي يجب على الإنسان اقتحامها: نَفْسُه وهواه، وما لم يَجُزْ تلك العقبة لا يفلح و﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هو إعتاقُ نَفْسِه من رِقِّ الأغراض والأشخاص.

ويكون فك الرقبة بأن يهدي مَنْ يفكُّه ـ من رق هواه ونفسه ـ إلى سلامته من شُحِّ نفسه، ويرجعه إليه، ويخرجه من ذُلِّه.

ويكون فكُّ الرقبة بالتَّحرُّزِ من التدبير، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء.

ويقال: يطعم من كان في متربة ويكون هو في مسغبة[1].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي تكون خاتمته على ذلك.

---

(١) المتربة: الفقر الشديد والمسكنة، والمسغبة: المجاعة.

سورة الشمس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِدَم. «الرحمن الرحيم»: إخبارٌ عن بقائه بوصف العَلاءِ والكَرَم.

كاشَفَ الأرواحَ بقولِه: «بسم الله» فهيَّمها، وكاشَفَ النفوسَ بقوله: «الرحمن الرحيم» فتيَّمها؛ فالأرواحُ دَهْشَى في كَشْفِ جلاله، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطْفِ جماله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾.

ضُحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾.

أي: تَبِعَها؛ وذلك في النصف الأول من الشهر.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾.

إذا جلَّى الشمسَ وكَشَفَها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.

أي: يَغْشَى الشمس (فيذهب بضوئها).

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾.

أي وبنائها. ويقال: ومَنْ بناها.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.

أي: وطَحْوها. ويقال: ومَنْ طحاها (أي بسطها أو قسمها أو خلقها).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

ومن سوَّى أجزاءها وأعضاءها.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

أي: بأن خَذَلَها ووَفَّقَها.

ويقال: فجورها: حركتها في طلب الرزق، وتقواها: سكونها بِحُكْمِ القدير.

وقيل: طريق الخير والشر.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.

هذا جواب القَسَم. أي «لقد أفلح من زكاها».

ويقال: مَنْ زكّاه اللّهُ عزّ وجلّ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

أي: دسّاها الله. وقيل: دسّها في جملة الصالحين وليس منهم.

وقيل: خاب مَنْ دسَّ نَفْسَه بمعصية الله. وقيل دسّاها: جعل خسيسةً حقيرةً. وأصل الكلمة دسسها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾: لطغيانها، وقيل: إن صالحاً قد مات، فكَفَر قومُه، فأحياه اللّهُ، فدعاهم إلى الإيمان، فكذّبوه، وسألوه علامةً وهي الناقة، فأتاهم صالح بما سألوا.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾.

«أشقاها» عاقِرُها.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾.

أي: احذروا ناقةَ اللّهِ، واحذروا سقياها: أي لا تتعرّضوا لها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

أي كذّبوا صالحاً، فعقروا الناقة.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾.

أي: أهلكهم بجُرْمِهم «فسوّاها»: أي أطبق عليهم العذاب.

ويقال: سَوَّى بينهم ربُّهم في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾.

أي: أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة.

ويقال: قد أفلح مَنْ دَاوَمَ على العبادة، وخابَ مَنْ قصَّرَ فيها.

وفائدة السورة: أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَه عن الذنوبِ والعيوبِ، ثم عن الأطماع في الأعواض والأغراض، ثم أبْعَدَ نَفْسَه عن الاعتراض على الأقسام، وعن ارتكاب الحرام. وقد خابَ من خانَ نَفْسَه، وأهملها عن المراعاة، ودَنَّسَهَا بالمخالفات؛ فلم يرضَ بعَدَمِ المعاني حتى ضمَّ إلى فَقْرِها منها الدعاوى المظلمة.. فغرقت في بحرِ الشقاء سفينَتُه.

سورة الليل

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمةٌ تُخْبِرُ عن إلهيةِ الله؛ وهي استحقاقُه لنعوتِ المجد والتوحُّد، وصفاتِ العِزّ والتفرُّد؛ فَمَنْ تجرَّدَ في طَلَبِه عن الكسلِ، ولم يستوطن مركبَ العجزِ والفشلِ، ووَضَعَ النظر موضعَه وَصَلَ بدليل العقل إلى عرفانه، ومَنْ بَذَلَ روحَه ونَفْسَه ووَدَّعَ في الطلبِ راحته وأُنْسَه، ولم يُعَرِّجْ في أوطان الوقفة ظفر بحكم الوصل إلى شهود سلطانه، والناسُ فيه بين مُوَفَّقٍ ومخذول، أو مؤيَّدٍ ومردود.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾.

يغشى الأفقَ، وما بين السماء والأرض فيستره بظُلْمتِه.

والليلِ لأصحاب التحيُّر يستغرِق جميعَ أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشد.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

أنارَ وظَهرَ، ووَضح وأسفر.

ونهارُ أهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم، حتى لا يَخْفَى عليهم شيءٌ، فسكنوا بطلوعِ الشمس عن تكلُّف إيقاد السراجِ.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

أي: «من» خَلَقَ الذكر والأنثى؛ وهو الله سبحانه:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

هذا جوابُ القَسَم، والمعنى: إنَّ عملكم لمختلف؛ فمنكم: مَنْ سَعْيُه في طلب دنياه، ومنكم مَنْ سعيهُ في شهواتِ نَفْسِه واتباع هواه، ومنكم مَنْ سعيُه في شهواتِ، ومنكم مَنْ في طَلَبِ جاهِه ومُناه، وآخر في طلب عقباه، وآخر في تصحيح تقواه، وآخر في تصفية ذكراه، وآخر في القيام بحُسْنِ رضاه، وآخر في طلب مولاه.

ومنكم: من يجمع بين سعي النَّفْس بالطاعة، وسَعْي القلب بالإخلاص، وسعي البَدَن بالقُرَب، وسعي اللسان بذكر الله، والقول الحَسَنِ للناس، ودعاء الخَلْقِ إلى الله والنصيحة لهم.

ومنهم مَنْ سعيُه في هلاكِ نَفْسِه وما فيه هلاك دنياه.. ومنهم.. ومنهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ من مالِه، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ مخالفةَ ربِّه..

ويقال: ﴿أعطى﴾ الإنصافَ من نَفْسِه، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ طَلَبَ الإنصافِ لنفسِه..

ويقال: «اتقى» مساخِطَ الله. ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾: بالجنة، أو بالكَرَّةِ الآخرة، وبالمغفرةِ لأهل الكبائر، وبالشفاعة من جهة الرسولِ ﷺ، وبالخَلَفِ من قِبَلِ الله... فسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى: أي نُسَهِّلُ عليه الطاعاتِ، ونُكَرِّهُ إليه المخالفاتِ، ونُشَهِّي إليه القُرَبَ، ونُحبِّبُ إليه الإيمان، ونُزَيِّن في قلبه الإحسان.

ويقال: الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

أما من مَنَعَ الواجبَ، واستغنى في اعتقاده، وكَذَّبَ بالحسنى: أي بما ذَكَرْنا، فسنيسره للعسرى؛ فيقع في المعصية ولم يُدبِّرْها، ونوقف له أسبابَ المخالفة.

ويقال: «أعطى» أعْرَضَ عن الدارين، «واتَّقى» أن يجعل لهما في نفسه مقداراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

يعني: إذا مات.. فما الذين يغني عنه ماله بعد موته؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

لأوليائنا، الذين أرشدناهم. ويقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ بنصيب الدلائل.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

مُلْكاً، نعطيه من نشاء.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾.

أي: تتلظَّى.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾.

أي: لا يُعذَّبُ بها إلّا الأشقى، وهو:

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

يعني: كَفَرَ.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

يُعطى الزكاة المفروضة.

ويقال يَتَطهَّر من الذنوب.

ونزلت الآية في أبي بكرٍ رضي الله عنه. والآية عامة.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾.

حتى تكون هذه مكافأةً له. ولا يفعل هذا ليَتَّخِذَ عند أحدٍ يَداً، ولا يطلب منه مكافأة:

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

أي: ليتقرَّبَ بها إلى الله.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

يَرْضَى اللّهُ عنه، ويرضى هو بما يعطيه.

سورة الضحى

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ لا يُشْبِهُه كُفْوٌ في ذاتِه وصفاتِه، ولا يستفزُّه لَهْوٌ في إثباتِ مصنوعاته، ولا يعتريه سَهْوٌ في عِلْمِه وحكمتِه، ولا يعترضه لَغْوٌ في قوله وكلمته.

فهو حكيمٌ لا يلهو، وعليمٌ لا يسهو، وحليمٌ يُثْبِتُ ويمحو؛ فالصدق قَوْلُه، والحقُّ حُكْمُه، والخَلْقُ خَلْقُه والمُلْكُ مُلْكُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

«والضحى»: ساعةٌ من النهار. أو النهارُ كلُّه يُسَمَّى ضُحًى. ويقال: أقسم بصلاة الضُّحى.

ويقال: الضحى الساعةُ التي كَلَّم فيها موسى عليه السلام.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: ليلة المعراج، و«سجا»: أي سَكَن، ويقال: هو عامٌّ في جِنْسِ الليل.

ويقال: «الضحى» وقت الشهود. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ الذي قال: إنه ليُغَانُ على قلبي[1]..

ويقال: ﴿الليل إذا سجا﴾ حين ينزل اللَّهُ فيه إلى السماء الدنيا ـ على التأويل الذي يصحُّ في وصفه.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

ما قَطَعَ عنك الوحيَ وما أبغضك.

وكان ذلك حين تأخَّر جبريلُ ـ عليه السلام ـ عنه أياماً، فقال أهل مكة: إن محمداً قد قلاه ربُّه. ثم أنزل اللَّهُ هذه السورة.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١ ـ ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧، ٨/ ٢٩٩، ٥١٧، ٩/ ٥٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٤٣) (البغوي ٦/ ١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٦٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

وقيل: احتبس عنه جبريل أربعين يوماً، وقيل: اثني عشر يوماً، وقيل: خمسة وعشرين يوماً.

ويقال: سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذي القرنين وأصحاب الكهف، فوَعَدَ الجوابَ ولم يقل: إن شاء الله.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

أي: ما يعطيك في الآخرة خيرٌ لَكَ مما يعطيك في الدنيا.

ويقال: ما أعطاك من الشفاعة والحوض، وما يُلْبِسُك من لباس التوحيدِ ـ غداً ـ خيرٌ مما أعطاكَ اليومَ.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

قيل: أفترضى بالعطاء عن المُعْطِي؟ قال: لا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.

قيل: إلى عمِّه أبي طالب.

ويقال: بل آواه إلى كَنَفِ ظِلِّه، وربّاه بلطف رعايته.

ويقال: فآواكَ إلى بِساطِ القربة بحيث انفردْتَ بمقامِك، فلم يُشاركْك فيه أحدٌ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

أي: ضللْتَ في شِعابِ مكة، فَهَدَى إليك عَمَّك أبا طالبٍ في حال صباك.

ويقال: «ضالّاً» فينا متحيِّراً.. فهديناك بنا إلينا.

ويقال: «ضالّاً» عن تفصيل الشرائع؛ فهديناك إليها بأن عرّفناك تفصيلها.

ويقال: فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك.

وقيل: «ضالّاً» للاستنشاء فهداك لذلك.

ويقال: «ضالّاً» في محبتنا، فهديناك بنور القربة إلينا.

ويقال: «ضالّاً» عن محبتي لك فعرّفتك أنّي أحِبُّك.

ويقال: جاهلاً بمحلِّ شرفِكَ، فعرّفْتُك قَدْرَكَ.

ويقال: مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

في التفسير: فأغناك بمال خديجة.

ويقال: أغناك عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد.

ويقال: أغناك بالنبوّة والكتاب. ويقال: أغناك بالله.

ويقال: أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداءً؛ بلا سؤالٍ منك.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

فلا تُخِفْه، وارفقْ به، وقرِّبْه.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

أي: إمَّا أن تُعْطِيَه.. أو تَرُدَّه برِفْقٍ، أو وعدٍ.

ويقال: السائلُ عنَّا، والسائلُ المتحيِّرُ فينا - لا تنهرهم، فإنَّا نهديهم، ونكشف مواضع سؤالهم عليهم.. فلاطِفْهم أنت في القول.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فاشكُرْ، وصَرِّحْ بإحسانه إليك، وإنعامه عليك.

سورة ﴿ألم نشرح﴾

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ عَزَّ مَنْ التجأ إليه، وجَلَّ مَنْ توكَّلَ عليه، وفاز في الدنيا والعُقْبى مَنْ تَوَسَّلَ به إليه؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ منه قَرَّبَه ومَنْ شكا إليه حَقَّقَ له مَطْلَبَه، ومَنْ رَفَعَ قصتَّه إليه قَضى مأربَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

أَلَمْ نُوَسِّعْ قَلْبَكَ للإسلام؟ ألم نُليِّنه للإيمان؟

ويقال ألم نوسع صدرك بنور الرسالة؟ ألم نوسِّع صدرك لقَبُولِ ما نورِدُ عليك.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

أي: إثمَكَ قبل النبوّة.

ويقال: عصمناكَ عن ارتكابِ الوِزْرِ؛ فَوضْعُه عنه بأنَّه لم يستوجِبْه قطّ.

ويقال: خفضنا عنك أعباءَ النبوّة وجعلناكَ محمولاً لا متحمِّلاً.

ويقال: قويناك على التحمُّل من الخَلْق، وقوّيناك لمشاهدتنا، وحفظنا عليك ما استحفظت، وحرسناكَ عن ملاحظة الخَلْقِ فيما شرَّفناك به.

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أثقله، ولولا حَمْلُنا عنك لَكُسِرَ.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

بِذِكْرِنا؛ فكما لا تَصِحُّ كلمةُ الشهادة إلا بي، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك.

ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله!

ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وفي الخبر: «لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن»[1] ومعناه: أن العسر بالألف واللام في

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك ٢/٥٢٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/٧١٢)، والطبري في (التفسير ٣٠/١٥١)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/١٠٧) والعجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢١٣)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٢).

الموضعين للعهد ـ فهو واحد، واليُسْر مُنكّرٌ في الموضعين فهما شيئان. والعُسْر الواحد: ما كان في الدنيا، واليسران: أحدهما في الدنيا في الخصب، وزوال البلاء، والثاني في الآخرة من الجزاء وإذاً فعُسْرُ جميع المؤمنين واحد ـ وهو ما نابهم من شدائد الدنيا، ويُسْرُهم اثنان: اليومَ بالكَشْفِ والصَّرْفِ، وغداً بالجزاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾.

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانْصَبْ في الدعاء.

ويقال: فإذا فرغت من العبادة فانصب في الشفاعة.

ويقال: فإذا فرغت من عبادة نَفْسِك فانْصَبْ بقلبك.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

في جميع الأحوال.

ويقال: فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب في الشفاعة.

سورة التين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

اسم «الله» يدلُّ على جلالِ مَنْ لم يَزَلْ، ويُخْبِرُ عن جمالِ مَنْ لم يَزَلْ، ينبه على إقبالِ مَنْ لم يَزَلْ، يشير إلى إفضال من لم يَزَلْ؛ فالعارف شهد جلالَه فطَاش، والصفيُّ شهد جمالَه فعاش، والوليُّ شهد إقباله فارتاش، والمريدُ يشهد إفضالَه فلا يطلب مع كفايته المعاش.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.

أقسم بالتين لما به من عظيم المِنَّةِ على الخَلْقِ حيث لم يجعل فيه النَّوى، وخَلَّصَه من شائب التنغيص، وجعله على مقدار اللُّقْمة لتكمل به اللذَّة. وجعل في «الزيتون» من المنافع مثل الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾.

الجبل الذي كَلَّمَ الله موسى عليه. ولموضعِ قَدَمِ الأحبابِ حُرْمةٌ.

﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

يعني: مكة، ولهذا البلد شرف كبير، فهي بلدُ الحبيب، وفيها البيت؛ ولبيتِ الحبيبِ وبَلَدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

في اعتدال قامتِه، وحُسْنِ تركيب أعضائه. وهذا يدل على أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ ليس له صورة ولا هيئة؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ اشترك فيها الخَلْقُ والحقُّ فالمبالغةُ للحقّ.. كالعلم، فالأعلمُ اللَّهُ، والقدرة: فالأقدَرُ اللَّهُ فلو اشترك الخَلْقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسن في الصورة اللَّهُ... فلمّا قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ عُلِمَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عن التقويم وعن الصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

أي: إلى أرذل العمر وهو حال الخَرَفِ[1] والهَرَم.

---

(١) الخَرَف: فساد العقل من الكبر أو المرض.

ويقال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: إلى النار والهاوية في أقبح صورة؛ فيكون أوَّلُ الآيةِ عامًّا وآخرها خاصًّا بالكفَّار.. كما أنَّ التأويلَ الأولَ ـ الذي هو حال الهَرَم ـ خاصٌّ في البعض؛ إذ ليس كلُّ الناسِ يبلغون حالَ الهَرَم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أي: غير منقوص.

ويقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى حال الشقاوة والكفر إلَّا المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾.

أيها الإنسانُ.. مع كل هذا البرهان والبيان؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

سورة العلق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها يوجِبُ أحدَ أمرين: «إمَّا صَحْواً وإمَّا مَحْواً»؛ صحواً لِمَنْ سمعها بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه، أو محواً لمن سمعها بشاهد المعرفة لأنه يتحيَّر في جلال سلطانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

هذه السورة من أوّلِ ما نَزَلَ على المصطفى ﷺ لما تعرّض له جبريل في الهواء، ونَزَلَ عليه فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. فالناسُ كُلُّهم مريدون ـ وهو ﷺ كان مُرَاداً. فاستقبل الأمر بقوله: «ما أنا بقارىء، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، فقال له: «اقرأ كما أقول لك؛ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾»[1] أي خلقهم على ما هم به.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

العَلَق جمع عَلَقَة؛ كشجَرٍ وشجرة.. (والعَلَقةُ الدمُ الجامد فإذا جرى فهو المسفوح).

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

«الأكرم»: أي الكريم.

ويقال: الأكرم من كلِّ كريم.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

عَلَّمهم ما لم يعلموا: الضروريَّ، والكسبيَّ.

---

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/ ١٣، ٦/ ٢٠٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٨/ ٥٩، ٩/ ٣٧)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ب٧٣ رقم ٢٥٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥١، ٩/ ٦)، وعبد الرزاق في (المصنف ٩٧١٩)، (البغوي ٧/ ٢٦٨)، والحاكم في (المستدرك ٣/ ١٨٣)، والبغوي في (شرح السنة ١٣/ ٣١٧)، وأبو عوانة في (المسند ١/ ١١٠)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ١٣٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٣٦٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٢٢، ٨/ ٧١٥)، وأبو نعيم في (دلائل النبوة ١/ ٦٨)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/ ١١٨) وابن كثير في (التفسير ٨/ ٤٥٨).

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾.

أي: يتجاوز جَدَّه إذا رأى في نفسه أنه استغنى؛ لأنه يَعْمَى عن مواضع افتقاره.

ولم يقل: إن استغنى بل قال: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه، وكان مشاهداً لمحلِّ افتقاره ـ لم يكن طاغياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

أي: الرجوع يوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له؟ ففي الآية هذا الإضمار.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾.

لكان خيراً له؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. كذَّب بالدِّين، وتولَّى عن الهداية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

أي: ما الذي يستحقُّه مَنْ هذه صفته؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة ـ ومَنْ لم يَبْلُغْ حالَ المراقبة لم يَرْتَقِ منه إلى حال المشاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

لَنأخُذَنَّ بناصيته (وهي شَعْرُ مُقَدَّم الرأس) أخْذَ إذلالٍ. ومعناه لنُسَوِّدَنَّ وَجهَهَ.

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

فليدعُ أهلَ ناديَه وأهلَ مجلسه، وسندعو الزبانيةَ ونأمرهم بإهلاكه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

أي: اقتربْ من شهود الربوبية بقلبك، وقِفْ على بِساط العبودية بنَفْسك.

ويقال: فاسجُدْ بنفسِك، واقترِبْ بسِرِّك.

سورة القدر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ تُحضِرُ قلوبَ العلماءِ لتأمُّل الشواهد، وتُسْكرُ قلوبَ العَارفين إذا وردوا المشَاهِد.. فهؤلاء أحضرهم فَبَصَّرَهم، وعلى استدلالهم نصرهم.

وهؤلاء بشرابِ محابِّه أَسكَرَهم، وفي شهودِ جلالِه حَيَّرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

في ليلةٍ قَدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه، في ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ نفوسِهم، ويشهد فيهَا العارفون قَدْرَ معبودهم.. وشتان بين وجودِ قَدْرٍ وشهودِ قَدْرٍ! فلهؤلاء وجودُ قَدْرٍ ولكن قدر أنفسهم، ولهؤلاء شهود قدرٍ ولكن قدر معبودهم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

استفهامٌ على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

أي: هي خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر. هي ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها في مسَامرةٍ وخطاب.. كما قيل:

يا ليلةً من ليالي الدهرِ قابلت فيها بَدْرَها بِبَدْرِ
ولم تكن عن شَفَقٍ وفَجْرِ حتى تولّت وهي بَكْرُ الدهرِ

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾: قيل جبريل. وقيل: مَلَكُ عظيم.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: أي بأمر ربهم

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ﴾: أي مع كل مامورٍ منهم سلامي عَلَى أوليائي.

﴿هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾: أي هي باقية إلى أن يطلع الفجر.

سورة البينة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ تَنَصَّل إليه المذنبون فَغَفَرَ لهم وجَبرَهم: وتوسّلَ إليه المطِيعون فوَصَلَهم ونَصَرَهم.

تعرَّفَ إليه العالِمون فبَصَّرَهم، وتَقَرَّب منه العَارفون فَقَرَّبهم... لكنه ـ سبحانه ـ في جلاله حَيَّرَهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

«منفكين»: مُنْتَهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيِّنة: وهي رسول الله ﷺ، أي لم يزالوا مجتمعين عَلَى تصديقه؛ لِمَا وَجَدوه في كُتُبهم إلى أنْ بَعَثَه الله تعالى. فلمّا بَعَثَه حسدوه وكفروا.

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

أي حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُباً مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: مستوية ليس فيها اعوجاج.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

يعني: القرآن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي موحِّدين لا يُشرِكون بالله شيئاً؛ فالإخلاصُ أَلّا يكونَ شيءٌ من حركاتك وسَكَنَاتك إلّا لله.

ويقال: الإخلاصُ تصفيةُ العملِ من الخَلَلِ.

«حنفاء»: مائلين إلى الحقِّ، عادلين عن الباطل.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ.. وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾: أي دينُ الملّةِ القيمة، والأمة القيِّمة، والشريعة القيِّمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: مقيمين. ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾: الخليقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

أي: خير الخَلْق، وهذا يدل عَلَى أنهم أفضلُ من الملائكة.

قوله جلّ ذكره: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: أي ثوابهم في الآخرة عَلَى طاعاتهم.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أَشجارها الأنهار.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

فلم تَبْقَ لهم مطالبةٌ إلّا حَقَّقَها لهم.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾.

أي: خافَهُ في الدنيا.

والرضا سرورُ القلب بمرّ القضَا.

ويقال: هو سكونُ القلبِ تحت جَرَيان الحُكْم.

سورة الزلزلة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ تأمَّلها بمعانيهَا وَوقَفَ عَلَى ما أُودِعَ فيها رَتَعَتْ أسرارُه في رياضٍ من الأُنس مونِقة، وأينعت أفكارُه بلوائح من اليقين مُشرِقة، فهي عَلَى جَلال الحقِّ شَاهدة، وهي على ما يحيط به الذِّكْرُ ويأتي عليه الحَصْرُ زائدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

أي: أمواتَهَا، وما فيها من الكنوز والدفائن.

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾.

يعني الكافرُ الذي لا يُؤْمِنُ بها أي بالبعث.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾.

يومئذٍ تُخبِرُ الأرضُ:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

أي: إنما تفعَل ذلك بأمر الله.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَشْتَاتًا﴾: متفرِّقين. ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ليُحَاسَبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

فيُقَاسي عناءَه.

سورة العاديات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ غَيورٌ لا يَصْلُح لذكرها إلّا لسانٌ مصونٌ، عن اللُّغْوِ والغيبة، ولا يصلح لمعرفتها إلّا قلبٌ محروسٌ عن الغفلة والغيبة[1] ولا يصلح لمحبتها إلّا رُوحٌ محفوظةٌ عن العلاقة والحجبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾.

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾: الخيلُ التي تعدو[2].

﴿ضَبۡحٗا﴾ أي إذا ضَبحن ضبحاً، والضبحُ: هو صوتُ أجوافها إذا عَدَوْنَ. ويقال: ضبحُها هو شِدةُ نَفَسِها عند العَدْوِ.

وقيل: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾؛ الإبل.

وقيل: أقسم الله بأفراسِ الغزاة.

﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾.

تورى بحوافرها النار إذا عَدَتْ وأصابَتْ سنابِكُها[3] الحجارة بالليل.

ويقال: الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب.

ويقال: هي الأسِنَّة.

﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾.

تُغِير على العدوّ صباحاً.

﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾.

أي: هَيَّجْنَ به غباراً.

﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾.

أي: تَوَسَّطْنَ المكان، أي: تتوسط الخيل بفوارسها جَمْعَ العَدُوِّ.

---

(١) انظر حديث القشيري عن الغيبة برسالته ص٦٩، ٧٠.

(٢) العَدْو: الجري. (٣) السنابك: (ج) السنبك: طرف مقدم الحافر.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.

هذا هو جوابُ القَسَم.

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي لكَفُور بالنعمة.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.

أي: وإنه على كنوده لشهيد.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

أي: وإنه لبخيلٌ لأجل حُبِّ المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

أي: بُعِثَ الموتى.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

بُيِّنَ ما في القلوب من الخير والشرّ.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾.

أفلا يعلم أن اللَّهَ يُجازيهم ـ ذلك اليومَ ـ على ما أسلفوا، ثم قال عَلَى الاستئناف: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾.

ويقال في معنى الكَنُود: هو الذي يَرَى ما إليه مِنَ البَلْوَى، ولا يرى ما هو به مِنَ النُّعْمَى.

ويقال: هو الذي رأسُه على وسادة النعمة، وقَلبُه في ميدان الغفلة.

ويقال: الكَنُود: الذي ينسى النِّعَم ويَعُدُّ المصائب.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، يحتمل: وإنَّ اللَّهَ على حاله لشهيد.

سورة القارعة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ إذا سمعها العاصون نَسُوا زَلَّتهم في جنب رحمته، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتَهم في جنب إلهيته.

كلمةٌ مَنْ سمعها ما غادَرَتْ له شُغْلاً إلّا كَفَتْه، ولا أمراً إلّا أصلحَتْه، ولا ذنباً إلّا غَفَرَتْه، ولا أَرَباً إلّا قَضَتْه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

القارعةُ: اسمٌ من أسماء القيامة، وهي صيغة «فاعلة» من القَرْع، وهو الضربُ بشدَّة. سُمِّيت قارعة لأنها تقرعهم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

تهويلاً لها.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

أي: المُتَفَرِّق... وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضاً.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

أي: كالصوف المصبوغ.

والمعنى فيه: أن أصحابَ الدعاوى وأرباب القوة في الدنيا يكونون ـ في القيامة إذا بُعِثُوا ـ أضعفَ من كلِّ ضعيف؛ لأن القُوى هنالك تسقط، والدعاوى تَبْطُل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾.

مَنْ ثقلت موازينهُ بالخيرات فهو في عيشة راضية؛ أي مَرْضية.

ووزنُ الأعمالِ يومئذٍ يكون بوزن الصحف. ويقال: يخلق بَدَلَ كلِّ جزءٍ من أفعاله جوهراً، وتُوزَنُ الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾.

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات ـ وهم الكفارُ ـ فمأواه هاوية.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

سؤالٌ على جهة التهويل. ولم يَرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزَن، ولكن يُجازَى كلٌّ بحالةٍ مما هو كَسْبٌ له، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكَسْبٍ منه.

سورة التكاثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ تقدَّسَ في آزالِه عن كل مكان، ولم يَحْتَجْ في آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان؛ لا يقطعه حدٌّ فأنّى يجوز في وَصْفِه المكان؟ ولا يقطعه عَدٌّ فأنّى تجوز في وَصْفِه الزيادةُ والنقصان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

أي: شَغَلَكم تَفَاخُرُكم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أَنْ مِتُّم.

ويقال: كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء، وبمن مضى من أسلافهم.

فقال لهم: شَغَلكم تفاخركم فيما بينكم حتى عَدَدْتم أمواتكم مع أحيائِكم. وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةَ الله.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

على جهة التهويل.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.

أي: لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عمّا أنتم فيه من التكذيب.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أراد جميعَ ما أعطاهم اللَّهُ من النعمة، وطالَبهم بالشكر عليها.

ومن النعيم الذي يُسأَلُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع؛ والرُّخَصُ في العبادات.

ويقال: الماء الحار في الشتاء، الماء البارد في الصيف.

ويقال: منه الصحَّةُ في الجسد، والفراغ.

ويقال: الرضاءُ بالقضاء. ويقال: القناعة في المعيشة.

ويقال: هو المصطفى ﷺ.

سورة العصر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها لم يَدَّخِرْ عنها مَالَه؛ لأنَّه عَلِمَ أنه ـ سبحانه ـ يُحْسِنُ مآلَه، ومَنْ عَرَفَها لم يُؤْثِرْ عليها نَفْسَهَ؛ لأنَّه لم يجد بدونها أُنْسَه.

كلمةٌ مَنْ صَحِبَهَا لم يمنعْ عنها روحَه؛ إذ وَجَدَ الحياةَ الأبدية له ممنوحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾.

﴿العصر﴾: الدهر ـ أقسم به.

ويقال: أراد به صلاةَ العصر. ويقال: هو العَشِيّ.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أراد به جنْسَ الإنسان. «والخُسْر»: الخسران.

والمعنى: إن الإنسان لفي عقوبةٍ من ذنوبه. ثم استثنى المؤمنين فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

الذين أخلصوا في العبادة وتواصوا بما هو حقٌّ، وتواصوا بما هو حَسَنٌ وجميلٌ، وتواصوا بالصبر.

وفي بعض التفاسير: قوله: ﴿الذين آمنوا﴾ يعني أبا بكر، ﴿وعملوا الصالحات﴾: يعني عمر.

و ﴿تواصوا بالحقّ﴾ يعني عثمان، و ﴿تواصوا الصبر﴾ يعني عليًّا ـ رضي الله عنهم أجمعين.

والخسرانُ الذي يلحق الإنسان على قسمين: في الأعمال ويتبيَّن ذلك في المآل، وفي الأحوال ويتبيَّن ذلك في الوقت والحال؛ وهو القبضُ بعد البسط، والحجبةُ بعد القربة، والرجوعُ إلى الرُّخَصِ بعد إيثار الأشَقّ والأَوْلَى.

﴿وتواصوا بالحقّ﴾: وهو الإيثارُ مع الخَلْق، والصدقُ مع الحقّ.

﴿وتواصوا بالصبر﴾: على العافية... فلا صبرَ أَتَمُّ منه.

ويقال: بالصبر مع الله.. وهو أشدُّ أقسام الصبر[1].

---

(١) انظر حديث القشيري عن الصبر برسالته ص١٨٣ ـ ١٨٩.

سورة الهمزة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمُ مَنْ لا غَرَضَ له في أفعاله، اسمُ من لا عِوَضَ عنه في جلالِه وجمالِه. اسمُ مَنْ لا يصبِرُ العبدُ عن مختاراً، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ الفقير من دونه قَراراً، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِه فِراراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

يقال: رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزة: أي كثيرُ الهَمْزِ واللَّمْزِ للناس وهو العيب والغيبة.

ويقال: الهُمَزَة الذي يقول في الوجه، واللُّمزة الذي يقول مِنْ خَلْفِه.

ويقال: الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره، واللَّمْزُ باللسان.

ويقال: الهُمَزة الذي يقول ما في الإنسان، واللُّمَزَة الذي يقول ما ليس فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

«جمّع» بالتشديد على التكثير، وبالتخفيف.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.

أي: يُبْقِيه في الدنيا.. كلَّا ليس كذلك:

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.

ليُطْرَحَنَّ في جهنّم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾؟ على جهة التهويل لها.

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ أَلَمُها الفؤاد.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾.

مُطْبَقة.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

«عَمَد»: جمع عماد. وقيل: إنها عُمُدٌ من نارٍ تُمدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم؛ كقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقال: الغِنَى بغيرِ اللّهِ فَقْرٌ، والأُنْسُ بغيره وَحْشَة، والعِزُّ بغيره ذُلٌّ.

ويقال: الفقيرُ مَنْ استغنى بمالِه، والحقيرُ: مَنْ استغنى بجاهِه، والمُفْلِسُ: مَنْ استغنى بطاعته، والذليلُ: من استغنى بغير الله، والجليلُ: من استغنى بالله.

ويقال: بَيَّنَ أن المعرفة إذا اتَّقَدتْ في قلب المؤمن أحرقت كلَّ سُؤْلٍ وأَرَبٍ فيه، ولذلك تقول جهنّمُ ـ غداً ـ للمؤمن: «جُزْ، يا مؤمن.. فإنّ نورَك قد أَطْفَأَ لَهَبي»!

سورة الفيل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمُ غَنِيٍّ مَنْ أطاعَهُ أغناه، ومَنْ خالَفَهُ أَضَلَّه وأعماه.

اسمُ عزيز مَنْ وافقه رَقَّاه إلى الرتبة العليا، ومَنْ خالَفَهُ ألقاه في المحنة الكبرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

أَلَمْ يَنْتِهِ إليكَ فيما أنزل عليك عِلْمُ ما فَعلَ ربُّكَ بأصحاب الفيل؟:

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيص اللهِ البيتَ العتيقَ[1] بالحِفْظِ والكِلاءة[2]. وذلك: أنَّ أبرهة[3] ـ مَلِكَ اليمن ـ كان نصرانياً، وبنى بيعةً لهم بصنعاء، وأراد هَدْمَ الكعبة ليصرفَ الحجَّ إلى بيعتهم.

وقيل: نزل جماعةٌ من العرب ببلاد النجاشي، وأوقدوا ناراً لحاجةٍ لهم، ثم تغافلوا عنها ولم يُطْفِئوها، فهبّت الريحُ وحَمَلَتْ النارَ إلى الكنيسة وأحرقتها، فَقَصَد أبرهةُ الكعبةَ لِيَهْدِمها بجيشه.

فلمّا قَرُبَ من مكة أصاب مائتي جَمَلٍ لعبد المطلب، فلمّا أُخْبِرَ بذلك ركب إليهم، فَعَرَفَهُ رجلان، فقالا له:

ارجعْ.. فإنَّ المَلِكَ غضبان.

فقال: واللاتِ والعُزَّى لا أَرْجِعُ إلّا بإبلي.

فقيل: لأبرهة: هذا سَيِّدُ قريشٍ ببابِك؛ فأَذِنَ له، وسأله عن حاجته؛ فأجاب أبرهة: إنها لك غداً، إذا تقدَّمْتُ إلى البيت.

فعاد عبد المطلب إلى قريش، وأخبرهم بما حدث، ثم قام وأخذ بحلْقِه باب الكعبة، وهو يقول:

---

(١) البيت العتيق: الكعبة. (٢) الكلاءة: الحراسة والحفظ.

(٣) هو أبرهه بن الصباح من ملوك اليمن في الجاهلية، حبشي لا صلة له بالعرب، ذكر ابن الأثير ـ في خبر الفيل ـ أنه حين تكلم مع عبد المطلب كان بينهما ترجمان.
الأعلام ١/٨٢.

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يمـ ـنعُ رَحْلَه فامنعْ حَلالَك
لا يَغْلِبَنَّ صليبُهم ومِحالُهم عَدْواً مِحالَك
إنْ يدخلوا البلدَ الحرا مَ فأمرٌ ما بدالك

فأرسل اللّهُ عليهم طيراً أخضرَ من جهة البحر طِوالَ الأعناق، في مناقر كل طائرٍ حَجَرٌ وفي مخلبه حجران.

قيل: الحجَرةُ منها فوق العدس دون الحمص.

وقيل: فوق الحمص دون الفستق، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها.

وقيل: مُخَطَّطةٌ بالسَّواد. فأُمْطِرَتْ عليهم، وماتوا كُلُّهم.

وقيل: كان الفيلُ ثمانيةً؛ وقيل: كان فيلاً واحداً.

وفي رواية: إنه كان قبل مولده ﷺ بأربعين سنة.

وقيل: بثلاثة وعشرين سنة. وفي رواية «وُلِدْتُ عامَ الفيل»(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.

أي: مَكرَهم في إبطال.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

﴿أَبَابِيلَ﴾: مجمعةً ومتفرِّقةً.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾.

قيل بالفارسية: سنگل أو گل ـ أي طينٌ طُبِخَ بالنار كالآجُر.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

﴿كَعَصْفٍ﴾: كأطرافِ الزرع قبل أن يدرك. «مأكول» أي ثَمرَهُ مأكول.

ويقال: إذا كان عبد المطلب ـ وهو كافرٌ ـ أخلص في التجائه إلى الله في استدفاع البلاءِ عن البيت ـ فاللّهُ لم يُخَيِّبْ رجاءَهُ. . ، وسَمِعَ دُعاءَهُ. . . فالمؤمِنُ المخلصُ إذا دعا ربَّه لا يردُّهُ خائباً.

ويقال: إنما أُجيب لأنَّه لم يسألْ اللّهَ لِنَفْسِه، وإنما لأجْلِ البيت. . وما كان لله لا يضيع.

---

(١) أخرجه الترمذي (مناقب، ٢)، وأحمد بن حنبل ٤/ ٢١٥.

سورة قريش

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم»: الباء في «بسم» تشير إلى براءة سِرّ الموحدِّين عن حسبان الحِدثان[1]، وعن كلِّ شيءٍ ممَّا لم يكن فكان، وتشير إلى الانقطاع إلى اللّهِ في السَّرّاء والضرّاءِ، والشِّدَّةِ والرخاء.

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب.

والميم تشير إلى مِنَّةِ اللّهِ عليهم بالتوفيق لِمَا تحقَّقُوا به من معرفته، وتخلَّقوا به مِنْ طاعته.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾.

«الإيلاف»: مصدر آلَفَ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف.. وهو أَلِفَ إلفاً.

والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريشٍ، أي لِيَأْلَفوا رحلتهم في الشتاء والصيف.

وكانت لهم رحلتان للامتيار[2]: رحلةٌ إلى الشام في القيظ[3]، ورحلة إلى اليمن في الشتاءِ والمعنى: أنعم اللّهُ عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ كأنه أَعْظَمَ المِنَّةَ عليهم. وأَمَرَهم بالعبادة:

﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾.

فليعبدوه لِمَا أنعم به عليهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسولُ ﷺ[4].

---

(١) الحِدثان: حدثان الأمر والشباب: أوله وابتداؤه.

(٢) امتار لأهله: تطلَّب لهم الميرة، أتاهم بالميرة وهي الطعام من الحب والقوت.

(٣) القيظ: شدة الحر أو صميم الصيف.

(٤) قال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/٢٣، ٨/٥٥ =

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

حين جعَلَ الحرَمَ آمِناً، وأجارَهم من عدوِّهم.

ويقال: أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلْبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن.

وَوجْهِ المِنَّةِ في الإطعام والأمان هو أن يتفرّغوا إلى عبادة الله؛ فإِنَّ مَنْ لم يكن مكْفِيَّ الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة، ولا تساعده القوة ولا القلبُ ـ إلّا عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فقدَّم الخوف على جميع أنواع البلاءِ.

= ١٠٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢/١٩٨)، وابن كثير في (التفسير ٢/٣٤٤) والقرطبي في (التفسير ٣/٢٦٤، ٧/٢٦٣، ٢٠/٢٠٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٥٨٠، ١١/١٩٤).

سورة الدين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ سماعُها غِذاءُ أرواحِ المحبِّين، ضياءُ أسرار الواجدين، شفاءُ قلوبِ المُتيَّمين؛ بلاءُ مُهج المساكين، دواءُ كلِّ فقيرٍ مسكين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾.

نزلت الآية على جهة التوبيخ، والتعجُّبِ من شأن تظلُّم اليتيمِ من الكفار.

فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، وبالحساب والجزاء؟

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾.

يدفعه بجفوة، ويقال: يدفعه عن حقّه.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

أي: لا يَحُثُّ على إطعام المسكين، وإنما يدعُّ اليتيم؛ لأنَّ اللّهَ تعالى قد نزع الرحمةَ من قلبه «ولا تنزع الرحمة إلّا من قلبِ شقيّ»(١).

وهو لا يحث على طعام المسكين، لأنه في شُحِّ نَفْسِه وأَمْرِ بُخْلِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

السّاهي عن الصلاة الذي لا يُصَلِّي. ولم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون.. ولو قال ذلك لكان الأمرُ عظيماً.

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٢٣)، وأبو داود في (السنن ٤٩٤٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٣١٠، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٢/٣)، والبخاري في (الأدب المفرد ٣٧٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٨/٣٣٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٦٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٢٠٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٩٧٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٤٧٨)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٧/١٨٣)، والعجلوني في (كشف الخفا ٢/٥٢٧).

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾: أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس ـ لا إخلاصَ لهم.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

الماعون: مثل الماء، والنار، والكلأ، والفأس، والقِدْر وغير ذلك من آلةِ البيت.

ويدخل في هذا: البُخْلُ، والشُّحُ بما ينفع الخَلْقَ مما هو مُمْكِنٌ ومُسْتَطاع.

سورة الكوثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاقِ عُلُوِّه في آزالِه.

اسمٌ عزيزٌ أَعَزَّ مَنْ شاء بأفضالِه وإقبالِه؛ وأَذَلَّ أعداءه بسلاسله وأغلالِه، والتخليدِ في جحيمِه وأنكالِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: أي الخبر الكثير. ويقال: هو نَهْرٌ في الجنة.

ويقال: النبوَّةُ والكتابُ. وقيل: تخفيف الشريعة.

ويقال: كثرةُ أُمَّتِه.

ويقال: الأصحابُ والأشياع. ويقال: نورٌ في قلبه.

ويقال: معرفته بربوبيته.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

أي صَلِّ صلاةَ العيد ﴿وَٱنْحَرْ﴾ النُّسُك.

ويقال: جمع له في الأمر بين: العبادة البدنية، والمالية.

ويقال «وانحر» أي استقبِلْ القبلة بنحرك. أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك.

ويقال: ضَعْ يمينك على يسارك في الصلاة واجعلها تحت نَحْرِك.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

أي: لا يُذْكَرُ بخيرٍ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير.

سورة الكافرون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ آمَن بها أَمِنَ مِنْ زوال النُّعمى، وحَظِيَ بنعيم الدنيا والعُقبى، وسَعِدَ سعادةً لا يَشقى، ووَجَدَ مُلكاً لا يَفْنى، وبَقِيَ في العزِّ والعُلَى.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

من أصنامكم.

﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

«ما» أعبد أي «من» أعبد.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾.

في زمانكم.

﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

أي: لكم جزاؤكم على دينكم، ولي الجزاءُ على ديني.

والعبودية[1] القيام بأمره على الوجه الذي به أَمَرَ، وبالقَدْر الذي به أَمَرَ، وفي الوقت الذي فيه أَمَر.

---

(١) القشيري هنا يشير إلى العبودية لكن الآيات تتحدث عن العبادة لكن هناك صلة وثيقة بينهما وبين العبودة وهذا يتضح من خلال حديث القشيري بالرسالة عن العبودية قال: سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من العبادة فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة، فالعبادة للعوام المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخواص الخواص وسمعته يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له حق عين اليقين، والعبودة لمن حق اليقين وسمعته يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة. (الرسالة القشيرية ص١٩٧، ١٩٨).

ويقال: صِدْقُ العبودية في تَرْكِ الاختيار، ويظهر ذلك في السكون تحت تصاريف الأقدار من غير انكسار.

ويقال: العبودية انتفاء الكراهية بكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفَك مولاك.

سورة النصر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ كريمٌ يُبْصِرُ ويَسْتُرُ، ويَعْلمُ ويَحْلُم، ويمدح ولا يَفْضَح، ويعفو عن جميع ما يجترم العبدُ ويصفح؛ يَعْصَى العبدُ على التوالي، ويَغْفرُ الحقُّ ولا يُبالي.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ، و﴿الفتح﴾ فتح مكة.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

يُسْلِمون جماعاتٍ جماعاتٍ.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

أَكْثِرْ حَمْدَ ربِّكَ، وصلِّ له، وَقَدِّسْه.

ويقال: صَلِّ شكراً لهذه النعمة.

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ وسَلْ مغفرته.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

لِمَنْ تاب؛ فإنه يقبل توبته.

ويقال: نصرة الله ـ سبحانه ـ له بأنْ أفناه عن نَفْسِه، وأبعد عنه أحكامَ البشرية، وصفَّاه من الكدورات النفسانية. وأمَّا «الفتح»: فهو أنْ رقَّاه إلى محلِّ الدنو، واستخلصه بخصائص الزلفة، وألبسه لِباسَ الجمع، واصطلمه عنه، وكان له عنه، ولنَفْسِه ـ سبحانه ـ منه، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ، وعَرَّفه ـ من كمال معرفته به ـ ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشاً إليه.

سورة المسد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة جبّارة للمذنبين، تجبر أعمالَهم، وتحقّق آمالَهم، وهي للعارفين تُصَغّر في أعينهم أحوالَهم، وتُكَمّل ـ عن شواهدِهم ـ امتحاءهم واستئصالهم، وتحقّق لهم ـ بعد فنائهم عنهم ـ وصالهم.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

أي: خَسِرَت يداه.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

ما أغنى عنه مالُه ولا كَسْبُه الخبيثُ ـ شيئاً.

وقيل: ﴿ما كسب﴾: وَلَدُه.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

يلزمها إذا دَخَلَها؛ فلا براحَ له منها. وامرأتُه أيضاً سَتَصْلَى النارَ معه.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

«مَسَدٌ» شيءٌ مفتول، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريقِ رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويقال: سُحْقاً لِمَنْ لا يعرف قَدْرَكَ ـ يا محمد. وبُعْداً لِمَنْ لم يشهد ما خصصناكَ به مِنْ رَفْع محلِّك، وإكبارِ شأنِك.. ومَنْ ناصبَكَ كيف ينفعه مالُه؟ والذي أقميناه لأجلِكَ وقد (أساء)[1] أعماله.. فإنَّ إلى الهوانِ والخِزْيِ مآله، وإنَّ على أقبحِ حالٍ حالَ امرأتِه وحالَه.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

سورة الإخلاص

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة عَزَّ لسانٌ ذَكَرَها، وأعَزُّ منه قلبٌ عَرَفها، وأعزُّ من هذا رُوحٌ أحَبَّها، وأعزُّ من هذا سِرٌّ شهدها.

ليس كلُّ مَنْ قصدها وَجَدَها، ولا كلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

لمَّا قال المشركون: أُنسُبْ لنا ربَّك. أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فمعنى «هو» أي: الذي سألتم عنه «هو» الله. ومعنى «أحد» أي: هو أحدٌ.

ويقال: «هو» مبتدأ، «والله» خبره و«أحد» خبرٌ ثانٍ كقولهم: هذا حلوٌ حامض.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

﴿الصمد﴾: السيِّدُ الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، ويُقْصَدُ إليه في المطالب. ويقال: الكاملُ في استحقاق صفات المدح.

ويرجِّح تحقيقُ قولِ مَنْ قال: إنه الذي لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا.(. . .)[1] في ذاته.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

ليس بوالدٍ ولا مولود.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

تقديره لم يكن أحدٌ كفواً له.

و«أحد» أصله وَحْدٌ، ووِحَدٌ، وواحد بمعنًى، وكونه واحداً: أنه لا قسيمَ له ولا شبيهَ له ولا شريكَ له.

ويقال: السورة بعضها تفسيرٌ لبعض؛ مَنْ هو الله؟ هو الله. مَنْ الله؟ الأحد، مَنْ الأحد؟ الصمد، مَنْ الصمد؟ الذي لم يلد ولم يولد، مَنْ الذي لم يلد ولم يولَد؟ الذي لم يكن له كفواً أحد.

---

(١) بياض في الأصل.

ويقال: كاشَفَ الأسرارَ بقوله: «هو». وكاشَفَ الأرواحَ بقوله: «الله» وكاشَفَ القلوبَ بقوله: «أحد». وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة.

ويقال: كاشَفَ الوالهين بقوله: «هو»، والموحِّدين بقوله: «الله» والعارفين بقوله: «أحد» والعلماء بقوله: «الصمد»، والعقلاء بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.. إلى آخره.

ويقال: لمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أمَرَ نبيَّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. أي ذُبَّ عني ما قالوا، فأنت أولى بذلك. وحينما بسطوا لسان الذمِّ في النبيِّ ﷺ تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم، فقال: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢] وقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] أي أنا أذبُّ عنك؛ فأنا أولى بذلك منك.

ويقال: خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله: «هو» فاستقلوا، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال: «الله»، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم.

فقال: «أحدٌ» ثم لمن نزل عنهم فقال: «الصمد».

ويقال: الصمدُ الذي ليس عند الخَلْقِ منه إلا الاسم والصفة.

ويقال: الصمدُ الذي تقدَّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراك بَصَرهم له، وعن إشرافِ معارفهم عليه.

ويقال: تقدَّسَ بصمديته عن وقوف المعارف عليه.

ويقال: تنَزَّه عن وقوف العقول عليه.

سورة الفلق

قوله جل ذكره: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا تجلَّى لقلبٍ فإن لاطفَهُ بجماله أحياه، وإن كاشفَه بجلاله أباده وأفناه؛ فالعبدُ في حالتي: بقاءٍ وفناءٍ، ومحوٍ وإثباتٍ، ووَجْدٍ وفَقْدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾.

أي امتنع واعتصم بربِّ الفَلَقَ. والفلقُ الصُّبْحُ.

ويقال: هو الخَلْقُ كلُّهم وقيل الفَلَقُ وادٍ في جهنم.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

أي من الشرور كلِّها.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

قيل: الليلُ إذا دخَلَ. وفي خبرٍ، أنه ﷺ أخذ بيد عائشة ونَظَرَ إلى القمر فقال: «يا عائشة، تَعَوَّذِي بالله من شرِّ هذا فإنه الغاسقُ إذا وقب»[(١)].

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾.

وهن السواحر اللواتي ينفخن في عُقَد الخيط (عند الرُّقية)[(٢)] ويوهمنَّ إدخال الضررِ بذلك.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق.

وفي السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله. ومَنْ صَحَّ توكُّله على الله فهو الذي صحَّ تحقُّقُه بالله، فإذا توكَّلَ لم يُوَفِّقْه اللَّهُ للتوكُّلِ إلَّا والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكَّلَ به عليه؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دَفْعِ البلاء عنه ـ فإن أخَذَ في التحرُّز من تدبيره وحَوْله وقُوَّته، وفَهْمِه وبصيرته في كلِّ وقتٍ استراح من تعب تردُّدِ القلبِ في التدبير، وعن قريبٍ يُرَقَّى إلى حالة الرضا.. كُفِيَ مُرَادَه أم لا. وعند ذلك الملكُ الأعظم، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا.

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ٢٠٦)، والطبري في (التفسير ٣٠/ ٢٢٧).

(٢) الرقية: كلام يطلب به شفاء المريض ونحوه (ج) رُقًى.

سورة الناس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله الذي قصرت عنه العقولُ فوقفت، وعَجَزت العلومُ فتحيَّرت، وتقاصَرَت المعارفُ فَخَجِلَت، وانقطعت الفُهُومُ فدهشت.. وهو بنعت علائِه ووصفِ سنائه وبهائه وعِزِّ كبريائه يُعْلَمُ ولكنَّ الإحاطةَ في العلمِ به مُحالٌ، ويُرَى ولكنَّ الإدراكَ في وصفه مستحيلٌ، ويُعْرَف ولكنَّ الإشرافَ في نعته غير صحيح.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

أعتصِمْ بربِّ الناسِ خالقِهم وسيِّدِهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

أي مالكهم جميعهم.

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾.

القادِر على إيجادهم.

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾.

من حديثِ النَّفسِ بما هو كالصوتِ الخفيِّ.

ويقال: مِنْ شرِّ ذي الوسواس.

ويقال: من شرِّ الوسوسة التي تكون بين الجِنَّةِ والناس.

«والخنَّاس» الذي يغيب ويخنس عن ذِكْرِ الله. وهو من أوصاف الشيطان.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

قيل: «الناس» يقع لفظها على الجنِّ والإنسِ جميعاً ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فسمَّاهم نفراً، وكما قال:

﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فسمَّاهم رجالاً.. فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، والشيطانُ الذي له تسلُّطٌ على الناسِ كالوسواس؛ فللنَّفسِ من قِبَلِ العبد هواجسُ، وهواجِسُ النَّفسِ ووساوسُ الشيطانِ يتقاربان؛ إذ إن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة في الدين أو

إلى ارتكاب المعصية، أو إلى الخصال الذميمة ـ فهو نتيجة الوساوس والهواجس.

وبالعلم يُمَيَّزُ بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوساوس[١].

(ومما تجب معرفته)[٢] أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإن خالَفْتَه يَدَعْ ذلك (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . .)[٣] غير مختلفة.

تم الكتاب بعونه تعالى

---

(١) قال القشيري عند حديثه عن الخواطر بالرسالة: والخواطر خطابات ترد على الضمائر، وقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق وجملة ذلك من قبيل الكلام، فإذا كان من الملك فإنما يُعلم صدقة بموافقة العلم. (الرسالة القشيرية ص٨٣، ٨٤).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) بياض في الأصل.

فهرس المحتويات

سورة فاطر

سورة يس

سورة الصافات

سورة صٓ

سورة الزمر